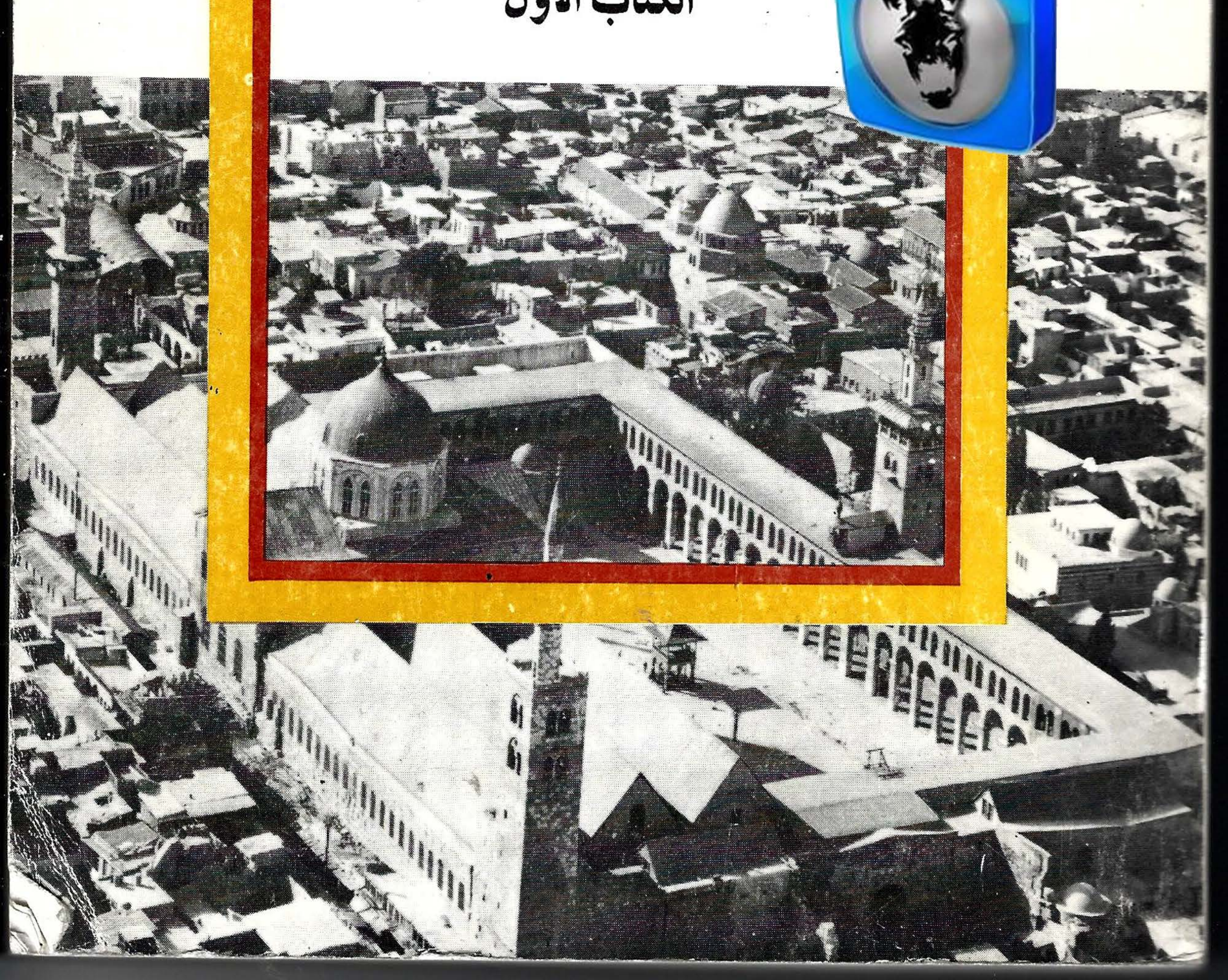
عدنان المُلّوحي

الطريق إلى دمشق

مذكرات

الكتاب الاول



الطريق إلى دمشق

مُذكرات

عدنان الملّوحي

الطريق إلى دمشق

مُذكَرات

«الكتابُ الأول»

١

الطبعة الثانية

دمشق ١٩٩٢

● الطريق إلى دمشق (مذكرات)
● عدنان الملوحي
● (١٤ × ٢٠) ١٠٠٠ /٥/ ١٩٩٢
● دار شمأل للطباعة والنشر
شارع المتنبي ، ص.ب ٣٢٨٢
هاتف ٢٣٩٩٧٣ تلكس ٤١١٤١٧ SADEI
دمشق ـ سورية
● الطباعة : مطابع الجمعية التعاونية للطباعة بدمشق

متى استعبدتم الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ...!!!
عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

★ ★ ★ ★ ★

الإهـــــداء

إلى الحجارة التي تنطق بالحق في أيدي الأطفال العرب في الأراضي العربية المحتلة!!

إلى الحجـارة .. التي ترغم الصهيـونيـين النـازيـين الجـدد ، كل يوم ، على مراجعـة حساباتهم ، بعد أن ضربوا عرض الحائط بكل القرارات الدولية والمؤتمرات والمبادرات السياسية .

أهدي هذه المذكرات وأنا أتساءل متى كانت الحجارة في أيدي أطفال فلسطين أمضى وأقوى من كل السلاح الأمريكي في أيدي وحوش البشر

«عدنـــان»

المحتـــــوى

☆ ☆ ☆

مقدمة الطبعة الثانية

... عندما وصلتني عدة نسخ من مذكراتي في طبعتها الأولى عام ١٩٩٠ لم أكن أتوقع وجود أخطاء مطبعية كثيرة وفادحة وفاحشة فيها ، ولكني لم أكد أقلب صفحاتها حتى أصبت بالحزن الشديد والأسى وخيبة الأمل ، وكأن كل جهدي الذي بذلته في هذه المذكرات قد ذهب هدراً ، لأنني يمكن أن أتحمل الخطأ في كل شيء إلا في الكتاب ، فكيف إذا كان في كتاب أنا صاحبه ، وكانت الأخطاء فيه بهذه الكثرة التي شوهت كثيراً من معانيه .. ووجدت أن من الطبيعي وقد حدث ما حدث ، تدارك هذه الأخطاء وتصحيحها ، كما وجدت أن من المناسب أيضاً إعادة المذكرات في هذه الطبعة الثانية المصححة والمنقحة إلى اسمها الأول الذي اخترته لها وهو : (الطريق إلى دمشق) بدلاً من الاسم الذي صدرت به وهو : « بين مدينتين من حمص إلى الشام » لأنني أكون بذلك قد تداركت أمرين ، الخلاص من الأخطاء الكثيرة والفادحة والفاحشة والخلاص أيضاً من الاسم الذي التصقت به وبالمذكرات هذه الأخطاء !!

... لابد من أن أضرب بعض الأمثلة على الأخطاء الكثيرة التي وقعت في الطبعة الأولى من مذكراتي ، ولو أردت إثباتها كلها لاحتجت إلى كتاب جديد يمكن أن نطلق عليه اسم (الأخطاء) ، وأكتفي من كل ذلك بالإشارة إلى هذه الأمثلة ، فكلمة (سدى) ص ٤١ س ١٢ ظهرت (سداً) كانني كنت أتحدث عن سد الفرات أو السد العالي ، كذلك جملة : (أما آن لهذا الفارس أن يترجل) ظهرت : (أما الآن ...) ص ٣٧٦ س ٢ ، وجملة : (وتبلغ بي السعادة أوجها ..) ظهرت : (..أوجهاً ..) ص ٣٧٤ س ١ ، وجملة : (ورأيته رأي العين) وهي صحيحة ووردت عدة مرات في المذكرات ، (ورأيته رُؤى العين) ..

وهكذا كان حالنا مع الأخطاء الكثيرة الأخرى والتي لا تكاد تحصى ، وقامت دار النشر الدمشقية (شمأل) مشكورة مبرورة بتصحيحها كلها ، حتى خلت ، في الحقيقة ، من كل خطأ وشائبة ، كما قامت باصدار هذه الطبعة الجديدة والمصححة والأنيقة ، فردت لهذه المذكرات بريقها وآلقها وعافيتها وصحتها !!

. لقد تعلمت من تجربتي ومحنتي في الطبعة الأولى أن أصحح كتبي بيدي وأشرف عليها بنفسي قبل أن ألقي بها أو تلقي بها دار النشر إلى الآلة الطابعة ، وأن لا أعتمد في هذا العمل الخطير والكبير والجليل أيضاً على أحد ، لأنني أدرى بأخطائي والأخطاء المطبعية من غيري ، فقد عشت معها ومع الكتب والصحف أكثر سنوات عمري ، وربما عشت معها بقية هذا العمر ..!!

دمشق ١٩٩٢

« عدنان ... »

تقديم

... الطريق إلى دمشق

... حياة كل إنسان، مهما كانت مرتبته الاجتماعية والسياسية، تستحق أن تكتب وتقرأ، فكيف إذا كانت حياة إنسان استطاع أن يشق طريقه إلى التحرر الفكري والسياسي، رغم كل ما أحاط به من عقبات..؟؟..

.. تلك هي حياة أخي عدنان في كتابه : « الطريق إلى دمشق » ... هذا الكتاب الذي يضم مذكراته عن حياته ملخصة في ثلاث قضايا .

القضية الأولى: السيرة الذاتية

... وهو في حديثه عن حياته في مظهرها الشخصي والعائلي، صادق كل الصدق، دقيق كل الدقة: أسرة مستورة رقيقة الحال، أقرب إلى الحاجة، وإن لم تحتج إلى أحد.!!

... أب (الشيخ الإمام) أقرب إلى التحرر والتفتح الذهني، وهو شيخ وإمام المسجد النوري الكبير في حمص.!!

... شاب صغير.. يدفع دفعاً إلى لبس عمامة وجبة وأداء وظيفة إمام، ولكنه يثور على العمامة والجبة ويريد أن يكون صحفياً ناجحاً..!!

حي شعبي (جورة الشياح) في مدينة حمص، يضم أشتاتاً من الناس، ينقل إليك بعض أخلاقهم وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم، ولا سيما أولئك الذين كانوا يؤيدون «هترر» هتلر، خلال فترة الحرب العالمية الثانية.!!

... وهذا الشاب الصغير، يستطيع بعد نضال طويل أن يكون صاحب جريدة تقدمية، في العاصمة دمشق، تدعو إلى الحرية والديمقراطية والاشتراكية، دون أن يرتبط ارتباطاً مباشراً بفئة أو حزب...

... وأخيراً كهل متشرد في العالم، يسعى إلى قوته وقوت أولاده، ويدفع ضريبة دعوته إلى الحرية والديمقراطية والاشتراكية، وحق الشعب في الخبز والعلم والحرية والدواء.!!

... هذا الإنسان الذي يمثل الطليعة الصغيرة من المتحررين الذين ادركوا في وقت مبكر، حاجة الشعوب عامة، وحاجة شعبهم خاصة إلى الحرية والديمقراطية والاشتراكية، ينقل إليك في مذكراته المراحل التي مرت فيها حياته بكل ما فيها من مرارة، أو حلاوة، في صدق قلّ أن تجده في كثير من المذكرات...

القضية الثانية: القضية العربية

... وصاحب المذكرات، مؤمن عميق الايمان بحق شعبه في الحرية والوحدة العربية والاشتراكية، ولكنه يعلم حق العلم، أن الاستبداد عدو الحرية والوحدة والاشتراكية، فهو لذلك يفضح في شدة وصدق، أعداءها، ويدافع عنها ويدل على الطريق إليها، وهو طريق الشعب الذي ينبغي أن لا تكبله قيود الدكتاتورية والرجعية والاستغلال.!!

... لقد رأى، منذ طفولته، الثوار في بيت ابيه الشيخ الامام، وظل مخلصاً ومؤمناً بـاهداف هؤلاء الثوار، لم يخن قطّ دماءهم التي سفحوها دفاعاً عن حرية وطنهم وتقدمه في كل مكان من بلادنا ومن وطننا العربي الكبير، ومن هذا العالم الأكبر.!!

... لقد عاش الكاتب مرحلة الاستعمار الفرنسي، وراى بام عينه ما عاناه شعبه من العسف والاضطهاد، فثار على هذا الاستعمار، وايد كل الوطنيين والأحرار الذين ناضلوا من اجل تحرير بلادهم، سورية، فلما تحررت اراد أن يكون حكامها وقادتها في مستوى المهمة الوطنية الجديدة؛ في مستوى الجهاد الأكبر، في ظلال الحرية، بعد انتهاء الجهاد الاصغر، في الكفاح والنضال من اجل الاستقلال؛ فهو وطني في مرحلة ما قبل الجلاء والاستقلال، وهو وطني وتقدمي في مرحلة ما بعد الاستقلال، والوطنية صفة ملازمة للتقدمية،والتقدمية وطنية في ابرز صور الوطنية وارقاها!!

القضية الثالثة: القضية الانسانية

... والمذكرات في هذا الجانب الإنساني والأممي، عالمية الدعوة، إنسانية الآفاق، والكاتب يلح كثيراً في مذكراته على وجوب النضال في سبيل الحياة، وهو يدعو إلى إنسانية تذوب فيها العنصرية والطائفية، والتفاخر بالعروق والانساب والفروق، وهو مؤمن بالحرية والديمقراطية وضمان الحياة الحرة والكريمة للشعوب وللإنسان في شرف وكرامة وحرية... وهو يحمل على الانقلابات والدكتاتوريات ويحملها مسؤولية ما يعانيه العالم من حروب واستبداد واستغلال وتخلف وتاخر..!! وهو يؤيد المعسكر الديمقراطي الذي تالف خلال الحرب العالمية الثانية، ثم هو يؤيد المعسكر الاشتراكي، بعد إنتهاء الحرب، وعلى راسه الاتحاد السوفياتي، هذا المعسكر الذي يدعو إلى السلام ويدعم كفاح الشعوب المستضعفة في سبيل الحرية والتقدم وحقها في تقرير مصيرها... وهو شديد الحملة على اعداء الشعوب، على دول المحور في الحرب العالمية الثانية، وعلى ورثة هؤلاء الأعداء بعد انتهاء الحرب.!!

... والحق ان هذه المذكرات صورة ناطقة عن النضال في سبيل الحياة الكريمة، وعن النضال الوطني والقومي في سبيل الوحدة والديمقراطية والاشتراكية، وعن النضال الأممي في سبيل السلام والتقدم والحضارة، وهذه المذكرات الطريق إلى دمشق. مع كل هذا، ترتدي ثوباً زاهياً، من الدعابة الحلوة والفكاهة الطريفة والحارة بين حين وحين، وماذا يريد القارىء غير أن يكون الكاتب إنساناً...، رغم كل العقبات التي وقفت في طريقه، وطريق شعبه وامته والإنسانية باسرها؟؟ كما اننا لا ننسى ان هذه المذكرات تحكي مرحله مهمة من تاريخنا القومي والوطني المعاصر.!!

... ذلك هو رايي، في هذه المذكرات.... وهو راي اخ وشقيق لصاحبها، يرجو ان يكون راياً موضوعياً وعادلاً، وإنه لموضوعي وعادل..!!

«عبد المعين الملوحي»

دمشق

مقدمة الكتاب

.. لا بد لكل كتاب من مقدمة تعرف به، وتقرب القراء إليه، وتوطد علاقتهم معه.. حتى اكتسبت مقدمة كل كتاب، منزلة العرف والتقليد.. بل إنها أصبحت في كثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات، وكأنها جزء لا يتجزأ من الكتاب..

.. لكن مقدمة موجزة، كهذه المقدمة، لهذا الكتاب، تغني وتكفي.. وهذا الكتاب، وكل كتاب آخر مثله، يظل ناقصاً، إذا لم يستطع مؤلفه وصاحبه أن يقول فيه كل ما يجب أن يقال... ولذلك فقد قطعت ورميت ومزقت صفحات كثيرة فيه، واستغنيت مكرهاً عنها... على انني، رغم ذلك كله، شبه راضٍ عنه وسعيدٍ به، لأنني اظن انه قد ضم جانباً مهماً، لا من حياتي التي لا تساوي شيئاً ولا تهم أحداً، وإنما من حياة وتاريخ بلادي وشعبي، وهو لا يضم في الحقيقة، قصة حياتي وسيرتي الذاتية، بقدر ما يضم قصة حياة الناس في بلادي وبلاد كثيرة في هذا العالم الكبير الصغير، وما وقع خلالها من أحداث خطيرة منذ العام ١٩٣٠ وإلى هذه الأيام.. وإلّا فقد كان صحيحاً جداً ان يقول بعض الناس مثلاً:

اتستحق سيرة ذاتية لكاتب وصحفي مقهور سيء الحظ، ان تطبع وتنشر، او تباع وتوزع... وماذا عند مثل هذا الكاتب والصحفي، ليقرأ الناس ما يكتب، وما يتفلسف به عليهم من كلام معاد ومكرّر.!!

... ورغم كل ما قد يقال، فانا اعرض في هذا الكتاب بعض همومي وهموم امتي وشعبي، واربط بينها في سلسلة متصلة الحلقات او غير متصلة، وبين

هذا العالم، بل بينها وبين الشعوب وهمومها، والإنسانية وعذاباتها، وما تلاقيه من شقاء وبؤس وعناء.

.. في هذا الكتاب الطريق إلى دمشق عشرات الصور الضاحكة والطريفة والممتعة، والتي تخفي وراءها، في الحقيقة، كثيراً من المرارة والحنظل، وما فعلت ذلك إلّا ليستسيغها القارىء، ويصبر على مرارتها، وليأخذ منها كثيراً من جرعات الصبر الجميل، المحلى بالسكر المذاب، أو العسل المصفّى!!!

.. ولقد صورت حياة الناس وعذابهم من خلال الحديث عن حياتي وعذابي، وحياة بلادي وأهلي وجيراني وأبناء شعبي وأمتي، وشعوب وأمم كثيرة، في هذا العالم الذي ما يزال يتعثر، ربما أكثر من قبل، لأسباب كثيرة، تعرضت لبعضها وللأحداث التي مرت وتمر بها الإنسانية، والتي أثّرت كثيراً في حياة وفكر وعقل الإنسان، في عصرنا خاصة، ولا بد أن القارىء سيجد أن ما تحدثت به في هذا الكتاب، عن حياتي وذاتي، إنما كنت أتحدث عن حياة الإنسان والناس، حتى ليبدو واضحاً أن هذا الكتاب ليس سوى سيرة حياة كل إنسان، أو أنها على الأقل، شبيهة بها، قريبة منها، وربما كانت نسخة طبق الأصل عن سيرة حياتي وذاتي وأنا لا أدري، وإن كانت تختلف عنها في بعض التفاصيل المتصلة بالمكان وبالزمان، وبطبيعة الظروف التي تحيط بحياة هذا الإنسان أو ذاك، رغم أننا كلنا في الهم سواء، لا في هذا الشرق وحده، أو في هذا العالم الثالث دون سواه، وإنما في العالم كله، رغم اختلاف درجة الهم والمعاناة.

.. ومع ذلك فقد حاولت أن أقتلع بيدي المدماة، شجرة البؤس التي تُظلّلني وتُظلّل ملايين من حولي وأن أزرع مكانها، غرسة أمل مشرق مورق، لتكبر وتصبح ذات يوم، شجرة باسقة وارفة الظلال طيبة دانية القطوف والثمار.

.. إن شجرة البؤس والعذاب، التي تعيش أمتنا في ظلها، وتتساقط علينا ثمارها الفجّة المرّة صباح مساء، قد تركت في نفوسنا وأرواحنا، آثار هذه المرارة، كما تركتها في أفواهنا، وخلّفت فيها روح اليأس والقنوط والهزيمة، كل هذه السنين الطويلة، ولهذا كله، وربما لأكثر منه، مسحت كثيراً من السواد الذي كان عالقاً ببعض أو أكثر حروف وكلمات هذا الكتاب، لأفتح فيه، نافذة مضيئة، تستقبل الشمس والهواء، وتطل على دنيا فسيحة من الأمل والرجاء رغم كل هذا الظلام الذي يلفنا ويلف هذا العالم

من حولنا، ورغم هذه العتمة والفحمة التي تقف في وجه أمتنا، كأنها القدر المشؤوم المحتوم.. ورغم كل هذه الجهالة والجاهلية البليدة التي ما تزال تحجب عن أعيننا رؤية الحقيقة.

.. ولقد عانيت كثيراً، وأنا أروِّض كلمات وحروف وأفكار هذا الكتاب، خلال خمسة وعشرين عاماً من الانصراف إليه والانكباب عليه، كما تروِّض الوحوش في السيرك، حتى كدت أن أمزق صفحاته كلها، والقي بها، واستريح منها، أو أن أحرقها، ولكنني كنت لا اقوى على ذلك، لأنها لطول ما ربيتها ورعيتها، لم اعد استطيع لها دفعاً إلى النار، لا سيما بعد أن اشتد عودها واستقام أمرها، كما أرى أو كما يخيل إليّ.!!

... ولا بد أن القراء والأصدقاء الأعزاء، يقدرون تماماً مدى الصعوبة والمعاناة التي يواجهها الكاتب العربي في عصرنا، من مختلف الوجوه، ولا بد انهم لذلك كله، يحكمون على هذا الكتاب، من خلال ذلك، وانا في الحالين، في الرضي والغضب، انزل عند حكمهم، وأوافق عليه، واقدّر الدافع إليه، وأعتقد، على كل حال، انه سيكون حكماً عادلاً ومنصفاً، رغم قلة العدل والإنصاف في هذا الزمان، وربما في كل زمان!!

«عدنان الملُّوحي»

١

.. لم تكن الحياة ساعة مولدي، محتاجة إلى طفل جديد، يضاف إلى أطفال بلادي الذين يولدون كل يوم، ويطلبون الغذاء والكساء والدواء والمعرفة، فلا يجدونها!!

.. ولكنها سُنَّة الحياة، جاءت بي إلى هذا العالم رغم أنفي، وألقت بي في حضن أمي، قبل أن تلقي بي في مجاهل وخضم هذه الحياة، وتحملني من أثقالها وآلامها، مالا تطيق حمله الجبال!!

.. ولو كنت أعلم الغيب، وما سألقى في حياتي، لاخترت أن انتقل من حضن أمي، إلى حضن هذه الأرض، فلا ألبث في هذه الدنيا، غير ساعة أو بعض ساعة، ولكن الله شاء أن أعيش وأعمِّر، وأن أشقى وأتعذب، وأن أكتب هذه المذكرات، بدم القلب وذوب الفؤاد ورجع الأنين!!

.. وأول ما أتذكره، ولا أعرف كم كانت سني يومئذٍ، أن امرأة نصفا طويلة رشيقة كالرمح، أخذت بيدي، وخرجت بي من دارنا ذات يوم قبل غروب الشمس، وهي تبكي وتنتحب، وتقول لأمي إنها ستعود بي إلى الدار بعد ثلاثة أيام...

.. وسمعت أمي تبكي وتنشج بحرقة ورأيتها تمسح دموعها بمنديلها الأبيض الذي تغطي به رأسها، ثم تغلق الباب وراءنا..

.. ونظرت إلى المرأة النصف، وأنا محمول على صدرها فإذا بها ما تزال تبكي، فلما سألتها عن سبب هذا البكاء المتصل، قالت لي، وهي تشرق بالدمع: إن أخاك الصغير عبد الباسط، ذهب إلى السماء وأصبح عصفوراً من عصافير الجنة، وسيشفع لنا يوم القيامة عند الله!!

.. ولم أفهم مما قالت شيئاً ولكني بعد أن عادت بي إلى دارنا رحت أبحث عن أخي الصغير، فلا أجد له أثراً، ووجدت أمي وأبي وإخوتي، وقد وجموا وتجهموا وبدت آثار الحزن على وجوههم، ووقفوا ينظرون إليّ وأنا أنادي على أخي عبد الباسط، فلا يرد عليّ!!

... ولم أعرف يومئذٍ أن أخي الصغير قد مات، إلّا بعد أن كبرت، وعرفت معنى الموت، ولما سألت عن سبب موته قالوا لي أنه أصيب بالحمى ولم يكن لها دواء يومئذٍ إلّا الحمية الشديدة والماء البارد يصب على رأس المريض الذي يغلي كالمرجل ليطفيء تلك النار الموقدة التي لم تشأ أن تنطفيء إلّا بعد أن أطفأت شعلة الحياة في ذلك الجسد الرقيق جسد أخي الصغير الذي ذهب إلى السماء وأصبح عصفوراً من عصافير الجنة!!!

.. ربما كنت في سن السادسة، يوم كان أخي الذي مات في سن الرابعة.. ولكني، على كل حال، لا أدري من الذي مات منّا يومئذٍ أخي أم أنا، أم عصافير الجنة التي رحلت معه يوم رحل عنّا في هدوء وصمت وسكون؟

.. وها نحن، أمي وأبي وإخوتي وخالتي (أم نعيم)، التي حملتني إلى دارها يوم مات أخي الصغير، قد عشنا بعده طويلاً حتى أصبحنا وكأننا أعجاز نخلٍ خاوية:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطيء يعمَّر فيهرم..

.. وتمضي الأيام، ونكاد ننسى أخي الذي مات بالحمى، إلّا أمي،

فهي وحدها التي لا تنسى موتاها، من أعزائها وأبنائها وأهلها وآخرهم صغيرها عبد الباسط.. وكانت تقول، كلما هاجت بها الذكرى، تلك الكلمة التي لم أكن أفهم معناها، وماذا تريد بها وهي ترددها:

«ما عاش قلبي، عبد الباسط»!!

.. وعندما جاءت تلك المرأة النصف الطويلة الفارعة المشوقة كأنها الرمح والتي حملتني إلى دارها في ذلك اليوم الحزين لتزورنا وجلست إلى أمي تواسيها، أقبلت نحوها وتمسكت بأذيال ثوبها الفضفاض وكان يضوع منه العطر، فحملتني بين ذراعيها، وقالت أمي وهي تراني أقبل على صديقتها:

.. «هذه خالتك (أم نعيم) يا بني، وهي صديقتنا وجارتنا ورفيقة عمرنا»..

.. كانت الخالة أم نعيم، فارعة الطول، رشيقة القوام، كما قلت، جميلة في غاية الروعة، شركسية شقراء بيضاء ذات عينين خضراوين وغمازتين لا أحلى ولا أروع، وقد تركت في نفسي أعمق الأثر، وأحببت من خلالها كل جميل وحسن، في النساء والأشياء، وفي الزهر والطير والشجر، وفي الأرض والسماء، وصرت بعدها، وقد انطبعت في ذاكرتي ملامحها الدقيقة الفاتنة، أشيح بوجهي عن كل دميم وقبيح، وأقبل على كل رائع وجميل، وأتذوق الحسن في كل ما أرى، وأنفر من القبيح والسيء والرديء في كل ما يعرض لي، وأعجب وانتشي بكل ما هو حسن وحلو، من الناس والأشياء..

.. ولم تدم نعمة الجمال هذه عليّ طويلاً، وهي أعظم نعمة عندي، فقد غادرت أم نعيم مدينتنا حمص، إلى أقصى الأرض، ولحقت بابنها الوحيد الذي كان يعمل سائقاً لسيارة شاحنة في الشمال، وحلت محلها في جوارنا عجوز تكاد الريح تلقي بها في آخر الدنيا لشدة هزالها، وكنت أتوارى في إحدى غرف الدار عندما تزورنا حتى لا تقع عيني عليها، وكانت ذات صوت أجش، كثيرة الشكوى، لا تصمت ولا تسكت ولا تكف عن البكاء والأنين!!.

.. ولم أعد أرى في دارنا منذ غابت خالتي أم نعيم إلّا العجائز، ولا أدري لم كانت أمي تحرّص على صحبتهن واستقبالهن، رغم أن أمي كانت تصغرهن كثيراً إلى أن عرفت سبب ذلك عندما قالت لي ذات يوم: (إنهن، يا بني، بائسات شقيات مريضات جائعات، لا يجدن الطعام والدواء والغذاء والكساء.) فقلت لها ضاحكاً:

(ولماذا لا تختارين صبايا بائسات شقيات، بدلاً من هذه العجائز الشمطاوات؟؟..) ثم قلت لها: (وهل نجد نحن ما نأكل إلّا بشق النفس؟) فقالت لي وهي تكاد تضيق بي ذرعاً: (ولكن الرمد أهون من العمى. ونحن على كل حال أحسن حالاً من كثيرين لا يجدون، يا بني، كسرة الخبز ولا المأوى ولا الكساء ولا الدواء)!!!

... كان أبي شيخاً وإماماً ورجل دين وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس كل يوم في الجامع النوري الكبير، وهو من أقدم مساجد حمص. وكانت له غرفة في الجامع فيها مكتبة تحوي عدداً من الكتب القيمة في الفقه والتفسير والحديث واللغة والنحو والتشريع الإسلامي، وكان يرجع إليها إذا التبس أو غم عليه أمر من أمور الفتوى على مذهب الإمام أبي حنيفة وكان الناس يسألون الشيخ الإمام أن يفتيهم في أمور دينهم ودنياهم، والتي تعرض لهم في حياتهم اليومية وبيئتهم المحافظة والضيقة والتي تكاد تكون أضيق من سم الخِيَاط!!

.. كان أبي الشيخ الإمام صغير العينين أجهر(*) أسمر اللون، طويل القامة قوي البنية، وكان يضع على رأسه عمامة بيضاء لها عذبة تمتد حتى تغطي ظاهر رقبته، وكان منتصب القامة رافع الرأس دائماً، كأنما كان ينظر إلى السماء، وكان نظيفاً لطيفاً يحلق شعر رأسه على (الصفر) كما تقول العامة، شأنه في ذلك شأن أكثر رجال

(*) أجهر: أي ضعيف البصر والرؤية عن بعد، بالولادة والوراثة...

الـدين، وكان خفيف الظـل، عفّ النفس كريمـاً، لا يحب الهـزل، ولم يكن يحني رأسه إلّا لله في صلاته، وكان قليل الكـلام، قليل الطعـام، عذب الحديث، إذا تحدث، كثير القراءة والتفكير، وكـانت عادتـه التي استـأثرت بـه ولم يستطع لهـا رداً، وسببت له في شيخـوخته تصلب الشرايين... تدخين التبغ.. وكـان يحب السير عـلى قدميـه ساعـة كل صباح، ولم أره راكباً عربة ولا دابة، وكان سريع الخطوة نشيطـاً، لا يفتر لسانه عن ذكر الله وقراءة القرآن، في صوت رقيق كأنـه الهمس، لا يكاد يسمعه أحد!!

.. وكانت أحلى ساعاتـه وأوقاتـه عندمـا يجلس في صحن الدار في ليالي الصيف أو حول منقـل النار في غـرفته في ليـالي الشتاء، ثم يلف سكائره بـورق رقيق كان يسمى «ورق الشـام» وكان يصنـع في مصر، فإذا امتلأت علبة سكائره وقد صفهـا بعنايـة وهو يحـرك لسانـه بين شفتيه، أشعل لفافة منها، وأخذ يعبّها عبّاً، ويجـد فيها سعـادة ينسى معها بعض ما كان يلاقيه من رقة الحال، وقلة الرزق والمال!!

.. وكان أجر الشيخ الإمام، من الإمامة وخطبة الجمعة، ومن عمل كان يقوم بـه في ديوان المحكمـة الشرعية في حمص، لا يتجـاوز أربعاً وعشرين ليرة سورية في الشـهر في تلك الأيام من عام ١٩٣٠، ومع ذلك فقد كنا نعد في نظر الناس بأننـا من متوسطي الحـال، بينما نحن في الحقيقـة، أسرة رقيقة الحـال مستورة بستـر الله، كمـا كـانت تقـول أمي!!!

... وكـان لبذل أبي وسعيـه، ولحسن التدبـير والإدارة عند أمـي، أكبر الأثر في حياتنا ومعـاشنا، وكـان رزق أبي يشح يـوماً، ويجـرى رخاءً يوماً، وقد عرفت أمي كيف توازن بين دخل الشيخ الإمام، وبين الانفـاق علينا، في حكمـة وعقل، وكـان أبي رغم ذلك كلـه، يحمد الله كثيراً، ويسعى إلى عمله ورزقه بكرة وأصيلاً، ويردد دائماً هذا الدعاء الـذي حفظتـه عنـه، ومـا أزال أردده، وهـو (اللهم استـر الفقـر بالعافية)!!!

... وكان الشيخ الإمام، إذا اشتدت به الحال، ونفدت آخر صبابة من مال قليل كان بين يديه، اشترى لنا في الصباح بعض اللبن الحليب، ومزجه بماء كثير، ووضع فيه شيئاً من السكر، ووضعه على النار، ثم وزعه علينا في صحاف، وأوصانا بأن نفتّ فيه بعض الخبز فاذا تناولناه ونحن نحمد الله، لم نجد فيه شيئاً من الدسم، وإنما نجد أن لونه قد تحول بفعل الماء الكثير الذي مزج به، إلى الزرقة.. فكنا كمن يتناول وجبة من الماء المغلي والخبز والسكر القليل!!!

.. وكان الشيخ الإمام، إذا جاء المساء، وحل موعد العشاء، ولم يكن عندنا ما نأكله، استبدل الفراريج التي لم نكن نراها ولا نعرف طعمها، إلّا مرة أو مرتين في العام، برؤوس من البصل، يابسة وكبيرة، يدفنها في منقل النار ويدسها في الرماد الحار، حتى تنضج وتنتشر رائحتها الشهية... ثم يخرجها من النار ويزيل قشرها، ثم يرش عليها شيئاً من الملح والكمُّون، ويقدمها إلينا مع الخبز، وهو يقول ضاحكاً صابراً محتسباً: هذه فراريج الفقراء فيها غذاء وصحة وشفاء، فنقبل على البصل المشوي، ونصيب منه ما شاء الله أن نصيب، ونتخيل أننا نأكل الدجاج والطير والحمام، ونحمد الله، ونتذكر دعاء الشيخ الإمام: (اللهم استر الفقر بالعافية)!!!

.. وكانت أمي بيضاء رقيقة دقيقة الأنف مهيبة ذكية قوية الشخصية، ولم أرها تضحك كثيراً، وكانت تفرض احترامها على جميع من حولها، وخاصة على أبي الشيخ الإمام، وكان يحبها ويقدرها حق قدرها، ويحترمها ولا يخالف لها أمراً أو يرفض لها طلباً، ولم يعرف في حياته إمرأة غيرها، كما كانت تقول لنا، وكان أبغض الحلال إليه، الطلاق، وكانت سن أمي إحدى عشرة سنة عندما زوّجوها من أبي الشيخ الإمام الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره، وقد حدثتنا ذات يوم عن زواجها فقالت: إنها خطبت لأبي وهي لم تره قط، ولم تعرف له وجهاً ولا سمعت له صوتاً، وفي ليلة الدخلة، دفعت بها أمها إلى غرفة عريسها لتنتظره ريثما يدخل

عليها، فأوجست خيفة منه واستبد بها الجزع، فاختبأت في خزانة الثياب وأغلقت عليها بابها، فلما جاءت أمه ودفعت به إلى الغرفة ليلتقي بعروسه الصغيرة ويتعرف عليها ويسعد بها، أخذ يبحث عنها في أطراف الغرفة ولكنه لم يجد لها أثراً، فخرج يقول لأمه، إن العروس إختفت..، ودخلت النسوة إلى الغرفة وأخذن يبحثن عنها، وخطر لجدتي أن تفتح باب خزانة الثياب، فوجدت أمي ترتعد وتبكي، وقد أخفت جسدها الناحل الدقيق، وراء ثوب من أثواب عرسها، فأخرجتها من مكانها، وهي تترفق بها وتطيب خاطرها وتهون عليها وتشجعها على استقبال عريسها الشيخ الصغير، الذي يلبس العمة البيضاء، والجبة السوداء، وله لحية صغيرة متناثرة متباعدة الشعر، بعد أن أصبح خليفة أبيه في المشيخة والإمامة والخطابة!!!

.. وتردف أمي قائلة، وأنا وأخوتي نضحك ونعجب من قولها: لقد كنت أخاف من أبيكم، وكنت أهرب منه في فراشه، ولا أطيق النوم معه، لأنني كنت ما زلت صغيرة لم أبلغ بعد مبلغ النساء، إلى أن كبرت قليلاً، فالفته وأحببته حباً جماً، وبادلني حياً بحب أكبر، ولم يفكر يوماً بالزواج من امرأة غيري، ولم أره ينظر إلى امرأة سواي، وهو يطرق حياءً إذا مرت بقربه امرأة!!!

.. وأذكر أن قريبات لنا، كنّ إذا التقين أبي الشيخ الإمام في الدار اقتربن منه، تتقدمهن أمي للسلام عليه، والتبرك به، فإذا مددن أيديهن ليأخذن يده ويقبلنها، أشار إليهن بيده من بعيد، علامة الشكر والقبول والتحية، وانصرف عنهن في حياء!!

وسألت أبي الشيخ الإمام ذات يوم، عن سبب عدم اعطاء يده اليهن ليقبلنها فقال لي: يا بني، إنني امام في الناس، على مذهب أبي حنيفة، ولا تثريب عليّ إذا أخذن يدي وقبلنها، ولكني لا أحب تقبيل الأيدي، حتى لا تكون ضحكاً على اللحى ومنها لحيتي.. وأشار بيده إلى لحيته الصغيرة اللطيفة.. ثم إنني أخاف إذا أعطيتهن يدي أن يأتم بي شافعي فتبطل صلاته، ويكون عليّ إثمه، لأن الشافعية تعتبر

أن لمس يـد المرأة ينقض ويفسـد الوضـوء، بينما المـذهب الحنفي لا يعتبر ذلك مما ينقض الوضوء!!!

وقلت لأبي الشيـخ الإمام: وهـل المرأة نجس حتى تنقض وضـوء الرجل إذا لمس يدها أو لمست يـده؟؟ فنظر الشيـخ إليّ ملياً، ولم يـرد على سؤالي وإنما قال لي: (كلامك أكبر من سنك، يا بني)!!

.. كنت أقف وأنـا صغـير عنـد بـاب الـدار لا أتجـاوزه، حتى لا تخطفني «السمَّاوية»، كما كانت تسميها أمي، لتخيفني بهذه المخلوقة الأسطورية التي صنعتها الأمهات من خيالهن لتخويف أولادهن بهـا، وبغـيرها من المخلـوقات الخيـاليـة، وذلـك حتى لا أخـرج من الـدار وأضيع في طرقات الحي، وكنت وأنا عنـد باب الـدار لا أبرحـه، أرى من مكـاني النساء وهن كـالأشباح، يلبسن المـلاءات السـوداء، فـلا يظهـر منهن وجـه ولا رأس ولا قـدم.. وكـانت المـرأة تغطي رأسهـا ووجهها وتخفي يديها لأنها عـورة،حتى شعرهـا، لا تظهر منـه شعرة توحد الله.. وعندما كبرت،وكانت أمي قد بلغت سن الرابعة والثمانين، وكـانت تزورني في دمشق، كنت أسـألها: (ومـاذا بقي منك يـا أمـاه، لتلبسي الملاءة السوداء، وتغطي وجهك ورأسك، وتخفي يديك وشعـرك وأنت في هذه السن الكبيرة)؟، فتقول لي في خوف وتسليم: يابني، إني أخاف الله رب العالمين!!!

.. لم تكن في كـل مدينتنـا حمص، امرأة سـافرة الـوجه، كـاشفة الرأس، وكانت النسـاء على اختـلافهن، يغطين وجـوههن، ورؤوسـهن وأيـديهن وأرجلهن في مـلاءات سـوداء فضفـاضـة عـريضـة، حتى المسيحيات منهن كن يختبئن وراء الحجاب، في كثير من الأحيان..

.. كانت المرأة لا تظهر على أحـد ممن لا يجوز لهـا الظهور أمـامه شرعاً من الرجال، وكانت أمي تقول لي: لقد تعودنا يابني، منذ صبـانا على لبس الملاءة السـوداء والغطاء، ومن الصعب، خـاصة إذا تقـدم الإنسـان في السن، أن يبدل عـادة درج عليها من قـديم، لاسيما إذا كانت الشريعة تفرض عليه ذلك..

.. كنّا في الدار ثمانية إخوة، بعد أن كنّا عشرة، وقد مات منا من مات واستراح، وبقي من بقي للشقاء والعذاب، وكانت أمي تحب أن ترزق ببنت تساعدها في شؤون البيت والطبخ والغسيل والتنظيف، ولكنها لم ترزق إلاّ بالصبيان، وكانت في قرارة نفسها سعيدة لأنها لم ترزق بالبنات، فقد كنا نسمعها تقول لأبي، كلما جاء ذكر بعض بنات البلد أو الحي: «دخيلك، بالناقص....، الله لا يكثرهن على أحد.. ألا ترى معي يا أبا أنس أن همّ البنات للممات» فيضحك أبي من قولها، وهو يرد عليها: «الذنب ليس ذنب البنت، يا أم أنس، وإنما هو ذنب المجتمع والأهل؟؟».

... كانت أمي قد وفرت ثلاثين ليرة عثمانية ذهبية عندما كانت تسكن مع أبي في دار أهله وكانا مازالا في سن الشباب، فاشترت له بها هذه الدار الكبيرة التي ولدنا وترعرعنا فيها ودرجنا على أرضها.. وكانت دارنا في حي «جورة الشياح»، القريب من مركز المدينة، ومن أرض الفولة، ومن سكة الحديد والجسر الأسود ومن طريق حماه وجامع سيدنا خالد بن الوليد.. وكانت الدار خليطاً عجيباً من الغرف القديمة المسقوف بعضها بالطين والخشب والقصب، وبعضها الآخر بالعَقْد، وهو عبارة عن حجارة سوداء متشابكة متماسكة متساندة وقوية، بينما كانت سقوف الغرف الأخرى من الخشب والطين والقصب تتداعى وتتساقط تباعاً، وكنا كلما سقط سقف منها نرى السماء أكبر مما كنا نراها!!

... أما أرض الدار فكانت مفروشة بحجارة كبيرة سوداء متعرجة ومتنافرة، وكانت أمي تشكو كثيراً لشدة ما تلاقي في تنظيفها وغسلها، وكانت تضيق بها ذرعاً، وتدعو بسببها على الدار وأهلها، من لسانها لا من قلبها الكبير!!

.. وكان يفصل بين دارنا ودار جيراننا من الشرق، حائط طويل عريض، كنّا نسميه «حيط الدَّك» لأنه مبني من الطين المضغوط بعد أن يوضع في قوالب من خشب، وأمام هذا الحائط مما يلي صحن

الدار، كانت تقوم أرض مملوءة بالحجارة والأتربة والأنقاض المختلفة، وتشكل تلاً صغيراً لا ترتاح له العين، وقد زرعتها أمي لتخفي منظرها القبيح بأنواع من الأزهار والورود وشجيرات الياسمين وغيرها، وكنّا نطلق على هذه الحديقة الصغيرة والبدائية، اسم «الحوض» تيمناً بحوض من حياض الجنة التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة!!!

... وكانت شجرة ليمون عقيم، تقوم قبالة الحوض، وقد ضقنا بها وهمت أمي بقطعها والتخلص منها أكثر من مرة، إلى أن جاء أحد أخوتي بعامل في حديقة البلدية، وكانت تسمى (جنينة الدبابير)... وقام بتطعيمها حيث شق جذعاً من جذوعها ولفه، كما يلف الطبيب ضمادة حول ساعد جريح، ووعدنا بأن تزهر وتثمر بعد هذا العقم الطويل..

.. ولقد شقيت أمي كثيراً وتعذبت طويلاً، وهي تربينا وتعنى بنا وتدير شؤون هذا البيت، وهذه الأسرة الكبيرة، لكن ما أشقاها وعذبها كثيراً هذه الغرف القديمة في الدار، والتي يتداعى بعضها إثر بعض، وهذا المطبخ الذي كانت تقضي فيه أكثر نهارها وجزءاً من ليلها، كما هي حال المرأة في بلادنا، والذي سقط سقفه وتداعى هو الآخر، وبقيت جدرانه منتصبة في وجوهنا، كأنها رؤوس الشياطين، وكانت أمي، وهي تصنع وتطبخ لنا طعامنا على الموقدة القائمة في صدر المطبخ، تتعرض للمطر المنهمر في الشتاء، ولأشعة الشمس المحرقة في الصيف، ورغم هذا العناء والشقاء كله، فقد كانت تصبر صبراً جميلاً، كما كان يصبر أبي الشيخ الإمام، وكان عزاء أمي، وجود هذا الرجل الكريم، والشيخ الإمام الشهم، وهؤلاء الأبناء الذين تحبهم كثيراً، ولكنها لم تكن تقبلهم أو تضمهم إليها أمام أحد، حتى لا يميعوا، أو يصيبهم أحد بالعين، كما كانت تقول، وكانت تمر بهم إذا ناموا، فتحدق في وجوههم وتقبلهم وتشمهم، ثم تمضي إلى فراشها، وهي في نشوة وسعادة لا تعرفها إلّا الأمهات.!!

... ولم يكن في وسـع الشيخ الإمـام، أن يصلح أو يـرمم شيئاً في هذه الدار، ولا أن يسقف غرفة من غرفها التي تـداعت وسجدت من خشية الله.. لأن مورده كان محدوداً، يكاد لا يكفي ثمن الخبز وبعض الخضار والحليب الممزوج بـالماء، والبصـل المشوي المغمـوس بالملـح والكمُّـون، استغنينا واستعضنـا به، كمـا قلت، عن الدجـاج والفراخ والحَمَام وكل أنـواع الطير، وكـانت أمي تردد أمـام أبي وهو يشـوي البصل، قول الله في القرآن الكريم: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾، فيقول لها ضاحكاً ومبشراً وصابراً: «هـذا لأهل الجنـة يوم القيـامة، يـا أم أنس» فتجيبه: وكيف لا نكون منهم ونحن نأكل هذا البصل المشـوي بالملح والكمُّون، والذي يكاد يحرق حلوقنا وبطوننا!!!؟

.. وكنت أسمع الشيخ الإمام، وهو يتأوه في صمت، لما يسمع، ولما يعاني من الضيق.. وكنت أراه وهو ينظر إلى السماء طـويلاً ويحـدق فيها ملياً، كأنّما يسألها أن توسع عليـه في الرزق، ليـوسع عـلى أهله وعياله ويقيهم شر هذا الضيق، ولكن السماء تأبى عليه ذلك، فأسمعه يردد وهو يفرك كفيه، قول الله في القرآن الكريم: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾.. ثم يلتفت إلينا وهو يقول في إيمان وتسليم: (إن الرزق مقسوم، وهو مكتوب، كالأجل، في لوح محفوظ)!!

.. وكنت إذا سمعت آهات أبي الشيخ الإمـام وقولـه هذا، ورأيت نظـرته الحـانية تمنيت لـو صعدت إلى اللـوح المحفـوظ في السمـاء، ومسحت رزق أبي المكتوب، وهو رزق قليل، وكتبت محله «الرزق الكثير والعمر الطويل، وأن يعيش سعيداً قـريراً»، وكنت إذا أخبـرت بذلـك أبي وأمي وأخوتي، ضحكوا كثيراً لسذاجتي وطفـولتي، وربما نهتني أمي عن ذلك، مخافة أن أصبأ(*)!!!

... وكان باب الدار مما يـلي المطبخ الـذي تداعى سقفـه، لا يكاد يقوىٰ هو الآخر على الـوقوف أو الصمـود في وجه الـريح، وكـان إذا

(*) صبأ الرجل، اي ترك دينه.. والصابئة طائفة كانت تعبد النجوم..

دفعه زائر أو سائل، استجاب له في الحال وانفتح على مصراعيه، وقد رقعناه كثيراً ببعض قطع من الخشب والصفيح، فلم تغن عنه شيئاً، وكان لا بد له أن يسقط ويتهاوى ويكشف سترنا وأرض وغرف دارنا، لولا رحمة الله بنا، وهذه القطعة الكبيرة من الحجر والتي كنا نسنده بها!!

.. ولكن الأنْكَى من هذا كله، أو بعد هذا كله، ذلك «الحَمَّام»، كما كنا نسميه، والذي لم يكن له من اسمه أي نصيب، وكان يقوم في زاوية من المطبخ الذي انكشف غطاؤه وتهاوى سقفه، فقد كان كومة ثقيلة بشعة من الأتربة والفضلات والحاجات المهملة التي لا تصلح لشيء، ولم يكن للماء أي أثر فيه، وكان ملعباً رحباً للفئران والجرذان، وكنا نسأل أمي: لماذا أطلقت على هذا المكان المظلم المهمل الذي لا ماء فيه ولا نار، اسم «الحَمَّام»، فكانت تجيبنا: «لقد كنّا نريده كذلك.. ولكن الله أراد له ولنا غير ذلك.. ولو كنا في بسطة من الرزق لجعلت لكم من هذه الدار قصراً منيفاً ولا بد أن الله سيعوضنا عن هذه الدار وهذه الحياة الفانية، بقصر من قصور الجنة، والتي عرضها عرض السماوات والأرض!!!

.. وأسكت ويسكت أخوتي، ولا نجد جواباً، ويأتي إلينا صوت أبي الشيخ الإمام من بعيد، وهو عائد من صلاة العشاء، يقرأ آيات من كتاب الله ويضرب بعصاه الأرض ويحيينا بإيماءة خفيفة لطيفة من عينيه الصغيرتين، ويتبسم وهو يقول: (اللهم استر الفقر بالعافية)!!

.. ورغم هذا الضيق الذي ينزل بنا وبدارنا وحيّنا ومدينتنا حمص، وبأهلنا وشعبنا وبلادنا، فقد كانت تمر بنا أيام نحسب أنفسنا فيها من السعداء، ولا أقول من الأغنياء، لأن الغنى بعيد عنّا بعد الأرض عن السماء، ولأن الغنى، كما قيل لنا لنتعزى ونرضى، غنى النفس.. وكانت تلك الأيام قليلة ونادرة، ولكننا كنا نجد فيها، على كل حال، الطعام الشهي، واللحم اللذيذ الطري، والحلوى

والفاكهة، وكنا ننسى معها البصل المشوي، والحليب الممزوج بالماء، وكان يقع لنا ذلك السعد، في المواسم والأيام التي يكثر فيها الزواج، فقد كان أبي الشيخ الإمام يجري عقود الزواج في المدينة، مقابل أجر زهيد كان يتراوح بين ليرة سورية أو نصف ليرة، وكان إذا جاءه فقير طلق زوجته، وهو في حالة من الهم والغم، ومن الغضب والهياج، ردها إليه لوجه الله، دون أن يتقاضى منه شيئاً، فقد كان الشيخ الإمام يكره الطلاق ويردد القول المأثور: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)..

وكان إذا جاءه ورثة أحد الآباء أو الأمهات أو الأقرباء الذين ماتوا، وطلبوا إليه تقسيم الإرث بينهم، بموجب الشريعة الإسلامية، قام بذلك مقابل أجر يزيد قليلاً عن أجر عقود الزواج.. وكان إذا جاءه رزقه هذا، يأتي إلى الدار بأطايب الطعام ولذيذ الحلوى والفاكهة، فلا يأتي المساء إلا ويكون قد أنفق كل ما جاءه في يومه ذاك، لم يدخر منه شيئاً، وكان يقول لنا، وهو ينفض جيبه من آخر قرش كان معه: (أنفق ما في الجيب.. يأتك ما في الغيب)!!

.. وما كان يأتي للشيخ الإمام من الغيب، لم يكن يستطيع أن يوفر منه شيئاً إلّا إذا استطاعت أمي أن تنتزع بعض القروش من أبي، وهي تقول له: (خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود)... فيرد عليها ضاحكاً وهو يطيب خاطرها: (ولكن، يا أم أنس، ما أقل القروش البيضاء، وما أكثر الأيام السوداء)!!

.. وكان الشيخ الإمام يصطحب في بعض الأيام واحداً من إخوتي ليصلي معه في الجامع النوري الكبير، وكنت أطلب إليه أن يصحبني معه رغم صغر سني، لأراه وهو قائم يصلي في المحراب إماماً، وكنت أرى الناس بعد الصلاة يقبلون عليه ويلتفون حوله ويطلبون منه الدعاء ويسألونه بعض ما يعرض لهم من أمور دينهم ودنياهم، وكانوا يحاولون تقبيل يده، فكان يأبى عليهم ذلك، ويزجرهم في رفق، ويكتفي بأن يشكرهم ويتبسم لهم ويطيب خاطرهم وهو يحدق في وجوههم، ويتمنى لهم الخير، ولم يكن الشيخ الإمام، وهو رجل الدين

المعـروف، ليستغل الـدين لمصلحته أو منفعتـه، أو يتخذ منــه وسيلة للارتزاق والتكسب، أو سبيلاً إلى الابتزاز، وكـان يستطيع، لـو أراد، أن يستغـل الدين أبشــع استغلال، وأن يثـري عن طـريق الخـداع والتدجيل والتضليـل، وأن يتخذ من لحيتـه وعمته وجبتـه، وصلاتـه ونسكه وإمامته وخطابته وتقواه وورعه، وسيلة للوصول إلى مـا يريـد من ثراء عريض يتخلص بعـده من هذا الضيق، ولكنــه آثر أن يحفظ للـدين جوهـره ومعناه، فـلا يتاجـر باسمــه، كما يفعـل بعض الذين يتخذون الدين سلماً يصعدون عليه إلى غاياتهم ومصالحهم الـذاتية والأنانية، وليغرروا بالبسطاء، وفضل أن يبقى صابراً وصــادقاً، عــلى أن يكـون لصاً وســارقاً ومنــافقاً ومتـلاعبـاً بعقـول وأمـوال النــاس البسطاء.!!

... كنت كثير السؤال، بيني وبين نفسي، أو بيني وبين إخوتي، عن سبب هذا الضيق الذي ينزل بالشيخ الإمام وبنـا، وبأكثـر الناس في مدينتنا وبلادنا وعن هذا الشقاء الذي يلقاه الشيـخ الإمام ونلقـاه، وكيف يستطيع الصبر على ذلك، وهو المعيل لهذا العدد الـوفير الكبـير من الأبناء. وكيف يستطيع مع هذا المورد الضئيل والرزق القليل، أن يتـدبر أمـره وأمر هـذه الأفواه الكثـيرة التي تنتظـر الغـذاء بفـارغ الصبر، والتي جاءت إلى هذا العالم، وهي تلوك مرارة البؤس وتتجرع كأس الشقاء، ثم تقذف ذلك كله في وجه هذه الحياة...، ولم أكن وأنا صغير، أجد جواباً مقنعاً وشافياً لكل هـذه الأسئلة التي كـانت تخطر لي ثم تستقـر في ذاكرتي ووجـداني، وتنتظر أن أجـد الجواب عنهـا كلها، عندما أكبر ويشتد ساعدي.!!

.. وفي أحد الأيام، جاء من أقصى المدينة رجل يسعى، ودخـل على أبي في غرفته في المسجد الجامع، ودعاه إلى زيارته في داره مساء بعد الانتهاء من صلاة العشاء، ليعقد لابنتـه على شـاب سماه لـه، ونقده الرجل ثلاث ليرات سورية، وقـد عجب الشيخ الإمـام من هذا الكـرم الحاتمي، ورأينا الشيخ الإمام وهـو يدخـل الدار ويحمـل بين يـديه،

شيئاً من اللحم والسمن والكنافة والقطايف والفاكهة، وفرحنا كثيراً بهذا الرزق، يأتينا على غير عادة.. وأخذنا نحلم، مجرد حلم، بأن تزول هذه الضائقة التي نعانيها، ثم غادر الدار ليجري عقد الزواج لابنة ذلك الرجل على الشاب الذي سماه له، فلما عاد بعد ساعة سألناه عن ذلك السعيد الذي عقد له على ابنة ذلك الرجل الثري، فقال لنا إنه شاب من طرابلس في لبنان، وهي أقرب ما تكون إلى مدينتنا حمص.

وفي اليوم التالي، جاء شرطي إلى غرفة أبي الشيخ الإمام في المسجد الجامع وهو يستعد لصلاة الظهر، وطلب إليه في حياء أن يرافقه إلى مكتب النائب العام لأمر هام، وعلمنا بعد ذلك، أن النائب العام أمر بتوقيف الشيخ الإمام في الحال، واحتراماً له تمّ توقيفه في المسجد الصغير في دار الحكومة، وكانت تسمى «السراي»، ولم يزج به في النظارة، مع سائر الموقوفين في تهم مختلفة، وكانت التهمة التي وجهت إليه، أنه عقد لذلك الشاب الطرابلسي على ابنة ذلك الرجل، بعد أن تبين أن (عريس الزين).. لم يكن سوى دجّال محتال، أوهم والد الصبية بأن في بيته كنزاً، لا يخرج من أرض الدار إلّا على وجه صبية يعقد له عليها ويتزوجها، فقدم الرجل له ابنته طمعاً بالكنز، وقام أبي الشيخ الإمام بإجراء عقد القران، دون أن يعلم شيئاً مما كان يدور في رأس الشاب المحتال الذي دخل على الصبية وتمت الخلوة بينه وبينها، وعندما نامت العروس، قريرة العين، بعد سهر طويل وسعادة غامرة ولذة آسَرة، قام المحتال فجمع ما في خزانة العروس الصبية من حلي وذهب ومال كثير، وخرج من الدار في غفلة من أهلها، وغادر المدينة بعد ذلك تحت جنح الظلام، ولما أقام والد العروس، الذي فقد الكنز المزعوم، وضيع ابنته المسكينة وحليها ومالها وذهبها وآمالها، وبعد أن أصبحت ثيباً بين ليلة وضحاها، الدعوى أمام القضاء، سئل عمن عقد زواج ابنته على الشاب المحتال، فأخبرهم، وتردد النائب العام أول الأمر في طلب أبي ثم قرر

أن يوقفه على ذمة التحقيق، ريثما ينجلي الأمر، فلما تبينت له الحقيقة، جاء إلى الشيخ الإمام حيث كان موقوفاً فاعتذر إليه وطيب خاطره، فانصرف أبي بعد أن قضى ليلته تلك، وهو يصلي ويستغفر الله العظيم، من كل ذنب عظيم.!!

.. وعندما عاد الشيخ الإمام إلى الدار، رأيته حزيناً، مطرق الرأس، كاسف البال،فأسرعت إليه وتعلقت بأطراف جبته، وأخذت أقبل ركبتيه، وأنا أبكي شوقاً إليه وخوفاً عليه، وجاءت أمي تمشي على استحياء، وهي تقول للشيخ الإمام، في صوت خفيض كسير: (ولماذا فعلت بنفسك، يا أبا أنس، ما فعلت، يقبر بعضه الأكل والشرب.. لقد كنا نفضل أن نموت جوعاً، على أن يقع لك ما وقع، وأنت شيخ وإمام البلد).. فيقول أبي، وهو ما يزال مطرق الرأس: «ولكن ما يدريني، يا أم أنس، أن العريس كان محتالاً..» ثم يمضي إلى غرفته وينصرف عنّا إلى خلوته، وسمعناه، وهو يتلو قول الله: ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. إلى آخر الآية، ويرددها، خاصة الجزء الأخير منها، وهو يتأوه في حزن ممض، بسبب ما وقع له.. ثم آوى إلى فراشه، فهو لم ينم طول الليلة الماضية لشدة حزنه ولومه لنفسه!!!

.. وعندما استيقظ الشيخ الإمام من نومه قبيل الغروب، خرج يتوضأ عند البئر القائمة في طرف الدار، ثم مضى، وهو مطرق الرأس، يكاد لا ينظر إلينا، إلى المسجد الجامع ليصلي بالناس صلاة المغرب!!

.. ومنذ ذلك اليوم العصيب، صارت عقود الزواج توثق وتجري وتتم من قبل المحاكم الشرعية الرسمية، وهكذا انقطع مورد ضئيل كان يسد به الشيخ الإمام بعض حاجات هذه الأسرة الكبيرة، وبذلك ازددنا ضيقاً، يضاف إلى ما كنّا فيه من ضيق!!

.. ولم نكن وحدنا نعاني من هذا الضيق الشديد، فالناس جميعاً، إلّا قلة ضئيلة منهم، يعانون، ربما أشد مما نعاني، ويلاقون من الشقاء أكثر مما نلاقي، فنحن، على الأقل، نجد الخبز والمأوى والعيش الكفاف، بينما الناس في مدينتنا وفي بلادنا الواقعة تحت نير

الاحتلال الفرنسي والتخلف والبؤس، لا يجدون الخبز ولا العمل ولا المأوى، إلّا إذا كانت تلك الأكواخ المنتشرة في أطراف المدينة، يصح أن تكون سكناً ومأوى للبشر!!

... وذات يوم، كنت عند أبي الشيخ الإمام في غرفته في المسجد الجامع، إذ دخل عليه رجل من عامة الناس وقال له إنه حلف على زوجته بالطلاق ثلاثاً، وهو في حالة من الهياج والغضب لا توصف، وإن سبب ذلك كان ضيقه وبؤسه، لا سيما بعد أن ظهرت السيارة، وأخذت عربات الخيل بالانقراض، وإنه كان يعمل «عربجياً» على واحدة من هذه العربات السوداء، التي كان يستخدمها الناس لركوبهم وتنقلاتهم في المدينة، وضواحيها، وإنه خائف من أن تقطع هذه السيارة الوافدة الجديدة رزقه، وتضطره إلى السؤال، وأن الموت أسهل عليه من ذلك» وطيب الشيخ الإمام خاطره وهدأ من روعه وبعث في نفسه روح الإيمان والأمل، ثم قال له ضاحكاً: (وْلَكْ يا تَرَسْ(*).. تطلق زوجك بالثلاث، وأنت لا تصبر على فراقها ثلاث دقائق، وتريد أن أردها إليك في الحال؟؟)

وقال له:

(سأفعل إن شاء الله، على أن تعدني بأن لا تعود إلى مثلها أبداً، ولما كنت قد حلفت بالطلاق ثلاثاً، وأنت في حالة شديدة من الغضب، فقد حسبتها طلقة واحدة وها أنا أفتي برد زوجتك إليك، فاذهب إليها في الحال، ودبر رأسك... قبل أن تغضب من جديد وتحلف عليها بالطلاق.. «وْلَكْ شو المرأة عندكم لعبة تلعبون بها وتطلقونها متى شئتم»» آه، يا تَرَسْ، ما أقل عقلك، ألا تعرف أن الزوجة الصالحة نعمة عظمى من نعم الله!!؟)

وانصرف الرجل بسلام، وهو يكاد يطير من الفرح..

(*) تَرَسْ: شتيمة غير مقزعة ولا موجعة تقال للتحبب، وهي كلمة عامية أو تركية، مقبولة لمن يعرف معناها.

.. كان الشيخ الإمام، يردد بين يوم وآخر، كلما ضـاقت به الحـال أقوالاً مأثـورة، تصف الفقر بـأنه أشـد من الكفر، وأنـه أخطر عـلى ايمان الإنسان وروحه وقلبه من كـل خطر وشر، وكيف أن الفقـر يهز إيمان الإنسان، إذا لم يؤت، كما أوتي الشيخ الإمام، فضيلة الصبر، والسعي والبذل، والحب للوطن والبلد والأهل.!!

ويردف الشيخ الإمام قائـلاً: (إن الفقـر مفسدة لـلإنسان، وهـو سبيلـه إلى الثورة عـلى كل شيء في هـذه الحياة، ولـو أنصف النـاس وعـدلوا، وشـاركـوا النـاس في أمـوالهم وتعـاونـوا لمـا فيـه خـيرهم وسعـادتهم، لمـا بقي فقـر ولا فقـير عـلى هـذه الأرض، ولكن الطمـع والجشع والاستغلال والابتزاز والاحتيال وأكل حقوق الناس ومحاولة سلبهم حتى اللقمـة من أفواههم، سبب كـل ما نـرى من بؤس وفقر واختلاف واقتتال بـين الناس، ولكن هـذه هي ظروفنـا وأحوالنـا، ولا حول ولا قوة إلّا بالله!!

فـإذا أنس الشيخ الإمـام من أحدنـا رغبة في الكـلام لتـأكيـد أو توضيح ما قال، أردف مـردداً هذا البيت من الشعـر العامي، الـذي يردده بعض المتصوفـة: «لا تعترض تنطـرد.. بيسكّر عليـك الباب!!» فأجدها مناسبة لأنظر إلى باب الغرفة، وأتظاهر بالخوف حتى لا يغلق علينا الباب.. فيضحك الشيخ الإمام، ويربت على كتفي ويمسح بيـده الكريمة على رأسي، ويقول: (باب الرحمة، يابني، باب الرحمة.. لا باب الغرفة ولا باب الدار!!)

.. وتضحك أمي ويضحك إخوتي، وتضحك معنـا الدار، رغم كـل هذا الضيق والشقاء وشر البلية ما يضحك.!!

.. كان أكبر إخـوتي، من أعضاء الكتلـة الوطنيـة في حمص، وهي منظمة وطنية معـادية لـلاستعمار، وقـد انتسب إلى كلية الحقـوق في الجامعة السورية في دمشق وسافر إليها، وعمل فيهـا قيِّماً عـلى دائرة الأيتام في المحكمة الشرعية التي كانت تقوم في حي القنوات، وهو حي

شعبي قديم في دمشق، ثم أصبح قاضياً كبيراً(*)...

.. وأما أخي الثاني الذي يليه، فقد عمل موظفاً في دائرة المساحة العقارية لقاء راتب شهري يزيد كثيراً على راتب الشيخ الإمام، لأن رواتب رجال الدين كانت ضئيلة تكاد لا تذكر، وربما لا تزال حتى الآن...

ولكن أخي هذا كان متلافاً مسرفاً، يحب بطنه، ولا يحب أحداً سواه.. ولم يكن يدفع لأبيه شيئاً، وإنما كان ينفق راتبه على أطايب الطعام والشراب، وأنيق الملبس والثياب، خاصة بعد ظهور الملابس الإفرنجية وانتقالها إلى بلادنا مع من كان يعود من طلابنا القلائل، من جامعات أوروبا والمعاهد الأوروبية، وخاصة الفرنسية منها!!

.. أما الأخ الثالث، فقد حمل أباه الشيخ الإمام من الأعباء فوق ما يطيق وكان سبباً في ضيقه وعذابه، وأعادنا أكثر من مرة إلى أشد حالات الضيق والعذاب، فقد عمل في شركة لآلات الخياطة، عند وكيلها في المدينة، وكان من الممكن أن يصبح يوماً من أبرع الاختصاصيين في اصلاح هذه الآلات وصيانتها، ولكنه لم يلبث إلّا أياماً حتى تركها إلى غيرها، فقد كان لا يقيم على حال، إلى أن عين آخر الأمر عريفاً في الدرك في أقصى الشرق من البلاد، وأرسل إلى أبيه الشيخ الإمام يطلب ثمن راحلة له... إذ بدونها لا يستطيع أن يبقى أو يستمر في وظيفته، كما قال، وقد اقترض الشيخ الإمام ست ليرات ذهبية عثمانية وأرسلها إليه ليشتري بها حصاناً، وليصبح بعد ذلك، كما كنا نطلق عليه «خيَّال الحصان!» وقد اضطر الشيخ الإمام بسبب ذلك، إلى تحديد مصروف هذه الأسرة الكبيرة ذات الأفواه الكثيرة، بربع ليرة سورية في اليوم.. ومهما تكن قيمة هذا المبلغ المتواضع في تلك الأيام، إلا أنه لم يكن يكفي، على كل حال، إلا لصنع

(*) هو أنيس، ويناديونه أنس، وكان قاضياً نزيهاً، وانتخب عضواً في المحكمة العليا الدستورية...

طعام بسيط متواضع، يطبخ بالزيت أو السمن النباتي، فلا يعرف اللحم إليه سبيلاً!!

... وكنت أنظر خلال تلك المحنة، إلى الشيخ الإمام، فلا أراه إلاّ صابراً راضياً محتسباً كل ما يلقى من ضيق، في سبيل هؤلاء الأولاد الأعزاء، وهذه الزوجة الطيبة والأم الفاضلة..

... كان الشيخ الإمام، مؤمناً بعدالة الله، ولذلك فهو يستعيض عن العدالة المفقودة على هذه الأرض، بتلك العدالة المرجوة من السماء، وكان يرجو أن يعوضه الله عن هذا الظلم الذي يلحق به على هذه الأرض، بالجنة والروح والريحان، والنعيم المقيم، والحور العين، كأمثال اللؤلؤ المكنون... وبأنهار العسل واللبن والخمرة التي لا غَولَ فيها ولا تأثيم... وبلحم الطير على أنواعه، يقدم إلى أهل الجنة في صحاف من الذهب، بدلاً من فراريج البصل المشوي على منقل النار... ومن الحليب الممزوج بالماء!!!

... أما أخي الرابع أو رابع أخوتي، إذا شئتم، فقد أصبح شاعراً وأديباً وكاتباً كبيراً ومؤلفاً ولغوياً ونحوياً، وكان شديد الحب لأبيه الشيخ الإمام، شديد الاعجاب به والتقدير الكبير له، وكان أبي الشيخ الإمام عظيم الحب له والثقة به والاعتماد عليه، وكان أخي هذا يسارياً وتقدمياً ووحدوياً(*)...

.. أما الأخ الخامس، فقد كان شاعراً مطبوعاً وموهوباً(**)، وكان مفلساً وبائساً، وكان أطيب وأفضل إخوتي على الإطلاق، لأنه كان يحمل قلباً صافياً نقياً، وروحاً شفافة، وكان متبطلاً متعطلاً، كأكثر شباب حمص، في ذلك الوقت، وكان يقطع المدينة وشوارعها وضواحيها كل يوم، وقد تحول بسبب البؤس والبطالة، إلى شاعر ساخر، وكان لا يعجبه هذا العالم من حوله، ولا هؤلاء الناس الذين

(*) هو: عبد المعين...

(**) هو: عبد اللطيف...

يمرون به ويمر بهم، وهو ينظر إليهم في كثير من المرارة وعدم الاهتمام، وكان يطرق صامتاً عندما كانت أمي تقول عنه: (إنه مطبل بالدنيا مزمر بالآخرة).. ذلك لأنه كان في نظرها، لا يحمل نفسه مؤونة هذا الضيق الذي نلقاه، ولا يشغل نفسه بما نحن فيه، وإنما ينصرف عنّا وعن الدار إلى شعره وصحبه الشعراء الشباب البؤساء مثله، الذين كانوا يقطعون شعاب المدينة وأزقتها وبساتينها وضفاف «رعاصيها» على أقدامهم، وكان أخي هذا يحمل هموم الناس جميعاً، ولكنه كان صابراً، وكان ينفّس عن آلامه وعذابه وشقائه، وآلام وعذاب وشقاء الناس في بلاده، بهذا الشعر الذي ينثره طلياً حلواً أنيقاً على من حوله،وكأنه ينثر حوله العطر!!!

.. وكان الشعراء الشباب من أصدقاء وزملاء أخي هذا، وبينهم الشاعر التقدمي «عبد السلام عيون السود»، يقضون أيامهم سدى وكانوا كما كان الشعراء الصعاليك، يقطعون نهارهم وجزءاً كبيراً من ليلهم، وهم يتناشدون الأشعار ويتبارون في وصف هذه الحياة الشقية التي يحيونها وتحياها بلادهم ويحياها شعبهم ومدينتهم الميتة ووطنهم الواقع تحت نير الاستعمار، وكانوا ينظمون القصائد الوطنية الثورية والعاطفية والوجدانية، ويتغزلون غزلاً بريئاً، أو غير بريء، بهذه الصبية المختبئة وراء هذا المنديل الأسود الذي يحجب الرؤية فتتعثر صاحبته وهي تسير، أو بتلك المتسربلة بالملاءة السوداء لا يظهر منها أثر ولا تراها عين.!!

.. وكانوا لشدة حرمانهم، وغليان دم الشباب في عروقهم، يتصورون المرأة ويتخيلونها في منامهم وأحلامهم، وكأنها ساحرة في قمقم مختوم، تحت سبعة بحور... لا يستطيع أحد الوصول إليها، أو تقبيل يديها أو شفتيها، وسأعود إلى الحديث عن هؤلاء الشعراء البؤساء، في فصل قادم من هذه المذكرات...

.. أما أنا، فقد أصبحت أصغر إخوتي، أو آخر العنقود، كما يقولون، بعد أن مات أخي الصغير بالحمى، وذهب إلى السماء،

وأصبح عصفوراً من عصافير الجنة، كما قالت لي الخالة «أم نعيم» عندما حملتني إلى دارها وأنا صغير، ولعلّ فيّ من العيوب والسيئات، أكثر مما عند إخوتي والناس جميعاً، ولكنني أحاول، على كل حال، أن أتعلم من أخطاء وسيئات الآخرين، ما يقلل كثيراً من أخطائي وسيئاتي، وإذا لم أستطع، فإنما يشفع لي أنني لا أعرف الحقد والكيد، ولم أعرفهما في حياتي، لكن الإنسان لا يعرف، في الحقيقة، ما هو مقدر له، ولا يعرف كم سيرتكب من أخطاء وكم سيسيء إلى نفسه، وربما إلى الناس من حوله، عندما يكبر على أنني ما زلت عجينة طرية، إذا استطاعت يد صناع حانية أن تقومني، وتزرع روح الخير والمحبة والسلام في قلبي ونفسي، فسوف أكون إنساناً مستقيماً وسوياً... ومع ذلك فأنا أردد، وأنا أحاسب نفسي، قول الشاعر العربي:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه...

... وكل ما أرجوه، هو أن لا أرتكب خطأ فاحشاً أو فادحاً في حياتي، وأن أكون عند حسن ظن الناس بي، فلا أسيء إلى أحد، خاصة أهلي ومدينتي وأمتي وشعبي وبلادي، وهذا العالم من حولي !!

* * * * *

... كانت أمي قد اختارت غرفة في الدار، لم تتصدع ولم يتداع سقفها، كما حدث لأخواتها من غرف الدار من قبل، وزينتها بالطنافس التي صنعتها بيديها من بقايا أغطية وستائر قديمة، وفرشتها بسجادة عتيقة حال لونها وتهتكت خيوطها، وبان «صرمها»، كما كانت أمي تصفها وتصف كل الأشياء التي تبلى ولا يبقى منها كبير نفع، وكان في الغرفة موقد نحاسي مدور قديم، يتربع فوق صينية كبيرة تتربع هي الأخرى فوق جلد خروف أبيض، وكنا نطلق على هذه الغرفة اسم «الكعبة» لأنها كانت مغلقة في وجوهنا، نحوم حولها، ولا ندخلها، ونسترق النظر إليها في فضول من نافذة تطل عليها من صحن الدار، وكانت لا تفتح إلاّ للشيخ الإمام إذا أراد أن ينفرد بنفسه ويقرأ أو يفكر أو يكتب خطبة الجمعة، وكنا نلمح الكعبة، في رهبة وخشية، ونظن أن لها مثل ما للكعبة من قدسية ومكانة عظيمة..

.. وكان الشيخ الإمام لا يدخلها أو ينام فيها إلاّ قليلاً-وكان يحب أن يعيش بيننا ويختلط بنا، ويشاركنا طعامنا وشرابنا ومنامنا وهمومنا ومجلسنا وأحاديثنا وآراءنا ، وكانت جريئة ومتفتحة، حتى انه طلب من أمي أن تقيم له سريره الحديدي في غرفتنا، وكان لهذا السرير قصة غريبة عجيبة، مضحكة مبكية، إذ لا يكاد أبي يستلقي فوقه لينام، حتى تسقط قطعة خشبية من تلك التي توضع بين قائمتيه، ولا يكاد يتحرك في فراشه، حتى تسقط واحدة منها وتتهاوى على أرض الغرفة، وتحدث دوياً شديداً، ويهب أبي من نومه وفراشه مذعوراً، وهو يردد: (الله.. الله).. وتفسد عليه هذه الخشبة اللعينة أو تلك، نومه وراحته!!

.... ولم نستطع لضيقنا أن نصل بين هذه القطع الخشبية المستطيلة بعارضة ومسامير ندقها فيها، لنمنعها من السقوط كلما

تحرك أبي في فراشه... ولننقذه من هذا العذاب الذي سببه له هذا السرير!!

.. وكنا نسأله أن يشتري سريراً سواه، فينظر إلينا في صمت حزين ولا يجيب إلى أن ألقى بهذا السرير جانباً، ومد فراشه على الأرض، وقال لنا: (الآن أرتاح من هذا السرير اللعين، فالأرض بساط الله، وهي أوسع وأرحب!!)..

.. كنا نتحدث إلى الشيخ الإمام في أمور كثيرة تهمه وتهمنا وتهم بلادنا الرازحة تحت نير الاستعمار، حتى لنحس أننا نعيش مع أخ كبير، ونتحدث إلى معلم كريم، ولم نسمعه يوماً يشكو أو يتبرم من سوء حاله، وضيق ذات يده، بل إنه كثيراً ما كان يعتذر إلينا، لما يسببه هذا الضيق لنا من حرمان، وكان يزرع في قلوبنا المحبة والأمل، وحب الوطن وروح النضال ضد الاستعمار، وكان إذا اشتدت بنا الحال وخطر لأحدنا أن يتبرم ويسأل عن الرزق الذي وعد الله به عباده الصالحين، زجرنا في رفق وهو ينظر إلى السماء، ثم يلتفت إلينا قائلاً في عتاب وحب: (وهل أنتم أكرم من الله؟؟)، ثم ينشد بيتين من الشعر مما يحفظه:

إشتدي أزمة تنفرجي
قد آذن لَيْلُكِ بالبَلَجِ
وظلام الليل له سُرُجٌ
حتىّ يغشاه أبو السُّرُجِ

.. وكنا نأكل على طبق من القش، أو على طاولة صغيرة مستطيلة من الخشب الرديء، نجلس حولها على الأرض فوق «حصيرة» عتيقة، وكانت أمي تطبخ لنا طعامنا بالزيت تارة وبالسمن النباتي تارة أخرى، وكانت تقول لنا، ونحن نأكل هذا الطعام أو سواه من الأطعمة البسيطة، حتى لا نأتي عليه فلا يبقى منه شيء للغد: (نونو.. نونو... أدِّموا، يا أولاد.. لا تغرفوا يا أولاد؟؟) فيستحي منّا من يستحي،

ويغص بلقمته من يغص، فإذا كدنا نشبع أو لا نشبع، قالت لنا: (قولوا الحمد الله).. فنقولها راضين تارة وصابرين تارة أخرى، وننتزع أقدامنا من فوق الحصيرة، بعد أن غرزت أنيابها الحادة فيها وسببت لنا كثيراً من الألم، حتى لينحبس الدم فيها ويتجمد، فلا تزول آثاره إلّا بعد فترة طويلة مضنية.!!

.. وذات يوم رأيت شيئاً عجباً لا عهد لي بمثله من قبل، فقد عاد الشيخ الإمام إلى الدار بعد أن صلى بالناس صلاة العشاء، وأقبل علينا وهو يهدر كالسيل ويقرأ آيات من القرآن الكريم، ويضرب بعصاه الأرض، ورأيته يفتح باب الغرفة الممنوعة علينا، والتي كنا نسميها الكعبة، كما قلت، وتبعته، فإذا بي أمام أربعة رجال أشداء لوحت الشمس وجوههم، وارتفعت شواربهم حتى يكاد النسر يقف فوقها مزهواً، وكان يبدو عليهم الحماس المشوب بالقلق، وكانوا يجلسون على ديوان خشبي طويل مغطى بفراش من الصوف، وكانوا يضعون بنادقهم الطويلة في أحضانهم، فلما رأوا الشيخ الإمام يدخل عليهم، وقفوا في أدب يرحبون به ويحاولون تقبيل يده، فيمنعهم من ذلك كعادته، وهو يقول لهم: (أستغفر الله.. أستغفر الله، يا أولادي، فنحن الذين يجب أن نقبل أيديكم، بارك الله فيكم).. ثم جلس إليهم يسألهم عن أحوالهم وما يقع لهم ولرفاقهم الثوار في معاركهم مع الفرنسيين، بعد أن نشبت الثورة في كل أنحاء البلاد، في السهول والجبال والوهاد، ثم سمعته يتحدث إليهم عن الأجر العظيم الذي أعده الله للمناضلين والمدافعين عن الوطن، وأخذ يحثهم على القتال والنضال ضد الفرنسيين من أجل الحرية والاستقلال الوطني!!

.. وأذكر أن أحد الثوار الأربعة، واسمه خيرو الشهلا، دعاني إلى الجلوس بجانبه، وأخرج من كيس صغير من الورق شيئاً من فستق العبيد، كما كنّا نسمي الفول السوداني، ثم أخذ يلقي بحباته تباعاً في فمي، حتى امتلأ وكدت أختنق، وأخذت أبكي، فحملني الرجل بين

يديه، وهو يضحك، وأخذ يدور بي في الغرفة، ويطيب خاطري، حتى رضيت!!

.. وفي صباح اليوم التالي، تفقدت الرجال الأربعة، فلم أعثر لهم على أثر، وسألت أبي عنهم، فأخبرني خبرهم، وعرفت أن أبي الشيخ الإمام ورجل الدين، من الوطنيين، وأن الرجال الأربعة قد غادروا الدار مع الفجر إلى طاحونة «الأسعدية» على نهر العاصي، في ظاهر المدينة، لينضموا إلى رفاقهم الثوار في معاركهم ضد القوات الفرنسية، وليلحقوا بها الهزيمة وليحملوها، رغم أنفها، آخر الأمر، على الجلاء عن أرض الوطن. وقالت لي أمي: (إن من مات من هؤلاء الثوار في المعركة، فإنه يموت شهيداً، ويبقى حياً خالداً، أما من يقتل أو يموت من الفرنسيين فإن مصيره جهنم وبئس المصير)، وأوصتني بأن لا أتحدث في هذا الأمر إلى أحد من صبيان الحي، ولم أكن، في الحقيقة، رغم حداثة سني، بحاجة إلى من يوصيني بكتمان هذا الأمر، لأن حب الوطن والنضال في سبيله، قد رضعناه مع الحليب، ونما معنا في مهادنا، وكنا نعشق الحرية منذ نعومة أظفارنا..!!

.. وكبرت في عيني الدار والحي والمدينة والبلاد بأسرها، ومنذ تلك السن الصغيرة، بدأت أتعرف على قضايا الحرية في بلادي، وعند الشعوب، وأتمرس على النضال ضد الاستعباد، وضد الظلم والاستبداد، ولم أعد أبحث عمّا كان يبحث عنه الأطفال في مثل سني من لهو ولعب، وأخذت كلمات أبي الشيخ الإمام وكلمات أمي ترن في أذني وتستقر في ضميري، وهما يتحدثان إلينا عن الثورة السورية والثوار ونضال شعبنا ضد الاستعمار!!

.. وفي أحد الأيام، قبيل غروب الشمس بقليل، كانت قوة صغيرة من الجيش الفرنسي تطوق دارنا، ويصعد بعض جنودها من السنغال إلى سطح الدار، ويقف بعضهم عند مدخل الطريق المؤدية إليها، وكان يقودها ضابط فرنسي شاب، وكان يقف مع أركان حربه عند الباب.. وبعد قليل رأيت أبي الشيخ الإمام، يقبل كعادته بعد أن فرغ

من صلاة المغرب إماماً بالناس، وكان يسرع في مشيته كعادته، ويلوح بعصاه، ويقرأ آيات من القرآن الكريم، ولما كان «أجهر» ضعيف البصر، كما قلت، فإنه لم يرَ الجند من بعيد، ورآه الضابط الفرنسي الشاب، وهو يقبل غير هياب ولا وجل ودون أن يعرف أن الشيخ الإمام لا يراه ولا يرى جنده جيداً، أدرك أنه لا يوجد أحد في الدار من الثوار، وإلاّ لما كان أقبل عليه هكذا دون أن يخشى شيئاً، فأمر جنده بالنزول من سطح الدار، وأن يتجمعوا أمام الباب، فاستجابوا لأوامرهِ في لحظة، ثم لم يلبث أن عاد مع جنوده لا يلوي على شيء!!

... وقالت أمي: (إن الله صرفهم عنا ببركة الشيخ الإمام..)وقال أبي، وهو يشير إلى دار قريبة من دارنا، يسكنها واحد من أهل البلاد، يعمل في صفوف الفرنسيين. . .:(لعله هو الذي وشى بنا، ولكن الله سلم وغادر الثوار الأربعة الدار، قبل «الكبسة»(*) بيوم، وسوف اتحقق من أمره وأرسل من يراقب حركاته وسكناته وتصرفاته، ويمتحن سلوكه ووطنيته، فإذا ثبت أنه منحاز إلى الاستعمار فسوف يلقى جزاءه العادل.!!

.. لم يكن الشيخ الإمام بطلاً، ولكنه كان رجلاً، وكان مناضلاً مع أبناء هذا الشعب الطيب...

.. وعندما كنت أنظر إلى أبي الشيخ الإمام، كنت أنظر، في الحقيقة، إلى كل أبناء شعبنا، لأنهم روح الثورة وزندها وساعدها القوي وهم وقودها ونارها، وهم ضميرها وقلبها..

وأصبح أبي الشيخ الإمام، يمثل في نظري، روح هذا الشعب وضمير هذه الأمة التي كانت تصدح في صوت قوي، وهي في سجنها الكبير أنشودة وطنية من شعر الأستاذ نجيب الريس الصحفي الوطني وصاحب جريدة (القبس) الوطنية المعروفة يومئذٍ ، وهي :

(*) الكَبْسَة: كلمة تطلق على الحملة التي تداهم البيوت وغيرها من معاقل الثوار أيام الاستعمار.

يـا ظلام السجن خيم | إننـا نهوى الظـلامـا
ليس بعــد الليــل إلا | فجـر مجـد يتسـامى

* * *

يـا رنين القيـد زدني | رنـــة تشجــي فؤادي
إن في صــوتـك معنى | لــلأسى والاضطهــاد

.. كانت سورية في تلك الأيام، تلتهب بنار الثورة ضد الفـرنسيين، من أدناها إلى أقصاها، وكان شعبنا السوري في دمشق وغوطتها، وفي حلب الشهبـاء، وجبل الـزاوية وأريحـا، وكان أبنـاء شعبنا في جبـال اللاذقية وجبل العرب وحوران وغيرها من أنحاء سورية ومدنها وقراها، يقاومون بالتصميم والعزم وبـالحجارة كـل قوى الاستعمـار الفرنسي المدججة بالأسلحة الثقيلة وبالطائرات والدبابـات وكل أسلحـة الفتك والدمار..

.. وكـان الشيخ الإمـام، وهـو يستعـد كـل يـوم جمعـة للصـلاة والخطبـة، يحملني معه إلى جـامع الشيـخ عبد الله، وكنت أســير إلى جانبه وأكاد لا أدرك خطواته، وهو يسرع في مشيته، فإذا تخلفت عنه وقف ينتظـرني، ثم يأخـذ بيدي ويسرع مخـافة أن تفـوتـه الخطبـة والصلاة...

.. كانت المسافة بين دارنا ومسجد الشيخ عبد الله الواقع في أحـد أطراف المدينـة، لا تقل عن ثـلاثة كيلـومترات، وكـان الشيخ الإمـام يقطعها سيراً على الأقدام في دقائق معدودة، وهــو يتنكب عصاه كمـا يتنكب الجنـدي بنـدقيتـه، ويقـرأ آيـات من القـرآن الكـريم، وكنت أسمعه، وأنا إلى جانبه، وهــو يردد تلـك الآيات الكـريمة التي تحض عـلى قتال الأعـداء، دفاعـاً عن الحق والحريـة والخير، وعن الـوحدة والتـوحيد ونبـذ الشرك، ومن أجـل القضــاء عـلى الشر والأشرار، وفي سبيل الدفاع عن الكرامة والسيادة، فإذا وصلنا إلى المسجـد، صعد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليـه، وأخرج من جيبـه خطبة الجمعـة، وقرب أوراقها كثيراً إلى عينيه حتى يرى سطورها واضحة، ولا يكـاد

يفعل، حتى ينزل على رأس الفرنسيين بالويل والثبور، داعياً إلى استمرار وتصاعد الثورة، وكنت أجلس بين المصلين، وأنظر إلى الشيخ الإمام، في حب كبير، وأكاد أبكي فرحاً لما بذله من ذات نفسه في سبيل أهله وعياله وبلده ووطنه وأمته، ولم يكن يخشى، وهو يدعو إلى اشتداد وتصعيد الثورة الوطنية ضد الفرنسيين من على منبره، رقيباً ولا عيناً، ولم يكن يخاف أن يعتقل، لأن الفرنسيين، رغم كل غرورهم وحمقهم وشرورهم واستعمارهم الغاشم الظالم، لم يكونوا يجرؤون على التصدي لرجل دين بارز مثله، عرفوا منزلته بين قومه، وصدقه في الدفاع عن بلاده ووطنه وأمته وشعبه، فإذا انتهى من الخطبة والصلاة، خرجت معه وعدنا إلى الدار لتناول طعام الغداء، مما تيسر وصنعته أمي من طعام بسيط متواضع...

ولم يكن الشيخ الإمام وحده يفعل ذلك، وإنما كان كل الآباء في بلادنا يفعلون فعله ويناضلون مثله...

.. كان الشيخ الإمام يتقاضى عن خطبة الجمعة التي كان يلقيها كل ظهر يوم جمعة من على منبره في جامع الشيخ عبد الله أربعاً وعشرين ليرة سورية لا في الشهر، كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن في العام.. أي ما يعادل نصف ليرة سورية كل أسبوع، ولما سالت أبي الشيخ الإمام عن هذا الأجر الهزيل غير المعقول قال لي: (.. القصد هو أن نشعل نار الثورة ضد الفرنسيين ونحرض الناس على منازلتهم ومقاتلتهم والتصدي لهم، وعلينا أن نعبىء كل قوى الشعب ضدهم، ولا يهمني أخذت نصف ليرة على الخطبة كل يوم جمعة، أو أقل أو أكثر، وإنما يهمني أن نقيم الأرض ونقعدها ونشعلها ناراً تحت أقدام الفرنسيين)

.. وعندما عدنا إلى الدار وجدنا أخوتي يتجمعون ويتحلقون حول أمي في صحن الدار، ونظرت غير بعيد، فإذا منشورات قد توزعها أخوتي بينهم، وهم يقرأونها في صوت مرتفع وكل واحد منهم يحاول أن يرفع صوته فوق صوت أخيه، وكأنه يقف خطيباً بيننا، وكانت

المنشورات تحض على مقاتلة ومقاومة الفرنسيين، والدفاع عن الوطن والنضال في سبيل الاستقلال، لينعم الشعب بالحرية والسيادة والكرامة، وليعيش في ظل الديمقراطية والسعادة، وكانت هذه المنشورات تبعث في نفوسنا الأمل، وتعمق في أرواحنا حب الحرية والكرامة الوطنية، في عفوية وصدق وايمان، لا أعتقد أن إيماناً في الدنيا كلها يدانيه في قوته وصدقه وعمقه وعاطفته الجياشة التي تفوق كل عاطفة سواها، حتى كنا نحس بشيء كثير من السعادة والفرح والفخر والاعتزاز ونحن نقف مع شعبنا وبلادنا إلى جانب القضية الوطنية والنضال ضد الفرنسيين الذين يحتلون أرضنا ويذبحون أبناءنا وأهلنا وشعبنا..

... كان بعض الناس يأتون إلى الشيخ الإمام، ليقسم لهم الميراث كما تقضي بذلك الشريعة الإسلامية، وكان علم الميراث يسمى (الفرائض) وهو باعتراف أساطين التشريع في العالم، أعدل التشريعات على الاطلاق، من هذه الناحية، وكانت تأتيه من المهاجر البعيدة، رسائل يطلب فيها أصحابها تقسيم الإرث بينهم، وكان يدرسها ويقسمها في جداول ثم يردها إلى أصحابها عن طريق البريد، مقابل أجر زهيد يرده علينا لتستعين به أمي في تدبير الطعام والكساء لنا...

وكان الشائع بيننا، أن الشيخ الإمام إذا عاد إلى الدار بعد صلاة العشاء، يكون قد أنفق آخر ما لديه من قروش قليلة يشتري لنا بها بعض ما نحتاج إليه من طعام وشراب، فإذا دخل علينا مساء بما يحمله ألقاه بين أيدينا، وانصرف إلى غرفته، وهو يقول مؤمناً ومُسَلِّماً: (الخلق كلهم عيال الله...)!!

.. وكان إذا رزق في الغد، من الغيب، ليرة سورية أو أكثر من ذلك، يحمل الينا شيئاً من اللحم تصنع به أمي الكبة المشوية والموعودة من زمن بعيد.. فنطير من الفرح، ومن الشبع بعد حرمان من الكبة طويل... وتدب الحياة في الدار، وترتفع رائحة شواء الكبة إلى عنان

السماء، وترتد إلينا روحنا... ويعود إلينا روعنا.. ويفـارق الخوف من الجـوع، ولو يـوماً واحـداً، عيوننـا وقلوبنـا، وتحل السعـادة، محـل الشقاء، ويصدح من الفرح، أحد إخوتي بصوتـه الشجي، وهو يغني من ألحان مطرب الشرق الأستاذ محمد عبد الوهاب:

ردَّت الروح على المضنى معك

أحسن الأيـام يـوم أرجعك...

ويشـير إلى الكبة، وهي ملكـة المـائـدة، بـلا منـازع، ونضحـك.. وتضحك لنا الدنيا ساعة من زمان، لتعود وتتجهم بعـد ذلك، وتتقبض وتذيقنا من الضيق مالا يطاق!!

.. وكـان الشيخ الإمـام، إذا بقيت لديـه قروش قليلـة، بعـد التي أنفقها علينا في يومنا ذاك، ذهب إلى قهوة عند مصـلى«باب هـود» على طـريق طرابلس، وطلب من صـاحبها (نَفَس) تنبـاك عجمي، وفنجان قهـوة (عثملِّية).. وبعـد أن يقضي وقتاً طيبـاً بين النـارجيلة والقهـوة، يغـادرها، وقـد ارتفع الضحى، إلى غـرفته في الجـامع الكبـير، ليحل للناس مشاكلهم ويقضي لهم حاجاتهم، وليقول لهم حكم الشريعة فيمـا يعرض لهم من أمور دينهم ودنياهم، وليلتقي بعد ذلك بزملائه العلماء ورجال الدين الأجلاء، يحاورهم ويحـاورونه في شؤون الفقـه والقرآن والحديث واللغة والنحو وغير ذلك من شؤون الدين والحياة...

.. كانت أغلى أمنيـة للشيخ الإمـام هي أن ييسر الله له الحـج إلى بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة والصلاة في مسجـد النبي عليه الصلاة والسلام، والوقوف عند قبره الشريف والتبرك به وأخذ العبرة من سـيرته ودعـوته وعظيم مـا قدمـه للإنسـانية من حضـارة وخـير وعدل.. وكان إذا حـل موسم الحـج أو كاد في كـل عام، اغتم كثيـراً وبـدا عليه الحـزن والألم والهم، وكان إذا سمـع أن ناسـاً في حينـا «جـورة الشياح» أو في حي قـريب في مدينتنـا يستعـدون للسفـر إلى الحـج، في قوافـل على الجمـال، أو في البحر، تمنى أن يكـون واحـداً

منهم، ولكن ضيق ذات يده كان يحول بينه وبين السفر معهم أو مع غيرهم، وكان يكتفي، بعد أن ييأس، بالدعاء للحجاج بالوصول والقبول والعودة بالسلامة، ويوصيهم بأن يسلموا له على رسول الله، وأن يدعوا له وهم يطوفون حول الكعبة، أو وهم يقفون على عرفة!!

.. وكنت إذا رأيت الشيخ الإمام، وهو يكاد يتفطر قلبه شوقاً وحنيناً إلى الحج وزيارة الديار المقدسة أواسيه وأسري عنه قائلاً: (أن الله كتب لك في هذا العمر ثواب وأجر ألف ألف حجة، وثواب وأجر ألف ألف وقفة على عرفات، نظراً لعظيم ما قدمت وتقدم وما بذلت وتبذل من أجل أهلك وعيالك وبلادك، ولما شقيت وتشقى من أجل تأمين العيش لنا.. وكان يجيبني في شيء من الحب والحزن: (وما يدريك، يابني، بهذا كله، وأنت في هذه السن الصغيرة.. انك لتبدو لي وكأنك أكبر من سنك..) فأقول له: ولكني، يا سيدي، أعرف وأرى ما تلاقي وتعاني من أجلنا، وأخاف عليك أن يقعدك هذا الهم والهاجس في فراش المرض، فنجوع ونعرى ونتشرد في الآفاق... فيقول لي، وهو يمسح بيده الكريمة على رأسي: هون عليك، يابني، فوالله لا أتخلى عن واجبي نحوكم، ولو سعيت إلى رزقي على عكازين.. واعلم يابني، أن الله لن يتخلى عني وعنكم، مهما قتّر علينا في الرزق.. ألم ترَ كيف أسأل الله دائماً، بأن يستر الفقر بالعافية، فإذا كان قد ضيقَ عليّ في الرزق، كما ترى، فإنه لن يفجعني بصحتي وقوتي وعافيتي وقدرتي على التماس الرزق لكم، ولو كان رزق الكفاف، إذ المهم أن يكون رزقاً حلالاً وشريفاً..

.. وكنت أستمع إليه، ولا أحير جواباً، إذ أن كل ما يتصل بالله تعالى والتوكل عليه والثقة المطلقة به، والاعتماد في كل أمر عليه، لم يكن الشيخ الإمام ليقبل أي نقاش أو جدال حوله، فهو مؤمن بالفطرة أولاً، ثم بالسلوك ثانياً، وقد زاده ايماناً على ايمانه، وتسليماً فوق تسليمه، اقتناعه بهذا النهج الذي ينهجه والسلوك الفاضل الذي يسلكه، وهذا السعي الحثيث الذي يسعى إليه، من أجل نشر العدالة

والخير والحب والتعاون بين الناس جميعاً لا فرق بين أحد منهم بسبب الدين أو المذهب أو الجنس، وكان نضاله الوطني ضد الاستعمار يزيد في إيمانه، رغم كل ما لقي ويلقى من الضيق، مما لا يصبر عليه إلّا من كان مثله في ايمانه وصدقه وصبره!!

.. وكان أخي الموظف في دائرة المساحة العقارية في حمص، ما يزال يصرّ على أن لا يدفع لأبيه الشيخ الإمام شيئاً من راتبه ولم يكتفِ بذلك، بل أخذ يلح على أمه لتزوجه وتجد له عروساً يكمل بها نصف دينه... ويزيد بها من هموم وأعباء أبيه!!

وأمام إلحاحه، ولشدة ما لاقيناه من تصرفاته، استجابت أمي لطلبه وبحثت له عن عروس تصلح له ويصلح لها، وظنت أنها وجدتها، وكان اسمها (عَليّة)!!

.. وليلة عرس أخي هذا، قامت الأفراح في دارنا بينما كان الشيخ الإمام ينصرف إلى غرفته في الجامع الكبير، وينام فيها ليلته تلك، حتى لا يرى ولا يسمع، وهو الشيخ الإمام الورع التقي، ما يقوم به النساء في الأعراس، والتي لا يحضرها الرجال قط، من غناء وطرب وصخب، مما لا يحبه الشيخ الإمام ويحاول أن يبتعد عنه جهد طاقته!!

.. كانت أمي تحب أن تزوج أبناءها بيدها..، وأن تختار لهم زوجاتهم على ذوقها، وأن تسكنهم بعد ذلك في دارنا، لتزيد في ضيق الشيخ الإمام وعذابه، وكانت تبرر تصرفها هذا أمام أبي، بأنها تخاف على أبنائها أن يضلوا السبيل، خاصة أخي هذا الذي أسرعت وزَوَّجته كما كانت ترجو وتتمنى!!

.. وكنت ليلة العرس، مثل الأطرش بالزفة تماماً، كما تقول العامة، ولم ألبث أن نمت في حضن أمي فحملتني إلى فراشها وعادت لتواصل احتفالها بعرس ابنها موظف المساحة، أو كما كانت تسمى الكداسترو!!

.. وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كانت آثار العرس ما تزال ماثلة للعيان في الدار وفي عيون أمي ومن بقي لدينا من صديقاتها وقريباتها اللواتي دعين إلى العرس الذي استنفد كل ما كان في الدار من مؤونة كانت أمي تدخرها لأيام الشتاء!!

.. وسمعت امرأتين كانتا تجلسان في صحن الدار، على كرسيين صغيرين من القش، وقد رفعتا صوتيهما بالغناء.. فقلت لأمي:.. ولكن صوتهما من أنكر الأصوات، (وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير..)!! فأسرعت وأغلقت فمي بيدها وهي تقول لي:(لو سمعتاك لأقامتا علينا الدنيا، ولأفسدتا علينا فرحتنا بعرس أخيك ولذهبتا إلى أقصى المدينة ونشرتا عِرْضنا على بيرق.. فهما، يا بني، من «العَشَر» أي من المطربات البلديات، وهذه الست ندى لا تضحك للرغيف السخن.. وهذه أختها أشد بأساً وتجهماً منها.. حفظهما الله للأفراح والليالي الملاح، وللنكد والمشاكل!!)
.. وفي مساء ذلك اليوم، رأيت العروس (عَليَّة) تخرج من غرفة أخي العريس وهي تتثاءب وتتمطى ويسبقها عطرها.. ولم تكد تنظر إلى السماء حتى رأت، على ما يبدو، القمر وقد ولد تلك الليلة، فأسرعت إليّ وحملتني بين يديها، وعطرها النفاذ يزكم أنفي، وأخذت تقبلني في شغف وفرح، وهي تقول لي: لقد رأيت القمر على وجهك.. وأرجو أن يكون في ذلك الخير والتوفيق في زواجي من أخيك..، والصلاة على النبي أحسن!!!

.. ولم يطل الأمر بعروس أخي، بعد أن رأت القمر على وجهي.. فقد ذهبت إلى بيت أهلها قرب القلعة، ولم تعد بعد ذلك إلى دارنا قط، وأرسلت أمي إليها ثيابها وأشياءها، وأرسل أخي إليها ورقة طلاقها بعد أيام، وحار أبي الشيخ الإمام في تفسير ما حدث، إلّا أن أمي أخبرته بأن كل شيء قسمة ونصيب!!!

.. ثم سمعت أخي هذا يقول لأمه بعد أقل من شهر من ذهاب (عَليَّة) المسكينة إلى بيت أهلها وطلاقها: (أعزب دهر ولا أرمل

شهر).. ويدعوها في شيء كثير من الإلحاح والشدة لتجد له زوجة تكون، هذه المرة، بنت حلال، لها فم يأكل ولا يحكي..، تصبر عليه وتتحمله وتكون طوع بنانه!!

و(دَبَّرته)أمه هذه المرة.. ووجدت له عروساً، كانت إحدى قريباتها وكانت من الطيبات والصابِرات، إذ لم تكد تدخل دارنا بعد عرس متواضع صامت حتى شَمَّرتْ عن ساعد الجد والنشاط، تطبخ وتغسل وتنظف وتعمل طول النهار وجزءاً من الليل، ولا تنبس ببنت شفة، ولا تشكو أو تتذمر، وتأكل مما قسم الله لها وتحمل كل أثقالنا وأعبائنا، وتشاركنا همومنا وتخفض لأمي وأبي جناح الذل من الرحمة، وشاركتنا في احتمال الفقر والنقر(*)، حتى كدت أظنها لشدة صبرها وفرط طيبتها أنها لا تتكلم، وربما لا تأكل، إلاّ عند الضرورة القصوى، خوفاً من الموت جوعاً!!

وقد ربتنا وعاشت معنا أماً ثانية لنا، وهي تبذل كل شيء من أجل إرضاء زوجها الذي لم يكن يرضيه شيء، حتى هزلت وانطفأ ذلك البريق في عينيها وذبلت وذوت وهي ما تزال في ريعان الصبا والشباب، وتغيّر فيها كل شيء، إلا خلقها الكريم وصبرها العظيم وسلوكها الحسن، وقد وجدت أمي بفضلها الراحة بعد العناء، واعتمدت عليها في كل أمورنا وأحوالنا!!

.. وكنت أشفق على زوجة أخي هذه، وهي تتنقل بين المطبخ الذي تداعى سقفه، وبين البئر التي تنضح منها الماء، وبين (الموقدة)، وهي تطبخ الطعام وتنفخ النار تحتها، أو تجلس وراء طبق الغسيل لا تكاد تنتهي منه حتى ينتهي النهار، وكنت أسمعها، وهي تصب الماء الحار من الطبق وتسكبه على الأرض، تردد كلمات لم أكن أتبينها، إلى أن سألتها عنها، فأخبرتني هذه المسكينة الطيبة، أن الجن والشياطين

(*) النُقر: كلمة عامية بضم النون، وهي تعني ما يلازم الفقر من خلاف ونزاع ومشاكل لا اول لها ولا آخر!!.

تسكن تحت الأرض، وأنها على مسافة قريبة منّا، فإذا صببنا الماء الحار عليها انتقمت منّا وخرجت الينا دون أن نراها وتلبستنا فلا تتركنا ولا تخرج من أجسادنا، ولهذا فهي تقول لها عندما تصب المياه الحارة على الأرض: (دستور يا حاضرين.. دستور..) حتى تبتعد ولا تحترق بالماء الحار، وإذا لم نفعل ذلك ونحذرها وننبهها سلفاً، فإنها تدخل أجسادنا ولا تخرج منها، وربما حملتنا بعد ذلك معها إلى باطن الأرض!!

.. وتجمد الدم في عروقي، وأسرعت إلى أبي الشيخ الإمام أسأله أن يخبرني من أمر الجن والشياطين الخبر اليقين، ورويت له ما سمعته من امرأة أخي، فقال لي: (هذه خرافات وسخافات لا سند لها من علم أو دين، وإلاّ فلماذا يغتسل الناس في بيوتهم وفي الحمامات بالمياه الحارة، ولماذا يستعمل الناس المياه الحارة في مختلف الحاجات وفي المصانع والمعامل وغيرها؟؟)

وسمعت أمي قول أبي لي، فأسرعت تجادله، وهو العالم ورجل الدين، وتقول له: «سبحان الذي خلقك، يا أبا أنس، أتريد أن تعلم الولد الالحاد والكفر؟؟ ألا تعرف أن الجن والشياطين تنتقم منّا إذا لم نحذرها ولم نستأذنها لتبتعد عندما نصب الماء الحار على الأرض، حتى لا تحترق بها»!! فيضحك أبي من قولها ويتركها وشأنها، وكأنه كان يقول في نفسه: (يا قارىء العلم بين الجاهلين خطأ!!)

.. بعد أيام زارتنا خالتي (فوزية)، وهي شقيقة أمي الصغرى، وكانت متزوجة من رجل عقيم غبي في منتهى الغباء، بخيل في غاية البخل، صامت لا يتكلم، مخافة أن يكلفه الكلام غالياً.. ولعل الجهل المطبق والأمية المنتشرة في بلادنا كالوباء، جعلته غبياً إلى هذه الدرجة المزعجة.. كانت أمي كثيرة العطف على أختها، وكانت تخاف من عينها أن تحسدها، لأنها رزقت بأولاد كثيرين وهي لم ترزق بولد في حياتها، وكانت خالتي فوزية كلما جاءت تزورنا، بدأت توجه انتقاداتها الكثيرة لزوجة أخي الطيبة الصابرة، بدلاً من أن تساعدها في عملها الشاق

الذي أرهقها والذي لا تستريح منه طول يومها.. وكانت تقـول لها إذا رأتهـا تغسل ثيـابنا يـوم السبت مثلاً: (الله يصلحـك، يابنتي اليـوم الغسيل، بعيد الشر.. معناه أن واحداً من أهل الدار، سيـوضع عـلى المغتسـل،. أي سيموت..، وإذا رأتهـا تخيط وتصلح بعض ثيـابنا أو ثياب زوجها أو ترقع بعض جواربنا، يوم الأحد مثلاً، قالت لهـا: (فأل الله ولا فالك، بعيد عنك، يـابنتي، الخياطـة اليوم مـا مشكورة، يعني بعيد عنك، بدهم يخيطوا كفن واحد من أهل الدار!!!)

.. ولم تدع خالتي فوزية يوماً من أيـام الأسبوع دون أن تتحـدث عن خطر العمل فيـه، على أهـل الدار، وكـانت أمي تضيق ذرعاً بهـا وبأقوالها وتوجس خيفة مما تتحدث به، وكـان على أمي وامـرأة أخي أن تتحملا جهل خالتي وتدخلها في شؤوننا وازعاجها لنـا، ولو أن مـا تقوله كان صحيحاً، لكـان على النـاس أن يظلوا بـلا عمل ولا حـركة طول أيام الأسبـوع، بل طول أيام العمـر، وكثيرة جـداً كانت تنتشر أمثال هذه الخرافات والترهات، في مدينتنا وبلادنا، مع حكايات الجن والشياطين، وما يزال بعضها أو أكثرهـا ينطلي عـلى كثيرين في بـلادنا وفي غيرها حتى الآن، وربما إلى آخر الزمان!!!

.. وكانت الشائعات تملأ المدينة عن ظهور جني أو جِنية، على فلان أو فلانة، في هذا الحمام أو ذاك من حمامات السوق، وفي هذا الـزقاق أو ذاك من أزقة المدينة، وكثيراً ما كنا نسمـع عن إلقاء الحجـارة من قبل هذا الجني أو الجنية، على كـل من يدخـل هذا البيت أو ذاك من البيوت المسكونة بالجن في هـذا الحي أو ذاك، وعن مطاردتهـا للناس في هذا المكان أو ذاك، خاصة في الليل، وكان يساعد على تصديق هذه الحكايات والشائعات، ذلك الظلام المخيم على العقول من شـدة الأمية والجهل، وذلك الظلام المخيم على المدينة وطـرقها ودورهـا وكل زاويـة فيهـا، بسبب عدم وجـود الكهربـاء، إذ لم تكن قـد ظهـرت وانتشرت وأنارت السبيل والطريق أمام العيون والأبصار والعقـول، ولم تكن قد بددت حالك الظلام في الدور والطرق والأسواق!!

.. وكانت مدينتنا حمص، الصغيرة والفقيرة، تنام مع غروب الشمس، وكان الناس يلوذون بهذه الدور المبنية من الطين والقصب والخشب، كأنها الأكواخ، قبل حلول الظلام، خوفاً من الجن والشياطين، أو من اللصوص والسكارى والمتشردين، وكانت الأمهات يخوفن أولادهن وأطفالهن، بقصص الجن، وحديدان والسِمَّاوية والفول وغيرها من الحيوانات الأسطورية المخيفة، ليناموا.. وكان من الخير لهم ولأهلهم وأمهاتهم أن يناموا، قبل أن يستيقظ غول الجوع في بطونهم، وقبل أن يلحوا في طلب الطعام، فلا يجد أكثرهم إليه سبيلاً!!!

.. وأذكر ذلك اليوم الذي كان أسعد أيام عمري، عندما جاء عمال شركة الكهرباء، يمدون في دارنا، وفي الدور المجاورة لنا وفي أزقة الحي وفي الطرق، الأسلاك الكهربائية، وكنت أراهم في دارنا وهم يثبتون مفاتيح بيضاء من القيشاني على الجدران ويمددون الأسلاك إليها، ثم يضعون في الشريط المتدلي من السقف أو المثبت على الجدران، المصابيح البيضاء التي تشبه البيضة، ولكنها أكبر منها، حتى إذا انتهوا من عملهم، مددت يدي إلى مفتاح أبيض من هذه المفاتيح العجيبة، فإذا النور يسطع في الغرفة وفي أرجاء الدار، ورأيت أمي وامرأة أخي تجمعان الفوانيس وبلورات الكاز، وتلقيان بها في مكان مهمل من الدار، بعد أن حلت الكهرباء محلها ودخلت إلى مدينتنا ودارنا لأول مرة، وتبدد الظلام أمام الأعين، ولم يبق إلّا أن يتبدد من العقول والأفكار والأذهان والقلوب!!!

.. وصرت أتلهى باطفاء وإشعال الكهرباء والعبث بها، لأرى كيف تضج هذه البيضة الصغيرة بالنور، وكيف تبدد الظلام في مثل لمح البصر أو أقرب، وشبهت سريان الكهرباء في هذه الأسلاك والمصابيح الصغيرة، بالروح التي تسري في الجسد، فإذا غادرته وتخلت عنه أصبح جثة هامدة بلا حراك، وإذا ظلت الروح مشرقة متحركة كامنة فيه، ظل يؤدي مهمته في هذه الحياة!!

.. ولا أذكر أن الكهرباء انقطعت عن دارنا أو عن المدينة في ساعة من الساعات أو في يوم من الأيام، إلّا إذا جاء عامل الكهرباء وقطعها عنا بسبب عدم دفع ثمن ما صرفناه من الطاقة في هذا الشهر أو ذاك وكنت أغتم لذلك كثيراً وأحزن وأتألم!!

.. وإذا كانت الكهرباء لم تكن لتنقطع عن دارنا ومدينتنا ونحن يومئذٍ في أوائل الثلاثينات، فماذا نقول للناس في هذه الأيام، ونحن في أواخر الثمانينات وانقطاع التيار الكهربائي عن مدننا يستمر كل يوم عدة ساعات، وأين هو التطور العلمي والتقدم التقني والحضاري؟؟ وأين نصيبنا منه طوال هذه العقود من السنين والأعوام؟؟

.. على أن تخويف الأمهات لأطفالهن بالعفاريت والجن والشياطين وحُديدان، والسِمَّاوية، والغول وغيرها من المخلوقات الخيالية المخيفة، لم ينقطع رغم دخول الكهرباء إلى المدينة والدور والأسواق وسائر مرافق الحياة، لأن المهم دخول الكهرباء والنور إلى العقول، وأذكر أنني كنت وحدي يوماً في الدار، وجاء أحد أخوتي. وجلس حيث كنت أجلس وقد حل الظلام أو كاد، فقمت وأشعلت الكهرباء، ولا أدري ما الذي خطر لأخي هذا، فقد رأيته ينظر إليّ ويحدق بي طويلاً، ثم لا يلبث حتى يصرخ بي قائلاً: (أنا جني.. أنا عفريت.. أنا شيطان.. وصدقته.. وأخذت أصرخ من شدة الخوف، وتجمعت، وأنا أرتعد، في إحدى زوايا الغرفة، حتى لا ينقض عليّ هذا الجني الذي كان على هيئة أخي... ويحملني بين أنيابه المخلوقة من نار، ويغوص بي في أعماق الأرض!!

.. وعادت أمي في تلك اللحظة، فلما رأتني أبكي من شدة الخوف، وأشير إلى أخي الجني... نظرت إليه وعرفت الأمر، فقالت له غاضبة (بدك تجنن الصبي، الله يقبِّرنياك.. ولك ما بكفي أنك مجنون..، تنزل عليك النزلة والـصَّبِّة طول عمرك مطبل بالدنيا.. مزمر بالآخرة.!!)

.. ولما عاد أبي من صلاة العشاء، أخبرته أمي بما فعله أخي بي فزجره ونهاه عن العودة إلى مثلها!!

... وكانت أمي تأخذني معها إلى حمّام النسوان، كل عشرة أيام، وكان «حمّام النزهة» أقرب حمامات السوق إلى دارنا، وكانت ترافقها كنتها وأختها وبعض جاراتها، وكن يحملن معهن بعض الطعام يتناولنه في الحمام، بسبب طول الوقت الذي يقضينه فيه، حيث يصلن إليه عند الظهر ولا يخرجن منه إلّا بعد العشاء، وغالباً ما يكون الطعام في الحمام، من الأطعمة الشعبية المعروفة في مدينتنا، مثل «المجدرة» بالزيت والبصل والمخلل الحامض و «الشنكليش» الذي يحرق الأنفاس والحلوق، والجبن وبعض حبات من البرتقال اليافاوي، نسبة إلى مدينة يافا في فلسطين، والذي كان يصل إلى بلادنا بكثرة، وهو شهير بجودته وحلاوته، وكانت امرأة أخي تحمل ثيابنا في بقجة، فإذا انتهينا من الاستحمام بعد عدة ساعات.. لبسناها وهي مغسولة نظيفة، وكنت لحداثة سني أرى النساء في الحمام، وأشاهد الصبايا الكاعبات الحسان عاريات، فلا أشعر بشيء يشدني إليهن، ولا أعرف سر ومكان الفتنة في أجسادهن، ولا يثيرني شيء فيهن، وكانت الضجة في حمام النسوان، تصم الآذان، خاصة عندما كانت، لحسن حظنا، تصل عروس ستزف إلى عريسها مساء ذلك اليوم، فقدكانت النسوة يحطن بها إحاطة السوار بالمعصم، ويغسلنها بالماء والصابون والبيلون، وغيره من المواد ذات الرائحة الطيبة، وكأنهن يسلخن جلد خروف، يفركن شعرها بقوة فتصرخ وهي تكاد تختنق، وأسمعها تبكي بكاءً مراً، ثم يغسلن جسدها وأماكن معينة فيه بشدة، وهن يزغردن قائلات: «هاها يا بنت الأصول.. إن شاء الله أسنانك ما بتعض إلّا على البقلاوة والكنافة والمعمول»!!

... وينسى أهلها، أثناء غسلها، الفلافل والزيت والزعتر والشنكليش والبلغجة(*) والمجدرة، وسائر المآكل التي كان يسميها الناس في مدينتنا (حشوة مصران).. لقلة وندرة ما فيها من الدسم

(*) البُلْغَجَة: برغل مسلوق فيه بعض قطع الكوسا، تطبخ بإضافة بعض الزيت إليها...

والغذاء، ولا يتذكرون ساعتها، إلّا البقلاوة، والكنافة والمعمول، ويرجون لعروسهم أن لا تعض ولا تأكل إلّا البقلاوة والمعمول!!!

.. إنهم لا يذكرون، وذلك من قبيل الأحلام، غير البقلاوة والكنافة والمعمول بالفستق الحلبي، تأكلها العروس ليلة العرس، ويأكلها العريس(بالتي ضاعت أختها).. بعد العرس أو صبيحة العرس، في أحسن الأحوال، إذا لم يقدم كل ما فوقه وتحته مع فروض الطاعة والولاء للعروس وأهلها، وخاصة أمها !!

* * * * *

٣

.... عندما يحل موعد شهر رمضان المبارك، كانت الحياة في حينا ومدينتنا، وفي بلادنا وغيرها من البلدان الإسلامية، تتبدل فجأة، وكنا، نحن الأطفال، وكذلك النساء والرجال، نستعد لاستقبال شهر رمضان، شهر الخيرات والبركات...، ونفرح بمقدمه فرحاً عظيماً!!!

.. وكنت أتخيل رمضان، وأنا في تلك السن الصغيرة، في صورة ملاك مهيب الطلعة، طويل اللحية، في منتهى الوقار، ينزل من السماء، وكنت أذهب مع أطفال الحي، مساء ذلك اليوم الذي يلتمس الناس فيه رؤية هلال رمضان، إلى حيث كان مدفع رمضان، وهو مدفع قديم من أيام العثمانيين، يربض فوق تل صغير، ويقف عنده رجل بائس في أسمال بالية، وهو يجمع ما تيسر له من خرق وورق ويدفع بها مع شيء من البارود، إلى داخل فوهة هذا المدفع القديم استعداداً لاطلاقه، عندما يتلقى الأمر من موظف في المحكمة الشرعية يأتي إليه حاملاً قرار القاضي الشرعي بإعلان حلول الشهر الكريم..

.. وإذا كان حظنا، نحن الأطفال، عظيماً، وصل الخبر بحلول شهر رمضان، ونحن وقوف بجانب المدفع، فنرى الرجل يشعل الفتيل ويهرب بعيداً ونهرب معه، فينطلق صوت المدفع ويحدث دوياً ويترك بعده آثار دخان، وكان هذا المشهد من أروع وأحلى المشاهد بالنسبة إلينا فنعود ونحن في فرح عظيم، ونحكي لأهلنا ولأبناء الحي ما رأينا، ونبشر الجيران بحلول شهر رمضان، وتقوم الدنيا ولا تقعد تلك الليلة، وتقام معالم الزينات في الحارات والأسواق والأزقة، وفي المآذن والمساجد، وتتبدل حياة الناس كلها خلال هذا الشهر، وترى الناس في عجلة من أمرهم، يروحون ويجيئون، وهم يحملون ما لذّ وطاب من الأطعمة الدسمة والأشربة الطيبة، والمواد الغذائية المختلفة، والحلوى

الفاخرة، وكان الناس وهم يفعلون ذلك ويوسعون على أنفسهم وعيالهم في رمضان، رغم كل الضيق النازل بهم، لا يحسبون حساباً للديون التي ستتراكم عليهم وتثقل كاهلهم، مادام هذا الشهر الكريم المبارك، من أكرم الشهور عند الله!!

.. وكنت إذا أردت أن أصوم في الغد، بعد أن تكون دارنا قد تحولت في رمضان إلى مطبخ كبير، أتت أمي تمنعني من الصيام، وهي تقول لي: (ستصوم درجات المئذنة.. يابني، لأنك ما زلت صغيراً على صيام يوم بطوله).. وكان صيام درجات المئذنة هذا، من الصباح حتى الظهر، وكانت تلجأ إليه الأمهات لترضي به أولادهن وأطفالهن الصغار.. وقد جربت في خفية من أمي وأخوتي وأبي الشيخ الإمام، أن أصوم النهار كله، فأغمي عليّ، وأسرعت أمي لشدة خوفها عليّ، تدفع بيدها الطعام إلى فمي دفعاً، حتى لا أموت من شدة الجوع!!

وقالت لي أمي، وهي تدفع بالطعام إلى فمي: ألم ترَ كيف أن الجوع يكاد يطوح بالكبار، فكيف بالصغار (الفصاعين)(*) أمثالك!!

.. لم يكن أحد يجرؤ على الجهر بالإفطار في رمضان، وإذا وجد، فإنه يستتر ويختفي ويتناول الطعام سراً وخفية، بعد أن يغلق عليه الأبواب، حتى لا يبصره أحد، وكان رجال الشرطة يسوقون المفطرين من المتسولين والبؤساء والمتشردين والحمّالين إلى السجن، فلا يخرجون منه إلّا بعد انتهاء شهر رمضان وانقضاء أيام عيد الفطر السعيد.. وكان الناس إذا رأوا مفطراً في رمضان نهروه ونالوا منه وأساؤوا إليه، دون أن يعرفوا إن كان مسلماً مثلهم أم لا.. وكان الأطفال يلحقون به، قائلين في صوت مرتفع فاضح:

يا مفطر يابَمّ   يا دلاَّق الدم
دمك دم الخنزير   يربطوك بالجنزير..

(*) الفصاعين: كلمة عامية.. أي الأطفال الصغار...

وكان إذا أقبل رمضان، ازدحمت المساجد والجوامع بالمصلين، وامتلأت بهم على رحبها، خاصة عند صلاة العصر وصلاة العشاء، وكان الناس في رمضان يقبلون على طاعة الله والصلاة إقبالاً منقطع النظير، فالذين لم يكونوا يصلون قبل شهر رمضان، يتحولون فيه إلى عابدين طائعين راكعين ساجدين عاكفين.. فإذا انتهى رمضان وحل عيد الفطر السعيد، خلت المساجد والجوامع من روادها، حتى تكاد تظن أنها قد أغلقت أبوابها، لولا فئة قليلة من الناس تظل ترتادها وتصلي فيها الصلوات الخمس.. وكانت ظاهرة انصراف الناس عن المساجد والجوامع والصلاة بعد انتهاء وانقضاء شهر رمضان المبارك، تؤرق علماء المسلمين ورجال الدين، فيدعون الناس بعد عيد الفطر، في إلحاح تارةً، وفي رفق تارة أخرى، إلى الاستمرار في العبادة والصلاة وعدم الانقطاع عن ارتياد المساجد والجوامع، ولكن أحداً من الناس، إلاّ من رحم ربك، لا يستجيب لهم، وكان رجال الدين وهم يرون انصراف الناس عن العبادة والصلاة بعد رمضان، يرددون قول الله في القرآن الكريم: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

.. وكان صاحب مكتبة صغيرة تقع قبالة الجامع النوري الكبير، ويدعى الشيخ محي الدين الأيوبي، يراقب هذه الظاهرة ويأسى لها، وقد خطر له أن ينظم فيها شعراً وأن يجرب حظه في نظم الشعر، وهو لا يملك موهبته ولا أصوله، فقال:

الصوم جاء وكل الناس عبَّاد

وإن مضى الصوم كل الناس قد حادوا

ترى المساجد بعد العيد خاليةٍ ما فيها إلاّ مقاطيع... وزهاد•وقد نشر صاحب المكتبة هذا الشعر في كراسه، لشدة ما أقلقته هذه الظاهرة ولكثرة ما حزن لها!!!

.. وعندما تحين ساعة الافطار في رمضان، لا ترى أحداً في

الطريق، ولا تسمع حركة ولا صوتاً، غير أصوات الملاعق وهي تضرب في أعماق الصحاف والصحون التي امتلأت، ببركة رمضان الكريم، بأطايب الطعام، إلاّ في بيوت ودور وأكواخ الفقراء والمساكين المبنية بالطين وما أكثرها وأكثرهم، والذين لا يجدون ما يفطرون به بعد يوم طويل من الجوع والصيام، وكثيراً ما التمس هؤلاء البؤساء طعامهم من على أبواب الأغنياء والقادرين، فكانوا يقرعون عليهم الأبواب بعد حلول موعد الافطار، ويطلبون منهم الصدقة والاحسان، ويذكرونهم بالثواب الذي يثيبهم به الله إذا أطعموهم، فكان هؤلاء الناس الذين يجلسون حول موائدهم العامرة بأطايب الطعام والفاكهة والحلوى، يحملون إلى هؤلاء الفقراء والجياع فضلات طعامهم، أو ما بات منها أو منه وكاد يفسد، وكانوا يفضلون أن يحملوه إليهم بدلاً من القائه في تنكة «الزبالة»، وكان هؤلاء البؤساء يلقون بهذه الفضلات فوق بعضها في أوعية من التنك والصفيح، حتى تصبح خليطاً عجيباً من الطعام الحلو والحامض والمائع والجاف!!!

.. وكان الشيخ الإمام يعترض طريق أمي أو إمرأة أخي أو أحد أخوتي، إذا حاولوا دفع بقايا وفضلات الطعام القديم إلى هؤلاء المساكين، وكان وهو يفعل ذلك يقرأ علينا قول الله في القرآن الكريم: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.. ثم يأمرهم بأن يدفعوا إلى هؤلاء الفقراء نصيباً من الطعام الذي نتناوله في يومنا ذاك!!

.. ولا شك أن الصيام رياضة روحية وصحية، ولا ريب أنه يهذّب النفس والروح ويوقظ فيهما التفكير بالجوع والجائعين والبؤس والبائسين، وهو يدفع الصائمين، ولو خلال أيام هذا الشهر الكريم، إلى الشعور بمرارة الجوع، ولو أن أكثرهم يتناولون من الطعام في رمضان أكثر مما يتناولون في غيره، ويملأون بطونهم بأطايبه، ويصابون بالتخمة في أكثر الأحيان، فيسيئون بذلك إلى صحتهم وإلى حكمة الصوم التي فرضها المشرِّع للشعور بآلام وجوع الآخرين ولتقديم فروض الطاعة والعبادة لله رب العالمين!!!

.. ولكن مشكلة الجوع الخطيرة والمستمرة والأزلية، والتي ما تزال تؤرق الإنسـانية والعـالم، وتزداد كـل يوم خطـراً في البلدان التي لم تجد حلاً جذرياً ونهائياً وصحيحـاً لها، تحتـاج للقضاء عليهـا قضاءً مبرماً، إلى تبديل النظـام الاجتماعي والسيـاسي القديم، الـذي ينهب أقـوات الشعـوب ويستغلهـا ويسبب لهـا كـل هـذا الجـوع والبؤس والمرض، وإحلال نظام إقتصادي وسيـاسي واجتماعي جـديد، يكـون فيـه الشعب وتكون الشعـوب هي سيدة يـومها وغـدهـا ومستقبلهـا ومصيرها، وهي صاحبة التصرف المطلق في أمورها وثرواتها وأقـواتها وحياتها، لتعيش سليمة وكريمة ولتزدهر الحياة وتتقـدم وتتخلص من كل ما يعلق بها من شوائب غـريبة وبعيـدة عن أهدافهـا الإنسانيـة الخيرة التي تبحث عن الرخـاء وانقاذ الشعـوب من الجوع والحـاجة والفقر والمرض والجهل، وتقيم صرح حياة سعيدة كريمة يرفل الناس في ظلها بحلل السعادة والكرامـة والسيادة، وتـزيل من عيـون الناس الخـوف من الجوع والفقـر إلى الأبد، فقـد ظل الجـوع، ومـا يـزال، مأساة إنسانية مروعة، تحطم روح الإنسان وتحوّل حياته إلى كابوس ثقيل مخيف لا يطاق ولا يحتمل !!

... ولم أكن أعلم أنني عنـدمـا كنت أحـاول الصـوم في رمضـان وتنهاني أمي عن ذلك بسبب حداثة سني، وتسمح لي بصيام درجـات المئذنة، كما قلت قبل قليل، لترضي بذلك رغبتي الطفولية، إذ لا يـوجد في الحقيقة وفي الشرع صيام اسمه درجات المئذنة، ان الجـوع يرهب أهـل بلادي، بـل وأكثر سكـان البلدان الأخـرى في هذه المنطقـة وفي غيرها من مناطق أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وفي أقطـار كثيرة في العـالم، وأن أزمة جـوع مزمنـة هددت عـلى مر الأزمنـة ملايـين بـل عشرات ومئات الملايين من سكان هذا العالم، وأوردتهم موارد الهلاك والمـرض وعـرضتهم للمـوت، وأن المـلايـين من بني البشر مـا زالـوا يموتون من الجوع والبؤس والمرض.''

... وكان بائع الحلاوة «السمسميّـة»، ينتظر حلـول شهر رمضـان

بفـارغ الصبر كـل عام، فـلا يكاد يبـدأ حتى يقوم منـذ الليلة الأولى بتحضير بضاعته ووضعها في طبق يحمله على رأسه وقد أشعل شمعة في وسطـه، لا تلبث أن تنطفىء، لشدة الـرياح في حمص، في الصيف والشتاء، وفي الليل والنهار على حد سواء، ثم يدور ببضاعته في الأزقة والأحياء في ليالي رمضان، وهو ينادي على حلاوته نـداء شجياً يختلط بـالحـزن والأمـل، واليـأس والـرغبـة في العمـل، وبـالتعب والنصب والارهـاق، وبالخـوف على الأهـل والعيال من الجـوع، حتى إذا باع بضـاعته وكـاد يحل وقت السحـور، تحول المسكـين إلى (مُسَحِّر) أو مسحراتي، على لغة أخوتنـا أهل مصر، وحمـل طبلته الصغـيرة وأخذ يضرب عليها بقطعة مستطيلة من الجلد، وهـو يقرع الأبـواب ويدعـو الناس إلى أن يستيقظوا من نومهم حتى لا يفوتهم طعـام السحور ولا تفـوتهم صلاة الفجـر بعده، فيفـوتهم عندئـذ رضوان الله، وتفـوتهم طاعته في رمضان!!

.. وكـان الرجـل يحمـل بيـديـه سطـلاً من الصفيـح وكيسـاً من الخيش، ويضـع في الأول ما يقدمه لـه الناس من طعـام قديم أو غـير قـديم، ولا يهمـه إذا اختلطت في هـذا السطـل، أو الـوعـاء، الكبـة بالكوسا.. والمقلوبة بالشـاكريـة والحلو بـالحامض، لأن المهم هـو أن يحمل ما استطاع الحصول عليـه، إلى أهله وأولاده الجيـاع ليأكلـوا ويشبعوا، ولو حل وقت الإمساك عن الطعام قبل حلول الفجر.. لأنهم في أغلب الأحوال من الصغار والأطفـال، الذين لا يصـومون، بـل لا يجدون ما يفطرون به عندما يحل وقت الافطار!!

.. وكنت أحب أن أستيقظ مع أبي وأمي وأخوتي وقت السحور في رمضـان، وكنت أرى أخوتي وهم يقـومون من فـراشهم، بعـد عنـاء ويتمـايلون ويفـركون أعينهم، ويتمنـون لـو عـادوا إلى فـراشهم ولم يتناولوا طعام السحور، ولكن أمي كـانت تصرخ فيهم وتناديهم قـائلة لهم: «يا كفار.. قوموا إلى السحـور وتوضـأوا واذهبوا مـع أبيكم إلى الصلاة !!»..

ويخاف أخوتي ويقومون إلى حيث يوضع طعام السحور ويصيبون منه ما تيسر وربما وضعوا اللقمة في أنوفهم بـدلاً من أن يضعوهـا في أفواههم لشدة نعاسهم، ثم يقومون، وهم يتثاءبون، إلى البئر في طرف الدار، فيتوضأون ويلبسون ثيابهم ويخرجون مع أبيهم الشيخ الإمام إلى الجامع الكبير ليصلوا صلاة الفجر.. وهي صلاة في رمضان لا يحلم بمثلها المؤمنون في غير رمضان...، وأما أنا فأشيعهم مع أمي إلى الباب، وأعود إلى فراشي الدافيء، وأنام ملء جفوني حتى الصباح، دون أن أخاف من القيام عند السحور ومن الصيام طول النهار، ومن الصلاة خمس مرات في اليوم، ومن صلاة التراويح، لأنني ما زلت صغيراً، لم تفرض عليّ هذه الصلوات، بعد!!

.. وكان الناس في رمضان، إذا انتهوا من طعام الافطار، وأصابوا من الطعام ما أصابوا، بعد جوع استمر طول النهار، استلقوا على ظهورهم، لكثرة ما أكلوا من الطعام، وما شربوا من الماء والأشربة المختلفة، كالقمر الدين والتمر هندي والتوت الشامي والسوس والخشاف، وكانوا يعانون لكثرة ما أكلوا بعد هذا الجوع الطويل، من ثقل في رؤوسهم وبطونهم، ولكن العاقل الحكيم بينهم كان لا يستوعب كثيراً من الطعام والشراب عند الافطار، ولا يملأ جوفه حتى الحافة، وإنما يتناول لقيمات، وينتظر بعض الوقت، ويصبر قليلاً قبل أن يأكل في اعتدال وأناة، فلا يقبل على الطعام، وكأنه يريد أن ينتقم من هذا الجوع الطويل!!!

.. لكن الجائع لا يستطيع أن يصبر على الجوع إذا قدم إليه الطعام، ولا يستطيع أن يكون عاقلاً ولا حكيماً، أمام أطايب الطعام ولذيذ الشراب، وفي هذه الحالة لا تكون الحكمة والغاية من الصيام قد تحققت تماماً، كرياضة بدنية وروحية واجتماعية وإنسانية، وإنما تكون قد تحققت كعبادة وفريضة مقدسة، ولهذا كان أبي الشيخ الإمام إذا حل موعد الافطار وارتفع أذان المغرب، تناول بملعقته لقمة صغيرة من كل صحن على المائدة، ثم انتحى جانباً وتناول شيئاً من

القهوة، ثم قام فصلى المغرب، لأن صلاة المغرب في رمضان لا تكون إلّا في البيوت، لحلولها مع موعد الافطار،ولا يصليها في المساجد والجوامع، إلّا من كان معتكفاً فيها من الزاهدين والصالحين، أو من كان يقيم فيها من الفقراء والبؤساء والمساكين، الذين لا مأوى لهم إلّا في صناديق الموتى التي توضع عند مداخل المساجد والجوامع، أو على أبوابها وفي أطرافها!!

.. وكان الشيخ الإمام إذا انتهى من صلاة المغرب ومن شرب قهوته وتدخين تبغه، استعد للذهاب إلى الجامع الكبير ليصلي بالناس صلاة العشاء والتراويح، وهذه الصلاة الأخيرة لا تكون إلّا في رمضان، وهي سنة وليست فرضاً، ولهذا فإن بعض المصلين ينصرفون إلى بيوتهم وسهراتهم الرمضانية بعد أن يؤدوا صلاة العشاء، ويدعون صلاة التراويح أو أكثرها بعد أن يتعبوا منها!!!

.. نسيت أن أحدثكم عن «إمساكية» رمضان، فقد كانت أحلى هدية يقدمها أبي الشيخ الإمام إلينا بعد أن يأتيه منها عشرات النسخ أقوم متطوعاً فرحاً بتوزيع نسخ منها على الأقرباء والجيران!!

.. وكان المستشار الفرنسي يأمر متصرف المدينة، أي المحافظ كما يسمى الآن، بأن يقوم بتمثيل السلطة في رمضان، وفي الأعياد، وفي المولد النبوي الشريف ورأس السنة الهجرية، وأن يحضر الصلاة مرتين في كل أسبوع من شهر رمضان، وصلاة وخطبة الجمعة أيضاً، وأن يذهب إلى المسجد الجامع الكبير في موكب رسمي، ليؤكد للمؤمنين الصائمين حرص فرنسا على شعائر الدين وضمان إقامتها على الوجه الأكمل... وأن فرنسا تدافع عن الدين وترغب رغبة صادقة بانتشاره وازدهاره، وهي في الحقيقة، من أعدى أعدائه!!!

... وكان المتصرف، يحضر إلى الجامع الكبير، وفي موكبه الرسمي، ويصلي وراء الشيخ الإمام صلاة الظهر أو العصر، ويتظاهر بالتقوى والصلاح، وكان يخرج من جيبه قبل الصلاة وبعدها، سبحة طويلة ذات حبات كثيرة سوداء فيها مئة حبة أو أكثر.. يعبث بها ويتظاهر

بأنه يوحد الله مئة أو ألف مرة، وكان الشيخ الإمام لا يلتفت ولا ينظر إليه، بل كان يشيح بوجهه عنه، ثم يغادر محرابه بعد الصلاة ويدع المتصرف دون أن يسلم عليه أو يكترث به، فلا يجد هذا بداً من مغادرة المسجد الجامع، وهو حائر، والمستشار الفرنسي حائر معه حول الوسيلة التي يمكن معها ترويض الشيخ الإمام وحمله على مهادنة الاستعمار وعدم التصدي له!!

.. إن الاستعمار يعتمد أكثر ما يعتمد من أجل تأكيد وتكريس وجوده، على استغلال الدين ورجال الدين والضحك على عقول الناس البسطاء والايحاء بأنه مؤمن بالله، وأن على المؤمنين ورجال الدين، والحالة هذه، أن يسيروا في ركابه ويدافعوا عن مصالحه ووجوده، ويطلبوا إلى الناس عدم الثورة عليه أو التصدي له، وكان يجد بعض رجال الدين الذين يسيرون في ركابه، يسوغون استعماره واحتلاله للبلاد واستعباده للشعب، بما جاء في القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم﴾.. ويدعون كاذبين، بأن معنى الآية الكريمة أن يطيعوا أولي الأمر، أي هؤلاء الحكام الذين يستعمرون بلادنا ويحكمونها بالحديد والنار، ويذبحون، ويقتلون شعبها، ويتصرفون بمقدراتها ويسومون أبناءها سوء العذاب والاستعباد والاضطهاد!!

.. وكان إذا مضى أكثر شهر رمضان المبارك، ولم يبق منه إلاّ القليل، قام الناس في المآذن والأحياء يودعونه بالأناشيد والموشحات والقصائد الدينية، ويتذكرونه بالخير، ويتحدثون عن خيراته وبركاته التي لا تحصى ولا تنسى، وكان بعض الناس يبكون من شدة الحزن على فراقه!!!

.. وكنت أشارك أطفال الحي والمدينة، في وداع رمضان، في المآذن والساحات، فنقف بعد صلاة العشاء، قريباً من مسجد الحي، وننشد في صوت واحد:

فـودعـوه ثـم قـالـوا لـه

يـا شـهرنـا هذا عليـك السلام

يـا هـاشمـي مني

عليك السلام...

.. وكان إذا اقترب عيد الفطر السعيد، ولم يبق من شهر رمضان إلا ثلاثة أيام، أقبل الناس على شراء الألبسة والأحذية الجديدة أو اصلاح وتجديد القديم منها بمناسبة العيد، وكانت أمي، إذا اشترت لنا ألبسة وأحذية جديدة بعد أن تكون القديمة قد بليت ولم تعد تصلح لشيء، حملناها بين أيدينا، ونحن في أقصى حالات السرور والفرح، ثم وضعناها ليلة العيد في فراشنا، ونحن نضمها إلى صدورنا وكأننا نضم صبية كاعباً، ثم نقلب الألبسة بين أيدينا، ونتمنى أن تبقى هكذا جديدة فلا تصبح بعد ذلك قديمة.. وما أن يطلع فجر العيد، وتنطلق أصوات المدافع مؤذنة بحلوله، حتى نهب من فراشنا في فرح طفولي غامر، فنجد أمي قد أعدت لنا وعاءً كبيراً ملأته بالماء والورد والياسمين وزهر الليمون والرياحين، فنغسل وجوهنا به، ولا أنسى ما حييت طيب ذلك العطر الفوّاح، ولا ذلك الصباح... ثم تأمرنا بأن نلبس ثيابنا الجديدة وأحذيتنا، فلا نكاد نفعل، خوفاً عليها، ثم تمد لنا يدها الكريمة لنقبلها، فنفعل في كثير من الحب والعرفان بجميل وعظيم ما تصنع هذه الأم من أجلنا، وما تبذله في سبيلنا.. فإذا عاد الشيخ الإمام من صلاة العيد، وقد تطيب بأحسن الطيب، تلقيناه في حفاوة بالغة عند الباب فنقبل يده الكريمة ونطلب مرضاته.. فيقبل علينا سعيداً راضياً، ويوزع علينا «العيدية»، وكانت لا تزيد في أحسن الأحوال، على عشرة قروش سورية، وكنت اندفع نحوه من شدة حبي له، وأتمسح بجبته السوداء، فينحني ويضمني إليه، فأدفن وجهي في صدره وأشم رائحة الجنة في اعطافه وبين ثنايا ثيابه النظيفة، فلا تسعني الدنيا من فرحتي بأبي الشيخ الإمام وبالعيد و«العيدية»، ثم أنظر إلى السماء، وكأن لها في صباح

العيد، شأناً آخر، وأسألها أن تمن على الشيخ الإمام بالعافية، والرزق الكثير، يحل به أزمته ويفرج ضائقته...، وأبعد عن خاطري، ذكرىالبؤس والجوع والفقر، في هذا الصباح الذي تشرق فيه علينا شمس العيد السعيد!!!

.. وتقام في العيد منذ الصباح الألعاب في الأزقة والحارات والأحياء، وهي خاصة بالصبيان والبنات، كالقلابات والدويخات، والمراجيح، وينتشر في ساحاتها باعة المخلل، و«حلي سنونك»... والبزر والقضامة وغير ذلك من المآكل والأشربة والحلوى، فنسعى إليها وننفق عيدياتنا كلها عليها، ونتناول منها ما لذّ وطاب لنا، وإن اختلط بالغبار والتراب، ووقف فوقها الذباب... وكان هناك بعض الحمير والبغال المزينة بمختلف الزينات، كما كان هناك الضبع الكاسر الذي جاء به صاحبه من البرية، ووضعه في خيمة في طرف الحي، وجعل أجرة الفرجة عليه نصف قرش، وكنا نخاف أن يهجم علينا، ونحن نرى صاحبه يعذبه ويضربه ويدخل العصا بين مخالبه وأنيابه، وكنا نشمت من ذلك الضبع الذي تحدثنا عنه أمهاتنا، وكيف كان يأكل الصبيان وحتى الرجال إذا انفرد بهم، وكان جائعاً في ليلة باردة من ليالي الشتاء، وكنا نخاف عندما نأوي إلى فراشنا، ونحن نسمع أمهاتنا يتحدثن عن أفاعيل الضباع، فنغمض أعيننا حتى لا يتراءى شبح الضبع أمامنا، وإن كان سيظهر لنا في أحلامنا.. إذ لم يكن ما يخيفنا في هذه الدنيا كلها مثل الضبع... ولم نكن نعلم أننا عندما نكبر سنرى ضباعاً ووحوشاً آدمية، أشد قسوة وغلظة من هذا الضبع الذي لم نكن نراه، على كل حال، إلاّ في الأعياد، وهو مقيد بالأغلال، يضربه صاحبه وينتقم منه لكثرة ما أكل من لحوم الناس، بينما الذين يأكلون لحوم الناس، من الناس والبشر، يسرحون ويمرحون بيننا، وربما كنا منهم ونحن ندري أو لا ندري!!.

.. وكنّا نشتري في العيد مسدسات صغيرة من الصفيح والتنك «ندكُّها» بالفلين، وفيه شيء من خليط البارود الخفيف، ونضغط على

زنادها فيخرج منها صوت نتصور معه أننا قتلنا أعداءنا المستعمرين الذين يحتلون أرضنا ويسومون شعبنا سوء العذاب!!!

.. وكنا نركب الحمير والبغال المزركشة والملونة وفي أعناقها أجراس تصدح.. مقابل تصف قرش، ونقطع مسافة قصيرة بين ساحة الألعاب وباب السوق، ونحن نسوقها ونضربها!!

ولم نكن نعلم، خاصة نحن أبناء الشعب العربي، أنه سيأتي زمان يركب فيه بعض الحكام علينا، كما نركب نحن الأطفال في العيد على هذه البغال والحمير!!

... وكان إذا انتهى عيد الفطر السعيد، كما انتهى رمضان قبله وكما ينتهي هذا العمر كله... سمعنا أمي، وهي تتنفس الصعداء وتردد ذلك المثل العامي، الذي كنّا نكرهه وتنقبض له صدورنا: (خلص العيد وقَلَقُهُ وجاء المعلم وفَلَقُهُ)... أي انتهى العيد.. وانتهى معه الازعاج.. وجاءت المدرسة وجاء المعلم ومعه الفلق، بلغة أهل حمص، والفلقة بلغة أهل دمشق، وحان موعد عودة الأطفال إلى المدرسة، حيث ينتظرهم المعلم، وعصاه وفلقه وعذابه!!

والفلق آلة لعينة من خشب تربط بحبل يشد على قدمي التلميذ، ثم ينهال المعلم عليهما بالضرب، بعد أن يلقي التلميذ على ظهره، فيستجير ولا مجير.

.. وتكاد تشعر أن العربي منذ الطفولة يربى، مع الأسف، الشديد، وخلافاً لأصول التربية، على الترهيب والتخويف بالضبع والوحوش الأسطورية وبالجن والشياطين تارة، وبعصا وفلق المعلم أو شيخ الكتاب تارة أخرى، وأن العربي عندما يكبر، يلاقي، كما نعرف، وكما يلاقي كل عربي، التهديد والوعيد والعذاب والارهاب في رزقه وسلامته وحريته، ويتعرض لمختلف فنون وأشكال الاضطهاد والهوان!!.

.. وهكذا نرى أن العربي، في هذا العصر، وربما في كثير من

العصور قبله، لم يعرف الحياة الديمقراطية التي تحترم انسانيته منذ طفولته، ولم يعرف الحرية منذ نعومة أظافره، ونجده منذ طفولته وإلى شيخوخته، ومن مهده إلى لحده، فريسة للخوف والارهاب وقد أخذا بخناقه، فلم يعد يستطيع أن يتحرك ولا أن يعيش حراً سعيداً كريماً!!

.. وكانت أمي، وهي تخوف إخوتي بالمدرسة والمعلم والعصا والفلق، تنسى أن الديون التي تراكمت على الشيخ الإمام، وربما على الآباء جميعاً، بسبب النفقات الاستثنائية في شهر رمضان المبارك، وفي عيد الفطر السعيد، سوف تزيد من ضيقنا، ومن عذاب الشيخ الإمام، ربما إلى عدة أشهر، أو إلى أن يأتي العيد القادم، واننا سنعاني من جديد، بعد أن توسعنا في الانفاق في رمضان والعيد، أزمة لا نعرف كيف نخرج منها بسلام، وأن أصحاب المحلات التجارية والبقاليات والباعة، لن يصبروا كثيراً، وسيطالبون الشيخ الإمام في آخر الشهر، ليدفع لهم ديونهم، وليرد إليهم ثمن ما اشترى لنا من ثياب وأحذية وأغذية وحلوى في شهر رمضان وعيد الفطر السعيد!!.

... وأخذ أصحاب الدكاكين من البقالين في حي «جورة الشياح» يطالبون بديونهم وحقوقهم التي لهم على الشيخ الإمام، حتى إذا كان آخر الشهر أرسل أحد أخوتي ليقبض راتبه التقاعدي الذي لا يزيد على سبع ليرات، وراتبه من الإمامة والذي لا يزيد على عشرين ليرة، وطلب إليه أن يسرع ليسدد الديون التي عليه لأصحابها وذكره بالقول المأثور: «الدَّيْنُ ذُلٌ في النهار وهمٌّ في الليل» وأوصاه أن لا ينسى بعد تسديد الديون، الطلب من أصحابها شطبها وحذفها من دفاترهم حتى لا يطالبوه بها من جديد، ويفعل أخي ما أمره به، فنراه وقد سري عنه وارتاح!!

... وبعد ذلك بأيام خرج الشيخ الإمام من الجامع الكبير بعد صلاة العشاء، وكنت اتبعه كظله، ولم نكد نصل إلى الطريق الواقع

قبالة الجامع حتى انهالت علينا الحجارة من كل ناحية، ونظرنا فإذا بنا نرى عند بوابة سوق الجوخ، فئة من شباب أحد الأحياء، تقتتل مع فئة أخرى من حي آخر، وكانت كل فئة تحاول التغلب على الأخرى وطردها وإلحاق الهزيمة بها..، وكانت كل فئة تستخدم السكاكين وأمواس الكباس والعصي والحجارة والحبال وأسلاك الحديد وتنهال بها على الأخرى، وكان الجميع يلبسون «الشراويل» السوداء العريضة والصداري ويلفون الشالات المطرزة حول بطونهم ويتعالى الصراخ ويشتد القتال، وما كاد هؤلاء المجانين يرون الشيخ الإمام وهو يتقدم نحوهم ويصرخ في وجوههم ويزجرهم ويلوح بعصاه في الهواء، حتى تفرقوا ولم يعد يظهر لهم أثر.. وسمعت أبي وقد استبد به الغضب مما رأى، يقول لي: «يابني، لقد وحّد الإسلام العرب وجعل منهم أمة ذات رسالة انسانية كريمة، بعد تفرقهم قبائل وشيعاً، وبعد الجهالة والجاهلية وقيام الغزوات والحروب بينهم، وها نحن نرى في هذه الظاهرة، تلك الروح العصبية والجاهلية التي تذكرنا بما كنا عليه قبل الإسلام، وما كان يقع بين عشيرة وأخرى أو بين حي وآخر من أحياء العرب، وما يدرينا أن تصبح هذه الظاهرة الخطرة عادة فينا بدلاً من أن ننصرف إلى مقاتلة ومنازلة المستعمر والتصدي له وحمله على الجلاء والرحيل، إلى غير رجعة، عن أرضنا وبلادنا... ورأيت الشيخ الإمام يشتد غضبه بعد أن رأى هذا الاقتتال بين أبناء البلد والحي الواحد، ولم يكد يقبل عليه بعض الرجال عند باب السوق ليسلموا عليه وليطلبوا الدعاء منه كعادتهم، حتى صرخ في وجوههم قائلاً: «ويلكم ماذا كنتم تصنعون وأين كنتم... عندما كان هؤلاء المجانين يقتتلون فيما بينهم، لمجرد الرغبة الجامحة والجاهلة بالاقتتال، وهم أبناء هذه المدينة الطيبة والمناضلة، ولماذا لم تضربوا على أيديهم ولم تحولوا دون هذه الظاهرة الخطرة؟؟ وبدلاً من أن نستعد لمقاتلة الفرنسيين، نواجه هؤلاء المجانين بالصمت وعدم الاكتراث...»!!

... ووعد الرجال الشيخ الإمام أن يسرعوا في الحال للقضاء على هذه الظاهرة، ثم التفت إليّ قائلاً: «ان هؤلاء، يابني، من الشباب الجهّال، الذين أفسدتهم البطالة ومزقهم البؤس والفراغ ونزل الفقر والجوع بساحتهم، فتشردوا في الأسواق والدروب، ولم يجدوا ما يعبرون به عن سخطهم على هذه الحياة الشقيّة التي يحيونها، غير هذا التصرف الأرعن الذي يعود بهم إلى أيام الجاهلية الأولى» ثم ان الفراغ، يابني، مفسدة للإنسان أي مفسدة فلا تعجب إذا وقع منهم ما وقع، وأن كثيراً من شباب الأحياء، خاصة التي تقع في أطراف المدينة وأكواخها يتحولون بسبب البطالة والجوع والتشرد، إلى لصوص ومجرمين، ومتسولين ومتشردين وقطاع طرق، وهم يعبرون بهذا السلوك غير الصحيح ولا السليم عن سخطهم ونقمتهم على هذا المجتمع البائس الشقي، وعلى هذا النظام الاستعماري الظالم!!

... ومضيت مع أبي إلى الدار، وأنا في حيرة من أمر هؤلاء الشباب الذين رأيتهم قبل لحظات يقتتلون على هذا النحو الهمجي المخل بأبسط مبادىء السلوك الكريم والسليم!!

... ولم أكن أعرف أن هذه المعركة الحامية التي قامت بين أبناء وشباب هذين الحيين القريبين من المسجد النوري الكبير، والتي استخدمت فيها العصي والسياط والمدي والسكاكين والهراوات وأمواس «الكبّاس» أبو طقة، وأبو طقتين، كانت بسبب خلاف شديد على «كَشّ» الحمام، وعلى أن «كَشّاشي» الحمام في الحيين قد أسروا بعض طيور «الكشاشين» في الحي الآخر، مما يعتبر «وكسة» بحق أهل الحي الذي أسرت له عدة طيور، خاصة إذا كانت من نوع «الشيخ شارلي»!!!

.. وكانت المعارك التي تقوم بين «كشّاشي» الطيور، في مدينتنا، تصل إلى مثل ما وصلت إليه في هذه المعركة التي شهدتها والتي سقط فيها أكثر من عشرة جرحى، وكان بعض هذه المعارك ينتهي إلى القضاء والمحاكم، وكان بعض القضاة لا يقبلون شهادة «كشّاش»

الطيور، (الحميماتي).. ويقال بأن السبب هو وقوفه على السطوح، حيث يرى الحريم، ويسترق النظر إليهن، وأنه يحاول مغازلتهن بهذه الطريقة السمجة.. مع أن بعض الذين يقتنون الطيور، إنما يفعلون ذلك لهواية في نفوسهم، ولأنها نوع من الرياضة، وليس فيها ما يسيء إلى الآخرين، إلّا أن بعض «كشّاشي» الطيور، يملأون الدنيا صفيراً وضجيجاً، ويلوحون بقصبة طويلة يعلقون في رأسها «مرطة» بيضاء، ويرسلون طيورهم في الفضاء، فإذا تخلف واحد منها، ووقع في الأسر عند «كشّاش» آخر في الحي الآخر، جرت المفاوضات لافتدائه وإعادته، وعندما لا تنفع المفاوضات، تنشب المعارك وتقوم قيامة شباب «الغيضة».... وتقع مثل هذه المعركة التي شهدتها وأنا في صحبة أبي الشيخ الإمام، في ذلك المساء، بعد صلاة العشاء'!!

* * * * *

.. لم تكن تلك الصورة الشوهاء التي تحدثت عنها قبل قليل، والتي تبدو ظاهرة غير صحيحة ولا سليمة، لتمحو تلك الصورة الناصعة الرائعة والمشرقة والنقية لنضال شعبنا وأمتنا وبلادنا ومدينتنا هذه، ضد فرنسا والاحتلال الفرنسي، ففي مدينتنا حمص، وفي كل مدينة وقرية ومزرعة وحي، وفي كل شارع وطريق في بلادنا، كانت تدور معارك ضارية، وتقوم ثورات وطنية وشعبية لاهبة، ضد الفرنسيين المحتلين الغاصبين، وكنا نقابلهم بهذه الوحدة الوطنية المتراصة، وبهذا الموقف الواحد الصلب، مع هذا السلاح البسيط الذي لم يكن يتعدى الحجارة والعصي والمقاليع.. وبعض البنادق الطويلة البطيئة الحركة التي كان الثوار ينتزعونها من أيدي الفرنسيين في المعارك التي كانوا يخوضونها ضدهم، في السهل والجبل والساحل والداخل. وفي كل مكان من أرض سورية!!

... ولم يكد يحل شهر حزيران من عام ١٩٣٦، حتى أعلنت سورية الاضراب العام الذي استمر ستة أشهر، قامت خلاله المظاهرات الشعبية الوطنية في طول البلاد وعرضها، احتجاجاً على جرائم الاحتلال الفرنسي وللمطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن سورية، ومن أجل نيل الاستقلال الوطني!!

.. ولقد شهدتُ هذه المعارك والمواقع والمظاهرات الوطنية، وأنا صغير، ونقشت في ذاكرتي نقش الحجر، وكأني بها الآن تجري أمام سمعي وبصري، وأذكر أنني في صباح أحد تلك الأيام الخالدة، رأيت جنود الفرقة المختلطة في الجيش الفرنسي، وأكثرهم من الجنود السنغال الذين جاءت بهم فرنسا من مستعمراتها في أفريقيا، وكان هؤلاء المساكين أطوع إليها من بنانها، يأتمرون بأمرها، وينفذون تعليماتها دون وعي ولا معرفة بما يراد بهم وبأبناء الشعوب

المستعمرة مثلهم، وكانوا في ثياب الحرب والميدان، يحتلون ساحات المدينة وشوارعها وطرقها والأحياء القريبة من مركز المدينة، حيث تتجمع الجماهير وتستعد للانطلاق في مظاهراتها ضد الاستعمار الفرنسي'!!

.. وخرجت من الدار صباح ذلك اليوم، وذلك في غفلة من أمي، ومشيت إلى رأس حيِّنا (جورة الشياح)، ورأيت جندياً سنغالياً شاكي السلاح، وصرخ بي، فلم أجد بداً من أن أعود إلى حيث كنت عند باب دارنا، واتجهت هذه المرة نحو طريق حماة، ورأتني أمي وسمعتها تقول لي: «لقد كدت تهلك، يا بني، فهؤلاء لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً، ولقد رأيتك والجندي السنغالي يصرخ في وجهك، وأنت مازلت صغيراً لا تستطيع أن تقاومه أو تنتزع بندقيته من يده وتقتله أو تأسره، كما يفعل رجال بلدك ووطنك، وثوارها وشبابها الأبطال، وهاهم أخوتك، وقد أصبحوا كباراً ورجالاً، قد ذهبوا منذ الصباح ليشاركوا في المظاهرات الوطنية التي ستقوم في المدينة وفي سائر أنحاء البلاد» وقالت أمي: «إننا أمهات هذا الشعب البطل، يابني، نربيه على الوطنية والنضال ليكون أبناؤه وشبابه ورجاله، مشاعل الثورة والكفاح في سبيل السيادة والحرية والاستقلال، وليحققوا المجد والنصر لأمتهم»!!

... وعندما ارتفع الضحى، كنت أقف في رأس الشارع المؤدي إلى جامع خالد بن الوليد، في طرف الطريق قرب مقبرة«آل الجندي»،فإذا بي أمام حشود هائلة من أبناء وشباب مدينتنا البطلة حمص، وقد تجمعوا وهم يحملون الأعلام العربية والسورية، ويستعدون للقيام بمظاهرة وطنية كبرى تخترق الشارع الرئيسيّ المؤدي إلى دار الحكومة (السراي)، ورأيت هذه الجماهير الكادحة الفقيرة، وهي تسد الطريق بالبراميل الفارغة والحجارة الضخمة، ليجعلوا منها سداً بينهم وبين الفرنسيين، وليحولوا دون تقدمهم نحوهم، وكنت أرى الفرنسيين من بعيد، وهم يعتمرون خوذاتهم الحديدية ويحملون

بنادقهم الطويلة في أيديهم ويوجهونها إلى صدور أبنائنا، ورأيت هؤلاء الرجال والشباب، وهم يجمعون أكوام الحجارة ليقاتلوا بها الفرنسيين وليواجهوا بها البارود والرصاص والحديد والنار، ورأيتهم وهم يعدون (المقاليع)(*) ويجدلونها ويجربون الضرب بها وإلى أي مدى تصل الحجارة التي فيها، ثم يأتون بالعصي الطويلة يقطعونها من جذوع الأشجار ويعدونها، كأنها السلاح الأبيض، عندما يلتحمون بالفرنسيين وجهاً لوجه!!

.. وفجأة بدأت المعركة وأخذت الحجارة تنهال من المقاليع من أيدي المتظاهرين، على الجنود الفرنسيين الذين كانوا يعسكرون عند «باب السوق» فلما اشتدت الحجارة وهي تنهمر عليهم كالمطر، تراجعوا نحو دار الحكومة (السراي)، مما شجع المتظاهرين على التقدم إلى حيث كان الفرنسيون يتراجعون في انتظام، حتى بلغ الحماس بالمتظاهرين حداً صرت أبكي معه من الحماس والدهشة، وأخذت حناجر الجماهير تتفجر بالأناشيد القومية والوطنية، وهي تشق عنان السماء، ووجدتنفسي، دون إرادة مني، أسير وراء المظاهرة الحاشدة، مبتعداً عن مقدمتها قدر المستطاع، وتناهى إلى سمعي صوت الجماهير، وهي تردد ذلك النشيد الذي كنا قد حفظناه عن ظهر قلب:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

ثم يتعالى إلى عنان السماء نشيد الشعب السوري:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر مجدٍ يتسامى

* * *

(*) المقلاع: حبل مفتول مجدول من الخيطان يوضع في وسطه حجر ويلوح به صاحبه ثم يرمي به فيصل إلى هدفه قوياً يشج الرأس وربما أصاب مقتلاً

يا رنين القيد زدني رنة تشجي فؤادي
إن في صوتك معنى للأسى والاضطهاد

إلى غير ذلك من الأناشيد الوطنية الرائعة التي كان لها رنينها الخاص في القلوب والأسماع.. ثم تعالت الهتافات بحياة سورية، وبسقوط فرنسا المستعمرة، والمطالبة برحيلها وجلائها عن أرض الوطن!!

ولما اشتدت وطأة الجماهير، واشتد بأس المتظاهرين وخاف الفرنسيون أن يقتحم المتظاهرون دار الحكومة، وفيها مراكز ومكاتب المستشار الفرنسي والمتصرف وكبار الموظفين والعاملين لدى السلطة، أصدر قائدهم الأمر باطلاق النار، ولعلع صوت الرصاص، ودبّت الفوضى في صفوف المتظاهرين، وتراجعوا في غير نظام، ولحق بهم الفرنسيون، ولكنهم توقفوا عند حدود أول طريق حماة، وأخذت أركض نحو منعطف الطريق المؤدية إلى حارتنا، وسمعت الجماهير تهلل وتكبر، ثم رأيت عدداً من الشباب يحملون على أكفهم عدداً من الشهداء والجرحى الذين سقطوا برصاص الفرنسيين والدماء الغزيرة تسيل من جراحهم، فتروي هذه الأرض الطيبة العطشى.. ثم رأيتهم يضعون على الأرض بجانب أحد الجدران، جثتي شابين سقطا لتوهما، ودم غزير يسيل منهما، وسمعت الناس وهم يتعرفون عليهما، يقولون: «هذا «عبد الرزاق الفرَّان» وذاك «أمين الشمالي».. وعرفت أولهما، ولم أعرف الثاني، فقد كان عبد الرزاق الفرَّان من حارتنا، وأمين الشمالي من حارة الخالدية القريبة منا، وكان عبد الرزاق الفرّان يعمل أجيراً في فرن قريب من دارنا، فلما اقتربت منه، وهو مسجى على الأرض، نظرت إلى وجهه، فعرفته في الحال وتمنيت لو مسحت بيدي الصغيرة هذه الدماء الزكية التي كانت تسيل، وهي ماتزال حارة، من فمه وأنفه ورأسه»!!

... ها هو «عبد الرزاق الفران»، الشاب الكادح الفقير، يستريح لأوّل مرة في ظل هذا الحائط الذي حملوه إليه، فقد شقي كثيراً في

حياته، وأتذكر كيف كان يمر من أمام دارنا كل يوم، وهو يسوق دوابه ويزجرها، وقد حمل فوق ظهورها، الشوك والقتاد والقصب والنباتات اليابسة والحطب، بعد أن جمعها بيديه طوال النهار من البساتين والبراري على ضفاف العاصي، وكان يلقى في عمله هذا نصباً وتعباً، وكان يشقى من أجل لقمة العيش شقاءً كثيراً، وكان إذا ألقى بما حمله من شوك وقصب وحطب، في «حوش» الفرن، استلقى عند بابه ليرتاح بعد ذلك العناء الطويل والكدح الدائم الذي لا ينتهي إلّا بانتهاء الحياة.. وهاهو الآن قد تخلص من العذاب والجوع والبؤس والفقر والشقاء، واستراح مما عانى في حياته القصيرة، وهاهو عبد الرزاق الفران، يضرب بشهادته أروع مثل عن دور الكادحين والفقراء، في النضال وفي الثورة من أجل الاستقلال والحرية!!

.. وكان أمين الشمالي، ولم أكن أعرفه من قبل، قد سجي قريباً من جثمان رفيقه عبد الرزاق الفران، وكان (أمين الشمالي) مثله في فقره وبؤسه وعذابه، بل ومثل سائر أبناء هذا الشعب الفقير الصابر!!

.. وعندما جاء الشباب ليحملوا جثمان (عبد الرزاق الفرّان) إلى مثواه الأخير، ألقيت نظرة أخيرة عليه، وتذكرت كيف كان يحملني بين يديه الخشنتين وقد أدماهما الشوك والقصب، ويقذف بي إلى فوق في الهواء، ثم يتلقاني بيديه.. وكيف كان يأتينا بالخبز من الفرن، فتعطيه أمي رغيفاً وبضعة قروش، فيأخذها على استحياء، وهو يفترُّ عن ابتسامة تفيض بالشكر، ويدعو لها ولأولادها ولصاحب بيتها الشيخ الإمام بطول العمر!!

.. وشيعت سورية في ذلك اليوم المشهود، عدداً من الشهداء، وكلهم من الفقراء والكادحين الشرفاء، وساد التوتر المدينة وسائر أنحاء سورية وجاءت الأخبار بأن الاضراب الوطني كان عاماً وشاملاً كلَ المدن السورية، وفي مساء ذلك اليوم وقد نامت حمص على ألم الجراح، جاء أحد أخوتي إلى الدار، وهو يحمل عدداً من جريدة

«القبس» الوطنية التي تصدر في العاصمة دمشق ونشرها بين يديه، ونحن جلوس في صحن الدار، وأخذ يقرأ أخبار الاضراب العام والمظاهرات الوطنية التي عمت سورية، وأسماء الشهداء الأبطال الذين سقطوا في ساحة المعركة دفاعاً عن الوطن والحرية، في سائر المدن السورية، وسمعت أخي يقرأ اسم (عبد الرزاق الفرّان) بين أسماء الشهداء، وأخذ أبي وأمي وأخوتي يتحدثون عنه وعن بؤسه وفقره وشهامته وأمانته وبطولته.. ثم قرأ أخي المقالة الافتتاحية التي اشتهر بها صاحب هذه الجريدة الوطنية الأستاذ نجيب الريس، وهو من رجال السابقة في النضال ضد الاستعمار، وكيف كان هذا الرجل الوطني متمكناً جداً من أسلوبه ولغته، وصلباً في وطنيته، وكيف كانت مقالاته الافتتاحية في جريدته أشبه بالصواعق والبراكين تنزل فوق رأس الاستعمار والمستعمرين الفرنسيين، وسمعت أبي الشيخ الإمام يثني ثناءً عاطراً على صاحب «القبس» وعلى جريدته الوطنية القوية والتي كانت أشد هولاً على الفرنسيين، من النار والبارود والرصاص والحديد، وتمنيت لو كنت كبيراً وكنت صاحب جريدة لأكتب ماشاهدت في هذا اليوم وما رأيت، من صور رائعة من نضال شعبنا السوري، ولم أكن أظن، وأنا أتمنى ذلك، أن تتحقق أمنيتي ذات يوم، وأصبح صاحب ورئيس تحرير جريدة وطنية وتقدمية!!.

.. وامتد الاضراب العام واستمرت المظاهرات وتوالت الثورات والمعارك الطاحنة ضد الفرنسيين طوال ستة أشهر من عام ١٩٣٦، وكان الشعب إذا ما حل به الارهاق لطول ما قاتل في هذه المعركة الطويلة ضد الفرنسيين، وصلت جريدة «القبس» الدمشقية، وغيرها من الصحف الوطنية، وكان يوزعها شاب وطني متحمس وفقير اسمه «يوسف الزلق» ويلقبه الناس بالخروف.. فإذا قرأ الناس مقالات وتعليقات هذه الصحف الوطنية دبّ فيهم الحماس من جديد، وأصبحوا في اليوم التالي وهم أقوى عزيمة وأشد مضاءً وإصراراً على القتال والنضال ضد الاستعمار.. وهكذا نستطيع أن نعرف أثر

الكلمة الوطنية والصادقة، ودورها الذي يعتبر، في بعض الحالات، أهم من دور أي سلاح ناري تقاتل به الاستعمار!!

... ألا ترى كيف تفعل الكلمة الحرة القوية والصادقة والشجاعة، فعلها في النفوس والقلوب، وكيف تزلزل أوصال الطغاة والطغيان وتقض مضاجع الظالمين.. وكيف تمنح الشعب قوة فوق قوته، وعزيمة فوق عزيمته، وتدفعه إلى مزيد من النضال والمقاومة من أجل الدفاع عن حقه في الحرية والسيادة والاستقلال» وويل للذين يقتلون الكلمة الحرة والشجاعة والصادقة.. وويل للذين يحاولون أن يفرضوا عليها أوامرهم، ويمنعوا وصولها أو يحولوا دون بلوغها الاسماع والأبصار والقلوب والأفئدة والضمائر الحيّة الواعية، لأنهم بذلك ينتزعون من الشعب أقوى سلاح يحقق به إرادته وآماله وينصره على أعداء الحق والخير والحرية!!

.. وقامت لجان وطنية في المدينة، بسبب الاضراب العام واغلاق الأسواق والمحلات التجارية، بتوزيع الخبز والطحين والسكر وغيرها على المواطنين، كما وزعت بعض الأموال على الفقراء والمساكين، وعلى أسر الشهداء الذين كانوا يسقطون كل يوم دفاعاً عن الوطن.. واستبدت الحيرة بالسلطة الفرنسية، وهي ترى سورية من أقصاها إلى أقصاها تقف صفاً متراصاً متماسكاً في ظل وحدة وطنية رائعة، في وجهها، وانتشر في تلك الفترة شعار: (الاستقلال يؤخذ ولا يعطى).. وذلك رداً على محاولة قامت بها فرنسا لامتصاص نقمة الشعب السوري، ولكسر الاضراب العام الذي شمل كل مرافق الحياة في البلاد، عندما دعت إلى إرسال وفد سوري لاجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية في باريس، للبحث في موضوع منح سورية استقلالها.. وفي ذلك الوقت، أظهرت فرنسا، رياءً وكذباً، أنها تحترم حرية الصحافة، وأنها لذلك لم تغلق الصحف الوطنية أو تعطلها، خاصة جريدة «القبس» التي أشرت إليها، مع أنها أقدمت مرات كثيرة على مصادرتها ومنعها من الصدور، وتعطيلها واعتقال ونفي

صاحبها مع غيره من رجال الوطنية وقادة النضال الوطني!!

.. وسافر وفد سوري إلى باريس، وما لبث أن عـاد، بعد أن نكلت فرنسا بكل وعودها.. وعندئذٍ قام شعار وطني يقـول: (لا مفاوضـة قبل الجلاء) وعادت المظاهرات الوطنية وعاد الاضراب العام ليشمل البلاد ويعمها من جديد!!

.. ونشرت السلطة الفرنسية، بعد فشل مفاوضات باريس، أقـوالاً وتصريحات عبر أدواتهـا ومنظماتهـا العميلة، مثـل الشارة البيضـاء التي ظهرت في حلب الشهباء، ومن خلال محاولاتها تقسيم سورية إلى عدة دويلات، دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة اللاذقيـة، ودولة جبـل الدروز، ومن خلال أساليبها التي لم تكن تخفى على الشعب السوري، وقالت بأنها ترغب رغبة صادقة، بإعداد سوريـة إعداداً جيـداً لبلوغ مرحلة الاستقلال، وأنها تـريد أن تـدخل أسبـاب المدنيـة والحضـارة إليهـا... لتستطيع في المستقبـل أن تحكم نفسهـا بنفسهـا وتمـارس سلطاتها بذاتها.. وجاءها الجواب من الشعب السوري عبر الاضراب العام المستمر والمظاهرات الوطنية العارمة، بأن سورية ترفض تقسيم محافظاتهـا إلى دويلات، وأنهـا ستقضي على هـذه الدويـلات وهي ما تـزال في مهـدهـا وأنهـا تستطيـع أن تمـارس حقهـا في السيـادة والاستقلال دون حاجة إلى أحد يمدِّنها ويحضِّرها.. وأن فرنسـا التي تـدعي الحضارة والمـدنية، وتستعمـر الشعـوب، هي أولى بـالمـدنيـة والحضارة من غيرها!!!

.. ومـا هي إلّا أيام، حتى سمـع الناس في مـدينتنا، أن المنـدوب السامي الفرنسي، أو المفوض السامي، كما كان يسمى أيضاً، سيزور بعض المـدن السوريـة، ومنها حمص، وأنـه سيصلها من بـيروت عن طريق طرابلس الشام، وذلك من قبيل ذر الرمـاد في العيون، ولاظهـار فـرنسا بمظهـر الراغب في التفـاهم مـع الشعب السـوري، ولعـرض عضلاتها أيضاً، وأنها ماتزال تلك الدولة الاستعمارية القوية!!.

.. وعلى الأثر دعت القيادات الوطنيـة، إلى مقاطعـة هذه الـزيارة،

وإلى قيام المظاهرات في سائر المدن التي ينوي المفوض السامي الفرنسي زيارتها.

.. وبينما كنت ظهر أحد الأيام، عائدا من مدرستي في طريقي إلى الدار، مررت بالساحة المقابلة لدار الحكومة، ورأيت حركة غير عادية فيها، وكان جنود الاحتلال من الفرنسيين والسنغال والمرتزقة وغيرهم..، يرابطون حول الساحة التي مدت أرضها بالسجاد الفاخر، وصفت فوقها الأرائك، فوقفت أسأل أحد المواطنين، فقال لي، وهو يضحك لصغر سني، ويرد عليّ في شيء من الحماس والغضب الوطني:(أن المفوض السامي الفرنسي اللعين سيصل بعد قليل، وسيجري له استقبال من قبل السلطة الفرنسية وعملائها!!) .

ولم يكد ينتهي من قوله، حتى ارتفعت أصوات الآلات الموسيقية تعزف «المارشات» العسكرية الفرنسية، وسمعت هدير سيارة المفوض السامي والدراجات النارية التي تواكبها، ثم رأيت «المتصرف» بشاربيه المعقوفين والأذلين.. وبطنه المنفوخ كقربة من الجلد تغص بالماء.. وسلسلة ذهبية تتدلى فوق صدريته السوداء، وتغطي واجهة بطنه وكرشه الكبير، يتقدم موكب المستقبلين، ليفتح باب السيارة بيده لسيده المفوض السامي، ولينحني في ذل وانكسار أمامه، وكان يحيط به كبار الموظفين والضباط الفرنسيين وقادة الشرطة، وأمامهم عدد من رجال الدين، وقد لبسوا أحسن ثيابهم ومسوحهم، ومشطوا وطيبوا ذقونهم ولحاهم.. والمسابح الطويلة ذات الحبات الكبيرة السوداء في أيديهم، يسبحون الله بها، كذباً وزوراً، وهم إنما يسبحون بحمد الاستعمار وبمندوب ورسول الاستعمار.. وأخذت أنظر إلى المشايخ فيهم، لأتعرف من بعيد عليهم، ولأسأل أبي الشيخ الإمام عنهم عندما أعود إلى الدار!!.

.. أما المستشار الفرنسي فكان على رأس المستقبلين جميعاً، ينظر إليهم ويحصي حركاتهم وسكناتهم، فهو الحاكم الفعلي في المدينة، وما «المتصرف»، سوى أداة طيعة بين يديه، وكان ينظر إلى الجميع نظرة

احتقار وازدراء واستعلاء، وهو يضرب بسوطه طرف جزمته السوداء، كأنما كان يقول لهم أو يذكرهم، بأنهم لا بد قد مسحوا له جزمته!!..

.. ونزل المفوض السامي من سيارته في غطرسة وغلظة واستكبار، وأقبل هؤلاء يسلمون عليه وينحنون ربما ليقبلوا يده، وأخذوا يفركون أيديهم أمامه، وسمع الناس أحد كبار رجال الدين يقول له إمعاناً في النفاق والزلفى: (لا تؤاخذونا بما فعل السفهاء منّا)..، وذلك إشارة منه إلى المظاهرات الوطنية والمعارك الباسلة التي قادها ويقودها شعبنا ضد فرنسا!!.

.. ولم يكد المفوض السامي يجلس على إحدى الأرائك في صدر المكان قريباً من باب دار الحكومة، حتى قامت في لحظة خاطفة مظاهرة وطنية في طرف الساحة، وسمعت هتافات مدوية ضد فرنسا، ودبت الفوضى في صفوف الفرنسيين وجنودهم واختلط الحابل بالنابل، ولم تعرف السلطة كيف ومن أين قامت هذه المظاهرة ضدها، وكيف تجمع المتظاهرون في مثل لمح البصر وأخذوا يهتفون بحياة الشعب السوري والاستقلال، ويندون بفرنسا وينادون بسقوط الاستعمار، ويدعون المفوض السامي إلى مغادرة المدينة في الحال والعودة من حيث أتى قبل أن يبطشوا به، وذلك في عبارات ساخرة واثقة من قوة الشعب وقدرته على الحاق الهزيمة المرة بالفرنسيين، بالحجارة والعصي والمقاليع، وبالإيمان العظيم بالحرية، وكأن الأرض قد انشقت وأخرجت هذه الجماهير التي اجتمعت في هذه المظاهرة، ولم يكن «المتصرف»، ولا المستشار، ولا كل العملاء والجواسيس والعيون والأرصاد، قد عرفوا بها، وفاتهم ما دبره الوطنيون من استقبال مضاد يليق بمندوب فرنسا الذي وقف متجهماً مذعوراً، وقد اصفر وجهه وأخذ ينظر إلى المستشار والمتصرف، في حنق وغضب، كأنما كان يسألهما عن هذا الذي لم يكن في الحسبان، واتجه نحو سيارته وهو يسرع في مشيته مخافة أن يصل إليه الوطنيون فيأسرونه أو يقتلونه، وركب سيارته على عجل وعاد من حيث أتى إلى بيروت في

الحال، وبهت المتصرف، وأوجس خيفة من المستشار الذي لم يعرف كيف جرى ذلك كله، دون أن تعلم السلطة الفرنسية به!!

.. وفي اليوم التالي نشرت الصحف الوطنية الخبر، وكيف أن حمص المناضلة وشعبها الباسل، قد لقّنا رمز الاستعمار الفرنسي، ما يجب أن تلقنه أمة حرة لكل المستعمرين، وكيف أن المفوض السامي هذا، لقي في حمص ما يستحق من استقبال حافل يليق به!!

.. وقد قامت السلطة الفرنسية في اليوم التالي بحملة مسعورة وأخذ رجالها وعملاؤها يقبضون على المارة في الطريق ويجمعون الناس دون تمييز ويسوقونهم إلى المعتقلات، بتهمة التظاهر، ويضعون في جيوبهم الحجارة ليدعوا أنهم كانوا من المتظاهرين، ورأى الناس شباباً أبطالاً يرفعون رؤوسهم في عزة وكبرياء وهم في طريقهم إلى السجون والجند يسوقونهم وكأنهم يسوقون أنعاماً، ويرددون في إيمان وقوة وثبات:

.... خَبِّرْ دولتك   باريس مربط خيلنا!!!

.. ومن تلك الأيام أصبحت كلمة (باريس مربط خيلنا) مضرب الأمثال.. فقد خيل إلينا، في غمرة حماسنا الوطني اللاهب والرائع يومئذٍ، أن باريس مربط خيلنا فعلاً... ولم لا نقول ذلك، ونحن نلقى من فرنسا ما نلقى من عسف وظلم واضطهاد واستعباد، ولم لا نردد مثل هذا القول، ونحن نعاني من الفرنسيين الأمرين.. إنها، على كل حال، «شطحة» وطنية، لشعب ثائر مقهور.. وكان أخي عبد اللطيف، بين الشباب الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية في ذلك اليوم، وقدم مع عدد من المتظاهرين إلى المحاكمة، وحكم عليهم بالسجن شهراً.. ولما ساقوه مع زملائه إلى السجن، رأيتهم وكأنهم في طريقهم إلى نزهة ممتعة، يضحكون ويرفعون رؤوسهم اعتزازاً ويهتفون بسقوط فرنسا ويرددون الأناشيد الوطنية، في كثير من الإصرار على النضال من أجل تحقيق المطالب الوطنية في السيادة والاستقلال!!!

.. وأذكر أنني عندما عدت إلى الدار، بعد حفلة استقبال المفوض السامي الفرنسي وهربه بَعد ذلك، أقبلت على أبي الشيخ الإمام أحكي لـه ما جـرى وأخبره عن زمـلائـه رجـال الـدين وعن رجـال الـدين الآخـرين، وكيف أنـهم كانـوا على رأس مستقبـلي المفـوض السـامي، وكيف أن أحـدهم قال للمفـوض السامي: (لا تؤاخـذونـا بمـا فعـل السفهاء منّا).. وكيف أنه كان يقصد بالسفهاء جميع المناضلين ضـد الفرنسيين... فقال لي الشيخ الإمام: (يابني، هؤلاء ليسوا من زملائي ولا من أصدقائي ولا من رجـال الدين، لأنهم غـرباء عن الـدين وعن الأمة والوطن، وإن ادّعوا غير ذلك، فرجل الدين الحقيقي لا يكـون في صف الاستعمار، وهؤلاء الذين رأيتهم اليوم، يابني، يشـوهون معنى وجـوهر الـدين، ويبيعون أوطـانهم وبلادهم وشعبهم وأمتهم مقـابـل قروش قليلة، وخطرهم على الدين والأمة والشعب والـوطن مثل خطـر الاستعمار إن لم يكن أشد، وهؤلاء، يـابني، يحملون مجـامر البخـور لكـل مستبد ومستعمـر وظالم، وهم يلبسـون لكل حـالة لبـوسها، ولا يهمهم أن يبدلوا كـل يوم وجهـاً، وكل يـوم لسانـاً، وأن رجل الـدين الحقيقي، هـو الذي ينـاضل بـلا هوادة ضـد الاستعمار والطـائفيـة والتعصب ويدعو إلى الخير والوحدة والمحبة بين المواطنـين، ويعمل في سبيل مجد وحـرية الـوطن، وسعادة المـواطن، ويدعـو إلى الاصلاح، ويقاتل ضد الظلم والعدوان، ويسير مع شعبه في كفاحه ونضالـه، فلا يـرتـزق ولا يستغـل ولا يحتـال ولا يقف عـلى أبـواب المستعمـرين والجبارين والطغاة والظالمين، ولا يسيء إلى الـدين الذي يحمـل شرف الكلام والحديث والدعوة باسمه!!.

.. وقال الشيخ الإمام: (إن صوت الشعب، الـذي دوى مجلجلاً في هذه الثورات والمظاهرات الوطنية التي عمت سورية، هو أعلى وأقـوى من صوت وقعقعة كل أسلحة هذا العالم، وإن إرادة الشعب، يـابني، من إرادة الله، وما استغلال هؤلاء وغيرهم والذين رأيتهم في استقبال المفوض السامي، إلاّ محاولة لتشـويه حقيقـة الدين ومحـاولة جعلـه

ركيزة للاستعمار وأدواته، وها أنا، يابني، رجل دين، فهل رأيتني بين أولئك الذين كانوا في استقبال المفوض السامي، وهل رأيت غيري من رجال الدين الآخرين، الذين يقفون موقفي، يحضرون استقبال المفوض السامي؟؟ وهل رأيت فيّ، ما يسيء إلى الدين أو إلى جوهره ومعناه، أو إلى هذا الوطن وأهله؟؟!!) ..

.. وشعرت من أعماقي بالسعادة والطمأنينة، لأن هذا الشيخ الإمام أبي، ولأن هذه الدار داري، وهذا الوطن الصغير وطني، ولأن هذا الشعب الحر المناضل شعبي، ولأن هذه الأمة أمتي!!

.. وعندما حل يوم الجمعة من ذلك الأسبوع الذي وقع فيه ما وقع للمفوض السامي الفرنسي، رأيت الشيخ الإمام يستعد لخطبة وصلاة الجمعة في جامع (الشيخ عبد الله) كعادته في كل أسبوع، ورأيته وهو يكتب خطبته ثم يتوضأ، ثم يرتدي ثيابه ويشير إليّ بأن أسير معه، فافعل في فرح وسعادة غامرة، فإذا وصلنا إلى الجامع، وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، أخذ يتحدث عن استقبال المفوض السامي الفرنسي، وكيف رفض شعبنا ورفضت مدينتنا استقباله، وكيف هرب هذا الضيف الثقيل غير المرغوب فيه وعاد خائباً من حيث أتى، ونزل الشيخ الإمام على رأس المفوض السامي وعلى الذين استقبلوه من الأجراء والمنافقين وبعض ادعياء الدين ولم يبال الشيخ الإمام بمن حضر من عيون السلطة الفرنسية وأذنابها ليستمعوا إلى خطبته!!

.. وفي اليوم التالي، كما لا أزال أذكر، جاء موظف من مديرية الأمن العام الفرنسي إلى غرفة أبي الشيخ الإمام في الجامع الكبير، وطلب إليه أن يصحبه الى مقر المديرية، فما كان من الشيخ الإمام إلاّ أن رفع عصاه في وجهه وأغلظ له ولفرنسا القول، وأذكر أنني من شدة خوفي على أبي، دفعت الرجل بيدي، وبدلاً من أن يقع هو، كما ظننت، وقعت أنا أرضاً، لضآلتي وضخامته، فذهب ممتقع الوجه، ولم يعد يظهر له أثر !!

.. من المحزن أن يتنكر بعض الفرنسيين، لكل مبادىء الثورة

الفرنسية، وأن يتصرفوا مع الشعوب الأخرى، على هذا النحـو، مما يؤكد أن الثورات، تحتاج إلى ثوار، لا إلى تجـار.. وأن على الثـوار أن يحافظوا على نقاء الثورة وصفائها وقيمها وأهـدافها، وإذا لم يفعلـوا تحولت الثورة، رغم كـل الدعـاوى الفارغـة والطبول الجـوفاء...، إلى مستنقـع يغرق فيـه إلى الأذقـان، أدعيـاء الثـورة والمتـاجـرون بهـا والمستغلـون لها، كمـا تتحول الى عبء ثقيـل على الشعب والجمـاهير التي تُستَغَل، باسم الثورة، أبشع إستغلال وتعاني أشد أنواع الظلم والإرهـاب، وعندئـذٍ تصبح الثـورات، كما قيـل عنها، كـالهرة تـأكل أبناءها!!

.. ولقد زرع الشيخ الإمام، رجل الـدين الصادق مـع نفسه ومـع النـاس، في أرواحنا وقلـوبنا، روح الثـورة والنضال ضـد الاستعمار والظلم والاستغـلال، وضد الاستبـداد والاستعبـاد، وعمّق ايمـاننـا بالعدالة والمساواة والديمقراطيـة والحريّـة، وذلك من خـلال نضالـه الـوطني، وسلوكـه ونهجه السليم والكـريم، الاجتماعي والإنسـاني، ودعوته المخلصة إلى معرفة جوهر الدين الحنيف!!

.. وكـان عدد من رجـال الدين المسيحي، يلتقـون بالشيـخ الإمام وبعض رجال الدين الإسلامي، الذين يجمعهم النضال الوطني ضـدّ الاستعمـار الفرنسي ويتـداولون في الأمـور المتصلة بتقـوية الـوحـدة الوطنية بين أبناء الشعب، وضرب كل محاولات الفتنة التي تعمد إليها السلطة الفرنسية لتشويه وجه سورية وإثارة النعرات الطـائفية بـين أبنـائها، ولايجـاد ثغرة ينفـذ منهـا الفـرنسيـون لتبـريـر احتـلالهم واستعمـارهم لبلادنـا، ورغم كل محـاولات الفتنة وبث الفـرقـة بـين المـواطنين والتي لم يتـوقف عن إثارتهـا الاستعمـار الفـرنسي، فـإن الوحدة الوطنية المتراصة والقوية، ظلّت عنـوان شعبنا ووقـوفه صفـاً واحداً في وجه الفرنسيين الذين كانوا يدّعـون أن فرنسـا هي حاميـة الدين، وهي الأم الحنون!!.

.. وكانت «العراضات» الشعبية التي تقام بهذه المنـاسبة أو تلـك

من المناسبات والأعياد تمر في حي الحميدية، فيخرج الأخوة المسيحيون من محلاتهم وينشرون الأزهار ويرشون العطور على المحتفلين، وكان المحتفلون بهذه المناسبات الكريمة يقابلون إخوتهم بالهتاف المدوّي قائلين: عاشت الوطنية.. إسلام ومسيحية، ويهتفون أيضاً (الدين لله والوطن للجميع) وكذلك كان المسلمون يقومون بزيارة أخوانهم ويباركون لهم بأعيادهم، في كثير من الحب والصدق والمشاركة الوجدانية، وكنا نحس، ونحن صغار، بهذه الروح العالية من المحبة والوحدة والمودة والعيش المشترك، بل والمصير الواحد والمشترك بين جناحي هذه الأمة، المسلم والمسيحي سواء بسواء، وكنا نعرف أنه لا قيام للوطن ولا حياة للأمة ولا سبيل إلى انتصارها في كل المعارك التي تخوضها، إلّا بجناحي هذه الأمة وبتفاهمهما ونضالهما الوطني المشترك بعيداً عن الطائفية والتعصب والاختلاف والجهل والجاهلية!!

.. غير أن ظاهرة تنبّهت إليها، رغم حداثة سني، وأرّقتني كثيراً، وتساءلت معها عن سر هذا الجهل عند بعض هؤلاء الذين كانوا يقودون المعركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي في مدينتنا وبلادنا، وأكثرهم من الكتلة الوطنية بل من أبرز رؤسائها وأعضائها، فقد تسربت إلى مدينتنا وبلادنا السورية حركة صهيونية أميركية، هي «الماسونية»، ودخل في محافلها، كما كانت تسمى، عدد كبير من رجال الكتلة الوطنية، وأقيمت محافل لها، بينها محفل (الشرق) ومحفل (الشمس) في حمص، وغيرهما من المحافل في غيرها من البلدان السورية، وانتسب إليها جهراً بعد ذلك عدد كبير جداً من هذه المنظمة الوطنية، أي من الكتلة الوطنية، وأذكر أن قادة الكتلة كانوا من أعضائها، واتسع نطاق هذه الحركة الصهيونية الأميركية، وازداد نشاطها واستمرت في تغلغلها إلى ما بعد قيام العهد الوطني، ونيل الاستقلال وتحقيق الجلاء، وكان لها نفوذها الكبير في أوساط الحكم وفي القضاء والمحاماة وبين الأطباء، إلى أن اندثرت وتضاءل شأنها

ومنـع نشاطهـا بعد ذلـك، وبعـد أن استطـاعت أو كـادت أن تحقق أهدافها وغاياتها الاستعمارية والصهيونية في مرحلة معينة من تاريخ نضالنا الـوطني ضد الاستعمـار الفرنسي، ثم في مـرحلة متقـدمة من استقـلالنا الـوطني، متذرعـة بالإخـاء الإنسـاني الكـاذب والمشبـوه والمرتبط بالصهيونية والاستعمار الأميركي!!

* * * * *

... كانت الطواحين التي تدور على الماء، تقوم على نهر «العاصي» الذي يمر من الجهة الغربية من مدينتنا حمص، وهو يغذ السير نحو الشمال، ولهذا سمي «العاصي» لعصيانه طبيعة سير الأنهار، فهذا النهر العاصي يجري من الجنوب إلى الشمال، ومع ذلك فقد كان وما يزال عزيزاً على أهل حمص، كما كان من أسباب حياتهم وزراعتهم، ولو بصورة بدائية، إذ لا تكاد المدينة وبساتينها تستفيد منه إلّا بمقدار، بسبب أساليب الري القديمة التي كانت تضيع من خلالها المياه هدراً، حتى يمضي مسرعاً مغادراً المدينة إلى حماه.!!

... وكان يعمل في طواحين الماء هذه، وفي البساتين التي تقوم على ضفتي النهر وتمتد إلى مسافة غير بعيدة، عدد من الأجراء الفقراء المساكين الذين لا يحصلون من أجور طحن القمح والشعير والذرة وغيرهما، ومن إنتاج هذه البساتين، إلّا على قروش قليلة لا تكاد تكفيهم أو تسد رمقهم أو تطعمهم وعيالهم، سوى خبز الشعير وبعض الخضار والبقول يلتمسونها من هذه البساتين!!

.. وكان هؤلاء العمال والاجراء في هذه الطواحين والبساتين، يعانون من أمراض مستوطنة خطيرة، كالتراخوما التي تأكل عيونهم، والروماتيزم، والزنطارية كما نسميها، (والديزانتريا) بلغة الطب، وكانت هذه الأمراض وغيرها، بالإضافة إلى الجوع والفقر المدقع، تقضي على هؤلاء العمال تباعاً!!

.. وكانت الطواحين على نهر العاصي، في أيام الثورات السورية التي لم تخمد لها نار، ضد الفرنسيين، مخابيء ومراكز للثوار ينطلقون منها إلى سهول حمص وحماه ليقارعوا الاستعمار الفرنسي ويتصدوا للحملات العسكرية الفرنسية التي كانت مدججة بالسلاح والنار وكل أدوات الدمار!!

.. وكان عمال هـذه الطواحـين يساعـدون الثوار ويقـدمون إليهم بعض ما لديهم من طحين وبرغل، وذرة وغيرها!!

... وكـان يقوم إلى الجنـوب من شـارع حينـا (جـورة الشيـاح)، بستـان صغير اسمـه بستـان (الخِبيت) وكـان يمـر في وسطـه النهـر الأسود الذي يحمـل القاذورات والفضـلات وينشر البعوض والـذباب والروائح الكريهة، وكـان مستأجـر البستان الـذي لم يكن ينتج غـير الملفوف، والكرنب، وفيه بعض أشجار التين والرمان والتوت، القـديمة الهرمة، رجلاً عجوزاً، يكاد لا يرى طـريقه، وقـد اتخذ من كـوخ من الأغصان اليابسة والشوك والقش مأوى له، فهو وحيد لا زوجة له ولا ولد، وكان صبيان الحي ينزلون إلى البستان في موسم التين والـرمان، ليأكلوا ويمـلأوا جيوبهم، فـإذا سمع المسكـين حركـة قريبـة منه أو صوتاً، وقف تحت شجرة وانتظر حتى ينزل منها الصبيـان، ثم ينهال عليهم بعصـاه، عـلى غـير هـدى، فيصيبهم أو لا يصيبهم، حتى إذا ضاقوا به ذرعاً ذات يوم، أحرقوا الكوخ الذي ينام فيه، فأخـذ يبكي بكـاءً مراً، ويقـول لهم، وهو في حـالة يـرثى لها من الجـوع والبؤس واليـأس والمرض: (لـو لم أكن شبه أعمى، وأكـاد أسقط من المرض، لكنت أعدتكم إلى فروج أمهاتكم).. ثم لا يترك شتيمـة لاذعة مقـذعة، إلا وينهال بها عليهم، وعلى الذين بذروهم، هذه البذرة العاطلة!!

... أما الاسكافي (أبو أحمد طيجون) الذي كان يستأجر دكانـاً في حينا، فقد كان قزماً وقميئاً جداً، وكان يرتدي ثياباً رثّة ممزقـة قذرة، تكاد لا تستر جسـده وكان ينـام في الدكـان، بعد عمـل مرهق طـوال النهار في ترقيع واصلاح الأحـذية، وكـان لا يأتيـه من الأجر إلاّ مـا يسد أو لا يسد رمقه، وكان يتخـذ من الأحذيـة القديمـة والجلود أو بقـاياهـا، فراشـاً ووسادة لـه، وكان (أبـو أحمد طيجـون)، في نحـو الخمسين من عمره، لم يتزوج ولم يجن على أحد، ولشدة قصره، كنت لا أملك إذا مررت به إلاّ أن أضحك، ولكني كنت أخفي ضحكي عنه، حتى لا يحزن ولا يتألم، وكان له وجـه صغير عجيب غـريب، لا يشبه

وجوه البشر، وربما كان وجهاً طيباً بريئـاً، أكثر من وجـوه كثيرين من الناس ونحن لا ندري!!.

... وكان صبيان الحي يتجمعون على باب دكانـه ويفسدون عليـه حياته بصراخهم وعبثهم وتحرشهم به وإساءاتهم إليه، وكثيراً ما كان يلحق بهم، إذا اشتدوا عليه، وهو يحمل ما تيسر من الأحذية العتيقة التي يقـوم باصـلاحها ويضربهم بهـا، وكان يخـاف أن يذهبـوا بها، فيلحق بهم وينتزعها منهم ويعيدها إلى الدكان، وهـو يلعن الشيطان.. وآباء وأمهات وأخوات هؤلاء الصبيان!!

... وكان أبو أحمد طيجون، لا يعطي فـرحته لأحـد، عندمـا تأتي امرأة إلى دكانه، ليصلح لها حذاءها، وكان يحاول أن يستبقيها أطول وقت ممكن، ويسترق إليها النظر، أو يحدق بها، ويود لـو كشف عنها غطاءها ورأى وجهها، وكان يقـدم إليها مقعـداً من القش، أو«اسحّارة» فارغة من الخشب، وهـو يرجـوها أن تنتظـر قليلاً، ريثمـا ينتهي من إصلاح حذائها.. ولكنه لم يجد امرأة واحدة تجبر خـاطره المكسـور، أو تنظر إليه نظرة عطف أو ترضى بالجلوس في دكانه، فقد كان قبيحاً، وعلى درجة لا توصف من القذارة، ولم يكن يحلق ذقنـه أو رأسه قطّ، وكأنه كان من الهيبيين، قبل أن يظهر الهيبيون بعشرات السنين!!

... وبينمـا كان صبيـان الحي يرفعـون باب دكـانـه ذات صبـاح ليبدأوا نهارهم بالعبث به والسخرية منه والضحك عليـه، وجدوه قـد مات من الجوع والبرد!!

.. كانت حارتنـا (جورة الشيـاح)، تعتبر حـديثة، رغم هـذا النهر الأسود الذي يمر بها، وهـذه الدور المبنيـة من الطين التي تتخللهـا، وهذا البؤس الذي يلم وينزل بأكثر سكانهـا وأهلها، إذا مـا قسناهـا بتلك الحارات القديمة والبعيدة والمنتشرة في أطراف حمص، من جهـة بـاب تدمـر وباب الـدريب، وغيرهمـا حيث تنتشر الأكواخ المبنيـة من الطـين، وتقوم فيهـا أنوال النسيـج اليـدوي، يعمـل فيهـا عـدد من الفقراء، ليجدوا ما يقيهم شر الموت جوعاً!!

.. وكانت حارتنا قريبة من باب السوق، ومن دار الحكومه والبلديه ومن مسرح ومقهى«الروضة»وكانت الدكاكين تقوم على جانبيها، وكان جامع صغير يتوسطها وكانت قهوة «بَخَّاش» تقوم قبالة الجامع، فإذا ارتفع الأذان فيه، سكت صوت الحاكي (الفونوغراف) في القهوة، بعد أن كان يصدح بالأغاني القديمة، لمنيرة المهدية وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وغيرهم من مشاهير المطربين والمطربات الذين أغنوا تراثنا الموسيقي بأروع وأجمل وأحلى الألحان!!

.. وكان عبد الخالق فَشْوَلْ، بائع الحليب، أول من يغادر دكانه القريبة من المسجد، ويسرع إلى الصلاة، كما كان أول من يغش الحليب ويخلطه بالماء ويقسم أن حليبه«صاغ»سليم!!

... وهنا أحب أن أشير إلى أن سائر الأسماء التي ترد خلال الحديث عن أصحابها، هي أسماء حقيقية لأشخاص حقيقيين، وليست مستعارة قط، وإن بدت غريبة فعلاً!!

... وكانت أنظف وأكبر دكان في حينا، هي دكان «الحاج علي المظلوم» وكانت أشهر من نار على علم، يقصدها الناس من الأحياء البعيدة، لأن الحاج علي كان يصنع أطيب (حُمُّص) بالليمون والطحينة، وأشهى فول مدمس بالليمون والزيت،وكان يتفنن مع أخيه الحاج حسين، في صناعة هذا الطعام الشعبي الشهي!!

.. وكانت دكان اللحام الحاج إدريس قريبة من جامع جورة الشياح، وكان الحاج ادريس جاحظ العينين لكثرة ماكان يمضغ من التبغ المطحون الذي يسمونه «السعوط» حتى تدمع عيناه!!

... أما رفاعي الحلاق في النهار، والحارس في الليل، فقد كانت دكانه قريبة من دكان اللحام الحاج إدريس،وكان أكثر زبائنه من المتزوجين الذين يتسابقون مساء كل يوم خميس ليحلقوا رؤوسهم وذقونهم وينتفوا خدودهم وحواجبهم بالخيط حتى تصبح حمراء كقطعة شمندر مسلوقة.. وكان موسم الحلاقة في ذلك اليوم، وفي

الأعياد، من أحسن المواسم بالنسبة لرفاعي هذا، ولكنه كثيراً ما كان ينام وهو يمسك«بموس»الحلاقة، لشـدة تعبه، وكثيـراً ما كـان يجرح بسلاحه الحاد هذا ذقـون ووجوه كثـير من الزبـائن، وكان ثـرثاراً لا يسكت ولا يصمت، ولا يستقر لسانه في فمه.. وأما شاربـه فقد كـان يثير الضحك، وكـان أشبه بشـارب (شارلي شـابلن) الذي اشتهـرت أفلامه الصامتة والرائعة والعظيمـة في تلك الفتـرة.. وكان إذا سـأله أحد زبائنه عن شكل شاربه ولماذا اختاره على هذا الطراز.. أجابه في شيء كثـير من الحزم والجـد: (إني أريد أن يخـاف منـه اللصـوص وقطاع الطرق أثناء حراستي في الليـل، فلا أحتـاج إلى اللحاق بهم، لأنهم يتجمـدون في مكانهم لمجـرد رؤية هـذا الشارب، اللـه يعزك، في جنح الظلام!!)..

... أما بائع، حلاوة الجبن، الشيخ حيدر، وكانت دكانـه ملاصقـة لدكان الحلاق رفاعي، فقـد كان أرمنيـاً، من ضحايـا وبقايـا المجزرة التي افتعلها الترك ضد هذا الشعب الطيب والوديع والمجـد والنشيط والأمين، والذي هاجر هرباً من الظلم إلى شمال سوريـة، وسكن أكثر أبنائه في حلب الشهباء، وكان الشيـخ حيدر وهـو صغير قـد تربى في كنف أسرة حمصية، فلما كبر عزّ عليـه أن يعيش عالـة عليـها، أو أن يكون خادماً لها، فـاستقل عنهـا وأنشأ هـذه الدكـان ليعمل ويكسب قوته بعرق جبينه، واختار أن يبيع حلاوة الجبن، بعد أن تعلم صنعها وأتقنها وكان هذا الرجل مثلاً في الأمانة والصدق والاستقامة..

.. وكانت في دكان الحاج علي المظلوم، بائع الحمص والفول اللذيذ والطيّب، لـوحة تتصـدر المكان مكتـوب عليها بـالخط الفارسي الـذي يرسم السين ممدودة منحنية بلا أسنان، تلك الكلمة المأثورة والمعروفة والقائلة: (لله در الحسـد ما أعـد له.. بـدأ بصاحبـه فقتله..).. ولكن الحاج حسين شقيق وشريك الحاج علي، كان يصر على أن يقرأها خطأ على النحو التالي: (لله در الحد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله..) بحذف السين وكنت أصر على أن أصحح له خطـأه، ولكنه كـان يسرع فيفسر

لي معنى الكلمة كما فهمها عقله القاصر، فيقول: (يعني، يا ابن الشيخ، لله در الحد، أي حد السيف.. ما أعد له، بدأ بصاحبه، أي بصاحب السيف فقتله... وأفسر له ما جهل، وأن المقصود من الكلمة والحكمة، أن الحسد، أي ضيق العين وضيق الصدر وعدم حب الخير لأحد، يجعل الحاسد يموت هماً وغماً، وأن الحسد يبدأ بصاحبه فيقتله.. ولكن الحاج حسين، لا يرضى بهذا المعنى الصحيح للحكمة، حتى ضقت به ذرعاً، لشدة غبائه وجهله، فقلت له: (بِدَّك بدّ وسيف حدّ.. يقطع رقبتك).. حتى إذا هم باللحاق بي هربت وعدت إلى الدار!!

... أما قهوة «بخَّاش»، فقد كانت تقوم قبالة جامع جورة الشياح، وكانت تقام فيها كل مساء، بعد صلاة العشاء، حفلة يعرض فيها خيال الظل"وكركوز وعيواظ، وكان رواد المقهى يتجمعون أمام هذه الستارة الصغيرة البيضاء، ليروا كيف يحرك الفنان المختفي وراءها، هذه الصور الملونة والمزركشة وكيف يداعبها بين أصابعه في إتقان بديع، وكيف ينطق بلسانها هذا الحوار المتصل بينها، ويبدل من صوته ولهجته، وكثيراً ما كان الحوار بذيئاً مقذعاً تتخلله حركات فاضحة.. يضحك لها المشاهدون!!

.. وكان في الطرف الآخر من قهوة «بَخَّاش»، مصطبة يجلس الحكواتي عليها وحوله وأدنى مستوى من مجلسه، صُفت الكراسي وجلس عليها عدد من رجال الحي «الزكرتيَّة»، كما يسمونهم، وأكثرهم إن لم نقل كلهم، ينتصب شارب طويل عريض تحت أنفه، ليدل على الشجاعة والفروسية والعنترية.. يستمعون إلى الحكواتي، وهم يدخنون النراجيل والتنباك العجمي يشتعل فوقها ويخرج منه دخان يملأ الجو وهو يقرأ لهم في كتاب في صعوبة ومشقة وخطأ ولحن كثير، عن أبطال أسطوريين من التاريخ، غير موثقة، ولا ثابتة، وربما كانت أقرب إلى الخيال والإثارة، منها إلى الحقيقة والتاريخ الذي يعبث بلحيته المؤرخون في القديم والحديث!!!

... وكانت رقاب السامعين تشرئب وتطول، لترى إذا استطاعت، ما الذي حدث لهذا البطل الأسطوري أو ذاك، وهل نجا من الخطر الذي أحدق به، وكان الحكواتي، يتركهم في عز الورطة التي وقع فيها البطل، ويغلق كتابه، ويعدهم بالبقية، وبالمفاجأة المذهلة في الليلة القادمة!!!

... وكان «بخّاش» صاحب القهوة في نحو الخمسين من عمره، دقيق رقيق يتحرك كالمكوك دون توقف، ويجيب طلبات جميع الزبائن في سرعة فائقة، ولا يحتاج إلى من يساعده في عمله الذي يبدأ في الساعة الخامسة صباحاً وينتهي بعد منتصف الليل، وكنت دائم السؤال عن سبب تسميته بهذا الاسم (بخّاش).. ولكنني لم أظفر بجواب مقنع، وكان «بخّاش» على كل حال، قليل الكلام، كثير العمل، وكان يتقاضى من كل زبون نصف قرش سوري عن جلوسه وفنجان القهوة أو قدح الشاي أو غيرهما، من الصباح إلى الظهر، وعلى الزبون إذا داوم على القهوة بعد الظهر أن يدفع نصف قرش آخر.. وكنت شديد العجب لهؤلاء الناس الذين لا يفارقون القهوة في الصباح أو المساء، ولا ينصرفون عنها أو يغادرونها إلى بيوتهم وأهلهم إلّا ساعة في منتصف النهار ليتناولوا طعام الغداء، وليعودوا بعد ذلك إلى القهوة وإلى مقاعدهم فيها إلى آخر المساء، وكنت لا أحب هذا السلوك عند هؤلاء الناس، وكنت أسأل عن سبب ذلك فأعرف أن البطالة المزمنة هي السبب، وأن الفراغ القاتل هو الذي يدفع بالناس إلى ملازمة المقاهي طوال النهار، وقد كرهت لذلك، ارتياد المقاهي على اختلافها، حتى مقاهي الرصيف في الصيف في أوروبا، وفي غيرها، رغم أنها تختلف عن قهوة «بخّاش» وأمثالها كثيراً!!

.. وأذكر أنني جلست مرات معدودة في حياتي في مقاهي يرتادها عادة رجال السياسة والصحافة والثقافة، ورغم كل ما مر بي من أزمات وبطالة امتدت طويلاً، فقد كنت كارهاً للمقاهي والجلوس فيها طويلاً!!!

... كانت دكاكين حارتنا (جورة الشياح) تمتد حتى ساحة باب السوق حيث كان ينزل الفلاحون من القرى على دوابهم وكانوا يتخذون من هذه الساحة مكاناً لهم يستريحون فيه من عناء السفر.

... وكانوا إذا وصلوا وأرادوا أن يستريحوا قليلاً، وأن ينعموا بشيء من الحلوى الرديئة يشترونها بقرش أو نصف قرش، تجمع الصبيان والحمالون والحلاقون المتجولون وباعة الخرز والخيطان والأبر والخلاخيل حولهم، وأخذوا يتبارون في إيذائهم وشدهم من ثيابهم الرثة الممزقة، ويطلبون إليهم تسليم رؤوسهم لهؤلاء الحلاقين وتسليم دوابهم لهم ليأخذوها وليتجولوا بها حول السوق، وكان الحلاقون المتجولون يتفننون في حلاقة رؤوس الفلاحين، ليصبحوا موضع سخرية الصبيان وتندرهم، فإذا حاول أحدهم التخلص من يدي الحلاق، ضربه هذا وسبه وشتمه وانتزع عقاله وكوفيته واحتفظ بهما ولم يردهما إليه حتى يعود ويسلم رأسه، أو يدفع نصف قرش أجرة الحلاقة التي لم تتم، وكان الفلاح المسكين يخاف أن يصرخ حتى لا يتجمع الناس، وكانت ساحة باب السوق تشهد كل يوم اعتداءات كثيرة من هذا النوع على الفلاحين الجياع والبؤساء الذين يسرعون إلى دور وقصور أصحاب القرى ليسلموا الخدم ما جاءوا به من حبوب وغلال ودجاج وجبن وبيض وحليب ولبن وغير ذلك من المواد الغذائية التي لا يصيبون منها شيئاً، وإنما يجمعونها ويحملونها إلى أسيادهم، وكانوا يعودون بعد ذلك دون أن يسمعوا كلمة شكر لا من الأسياد ولا حتى من الخدم، وكانت أسمال الفلاحين وأطمارهم البالية التي يعشش فيها القمل ويتغلغل بين ثناياها، تصلح لتلقى في المزابل أو تحرق مع النفايات، وكانت الأمراض السارية والمستوطنة كالتراخوما والملاريا والسل، تأكل عيونهم وأكبادهم ورئاتهم، وتنهش لحومهم وجلودهم، فإذا رأيتهم حسبتهم هياكل عظمية تتحرك في صعوبة ومشقة وعناء!!

.. وكان الحمالون والمتشردون والصبيان والحلاقون المتجولون، إذا

رأوا الفلاحين وقد عادوا من دور وقصور أسيادهم، أخذوا دوابهم وابتعدوا بها وربما حاولوا سرقتها، فيلحق الفلاحون بهم ويتوسلون إليهم ليردوها، وليتركوهم في شقائهم وعذابهم وبؤسهم!!

.. والحقيقة أن هؤلاء وهؤلاء في جملة البؤساء والمتشردين والأشقياء، وكان الجميع يشكون من الجوع فلا يجدون ما يسد الرمق، وكان باعة الكوسا المحشي المطبوخ بفضلات اللحم والأرز المكسر، يقيمون مطاعمهم في العراء في ساحة باب السوق، ويجلسون وراء حلل وقدور كبيرة مملوءة بالكوسا والمرق، وينشرون الصحون والملاعق على مائدة طويلة سوداء قذرة، فيأتي الفلاحون، وهم يجرون دوابهم ويجلسون على مقاعد من القش، أو يتحلقون حول بائع المحشي وهم يفترشون الأرض، وينقدونه نصف قرش، فيصب لهم في الصحاف والصحون القذرة، شيئاً من الكوسا والمرق، ويقدم إليهم رغيفاً من الخبز، لو ضربته بحجر لارتد عنه وهو حسير!!

.. وكان الفلاحون يجدون للمرة الأولى الشبع بعد هذا العشاء الذي لا يحلمون بمثله في مكان إقامتهم في الأراضي والقرى التي يستولي عليها الاقطاعيون ويدّعون ملكيتها، وكانوا إذا انتهوا من طعامهم مسحوا أفواههم بأطراف أكمامهم ومضوا يجرون دوابهم إلى خان قريب يسمى «خان الدروبي» فيبيتون ليلتهم في زرائب مغطاة أرضها بروث الحيوانات، وينامون من شدة التعب مع دوابهم جنباً إلى جنب!!

.. وكان العمال في حال تشبه حال الفلاحين، وكانوا مثلهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وكانوا يعانون من بطالة دائمة، أما الذين كانوا يعملون منهم، فقد كانوا قلة، وكانوا يتعرضون كل يوم لخطر التسريح الكيفي من قبل أصحاب العمل الذين لا يدفعون لهم أجورهم إلاّ بشق النفس، وربما بعد أن يقتطعوا منها نسبة كبيرة لتصبح متدنية لا تكفيهم ثمن الخبز، فيؤثرون عندئذٍ البحث عن عمل آخر وترك عملهم الذي كانوا فيه لما يلقون من أرباب العمل من

تصرفات مهينة لكرامتهم ومذلة لهم، وهاضمة لحقهم، وكان العمال في مدينتنا يتوزعون على ورشات البناء وعلى أنوال النسيج اليدوي وعلى عدد من الحرف المختلفة، التي لم تكن تتوفر فيها أية شروط صحية أو اجتماعية، وكانت تسبب للعمال الارهاق الشديد والعناء والمرض، فالحمالون مثلاً كانوا يتعرضون لمختلف الرضوض والكسور والانزلاقات الفقرية وغيرها من الاصابات الخطيرة التي كانت تسبب لهم العجز المؤقت أو الدائم، دون أن ينالوا أي تعويض، بل على العكس تماماً كانوا يسرّحون سراحاً غير جميل، ويلقى بهم في الأكواخ الرطبة، بين براثن الجوع والمرض والعجز!!

.. وكان العمال في بطالة مهينة مذلة، يحاولون يائسين الخلاص منها، ولو بصورة مؤقتة، فيتجمعون في ساحة باب السوق، وفي عدد من الأسواق، وينتظرون أن يدعوا إلى حمل الصناديق أو الأكياس التي تحتوي مختلف المواد، أو يُدعى أحدهم لبناء حائط تهدم في طرف من أطراف المدينة، أو لحفر «جورة» لتصب فيها الفضلات التي تخرج من البيوت، فالمدينة لا تنعم بالمجاري، ولا بالمياه النقية في بيوتها ودورها، بينما يذهب بعض عمال النسيج اليدوي إلى بعض التجار ليأخذوا ربطة أو ربطتين من الغزل، وليقوموا بنسجها «صايات» أو «شراشف» وأغطية، ليعودوا بها إليهم مقابل أجر لا يكفيهم ولا يسد جزءاً من حاجتهم!!

.. وكان المتسولون والمرضى والمعتوهون والمقعدون والصبيان المشردون الحفاة، يملأون السكك والدروب والأسواق والساحات ويتمددون فوق الأرصفة يائسين ويمدون أيديهم سائلين في ذل، أن يعطيهم الناس نصف قرش ليشتروا به رغيفاً وشيئاً من البطيخ أو العنب أو أي شيء آخر، ليتقوا غائلة هذا الجوع الذي لا يفارقهم لحظة أو ساعة!!

.. وكان بعضهم يموت من البرد أو من الجوع، أو منهما معاً،

فيحملون ويدفنون في المقابر البعيدة في أطراف المدينة دون أن يعلم بموتهم أو حياتهم، أحد!!

.. هذه صورة مخففة جداً، مما كان يعانيه الفلاحون والعمال في مدينتنا حمص وربما في سائر أنحاء بلادنا.. وكنت أسأل نفسي، وأنا أشهد هذه الحالة البائسة التي تربى فيها أبناء شعبنا، أين هي المصانع والمزارع، وأين هي المدارس والمستشفيات، وأين هي العدالة والمساواة، وأين هي المدنية والحضارة والتقدم والعلم، التي وعدنا بها الاستعمار الفرنسي؟؟ ولماذا يتشرد الأطفال في بلادنا، ويموت منهم المئات كل يوم من الجوع والمرض، ولماذا تغص المسالك والدروب بالمتسكعين والمتشردين والمرضى والمتسولين وأصحاب العاهات؟؟

.. وهؤلاء المساكين الذين ينامون على الأرصفة وأبواب المساجد وأمام دكاكين اللحامين، وفي الخانات والحمامات والأسواق المغطاة، وفي صناديق الموتى، وفي المقابر، وبين القطط والكلاب، ما بالهم يزدادون ويتكاثرون كل يوم، فلا تمتد إليهم يد فتنقذهم مما هم فيه من عذاب وهوان، ولا تقوم في بلادهم، وفي وطنهم، حكومة وطنية كريمة، ونظام عادل كريم، في ظل السيادة والاستقلال، ليبني لهم الحياة السعيدة وليحقق لهم الكرامة والعدالة والعمل والصحة وليعطيهم الحضارة والعلم؟؟

.. وأيقنت، وأنا أرى بلدي ومدينتي وأمتي وشعبي ووطني، على هذا الحال أن ما يلقاه أبي الشيخ الإمام وما نلقاه معه من الضيق، أهون وأخف كثيراً من هذا الشقاء الأسود والبؤس الشديد الذي يلقاه أكثر الناس في بلادنا وفي مدينتنا والذي وصفت بعضه في كثير من الايجاز!!

.. كانت الثورات السورية دائمة الاشتعال، كأنها النار المقدسة، وكان أكثر الثوار من العمال والفلاحين وأبناء الطبقة الفقيرة المحرومة، الذين يحسون بالجوع والعذاب، ويشعرون بالحرمان،

يخوضون المعركة ضد الاستعمار جنباً إلى جنب!!

... وكانت الأنظار والأفكار كلها تتجه إلى شعبنا وإلى كل القوى الوطنية التي تتضافر وتتجمع من أجل تصفية الاستعمار وبلوغ مرحلة الاستقلال أولاً، ثم من أجل تصفية كل آثار ومخلفات الاستعمار بعد ذلك، حتى لا يستفحل خطرها، وحتى لا تكون سبباً في عودة الاستعمار إلى بلادنا من النافذة بعد أن يكون قد خرج من الباب، أو يعود بأي شكل من الأشكال، وحتى لا تكون أيضاً سبباً مباشراً في فقدان المعنى الحقيقي، السياسي والاجتماعي، للسيادة والاستقلال!!

.. ولشدّة ما أصاب مدينتنا وبلادنا من الضيق في تلك الأيام، تألفت لجنة في كل حي، كانت تقف على أبواب المساجد والجوامع بعد خروج الناس من صلاة الجمعة كل أسبوع، وتمد منديلاً على الأرض، وتدعو الناس في صوت عال إلى الإحسان والتبرع للفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والبؤساء، وكان أحد أعضاء اللجنة يجأر بصوته قائلاً في تضرع قريب من البكاء (لله يا محسنين لله.. لله يا أصحاب النخوة والمروءة لله.. اخوانكم الفقراء والمساكين يحتاجون للغذاء والكساء والدواء).. فيدفع من يدفع ويهرب من أمام اللجنة من يهرب، وأكثر الناس كانوا يهربون.. وكنت أسمع من يقول منهم (نحن أحوج إلى المساعدة وأولى بالإحسان ونحن فقراء أكثر من الفقراء، وبؤساء أكثر من البؤساء الذين تجمعون لهم.. فكيف نعطي غيرنا.. ونحن أولى بالشفعة!!)

.. وكان بعض الذين لا يدفعون لهذه اللجان، يقولون صادقين أو كاذبين، بأن بعض أعضائها يتقاسمون أكثر ما يجمع من المحسنين، فلا يصل إلى الفقراء والبؤساء والعائلات المستورة مما جمعوا إلّا القدر اليسير!!

.. ولم أعد أسمع الشيخ الإمام لشدة ما يلقى ويلقى الناس معه من ضيق في مدينتنا، والتي كان يخيل إليّ أنها اشتهرت بعاصيها

وبؤسها، يتحدث أمامنا إذا اقترب موسم الحج في كل عام، عن حلمه الكبير، بأن يؤدي هذه الفريضة، ولكن حادثاً وقع في المدينة، جعل الشيخ الإمام يفكر ويتذكر ويحلم بالحج من جديد.. فقد ادعى رجل دجال بأنه أدى فريضة الحج، وطاف حول الكعبة وسعى بين الصفا والمروة ووقف على عرفة، وقام بكل مناسك الحج في ساعة أو بعض ساعة، وأنه كان في بيته في حمص عندما هتف به هاتف من السماء وأمره بأن يخطو خطوة يصل بها إلى مكة المكرمة، فلما فعل وجد نفسه قد وصلها، وبعد أن أدى فريضة الحج خطا خطوة ثانية فوجد نفسه في المدينة المنورة حيث زار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، ثم خطا خطوة ثالثة فوجد نفسه في بيته في حمص، كأنه لم يبرحها ولم يغادرها، وجاء هذا الدجال بشهود زور، قالوا للناس في مدينتنا، بأن الرجل من أهل «الخطوة»، وأنهم رأوه ينتقل من بيته في حمص إلى مكة المكرمة، في مثل لمح البصر، دون أن يحتاج إلى ركوب الباخرة أو ركوب الجمال، وأن دليله ودليلهم على صحة ذلك، هذا الابريق المملوء بماء زمزم، ولما كان أهل حمص، وأعرف ذلك من نفسي.... من «المجاذيب»، فقد صدّق بعض البسطاء من الناس أقوال هذا الدجال وصحبه، فما كان من أبي الشيخ الإمام الذي يفهم الدين على أنه علم وعمل، إلاّ أن رفع العصا في وجه هذا الدجال ومريديه، وطردهم من المسجد الجامع شرّ طردة، ونادى في الناس بأن يحذروا الفتنة وأن لا يصدقوا هذه الفرية، وكان يقول لمن يسأله عن الحقيقة في هذا الأمر: (ويلكم أتريدون أن تثبتوا «الجدبة» علينا وتفضحونا بين الناس، ألا يكفي أن هذا الدجال ومن حوله يفترون على الله والناس كذباً ويخدعون أنفسهم ويريدون أن يخدعوا الناس معهم؟؟!

.. وقد تبين للناس بعد أيام، أن هذا المدعي الدجال المستغل للدين أبشع استغلال، لم يحج، كما زعم، وإنما لزم بيته وأغلق عليه بابه، واختفى عن أعين الناس، بعد أن علم بأن لجنة تحقيق ستحضر من دمشق، بعد أن تبين لها أنه قد سرق أموال الدائرة التي كان

قيماً على خزينتها، وأنه خشي مغبة ذلك فادعى أنه من أهل الله، ومن أهل الخطوة، ومن الأولياء والصالحين، وأنه حج في ساعة أو بعض ساعة، مع أن بين حمص «المجدوبة» ومكة المكرمة «المحبوبة» مسافة بعيدة يقطعها المسافر في أكثر من شهرين على الجمال والدواب، وفي أقل من ذلك في البحر!!

.. وانكشف أمر هذا الدعي الدجال، عندما أدانته لجنة التحقيق بسرقة الأموال العامة، رغم محاولته إخفاء سرقته بهذه القصة الملفقة التي نسجها خياله المريض والشرير والخبيث!!

.. ولا أدري، وأبي الشيخ الإمام من العلماء ورجال الدين والأتقياء والصالحين، كما أعرف، لماذا لم يخط خطوة واحدة يؤدي بعدها فريضة الحج، وهو الذي ظل عمره كله يحلم بأن يحقق هذه الأمنية الغالية، وقد مات، رحمه الله، وفي نفسه حسرة لأنه لم يستطع إلى الحج سبيلاً!!

.. وسمعت أبي الشيخ الإمام، وهو يضحك ويقول لنا: (ولماذا أنتظرُ وأصبرُ، مادام باستطاعة الإنسان أن يخطو خطوة واحدة، يقطع فيها كل هذه المسافة بين حمص العدية ومكة البهية... ويجتاز الفيافي والقفار والبحار وينتقل بين سائر الأقطار والأمصار في مثل لمح البصر!!

.. وروى لنا أبي، وهو يضحك، قصة ذلك الشيخ الفاضل الذي اشتهر بالعلم والصدق وخفة الظل، وكان من أهل دمشق، وكيف أنه كان يجلس في صحن داره ذات يوم وكانت تتوسطها بحيرة ماء كبيرة فجاءه رجل ثقيل وألح عليه أن يعلمه كيف يستطيع ان يسير على وجه الماء دون أن يبتل أو يغرق، وكيف يستطيع أن يسير فوق الأنهار والبحار، كما يسير على اليابسة، فلما أتعبه هذا الثقيل لكثرة الحاحه، قام الشيخ الفاضل من مجلسه وأخذ بيد الرجل إلى طرف البحيرة ودفعه إلى الماء، وهو يقول له: (قل الله.. وامش على وجه المي..) وكاد

الثقيـل يغرق لـو لم ينقذه الشيـخ الفـاضـل، ثم يصرفـه بالتي هي أحسن!!

.. وضحكنا وقضينا سهرتنا تلـك الليلة، ونحن نتحـدث عن قصة ذلك الدجال، وعن هذا الجاهل الثقيل!!

.. وأذكـر أن الشيـخ الإمـام تفقـدني بعـد أن انتهى من صـلاة العشاء في المسجد الجامع الكبير ذات مساء، وكنت أصـلي وراءه، فلم يجدني وسأل عني خادم الجامع، فقال له: (إنني ذهبت مع صبي من لداتي إلى زاوية احدى الطرق الصوفية، فطلب إلى الـرجل أن يـذهب ويأتي بي، فلما حضر بعـد ساعـة ليعود بي إلى أبي، كنت قـد رأيت وشـهدت في «زاوية» شيخ الطريقة الصوفية هذا، ما جعلني أؤمن بأن مـا علق أو يعلق في بعض الأذهان، عن الـدين الحنيف، يجب أن يتم تصحيحه وشرحه وبيانه في الحـال، لتنقيته من الشـوائب التي علقت به، بفعل هذه الزوايا والتكايـا، وما يقـع فيها وفي غـيرها من تـرهات وأباطيل وجهل وجاهلية!!

.. وسأتحدث هنا عن ذلك في شيء من التفصيل:

.. عنـدمـا دخلت مـع أحـد رفـاقي إلى زاويـة شيـخ الطـريقـة الصوفية... رأيت اتباع الشيخ المذكور يمـلأون صحن الدار، ورأيتـه يجلس وهو يلبس ثياباً مزركشة وعمامة خضراء فوق رأسـه، وأمامـه موقد كبير تشتعل فيه النار، ورأيت أسيـاخاً من الحـديد وقـد دست رؤوسها في الجمر، ورأيت بعض قطع محطمة من الزجاج مكومة عـلى الأرض ورأيت رجـلاً يلبس ثيابـاً افرنجيـة ويجلس على كـرسي عال، وتجلس بجانبه سيدة أجنبية تلبس ثياباً قصيرة، قال شيـخ الطريقـة أنها زوجة ذلك الرجـل، وأنها فـرنسية، وإنـه طبيب لبناني وجـد على يديه الشفاء من مرض شـديد ألم بعينيـه، وكانت السيـدة تلبس على رأسها قبعة (برنيطة)، وكانت تضـع ساقاً على ساق، لا تبالي بكل هذه العيـون الجائعـة المحرومـة من النظـر إلى وجـوه النسـاء، فكيف إلى

سيقانهن، وقد خيل إليّ أن هذه الأعين الجائعة تكاد تأكل ساقيها العاجيتين، بلا ملح!!

.. وكان شيخ الطريقة الصوفية، كثير الاحتفاء بهما، فهما ضيفان عزيزان عليه، جاءا من بيروت إلى حمص بدعوة منه جزاء ما قام به الطبيب نحوه من رعاية وعناية، وكان احتفاله بهما على طريقته الصوفية «الخاصة» إذ لم يكد يرحب بهما حتى أشار إلى مريديه، فأخذوا الدفوف في أيديهم وتحلقوا في دائرة عريضة أصبحنا كلنا في داخلها، وبدأوا يهتزون ويتمايلون ويرددون كلاماً غير مفهوم، وأخذتهم «الحال» كما يقول أصحاب الأذكار والأوراد...، ثم رأيتهم يتناولون أسياخ الحديد المحماة من فوق النار ثم يغرسون رؤوسها في بطونهم، ثم يتناولون جمرات النار فيأكلونها وكأنهم يأكلون في تلك الليلة القائظة قطعاً مثلجة من البطيخ الأحمر، ثم رأيتهم يتناولون قطع الزجاج المكسر، ويأكلونها وأسمع صريرها بين أسنانهم، وكأنهم، كانوا يأكلون «كنافة» مبرومة، بالفستق أو القشطة!!

.. ونظرت فإذا السيدة الفرنسية قد لاذت بزوجها الطبيب، ودفنت رأسها في صدره من شدة الخوف، واصطكت أسنانها واهتز جسدها المشوق، كأنما أصيب بمس من سلك كهربائي، ثم صرخت صرخة مدوية وأغمي عليها، وأسرع زوجها وأخذ يجري لها الاسعافات السريعة حتى عادت إلى وعيها الذي فقدته لشدة ما رأت وعجيب ما شهدت من هذه الأمور التي ظنت أنها من الدين، وليست من الدين في سيء !!

.. ولما رأى شيخ الطريقة ما حل بالسيدة الفرنسية، أشار إلى مريديه فتوقفوا عن ضرب «الشيش» وأكل الزجاج وجمرات النار، ولكن الطبيب كان أسرع منه فاعتذر في امتعاض واستأذن بالانصراف والسفر، والشيخ يرجوه أن يبقى فلا يستجيب له، فقد خاف على زوجته من أن تصاب بصدمة عصبية وبالجنون، لما رأت من هذه الأمور، التي تدعو إلى الحزن والأسف والرثاء!!

.. ولما عدت مع الرجل إلى الدار تحدثت إلى أبي عما رأيته في دار شيخ الطريقة فنظر إليّ معاتباً ومغاضباً، وقال لي: (يابني.. لماذا صنعت بنفسك ما صنعت؟؟ فالإسلام يا بني ليس هذا الذي رأيت، وإياك أن تعود لمثلها، وعليك إذا أردت الخير لنفسك وبلدك وأمتك، أن تبتعد عن هذه الأباطيل والترهات، والذي رأيته في دار شيخ الطريقة، جهالة وضلالة، واني أخاف عليك منها، واني أعيذك بالله أن تكون من الجاهلين!!)

.. وقال الشيخ الإمام: (ان الإسلام، يابني، بعيد في أصوله وسلوكه وجوهره، عن هذا الذي رأيت، وعن هذا الذي يجري ويقع في بعض الزوايا ومن بعض هؤلاء الجهلاء، فلا تحضر بعد اليوم مثل هذه الحفلات وابتعد عنها ولا تقربها!!)

.. وقد أنارت كلمات أبي طريقي، فلم أحضر بعد ذلك اليوم المشهود، حلقة أو حفلة كهذه الحلقة أو الحفلة التي يغلب فيها الجهل وينتشر السحر وتطغى الشعوذة على العلم والعقل، ويأكل فيها الجياع النار والزجاج، بدل الزبدة ولحم الدجاج... ويضربون بطونهم الخاوية على عروشها بأسياخ الحديد!!

.. على أن صورة السيدة الفرنسية زوجة الطبيب اللبناني، ذات الشعر الذهبي، وهي جالسة على كرسيها في حفلة شيخ الطريقة الصوفية، انطبعت في عيني وذاكرتي.. فأنا لم أر في مدينتي وبلادي امرأة حاسرة الرأس، سافرة الوجه، مكورة مدورة النهدين... ونساء بلادي محجبات مسربلات غارقات في الملاءات، لا ترى لهن وجهاً ولا تعرف لهن قواماً ولا قداً، يختلطن بالليل لسواد ما يلبسن، فلا تكاد تفرق بينه وبينهن!!

.. وقلت لأمي:(ان السيدة الفرنسية كانت طويلة رشيقة منطلقة على سجيتها، حرة في تصرفاتها، ضمن حدود المنطق والعقل، لا تغطي رأسها ولا تخفي وجهها ولا جسدها وراء ملاءة قاتمة سوداء، كما

تفعل النساء عندنا، ولا تشكو من عقدة الحريم، ولا تعرف أن المـرأة عورة!!)

... ونظرت إليّ أمي ولم يعجبها مـا قلت، وسمعتها تقـول لي:(لسا البيضة ما فقست عنك، يا مفـزور.. كيف تقول هــذا الكلام وأنت ابن الشيخ الإمام؟ وهل تريد أن تكون المرأة في بلادنـا، كما هي في بـلاد الكفار؟؟!)

قلت لها: لا.. ولكنني أريدها حرة كريمة، غير محجبة ولا مختفيـة أو مختبئة وراء هذه الأستـار والجدران الضيقـة والملاءات الغليظـة السوداء!!.

وأسرع إخوتي، وقد سمعـوا صوت أمهم يـرتفع عـلى غير عـادة، يسألون ما الخبر، فلما أخبرتهم بمـا قلت، اختلفوا فيمـا بينهم، فمن كان منهم يخاف أمه، أو يرجو أن تخصه بشيء من الأقراص بالسمن والسكر، أو بشيء من مربى السفرجل، انحاز إليها وقـال قولهـا، ومن كان يرى رأيي، انحـاز إليّ، رغم صغر سني، ودارت معـركة كـلامية حول المرأة عندنا، والمرأة في أوروبا، فما كان من أمي، وقـد تذكـرت، على ما يبدو، موعداً مع صديقاتها عند قـريبتنا «أم بـديع»إلاّ أنْ تغطت ولبست ملاءتها السـوداء، وأقسمت أن لا تعود إلى الـدار حتى يعود الشيخ الإمام بعـد صلاة العشـاء،ليردع هؤلاء الأولاد ويبعـدهم عن الشر والفساد!!

.. فلمـا عاد وعـادت شكت إليه من «فصـاحتنا»، ومن «كفـرنـا»، والعياذ باللـه، وأشارت إلى أحـد إخوتي وقـالت للشيخ الإمـام: «كل الحق عـلى هذا الثـور الكبير، الـذي يعلم أخاه الصغـير، مـا لم يكن يعلم..»!!

.. وتبسم أبي ضاحكاً من قولها، وطيب خاطرهـا، فإذا رضيت أو كادت، ختمت مقالتها بقولها: «أولادك، يا أبا أنس، عمّا يحكـوا حكي «زفري»...

.. ويعرف أبي المسألة، وأننا كنا نتحدث عن السيدة الفرنسية التي رأيتها في دار شيخ الطريقة.. فقال لأمي ضاحكاً: «لو عرضوا عليّ الزواج بهذه الفرنسية، لما ترددت.. يكفي أنها تتكلم ولا أفهم، وهذه أعظم سعادة يصل إليها الرجال، إذا لم يفهموا ما تقوله زوجاتهم»!!

.. وأضاف الشيخ الإمام قائلاً: «ولو وافقت على الزواج مني لوضعتها على رأسي.. ثم يقول الشيخ الإمام لزوجة أخي الصابرة «أم فيصل»، لينهي البحث: «قومي وأحضري لنا عشاءنا فقد لقينا في يومنا هذا نصبا» ثم جلسنا حول طبق القش وأصبنا من الطعام ما تيسر، وحمدنا الله على كل حال!!

... وذات صباح، أيقظني الشيخ الإمام باكراً، على غير عادة، فلما فتحت عيني رأيته يلبس ثيابه بالمقلوب... وفركت عيني جيداً، فإذا به يقول لي: قم يابني، والبس ثيابك كما تعودت أن تلبسها، أما أنا فإني ألبسها، كما ترى، وهي مقلوبة.. وستصحبني إلى ظاهر المدينة عند باب تدمر، وستعرف هناك لماذا لبست ثيابي على هذه الصورة الغريبة!!

... ومضينا، وأنا أنظر إلى الشيخ الإمام في حب ودهشة واستغراب، وفي الطريق، ونحن نسرع في السير كأننا في سباق... قال لي الشيخ الإمام (لعلك لا تعلم، يابني، أنه ستقام عند باب تدمر قرب المقبرة هناك، صلاة الاستسقاء، وسيشارك رجال الدين والعلماء وعدد كبير من الناس، وبعض الأطفال في هذه الصلاة وسندعو الله جميعاً أن يسقينا الغيث ويرسل السماء علينا مدراراً، فالقحط والجفاف نزلا بأرضنا، وسوف لا ينبت زرع، ولا ينز ضرع، إذا حبست السماء عنّا المطر، أكثر مما فعلت حتى الآن، وها أنت ترى الشمس بازغة ونحن في عزّ الشتاء، وفي هذه الحالة يستحب أن نلبس ثيابنا مقلوبة في صلاة الاستسقاء، حتى يرحم الله حالنا، ويلطف بنا، ويرسل إلينا الغيث ولا يجعلنا من القانطين!!!)

.. ووصلنا إلى شرق المدينة عند مقبرة باب تدمر ووقفنا ووقف الناس وصلى الشيخ الإمام بهذه الجموع صلاة الاستسقاء، ودعا ودعوا معه، وتضرع وتضرعوا معه، وسمعت بعض الصبيان في مثل سني يقفون بين الناس وينشدون قائلين في عامية مفرطة:

يا ربنا.. يا ربنا
ابعث مطر لزرعنا
إذا الكبار أذنبوا
نحن الصغار شو ذنبنا؟؟

وسمعت بعض الناس يقولون: ان المطر لا بد سينزل كما ينزل الماء من أفواه القِرَبْ، بفضل الله ورحمته وبدعاء وبركة الشيخ الإمام وأمثاله من الصالحين، وأن الناس سوف لا يغادرون هذا المكان عائدين إلى المدينة، حتى تكون الأمطار قد هطلت، وأنهم لا بد سيحتاجون إلى مظلات كثيرة حتى لا تبتل ثيابهم وحتى لا يغرقوا بالماء إلى الأذقان!!!

.. وسمعت أبي الشيخ الإمام، وهو ما يزال واقفاً على مرتفع من الأرض والناس حوله، يقول: (اللهم ارحم فقرنا وبؤسنا، وارحم أطفالنا، فقد زادنا هذا القحط والجفاف جوعاً فوق جوعنا وعناءً فوق عنائنا).. وأخذ يتضرع خاشعاً، يود لو أمسك بالسماء بين أصابعه وعصرها لتسيل منها المياه فتملأ السهل والوادي!!

.. ثم نزل ونزل الناس معه وعادوا إلى المدينة، وهم ينظرون إلى السماء وينتظرون أن تتلبد بالغيوم السوداء التي تحمل المطر الغزير في ثناياها، وكان بعض الناس، وهم يفعلون ذلك، يتعثرون في طريقهم ويصطدمون بقبر أو حجر.. ولكن السماء ظلت صافية زرقاء، فلما دخلت مع أبي إلى غرفته في الجامع الكبير، وقد ارتفع الضحى، وكاد أن ينتصف النهار، أخذت أطل من نافذة الغرفة وانظر إلى السماء، ثم أعود فأطل عليها فلا أرى غير الشمس ساطعة كأننا في عزّ الصيف!!

.. وسألت الشيخ الإمام، وأنا أخاف عليه... (وماذا سيقول الناس عنك إذا لم ينزل المطر؟؟) فقال لي، وهو يبتسم في ثقة وايمان: (ليقولوا ما شاؤوا فأنا لا أملك شيئاً لنفسي ولا للناس، وماذا أستطيع أن أفعل إذا لم ينزل المطر، ولم يستجب الله لدعائنا؟؟).

.. وحل الجفاف والقحط في تلك السنة العجفاء، وقال الناس: (إنه غضب الله قد حل علينا، فلم تهطل الأمطار، بسبب مخالفتنا لأوامره، وبسبب نيتنا«العاطلة». وبسبب الفساد الذي ظهر في البر والبحر.. وأن الله لو خفس، أيْ خسف، بنا الأرض.. ماكثير!!)

.. واجتمع على الناس في تلك السنة، القحط والجفاف والاستعمار والفقر والجوع، ولم يجد الناس مخرجاً مما هم فيه، إلاّ أن يصبروا ويصبروا، حتى لا يبقى في قوس الصبر منزع!!!

.. وتمضي الأيام، وينقضي الشتاء، والسماء صافية زرقاء والشمس ساطعة وأسأل نفسي، أنا الصبي الصغير: (لماذا يظل الناس في بلادنا في خوف دائم مستمر إذا لم تهطل الأمطار من السماء، ولماذا تصاب بلادنا بالقحط والجفاف؟؟ ولماذا لا تقام السدود على الأنهار والبحيرات، وتقوم وسائل الري الحديثة وتنتشر الخضرة، وترتفع عالياً الأشجار والأحراش لتملأ ربوع بلادنا. وهؤلاء الناس الذين خرجوا الى ظاهر المدينة وصلوا صلاة الاستسقاء وجأروا طويلاً بالدعاء والرجاء، لا يعرفون أنه ما لم تستغل بالوسائل العلمية الحديثة، كل قطرة ماء في أنهارنا السائبة التي تجري على عواهنها وأعنتها دون أن نستفيد منها بشكل صحيح في توسيع الرقعة الخضراء في بلادنا، وما لم تتحول أرضنا إلى غابات وواحات خضراء، فإن سنوات القحط والجفاف سوف تزداد، وستتسع معها رقعة الصحراء وتمتد، وسوف يخف سنة بعد سنة هطول المطر، لأن الغابات والأشجار والخضرة الكثيرة والكثيفة والتي تغطي الأرض كلها، كما هو الحال في أوروبا، هي التي تستدر الماء وتجلب الأمطار من السماء، حتى في الصيف،

وهي التي تتشكّل بفعلها السحب والغيوم، فيرسل الله عندئذٍ الماء مدراراً غزيراً من السماء!!

ومن أجل أن نتخلص من القحط والجفاف، وحتى لا يجوع الناس فوق جوعهم، ومن أجل أن نتخلص من هذه المشكلة الخطيرة التي تهدد حياة مئات الملايين من البشر، علينا أن نتبع أحدث الأساليب في الري والزراعة والغرس، وأن نبني السدود ونتحكم تماماً في مياه الأنهار والبحيرات، ونصرفها بمقدار وحساب دقيق.. ولكننا لم نفعل غير القليل القليل في هذا المجال حتى الآن، وبلادنا ما تزال خالية من الغابات والأحراش والخضرة، حتى أن من يسافر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال في بلادنا، وفي أكثر البلدان الشبيهة بنا والواقعة في منطقتنا والمجاورة لنا، لا يرى سوى الصحراء، لذلك فإن بعض الناس ما زالوا حتى الآن، ونحن في أواخر القرن العشرين، يخرجون إلى صلاة الاستسقاء في كثير من المدن والقرى، كما خرجت مع أبي ومع الناس قبل خمسين عاماً في مدينتنا حمص، لأن الناس يفعلون ذلك كله خوفاً وطمعاً، حتى لا يتعرضوا للجوع والشقاء والغلاء، وحتى لا ييبس الزرع ويجف الضرع، وهم يرون رأي العين أن الرقعة الجرداء تزداد اتساعاً، وأن الرقعة الصغيرة الخضراء، التي تكاد لا ترى، تنكمش وتتقلص!!

* * * * *

.. لم أدرك المــدرســة ذات الصف الـواحـد والمعلم الـواحـد، أي «الكُتَّاب»... وعندما دخلت المدرسة الابتدائية كان ما يزال في مدينتنا، بضعة «كتاتيب» لا تزيد على أصابع اليد الـواحدة، وتقـع في الأحياء البعيدة، ما عدا «كتَّابين» كانا قريبين من باب السوق أحدهما «كتَّاب» الشيخ شاكر، والآخر «كتَّاب» الشيخ طاهر!!!

.. وقـد رفعتني أمي بيديهـا عن الأرض، ونزلت بي إليهـا مـرات كثيرة، عندما ذهبت إلى المدرسة الابتدائيـة لأول مرة، وقـالت لي: إنها تريد أن تشدني لأكبر وأصبح أطول قامة، ولأصبـح رجلاً، ولـو أنني مـا زلت صبياً طـري العود غض الاهـاب، ولكن من يدخـل المدرسـة اليوم، كما قالت أمي، لا بد أن يصبح رجلاً غداً!!

.. وفي أحـد الأيام اتفقت أنـا وبعض رفاقي الطـلاب، على زيـارة «الكتَّــابين»... كتــاب الشيخ شــاكر، وكتــاب الشيخ طـاهر، وذلـك في العطلة الصيفية، لأن «الكتــاتيب» لا تعطل في صيف أو شتـاء، إلاّ في أيام الجمعة والأعياد!!

.. فلما انتصفت العطلة أو كادت، ذهبنا قبل ظهر أحـد الأيام إلى كتَّـاب الشيخ شــاكر، فـوق جامـع الدالاتي، فـإذا بنا أمـام غـرفـة مستطيلة مدت فوق أرضها، حصـيرة كبيرة ممـزقة الأطـراف، يجلس فوقها الصبيـان، ورأينا شيـخ الكتَّاب، يجلس في صـدر الغرفـة فوق مصطبة عالية، وكان عندما وصلنا، يضرب بعصاه الخيزران الأرض، ثم يلوح بها في وجوه الصبيان، كـأنما كـان يتهددهم ويتـوعدهم إذا توقفوا عن القراءة أو تلفتوا ذات اليمين، أو ذات الشمال.. وكان يمد لسانه ويمسح به شفتيه ويمسد لحيته بأصابعه وكفيه كأنه يمشطها، ثم يعض بأسنانه على شفته السفلى، ثم يهز رأسه في انفعـال وسرعة،

وكان يفعل ذلك كأنما أصبحت هذه الأمور عادة استحكمت به فلا يستطيع منها خلاصاً!!

.. وكان الشيخ شاكر يقرأ فيتبعه الصبيان، وهم يرددون ما يقرأ من آيات القرآن الكريم، وهو المادة الدراسية الأساسية والوحيدة في الكتاتيب.. والصبي الذي يختم القرآن، أي يحسن قراءته كله دون لحن أو خطأ، يكون قد أنهى مرحلة الدراسة، وعندئذٍ تقام له حفلة «تخرج» يشارك فيها الصبيان والأهل والجيران، وتتلى فيها قصة المولد النبوي الشريف، وتقام معالم الزينة في داخل الكتّاب، وعلى الباب، وربما إلى امتداد الطريق المؤدية لحارة الصبي ويصطف الصبيان أمام الكتّاب وهم يلبسون أزهى الثياب ويعتمرون الطرابيش المزركشة، وكلما وصل مدعو من أهل أو جيران الصبي ينحني الصبيان ويسلمون بأيديهم على القادمين، ويطلبون منهم الدعاء ليختموا القرآن الكريم، كما ختمه زميلهم الصبي، وكانت توزع الحلوى والمرطبات و«الملبّس»، ويرتدي الصبي ثياباً مزركشة وطربوشاً مقصباً. ويدفع أهله للشيخ مبلغاً من المال. يقل أو يكثر حسب الظروف والأحوال، وكان «ختم» القرآن يستغرق عاماً أو أكثر أو أقل من ذلك، حسب ذكاء أو قلة ذكاء الصبي، وحسب اجتهاده أو كسله!!

.. وكان الشيخ شاكر، يعلق فوق رأسه مما يلي الحائط، «الفلق» أو الفلقة فإذا انشغل صبي عن القراءة بالعبث مع لداته، ورآه الشيخ، دعاه وألقاه أرضاً ووضع الفلق في رجليه، ونزل بعصاه الخيزران على باطن قدميه حتى يدميهما، والصبي يتوسل إليه بجاه المصطفى أن يغفر له ويعفو عنه، وكلما توسل إليه الصبي كلما ازداد له ضرباً وتعذيباً، وهو يقول له: (بدّي ربي فيك الأرض والسماء.. وبدّي كنِّس فيك هذا الكتّاب، وبدّي خلّي الصبيان كلهم مثل القملة «المفروكة»، وما بدي حدا يتلهى عن الدرس، وإلّا فإن «الفلق»، حاضر ناطر، بانتظار كل من يحوص هيك أو هيك!!)..

.. وكان عريف الكتّاب، وهو عادة أكبر الصبيان سناً، يساعد الشيخ شاكر في مراقبة الصبيان، وفي تحفيظهم بعض سور القرآن، أو قراءتها بلا لحن ولا خطأ، وفي وضع «الفلق» في أرجلهم ورفعها إلى أعلى لتصبح في مستوى ومتناول عصا الشيخ عندما ينزل بها على قدمي هذا الصبي الشقي أو ذاك!!

.. ولا تكاد تمر ساعة إلّا ويدعى صبي شقي لحفلة «الفلق» هذه، فقد كانت هذه العقوبة القاسية المذلة، تنزل على الصبيان لأتفه الأسباب، فإذا نظر صبي إلى غير شفتي الشيخ وهو يقرأ، أو توقف عن القراءة، ولو لسبب وجيه، كان «الفلق» له بالمرصاد، وإذا لم يأت الصبي للشيخ بالحلاوة أو الكنافة أو الكبة، نظر إليه الشيخ تارة، ونظر إلى «الفلق» تارة أخرى، ويتنبه الصبي إلى ذلك فيأتي للشيخ في الغد، بما تيسر له، أو لأهله، من أنواع الطعام والشراب!!

... وكان الشيخ شاكر، يضع في طرف النافذة التي تقع وراء المصطبة أو الدِكّة التي يجلس عليها، وعاءً مملوءاً بالدبس، مما يأتي به بعض الصبيان، وكان يتلفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى، فإذا اطمأن إلى أن وعاء الدبس ما يزال في مكانه، مد أصبعه «ولحس» منه «لحسة»... وهو يردد قائلاً: (بسم الله.. بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء..) فإذا سال بعض الدبس على لحيته وجبته، أسرع عريف الكتّاب ومسحه، ثم أشار إلى أحد الصبيان، وقال للشيخ شاكر: (يا سيدي، هذا الصبي قليل الذوق، وأهله أقل ذوقاً منه، وهو لم يأت بما وعدك به من الجبن واللبن والقشطة، وها أنت تراه، يا سيدي، يلعب ويتسلى ولا يقرأ، ولا بد أن جلده يحكه.. وهو يستحق أن يوضع في الفلق، فيصرخ الصبي المقصود من شدة الخوف: (قل أعوذ برب الفلق.. دخيلك، يا سيدي الشيخ، سأحضر غداً كل ما تطلب من لبن وجبن وقشطة.. ودبس أيضاً)!!

.. ويضحك الشيخ في سره، لتفسير الصبي، من شدة خوفه، كلمة

«الفلق» في الآية الكريمة، بهذا الفلق المعلق على الحائط، والمعنى بينهما مختلف جداً.. فإذا كان الشيخ على أحسن ما يكون من الانسجام، قال للعريف: (ويلك.. أنت تفتري على الصبي وتدعي أنه لم يحضر ما طلبت منه، وهو في الحقيقة قد فعل، وهل نسيت صحن القشطة أمس، ورطل الجبنة أول أمس، وسطل السمن وسطل اللبن؟؟ وهل نسيت أقراص الكبة المشوية؟؟، والفتنة، يا عدو الله، أشد من القتل، وقد حان وقت ضربك أنت بالفلق، محل الصبي) ثم يتلو الآية الكريمة: ﴿ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يتوبوا...﴾ إلى آخر الآية..

... وكان كل صبي إذا دسّ على رفيقه، يقول له الشيخ: (أعوذ بالله من الفتنة.. الفتنة أكبر من القتل.. ويلك لا تفعل ذلك بعد اليوم!!).

.. وكان المقصود بالفتنة هنا الدس والوقيعة بين الشيخ وصبيانه، ومحاولة النيل من هذا الصبي، أو ذاك أمام الشيخ، الذي كان، كما يقول، يكره الفتنة.. ولكنه كان يحب الدبس والقشطة والكنافة والكبة!!!

.. وكان الشيخ شاكر، إذا لاحظ تقصيراً من أحد الصبيان في تقديم الحلوى وغيرها له، أو تأخر في دفع «الخميسية» وهي القسط الذي يدفعه الأهل كل يوم خميس للشيخ مقابل تدريس ولدهم، اقترب الشيخ شاكر من الصبي وهمس في أذنه قائلاً: (أهل الذوق ماتوا واستراحوا.. قل لأهلك.. المسألة بدها شوية استطعام.. فالخميسية، تتأخر والحلوى لا تصل، والكبة... مشكلتها مشكلة.. هواري وسفاقة وبا ان شاء الله!!)..

.. وكان أجر الشيخ شاكر لا يتعدى بضعة قروش في الأسبوع وبعض الحلوى والطعام وكان يشكو من الفقر، شأنه شأن أكثر الناس في بلادنا، وكان الصبيان وأهلهم فقراء مثله، وربما كانوا أشد

منه فقراً، وكان بعض الأهل يحاولون التخلص من دفع «الخميسية»، فلا يجد الشيخ بداً من التشفي والانتقام من الصبيان المساكين، حيث ينزل عليهم، دون سبب، بالضرب والسب والهوان، وكثيراً ما هرب الصبيان من الكُتَّاب، ولم يعودوا إليه، وتشردوا كغيرهم في الآفاق، وزادوا من عدد الأميين والمتشردين والبؤساء الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة في مدينتنا حمص، وربما في غيرها من المدن السورية!!!

.. ويعود شيخ الكُتَّاب بعد هذا كله، يلوح بعصاه، ويحرك لسانه ويمده ويمسِّد لحيته ويشدها، كأنه يريد أن تزداد طولاً فوق طولها.. ثم يبدأ القراءة من جديد، ويرد عليه الصبيان، وكل واحد منهم يحاول أن يرفع صوته بالقراءة ليسمعه الشيخ، حتى لا يلقى ما يلقاه غيره من ضرب وهوان!!

... لكن ما روعني، بعد ذلك، وعذبني وأرهبني كثيراً، أن الفلق والضرب بالعصا على أكف الطلاب وظهورهم والاساءة البالغة إليهم، لم يكن قاصراً على صبيان الكتاتيب فحسب، وإنما كان الفلق والضرب بالعصا يقع أيضاً على الطلاب في المدارس الرسمية، وكنت أظن أنني وجيلي الصغير الذي لم يدرك عصر الكتاتيب قد نجونا من الفلق والضرب والتعذيب، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً، إذ لم يمضِ أسبوع على افتتاح العام الدراسي الجديد، حتى وقعنا بين أيدي بعض المديرين والمعلمين في مدرستنا، أو مدارسنا الابتدائية يومئذٍ، حيث كانوا يضربون الطلاب ويتشفون منهم، خاصة إذا كانوا من الطلاب الفقراء، ولم يكونوا من أبناء الذوات والوجهاء، وكان هؤلاء الطلاب يأتون إلى المدارس بثيابهم الرثة وجواربهم المرقعة، وبالقباقيب يستعيضون بها عن الأحذية التي لا قدرة لأهلهم على شرائها لهم، وكان أبناء الذوات والوجهاء يلقون الترحيب والعناية والرعاية، حتى أن عدد الطلاب الفقراء الذين كانوا يتركون المدارس الرسمية بسبب الضرب والعذاب والهوان، يساوي في بعض الأحيان

عدد الطلاب الذين كانوا يتركون الكتاتيب ولا يعودون إليها!!

.. كان يبدو على الطلاب الفقراء في المدارس، الجوع والهزال، فمن كان منهم صابراً وراغباً في العلم، احتمل كل هذا العذاب والضرب والهوان، وتفوق على جميع أقرانه، خاصة أولاد الأغنياء والوجهاء وأبناء الذوات، الذين كانوا في الأغلب كسالى وأغبياء.. رغم كل شحنات ووجبات الغذاء التي كان يدفع بها أهلهم إلى بطونهم صباح مساء، حتى كان أكثرهم يصاب بالسمنة لكثرة ما يأكل، ويصاب بالتخمة لكثرة ما يتناول من اللحم والدسم!!

.. وكان الطالب الفقير يبدو بجانب الطالب الغني المترف، هزيلاً ضئيلاً، يكاد يسقط ويتهاوى على الأرض من شدة الجوع والإعياء!!

.. وأذكر أننا خرجنا من المدرسة صباح أحد الأيام، في مظاهرة وطنية شارك فيها جميع طلاب المدارس في المدينة وجميع أساتذتها، فلما وصلنا إلى مكان التجمع في احدى الساحات لننطلق منها في جموع حاشدة وصفوف منتظمة في مظاهرة كبرى تهدر كالسيل. نظرنا حولنا فإذا الطلاب أولاد الأغنياء والوجهاء، قد تسللوا وتخلوا عن المظاهرة قبل انطلاقها، ومضوا إلى دورهم وإلى جانبهم خدمهم الذين كانوا يحملون لهم حقائبهم المدرسية الجلدية الفاخرة، وسلالهم الأنيقة المملوءة بأطايب الحلوى والطعام والفاكهة من مختلف الأشكال والألوان، وكانوا وهم يهربون من المظاهرة ويتخلون عنها، يشيرون إلينا ويسخرون منّا ومن المظاهرة ومن الوطن الذي يفهمونه على أنه مزرعة خاصة لهم يتصرفون بها على هواهم، وأنه دور وقصور، وقرى وأراض شاسعة يستغلونها ويستثمرونها ويجمعون الثروات الطائلة من ورائها، دون أن يعطوا شيئاً لهذا الوطن المنكوب بهم وبالاستعمار!!

.. وكانت تلك المظاهرة الوطنية الكبرى، كما أذكر، قد قامت في صيف عام ١٩٣٨، من أجل حدث خطير وأمر جلل، فقد أقدمت

فرنسا يومئذٍ على اقتطاع جزء عزيز وغال من سورية العزيزة الغالية، وهو لواء الاسكندرونة، هذا الثغر العربي السوري الباسم على البحر الأبيض المتوسط، والذي كانت تنتهي بعده حدودنا مع تركيا، فأعطته فرنسا لها، وكأنها تملك بلادنا، أو كأن لها الحق بأن تتنازل لتركيا عن جزء من بلادنا لا تملك حق التنازل عنه، بموجب كل المواثيق والمعاهدات والشرائع الدولية، وهو عمل يتنافى حتى مع صك الانتداب الجائر والظالم على سورية، وقد فعلت فرنسا ما فعلت دون أن يكون لسورية ولا للشعب السوري أي رأي، بل ودون أن يسألنا أحد، كأن من حق فرنسا التي تحتل بلادنا، أن تتصرف بها على هواها:

ومن أخذ البلاد بغير حق

يهون عليه تسليم البلاد...

.. وقد استمرت وتعاظمت المظاهرات والاضرابات في البلاد ووقعت معارك ضارية بين جماهير شعبنا والفرنسيين في جميع الأنحاء وكانت مدينتنا حمص والمدن السورية كلها، قد قامت في وجه فرنسا لاستعمارها لبلادنا واحتلالها لأرضنا، وسلخها لجزء عزيز غالٍ من وطننا، ومنحه لتركيا، دون أن نكون قد أسأنا إلى هذه الجارة التي قابلتنا بالإساءة وبادأتنا بالتحرش والشر.!!

. وكعادة الاستعمار، لتغطية مؤامراته وجرائمه، أعلنت فرنسا، وهي كاذبة عن لجان للاستفتاء.. ولجان للاستقصاء، ومن قبل عصبة الأمم... ليتم من خلالها تنفيذ هذه المؤامرة الكبرى ضد بلادنا!!

.. وكان مدير مدرستنا من الوجهاء والذوات، وكان قصيراً قميئاً، وقد أراد أن يغمز من قناة الطلاب لقيامهم بالمظاهرات الوطنية الرائعة احتجاجاً على سلخ فرنسا لواء الاسكندرونة السوري وتقديمه لتركيا لقمة سائغة، فما كان من الطلاب وأبناء الحي إلاّ أن ذكّروا هذا المدير بأنه في سلوكه هذا يوالي المستعمر الفرنسي والطامع التركي، واكتفى الطلاب وشباب الحي عندنا هذه المرة بانذاره

وتحذيره، وحاولوا أن يثيروا النخوة والعزّة فيه، ولكن هذا الحدث الخطير، لم يثر فيه أي إحساس أو شعور قومي أو وطني، رغم فداحة الخطب وخطورة الجريمة التي أدت إلى سلخ اللواء السوري الغالي عن أمه سورية العربية الباسلة والمناضلة!!

.. كان هذا المدير القصير القميء، يحمل في يده عصا قصيرة مثله، وكنا نتساءل فيما بيننا عن سر قوة هذه العصا الثقيلة، فهي تسلخ الجلد وتكاد تنتزع اللحم من أكفنا، وكان بعضنا يظن أنها محشوة بقطع من الحديد، أو بمعدن الرصاص، لأنها كانت تنزل على أكفنا نزول الصاعقة، وكنا لا نملك حيالها إلّا أن نصرخ ونبكي ونضع أيدينا من شدة الوجع أمام أفواهنا وننفخ فيها حتى تزول آثار الضرب المبرح منها!!

.. وكان هذا المدير يحب أن يضرب الطلاب بعصاه القوية هذه، دون أي ذنب أو مسوغ أو سبب، وكنت أفكر جاداً في التقاط هذه العصا وانتزاعها من يده لألقي بها في غيابة الجب الذي يقوم في طرف المدرسة، ولكني كنت أخاف أن يبطش بي، وكأنه كان يعرف من نظراتي المصوبة إليه، مبلغ رفضي لكل مواقفه الوطنية منها والتربوية، وقد أضمر ذلك في نفسه، فلما رفضت ذات يوم أن أمد له كفي ليضربني بعصاه تلك، أمر «الحجي»، وهو حاجب المدرسة وبوابها، باحضار الفلق، ثم أمره بالقائي أرضاً، وبوضع الفلق في رجلي وشدهما بقوة، ثم أخذ ينزل على قدمي بعصاه، والطلاب ينظرون إلى هذه المأساة والمحنة وكأن على رؤوسهم الطير!!

.. وأخذت أصرخ وأتقلب وأتلوى على الأرض، ولم يكد «الحجي» يفك الفلق عن قدمي، حتى حاولت أن أمشي وأخرج من المدرسة، ولكنني لم أستطع من شدة الألم.. وبعد قليل جاء دور طالب آخر.. وأكل المسكين فلقاً محترماً.. وتوالى الطلاب واحداً إثر واحد، ونالوا، كما نلت، وربما أشد، نصيباً وافراً من الارهاب والضرب والحقد

والكيد من هذا المدير علينا نحن الطلاب الذين رفضنا ونرفض الذل والهوان والإرهاب!!

.. ولما عدت إلى الدار، أخبرت أمي وأنا أبكي، بما حدث لي، ولكني رأيتها لا تكتم فرحتها، وسمعتها تقول: (العصا من الجنة.. تسلم ايدين المدير.. ياليته سلخ جلدك عن لحمك.. وأرسل إليّ عظامك؟؟..) وقلت لها، وأنا أكاد أنفجر من شدة الغيظ والبكاء: (ولكن المدير ضربنا لأننا قمنا بمظاهرة ضد سلخ لواء الاسكندرونة السوري وضمه بقوة الاستعمار إلى تركيا!!)..

.. فلما سمعت أمي ذلك أخبرت أبي وأخوتي بما حدث لي وللطلاب في مدرستنا على يد المدير، وتم نقلي عندئذ إلى المدرسة الخيرية الإسلامية عند التلة في حي باب هود!!

.. وفي تلك الأيام، على ما أذكر، قامت منظمة سياسية اسمها «عصبة العمل القومي»، وكان من أعضائها البارزين في مدينتنا السيد وصفي البني، وكان شاباً وطنياً بارزاً، ولكن هذه المنظمة لم تلبث غير قليل حتى توارت وتلاشت، خاصة بعد أن توفي رئيسها وهو من آل الدندشي، كما أذكر، في حادث ارتطام رأسه بعمود كهربائي وهو يركب «الترام» في دمشق، وقد انتقل وصفي البني بعدها من عصبة العمل القومي إلى الحزب الشيوعي، وكان عضواً بارزاً فيه، وكان يتحلى بالشجاعة والتواضع ونكران الذات وبالثقافة العالية، رحمه الله..

... ونمت عندي منذ الصغر، ونتيجة التربية الوطنية، روح الالتزام بالقضايا المتصلة بالحرية والديمقراطية والتقدم والسلام، واستبد بي منذ تلك السن الصغيرة عناد شديد لن أتزحزح عنه طوال حياتي، فأنا لا أقبل أمراً يفرض عليّ بالقوة والقهر والقسر، حتى أصبحت أمي تناديني منذ ذلك اليوم الذي لا أنساه: (أنت

عنيد، يابني، لا تكسر رأسك (فَرَّاعة)(*)..) وتضيف أمي قائلة: (ها الولد رأسه مثل الصخر، لا يلين)!!!

... لقد أردت أن أكون كذلك، وسعدت كثيراً بذلك، فقد علمني أبي الشيخ الإمام، حب الحرية والتعلق بالديمقراطية والثبات على الموقف، كما علمني ذلك «الفلق» من ذلك المدير المستبد الظالم، أن أرفض الظلم والاستبداد والذل والهوان والعبودية والارهاب، ولو كانت من أقرب الناس إليّ، ومن قومي وأهلي وعشيرتي وبلدي.. وهو موقف لا أحيد عنه ولو أن الثمن الذي دفعته لقاء ذلك من لقمتي وحياتي ورزقي وعملي وصحتي، كان باهظاً جداً!!!

... كانت المدارس الرسمية، كما قلت، لا تختلف من ناحية الضرب والارهاب عن «الكتاتيب» التي لم أدركها، وإن كانت تختلف عنها في عدد الصفوف والغرف، وفي عدد الكتب والمعلمين، وبهذا الجرس الذي يقرع عند ابتداء وانتهاء كل درس، وعند انصراف الطلاب، بينما يستمر الدرس الواحد في «الكتاتيب» من الصباح إلى المساء دون انقطاع، فإذا استولى على شيخ «الكُتّاب» الارهاق والتعب، من القراءة والصراخ، أمر الصبيان بأن يفارقوه ويذهبوا ويعودوا في صباح الغد ومعهم ما تيسر من دبس ولبن وجبن وغير ذلك، فيخرج الصبيان مسرعين، وهم لا يصدقون أن الشيخ أطلق سراحهم وأخلى سبيلهم!!

... وبدا لي واضحاً من خلال الأساليب التربوية التي كانت متبعة، في المدارس الرسمية أو الخاصة، أو الكتاتيب، أو في معاهد التعليم والتدريب على اختلافها، أن الرغبة في التسلط والميل إلى أسلوب القسر والارهاب والقهر، ملازمة لنا، نحن العرب، في سلوكنا الخاص والعام، وفي داخل الأسرة الواحدة، وفي المدرسة، وفي كل

(*) الفَرَّاعة: فأس ذات طرف عريض حاد تقطع به الأشجار الضخمة والصلبة بصعوبة وكثير من الجهد...

مجالات وميادين السياسة والفكر والعمل والحياة، وأن هذه الرغبة الجامحة لم تفارقنا، رغم اختلاف الظروف والأحوال والزمان، وأن الروح الفردية، أو بتعبير أوضح، روح الدكتاتورية والتسلط تستبد بنا، وكأنها طبيعتنا!!

.. ولا أدري لماذا أحس حتى الآن، وبعد مضي كل هذا الزمان، بعد ذلك الحادث المروع الذي وقع لي في تلك المدرسة، بالألم والقرف والغثيان، وأتذكر ذلك الدكتاتور المدير، وهو ينهال على قدمي بالخيزرانة، وقد ربطتا بين حبل وعصا الفلق اللعين، وكيف كان بوّاب المدرسة يشدهما شداً قوياً، ورفاقي الصبيان يقفون في دائرة حولي ينتظرون دورهم!!

.. أليس الدكتاتور سواء أكان كبيراً أم صغيراً، حاكماً أم مديراً، هو سبب شقاء وبؤس ودمار الشعوب والأمم؟؟

... وبعد أيام، وصلت أفواج اللاجئين والمهاجرين من لواء الاسكندرونة.. وكان نصيبنا منهم، أقرباء لنا كانوا يسكنون مدينة انطاكية وهي من أهم المدن السورية بعد الاسكندرونة، وكان على رأس هؤلاء الأقرباء رجل كان يعمل رئيساً لديوان محافظة انطاكية، وكان اسمه، كما أذكر (مصطفى مؤمن) وكان معه عندما وصل ونزل في دارنا على الرحب والسعة، سبعة أولاد بين أبناء وبنات، كانوا في منتهى الدماثة والتهذيب، وقد حملنا أعباءهم فوق أعبائنا، وجمعنا ضيقهم وحزنهم على وطنهم وبلدهم فوق ضيقنا وحزننا على وطننا وبلادنا وأهلنا الذين كانوا في ديارهم، فجاء الاستعمار وأخرجهم منها، ولم نكن نعلم الغيب يومئذٍ، وأننا سوف نتلقى أفواجاً من النازحين والمهاجرين واللاجئين من فلسطين ولبنان وبلدان كثيرة، وربما كنا يوماً في جملة النازحين والمشردين!!

.. كنت أرى في عيون أقربائنا النازحين الذين جاؤوا إلينا من لواء الاسكندرونة السوري، الحزن والكآبة والحيرة والمرارة، وكان السؤال

الوحيد الذي كانت عيونهم لا تنفك تسأل عنه يومئذٍ: (ترى هل نعود؟؟ ومتى نعود؟؟ وهل نرى انطاكية من جديد وقد عادت إلى حضن الوطن الأم سورية؟؟؟)

.. ولقد ماتوا جميعاً واحداً إثر واحد، ودفناهم بأيدينا في ثرى حمص، بعد أن نهش السل رئاتهم وأكبادهم من اليأس والحزن والبؤس، ولم يعد أحد منهم إلى أرضه وبلده وداره، بعد أن ذهبت الأرض والبلد والدار!!

... كان عبد الله أفندي التاجي مدير المدرسة الخيرية الإسلامية التي انتقلت إليها، يسكن قريباً من دارنا، فإذا مرّ من أمام الدار نادته أمي من وراء الباب وهي تقول له: (يا عبد الله أفندي، أوصيك خيراً بابني هذا.. لك لحمه ولي عظامه، الله يخليلك أولادك).، فيضحك الرجل ويقول لها، وهو مطرق برأسه: (يا خالتي أم أنس.. نحن كلنا أولادك.. وسأعنى به عناية فائقة، فهو مثل الوردة المفتحة... ومثل النقطة بالمصحف!!)..

... وكانت أمي ذكية حادة الذكاء، وكانت تحب الرئاسة والسلطة، بل الانفراد بهما.. مما أكد لي أنها عربية القلب واليد واللسان.. وقد شجر خلاف كبير بيني وبينها لهذا السبب، ولكنه لم يحل على كل حال دون حبي العظيم لها وتقديري الكبير لعطائها وبذلها وما فعلته من خير كثير من أجلنا، وإنما الأعمال بالنيات والجنة تحت أقدام الأمهات!!

... وقد فرضت أمي إرادتها على أبي الشيخ الإمام، وعلى إخوتي، وعلى خالتي «فوزية»، وعلى اخوالي، وعلى صديقاتها وجيرانها، حتى أصبح هذا السلوك الحازم والقوي جزءاً من حياتها، لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها، وكانت ترى في عنادي الشديد مسألة ذات بال، وكانت تريد أن تجد لها حلاً يعيدني إلى طاعتها العمياء وعدم مخالفة أوامرها، ولكنها رأت أنني ما زلت صغيراً، وأنني كالعجينة تسهل

معالجتها لتأخذ الشكل الذي تـريد، فجـاءت إلى أبي الشيخ الإمـام، وهي تمشي على استحياء، تطلب اليه أن يعدني إعداداً جيداً لأكـون، عندما أكبر، خليفته في المشيخة والإمامة والخطابة، ولأكون رجل دين مثله، حتى يرتاح بعد طـول هذا التعب والنصب خـلال هذه الأعـوام التي زادت على الخمسين، وحتى لا ينقطـع هذا الحبـل المتين، الـذي يصل هذه الأسرة القديمة العريقة في خدمة الله والناس والدين!!

... وسألني الشيخ الإمام رأيي في هذا الأمر الذي عـرضته أمي، فلم أحر جواباً فأنـا ما زلت صغيـراً على اتخـاذ قرار يتعلق بحيـاتي ومستقبلي وعملي، ومع ذلك فقد قلت له إكراماً واحتراماً لما بذلـه طول عمره من جهد وما عاناه في سبيل تربيتنا وتأمين لقمـة العيش الكريم لنا، وللتخفيف من أعبائه التي ينوء بها، أنني عـلى استعداد لتنفيـذ مـا يرى ويـريد، عـلى أن ألتحق بدار العلـوم الشرعية وادرس فيهـا خمس سنوات، لأحيط بشيء من علوم القرآن والحديث والفقه والنحو واللغـة والعَروض،، ولأحفظ القـرآن الكـريم إذا استطعت، حتى إذا قررت بعدها أن أصبح رجل دين وشيخاً وإمـاماً وخطيبـاً، استطعت أن أصـلي بالنـاس إمامـاً، وأخطب لصلاة الجمعـة، وافتي الناس في شؤون دينهم وأتصـدى لحل مشـاكلهم، وهي كثيرة، وإلا كنت رجـل دين جاهل ودعي يكتفي بـالعمة البيضـاء والجبة السـوداء، واللحية الشهباء.. يمشطها ويمسِّـدها، كمـا يفعل بعض الأدعيـاء... أو كنت كمثل الحمار يحمل أسفاراً!!

.. وضحك الشيخ الإمام كثيرا لهذه الكلمة الأخيرة التي اقتبستها من آية من آيات القرآن الكريم، والتي تصف الجاهلين الذين يحملون الكتب والأوراق والأسفار المخطوطة، كما يحملهـا الحمار لا يقـرأ ولا يفهم شيئاً منها أو يعرف ما فيها!!

.. فلما سمعت أمي مقالتي، قالت لأبي: هذا كلام سليم، وبعد أن يبدأ العام الدراسي خذه بيدك إلى دار العلوم، (الثانوية الشرعية) كما سميت بعد ذلك، فمديرها رجل دين عالم وفاضـل مثلك، وهـو يحبك،

وأوصه خيراً به إلى أن يصبح لائقاً لأن يكون خليفتك في حياتك وبعد عمر طويل، وليتولى مناصبك الدينية كلها، وليكون بعد ذلك شيخ وإمام وعالم البلد، ويكون شعر وجهه قد نبت، إذ لا توجد في وجهه الآن شعرة توحد الله... وسأجد له بعد ذلك زوجة حلوة وصالحة يكمل بها نصف دينه!!

... وأجدني على غير إرادة مني أضحك لحكاية نصف دينه هذه، ولتلك الزوجة الحلوة الصالحة التي تستطيع أن تكمل نصف دين الرجل، إن لم تنقص نصف دينه أو تجعله يخرج من دينه كله.. لما تفعله به، مما لا يخطر على قلب بشر!!

... وبعد مرور حوالى عامين، أخذني أبي الشيخ الإمام إلى دار العلوم، ودخلنا على مديرها الشيخ«زاهد» فقام الرجل من مجلسه وأسرع إلى أبي يرحب به في كثير من الحفاوة والاحترام، ولما رآني الشيخ المدير أخذ يمسح بيده الكريمة على رأسي ووجهي وهو يقول لأبي: (ما شاء الله كان.. وما لم يشأ لم يكن.. ما هذه الخلقة الرحمانية، يا أبا أنس... وسبحان الخالق العظيم)!!

... وأخذ الشيخ زاهد بيدي، بعد انصراف أبي، وأدخلني الصف الأول، وأوصى بي الشيخ المعلم، وأخبره أنني ابن الشيخ سعيد.. فرحب بي المعلم كثيراً، ورحب بي الطلاب، وسمعت أحدهم، وهو أعمى، يقول:«هذا ابن الشيخ الإمام..»ثم دعاني لأجلس بجانبه، ففعلت وأنا أشكره وأنظر إلى عينيه المطفأتين، وأقرر في الحال أن أكون صديقاً وزميلاً له نظراً لعاهته وما لاحظته من رقة حاله!!

.. كان الشيخ المعلم الذي تلقيت أول درس على يديه في دار العلوم الشرعية، في نحو الستين من عمره، وكان عالماً جليلاً وفقيهاً متمكناً، وكان يدرسنا أصول الفقه، وقد أفدنا منه كثيراً..

.. وكان يدرسنا علم المنطق، ويسمى «إيساغوجي» شيخ جليل، هو الشيخ «أنيس الكلاليب»، وكان في نحو الثمانين من عمره، وعلى

الرغم من علمه وفضله، فقد كان بسبب شيخوخته وتقدمه في السن، يضيع أثناء الدرس، وتخونه ذاكرته المتعبة، وكنت أتذكر وأنا أستمع إليه مع زملائي الطلاب، قول ذلك الشاعر العربي:

إن الثمانين وبُلِّغْتَهَا

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان..

أي أن سن الثمانين، وأسأل الله، كما يقول الشاعر، أن تبلغها وتصل مثلي إليها، قد أحوجت سمعي، إذا أردت أن أسمع، إلى ترجمان يصرخ في أذني لأفهم ما يقال..

.. وكان إذا سخر منه أحد الطلاب، بعد أن يكون قد ضاع وخرج عن الدرس وأخذ يتحدث عن نفسه وعلمه وفضله وذكرياته، التفت في غضب شديد إليه وقال له: (هذا أنت، يا أجقم.. إبليس إذا ،طجّنك، بيخسر عليك البهارات!!)..

.. ولم يلبث الشيخ «كلاليب» بعد ذلك إلاّ قليلاً، حتى وافاه الأجل المحتوم، رحمه الله..

.. وكان أحد الشيوخ يدرسنا علوم تفسير القرآن والحديث، وكان ذلك موضع عنايتي واهتمامي، وكنت أجد في هذا الدرس ضالتي وبغيتي، لأن الاحاطة أو الالمام على الأقل بمعاني القرآن الكريم، وتفسير أياته، وحفظها، وحفظ بعض الأحاديث النبوية ومعرفة الصحيح منها، والضعيف، كان من أهم ما أرمي إليه لأنني واثق بأن الإحاطة أو الإلمام بهذه العلوم، أو حفظ القرآن الكريم سيجعل مني في المستقبل، كاتباً أو قادراً، على الأقل، على الكتابة بصورة جيدة وصحيحة وبأسلوب مشرق مبين، أرضى عنه ويرضى الناس عنه، دون أن ألجأ إلى التقعر أو التعقيد، فيضيع القارىء في كلام غير مفهوم، وفي أسلوب غير مهضوم، وربما كان بعض الكتّاب يجدون في الأسلوب الصعب والمعقد والمتقعر، ما يستطيعون أن يخدعوا به بعض الناس، وبأنهم يكتبون كلاماً فيه عمق، لا يفهمه ولا يدركه إلا الخاصة

والصفوة، مع أن القرآن الكريم، كما نعرف ويعرف العالم كله، مشرق الديباجة واضح ورائع المعاني، سهل المتناول، لا تقعر فيه ولا تعقيد، ولا يحتاج قارئه إلى كبير عناء ليدرك معانيه وروعة أسلوبه السهل الممتنع!!

.. وقرأنا على الشيخ معلم النحو، ألفية ابن مالك وحفظناها، وأفدنا منها كثيراً في معرفة قواعد النحو والاعراب، وكنا نستشهد ببيت منها فنصل إلى ما نريد ونجيب على ما يسألنا المعلم عنه من شؤون وشجون النحو العربي، كما قرأنا عليه كتاب (قطر الندى وبَلّ الصدى) وهو في النحو أيضاً، وقرأنا عليه العَروض، أيضاً، وهي علم بحور الشعر، وحفظناها، وهي سبعة عشر بحراً.. وكنت بدون العَروض أو قبله على الأصح، وبعده أيضاً، أتذوق الشعر وأعرف إن كان هذا البيت مكسوراً أو صحيحاً سليماً، لمجرد سماعي له، وقبل أن أقيسه على بحره، كما يتذوق الموسيقي الألحان والأنغام، فيعرف منها السليم من السقيم..

.. وكنا نتقاضى راتباً شهرياً يبلغ حوالى ليرتين سوريتين لتشجيعنا على دراسة العلوم الشرعية!!

.. وحدث مرة أن شيخاً جاهلاً غبياً، فرضوه علينا، لواسطة له، فالواسطة موجودة حتى في تلك الأيام، وإن كانت محدودة جداً، وأراد أن يدرسنا الأدب العربي، وكان المسكين قليل الأدب.. وقد وقف في الدرس ليقرأ علينا لامية الطغرائي الشهيرة في الحِكَم ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ
وحلية الفضل زانتني لدى العطل..

فقال: إن هذه القصيدة قالها أمية الطغرائي، ظناً منه أن صاحبها «أبو اسماعيل الحسين بن علي» المعروف بمؤيد الدين، اسمه أمية... وغاب عنه أن القصيدة لامية، أي أن قافيتها تنتهي باللام!!

.. وأذكر أنني تصديت لهذا الشيخ الجاهل بشدة، وقلت له: (إذا

كنت لا تفـرق بين أميـة وبين الـلام، فكيف يصـح أن تكـون معلمـاً وأستاذاً؟!) ولما شكونا إلى الشيخ المديـر، جهل هـذا الشيخ الفطـير، صرفه بالتي هي أحسن، وجاءنا بدلاً منه بشيخ أحسن!!.

.. وحدث ذات يوم، أن الشيخ الذي يعلمنا تفسير القـرآن الكريم، كان يلقي علينا درساً، في أسلوب القرآن الكريم وجمال معانيـه، وكان زميلي الطالب الأعمى، واسمه «الشيخ خالد». وهو الذي أتخذته رفيقاً وزميلاً وصديقاً، دون سائر الطلاب المبصرين، لأنني وجـدته مبصـراً أكثر بكثير منهم، يسـأل الأستاذ عن معنى آيـة من القرآن، حتى إذا أجـابه الأستـاذ عن سؤاله، وقف، ولا أدري مـا الذي حملـه على أن يقف ويقول للشيخ المعلم، إن ابن الشيخ سعيـد، وأشار إليّ، يعـرف تفسير آيات القرآن ولا يفوته شيء منها، فنظر الشيخ إليّ في استغراب وسألني: (أحقاً ما يقول زميلك الشيخ خـالد؟)..، وكـان عليّ أن أنفي ذلـك في الحال، ولكني وأنـا غرّ صغـير، قلت له دون وعي ولا إدراك: (نعم يا سيدي..) فقال لي الشيخ في الحـال، قل لي، يـابني، ما معنى قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون..﴾ وأضـاف الشيخ يقـول: أريد منـك أن تقول لي معنى «قائلون» هنا!!

.. وبدا لي من هول المفـاجأة، وكـأنني أسمع هـذه الآية القـرآنية لأول مـرة، رغم أنني كنت قـد حفظت أكثـر سـور القـرآن، وعـرفت معانيها، ولكنه الامتحان والسؤال على حين غرة، عقدا لسـاني وأغلقا عقـلي، وكان عـليّ أن أعرف معنى قـائلـون في الحـال، من القـرينـة والسيـاق، وأنها تعني: أن بـأس الله يأتيهم بيـاتاً أي في الليـل، وهم نائمون، أو في النهار وهم قائلون، أي نائمون في القيلولة بعد الظهر!!

.. وتعلمت من هذا الحادث درسـاً لا أنساه، وهـو أن لا أغتر ولا أدعي أنني أوتيت من العلم شيئاً كثيراً.. بينمـا يقول اللـه في القرآن الكريم: ﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا﴾!!

.. وكنا في دار العلوم الشرعية، نشعر بأننا نشارك في وضع برامج الدروس وفي تحديد مسارها، وكنا نحس بأننا نخطط لها بأيدينا ولما فيه مصلحتنا، وأن شيوخنا وأساتذتنا زملاء لنا، وإن كانوا كباراً، لا نختلف عنهم إلا في السن، وفي مبلغ العلم الذي بلغوه بالمثابرة والدرس والسهر والجهد، وأننا يجب أن نستفيد منهم ونقتدي بهم ونسير على آثارهم، وكنا نحس في هذا الجو الرائع من حرية الرأي والحوار والنقاش العلمي الهادىء والمشاركة التامة لشيوخنا وأساتذتنا في الدرس، وكأننا نضع معهم بحثاً علمياً ليكون أطروحة أو رسالة علمية ننال على أثرها شهادة عالية، ولهذا كله ازداد إقبالنا على العلم وزاد شغفنا وحبنا له ولهذه المدرسة ولشيوخنا وأساتذتنا!!

.. وكان معنا في الصف الثالث في دار العلوم الشرعية، طالب في نحو الخمسين من عمره، يكاد لا يرفع رأسه عن كتبه، يقرأ كثيراً، بل أكثر بكثير مما نقرأ، ويجتهد ويدرس أكثر بكثير مما نجتهد وندرس، ومع ذلك فقد كان يقول لنا، إنه ينسى كثيراً وإن العلم في الصغر كالنقش في الحجر..، ويضيف قائلاً لنا: (لو كنت في مثل سنكم الصغيرة لما تركت ساعة أو بعض ساعة تمر، دون أن أقرأ وأدرس وأطالع وأتعلم.. لأن ذاكرتي بعد هذه السن أصبحت تخونني، ولا أكاد أستوعب كل ما أقرأ وأدرس، إلّا في كثير من العناء والمشقة !!

.. وكان حاجب دار العلوم الشرعية من آل عبد العظيم يؤذن أيضاً للصلوات الخمس كل يوم في الجامع الكبير، وبينه وبين أبي الشيخ الإمام، بسبب ذلك مودة ومعرفة، وكنت أسأله دائماً عن أحواله، وأسأل أبي الشيخ الإمام عنه، وأعلم أن الرجل بائس مثل سائر البؤساء، فقير صابر مثل سائر الفقراء في بلادنا وأنه يتقاضى خمس ليرات سورية في الشهر عن الأذان للصلوات الخمس كل يوم، وأنه يصعد إلى المئذنة ويهبط منها ليؤذن للصلاة عشر مرات في اليوم، وأنه يتقاضى أيضاً خمس ليرات سورية في الشهر من عمله في مدرستنا، وعنده سبعة أولاد وأمهم الودود... الولود!!!

.. وكانت تصل إلى أبي الشيخ الإمام من مصر، مجلة «الأزهر» وكنت أقرأ فيها مقالات وفتاوى ودراسات لكبار علماء مصر..، وفي مصر، بفضل الأزهر، الذي يعتبر من أعظم الجوامع والجامعات الإسلامية، بل أعظمها على الاطلاق، علماء لا يشق لهم غبار، في الفقه والتشريع، وفي علوم القرآن والحديث، ولم أكن لأحيط إلّا بالقليل مما ينشر فيها، لأنني كنت ما أزال صغيراً، ولكنني كنت أستفيد مما أقرأ فيها بقدر ما أستطيع، وقد اختزنت ذاكرتي واختزن عقلي كثيراً مما كنت أطالعه فيها، حتى لتستغرب كيف أنني بعد مضي أكثر من خمسين عاماً على تلك الأيام التي كنت أطالعها فيها، ما زلت أحفظ كثيراً من الأحكام الشرعية والفتاوى التي كانت تنشر فيها!!

.. ومع هذا فقد خطر لي يومئذٍ لحداثة سني وغروري، أن أكتب مقالة وأرسلها إلى المجلة المذكورة.. ظناً مني أنني بلغت من العلم شيئاً... وجاءني الجواب وفيه كياسة وذوق، يقول فيه رئيس تحرير مجلة الأزهر، بأنه يعتذر عن نشر ما أرسلته إليه، إذ أن المجلة لا تنشر مقالاً لا يعتمد على مصادر ومراجع ودراسات موثقة، ويتمنى لي التوفيق والنجاح!!

.. ولم أغضب... وإنما رضيت وسَعدت، لأنني عرفت نفسي وأدركت أنني ما زلت صغيراً يومئذٍ على الكتابة والنشر، وربما كنت وما أزال كذلك إلى اليوم، دون أن أدري!!!

... كان أحد أساتذتنا يحب «الهريسة»، إلى درجة العشق، وكان يطيب له أن يأكلها وهي ما تزال حارة يسيل القطر من أطرافها ويتربع اللوز المقشر والمحمص فوق سطحها، وتفوح رائحة السمن الشرقي منها، وكان الطلاب يتبارون في تقديم الهريسة الطيبة إليه، وكأنهم كانوا دون أن يعلموا، يتبارون في التعجيل بموته، وكان لا يخفي سروره بما يقدمون إليه كل يوم منها، حتى أصيب بمرض السكر، وكنا نقرأ على هذا الشيخ، كتاب «قطر الندى وبل الصدى»

في النحو، فإذا ذكر القطر في الكتاب، وهو أول الغيث والمطر، سال لعابه، وسمعناه يقول: (ياعيني على قطر السكر الحار، يسيل فوق الهريسة فيسيل معه اللعاب وتطرب له البطون.ما لنا ولقطر الندى والغيث والمطر.. وماذا يفيدنا ذلك الآن، ونحن في أمس الحاجة إلى الهريسة «المفتخرة والمنظومة، وبنت الناس»!!!

.. ونصحه الطبيب بأن يمتنع عن أكل الهريسة ويقلل من تناول المواد النشوية، ويكثر من الخضار، فكان يتبرم بهذه النصائح والتعليمات، ويضرب بها عرض الحائط، ويضيق بها ذرعاً، ويقول لنا: (الخضار حشائش خلقها الله للدواب والمواشي، وأين هي من اللحم والشحم والكنافة والهريسة والقطائف بالقشطة.. إن الحشائش لا تصلح طعاماً لبني آدم، ولكنها تصلح علفاً للحيوانات والبهائم والحمير... فهل يريد الطبيب أن نزاحم الدواب على عليقها؟؟)

.. ولقد مات شيخنا هذا، رحمه الله، بداء السكر، لكثرة ما أكل وتناول من الهريسة ذات يوم، فقد نام بعدها ولم يستيقظ، فلقي الله، وهو شبعان ريان، يحمده ويشكره، ويرجو رحمته وجنته التي تجري من تحتها الأنهار، حيث لا خوف عليه هناك من مرض السكر، ولو شرب أنهار العسل كلها، وأكل هريسة جنات عدن بأسرها!!!

* * * * *

.. كان الشيخ خالد، الطالب الأعمى الذي تعرفت عليه يوم دخلت دار العلوم الشرعية، ذكياً حاد الذكاء، مـرحاً في غـاية المـرح، لا يدع فرصة تمر دون أن يضحك ويضحكنا معه، داخـل الدرس وخـارجه، وفي المسجد والطريق، وفي كل مناسبة تعرض له ولنا، ليدخل السعادة إلى قلوبنا نحن الطلاب الذين لم نعـرف معنى السعادة بعـد، وأخشى أن لا نعرفها قط، رغم أننا ما نزال صغاراً على الشقاء والغم والهم!!!

.. وكان الشيخ خـالد، يـريد أن ينسى عـاهته ومـأساتـه وبؤسه، وكأنه وهو يضحك ويضحكنا معه، كان يرى الناس والحياة والأشياء والدنيا أكثر منا، ونحن نظن أنه لا يرى شيئاً.. وقد تـوثقت العلاقـة بيني وبينـه، وأعجبني فيه هـذا الصبر الجميـل، على العمى والفقـر المدقع والبؤس، وعلى هذه الحياة الشقية التي يعيشها مع أمـه وأبيه وإخـوته في كـوخ من طين في محلـة بعيـدة من حمص، كـانت تسمى أرض مدرسة الانكليز!!

... كان الشيخ خالد، يستقبل الحياة كل صباح، كما يستقبلها كل مبصر حتى دقـائق الأمور والأشيـاء... كان يحـدثني عنهـا وكـأنـه يتحدث عن أمر عادي، وكان يتحدث إليّ كيف أصيب بالعمى وهو ابن خمس سنوات، وأنه كـان يلعب مع لـداته أمـام داره، وكانت فـوقهم شجرة تين قديمة ضخمة، وكيف أنه شعر بألم وحـرقة في عينيـه من جراء تساقط شيء من شجرة التين، وهـو يهزهـا ويعبث بها، وأنـه لم يكتـرث لـلأمـر، إلى أن أصبـح في اليـوم التـالي، وقـد ورمت عينـاه واحتقنتا، فجاءت له أمه بشيء من صبغـة «الدودة»، كمـا تسمى عند العامة، وصبت منها بضع قطرات في عينيه، وأردفتهـا بأدويـة بلديـة تصنعها النساء الجاهلات دون علم ولا معرفة ولا نظافة... وكيف أنه

استيقظ بعد أيام فلما فتح عينيه لم ير شيئاً، وكان آخر ما رآه وجه أمه البائسة الحزينة وهي تضع في عينيه صبغة الدودة... وتبكي وتنشج!!

... ويذكر الشيخ خالد، أنّ أمه وضعت على عينيه أثناء مرضهما خرقة مبللة بشيء من الخل.. وأخذت تقرأ وتنفخ وتدعو له بالشفاء دون جدوى، فقد حرم من نعمة البصر نتيجة الفقر والتخلف والجهل وعدم قدرة أهله على حمله إلى الطبيب أو التماس وشراء الدواء له!!

.. وكنت إذا تخلف الشيخ خالد عن الحضور إلى المدرسة يوماً، ذهبت إليه في داره أتفقده وأسأل عن أحواله، فقد علمني هذا الطالب الأعمى، والذي كنا نسميه شيخاً.. كيف يجب أن يرى الإنسان الحياة، ولو لم يكن يراها، وكيف يجب أن يتلقى الحياة بصدر رحب وإرادة قوية، أقوى من القدر، وكيف يجب أن يبتسم، رغم أن كل ما حوله ينخرط في البكاء!!

.. وقد علمني هذا الطالب الأعمى كيف يكون الأمل سبيلاً إلى رؤية الحياة والناس والأشياء، ولو بعينين مطفأتين كعينيه، بل كيف تكون الرؤية بالعقل والقلب، في بعض الأحيان، أعمق وأدق من الرؤية بالعين المجردة، مصداقاً لما جاء في القرآن الكريم في آية كريمة: ﴿ إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾!!

.. كان زميلي ورفيقي الشيخ خالد يرى بعقله وقلبه ما لا يرى المبصرون، ويعرف بعقله وقلبه ما لا يعرفون، ويبصر ما لا يبصرون، وليس أدل على ذلك من أنه كان يرى الأشياء والحياة أفضل مما نراها، شهد الله، حتى أنني كنت أحار في تفسير هذه الظاهرة الغريبة التي لم أكن أدرك كنهها في تلك السن الصغيرة التي كنت فيها!!

.. وكان أبوه وأخوته يعملون في نقل مياه الشرب في قرب من الجلد، يضعونها فوق ظهورهم ويزبطونها بأطرافهم ويوزعون الماء على

الناس في بيوتهم وأكواخهم لقاء قروش قليلة تكاد لا تكفيهم ثمن الخبز الحاف(*) !!

.. وكان أهل الحي، الذي تقوم فيه دار الشيخ خالد، في بؤس شديد لم أعرف مثله في حينا أو في الأحياء الأخرى في مدينتنا، وإن كانت حمص كلها يومئذٍ تغص بالبؤساء والعاطلين عن العمل والمشردين والفقراء والمساكين، شأنها شأن أكثر المدن السورية !!

... وازدادت العلاقات وثوقاً بيني وبين الشيخ خالد، حتى نكاد لا نفترق إلّا عندما يحل المساء وينصرف كل منّا إلى داره، وكان عفيف النفس لا يدخل دارنا، إلّا لماماً، ولا يقرب لنا طعاماً قط، ويرفض في حدة وقوة أن أحسن إليه أو أتصدق عليه ببعض القروش، وكان يؤكد لي أنه أحسن حالاً وأكثر مالاً مني !!

.. وأكبرت فيه عزة نفسه ونخوته وشهامته.. ولقد أحببت صحبة هذا الشاب الأعمى لأنني كنت قد تأثرت كثيراً بكتاب (الأيام) للدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، وكنت أحب أن أعرف بعض ما يجمع بينه وبين الشيخ خالد، من صفات وعادات، وكنت أريد أن أكتشف أمراً غاب عني، وهو كيف أن الدكتور طه حسين، كان أعمى ووصل إلى قمة العمادة في الأدب العربي، وإلى منصب وزير المعارف في مصر، وكيف تغلب على عاهته، واستطاع أن يملأ الدنيا ويشغل الناس بتآليفه وتصانيفه، ودوره الذي لعبه في الحياة السياسية والثقافية والعلمية في مصر، وكيف بعث إلى فرنسا وكيف تلقى علومه العليا فيها، وكيف أصبح يتكلم ويقرأ بعقله وقلبه، ويكتب بواسطة زوجته الفرنسية أو غيرها، اللغة الفرنسية، وكأنه واحد من كبار أدبائها وكتابها المشهورين !!

.. وكنت أحاول أن أجد الوسيلة، ليصبح الشيخ خالد مثل طه

(*) الخبز الحاف: كناية عن الخبز الذي لا إدام معه...

حسين في علمه ومعرفته وشهرته، مادام لا يقل عنه، إن لم يكن أكثر منه ذكاء وقوة بصيرة!!

.. ولكن حالة طه حسين المادية، كانت من أسباب نجاحه وبلوغه غاية ما يصبو إليه، بالإضافة إلى جهده وبذله وحبه للعلم وأهله، والشيخ خالد زميلي ورفيقي كان بائساً فقيراً مدقعاً، ولما كان الفقر يعمي القلب، كما يقال، فإن الفقر كان سبباً في عمى الشيخ خالد في عينيه وفي قلبه على حد سواء، وإن كان برغم ذلك كله لم يخنه ولم يتخل عنه هذا الذكاء !!

... كنت آخذ بيد الشيخ خالد ونخرج أيام الربيع والصيف إلى ريف حمص القريب، مما يلي نهر العاصي وساقية الري المتفرعة عنه، وبحيرة قطينة وقرية بابا عمرو، وإلى البساتين على طريق طرابلس، وكان، وأنا أجره من يده، وكأنه يرى الناس والأشياء والحياة من حولنا وينقل عينيه بينها.. فأردد على مسمعه، حتى لا ييأس ويحزن وأنا أقوده، ولأعزيه وأخفف من مصابه، قول ذلك الشاعر العربي:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمُ
قد ضلَّ من كانت العميان تهديه...

وكنا، ونحن في ظاهر المدينة، نجلس بين شقائق النعمان والنرجس ومختلف الأزاهير والرياحين التي تتفجر عنها الأرض في أيام الربيع، وتنشر عطرها الفواح وألوانها البهية، أسأله عن لون هذه الزهرة أو تلك، وعن شكل هذه الوردة أو تلك، وعن لون النرجس وشقائق النعمان، وعن هذا البساط السندسي الرائع الذي يغطي الأرض في مثل هذا الفصل الجميل، فكان يضم هذه الأزهار بين يديه ثم يمر بها بين عينيه المطفأتين، ثم يقربها من أنفه وفمه، ثم يلمسها بأصابعه، ثم يحدد ويبين ألوانها وأشكالها في دقة متناهية، ولا أكاد أصدق ما أسمع منه وهو يصفها أفضل مما يصفها شاعر أو أديب، حتى خيل إليّ أنه مبصر يتظاهر بالعمى، فكنت أحدق في عينيه فلا

أرى فيهما بصيص نور، وإنما أرى ذلك الظلام الساكن البائس المخيم عليهما، وتلك العتمة المروعة التي كانت تبعث في نفسي الحزن والخوف، فأطرق واجماً، ثم أشده من يده وأمضي به في طريقنا، وأزهار النرجس والبنفسج وشقائق النعمان، ترنو إلينا، وتضحك لنا !!

.. وكان الشيخ خالد يجيد السباحة، وكان يطلب إليّ، وهو يسبح في ساقية الري على طريق طرابلس، ويغوص في أعماقها، أن ألقي إليه بقطعة صغيرة معدنية من النقد، فإذا فعلت وسمع وقع ارتطامها بسطح الماء، وعرف مكان سقوطها بأذنه المرهفة الحادة، لحق بها وغاص في الماء وراءها، ثم لا يلبث حتى يطفو على سطح الماء وقد وضع قطعة النقد بين أسنانه، ثم يحملها إليّ فألقي بها في الماء من جديد فلا يلبث حتى يلحق بها ويخرجها من أعماق الماء، كما فعل في المرة الأولى، ثم يضعها في طرف الساقية، فإذا انتهى من السباحة وارتدى ثيابه عاد وأخذها من المكان الذي وضعها فيه!!

.. قلت له، ذات يوم، وأنا أقوده من يده، ونحن في طريقنا من دار العلوم الشرعية إلى الجامع الكبير.. (إنك يا شيخ خالد، من جملة الصابرين على هذه الحياة، وهذه العاهة وهذا البؤس، ولا بد أن الله سيجزيك خير الجزاء، على صبرك وبؤسك وعذابك) فما كان منه إلاّ أن شدني من يدي وكأنه يزجرني أو يلومني ، ورد عليّ قائلاً: (اسمع يا صديقي، إن الحمير تصبر أكثر مما نصبر، وتحمل من الأثقال أكثر مما نحمل، وهي تستحق الأجر والثواب أكثر منا).. قلت: (ولكن الحمير تصبر لضعفها ولأنها لا تستطيع أن تعبر عن عذابها وبؤسها، بينما الإنسان يصبر، ويستطيع أن يعبر عن عذابه وبؤسه، فقال لي بحدة، إن الإنسان لا يحتاج إلى الصبر، وإنما يحتاج إلى الثورة والرفض، وهو قادر عليها، لو جمع شجاعته وألقى بالظالمين والسارقين والمستغلين والغاصبين لحقوقه في ساقية الري... ولم أر الشيخ خالد ثائراً، كما رأيته في ذلك اليوم، ولكني أخذت أضحك

كثيراً لقوله بأنه سيلقي بالظالمين في ساقية الري، ولماذا سيلقي بالظالمين والسارقين لحقوق الشعب، بل ولقوت الشعب فيها، ولا يلقي بهم في الجحيم)؟؟

.. ويضحك الشيخ خالد وأضحك معه، ونمضي معا، وهو يؤكد لي أن الصبر هو إحدى فضائل الحمير، وأن الإنسان يجب أن يصبر حقاً، على ما قدر له وما أصيب به في هذه الحياة من مرض أو عاهة، أما أن يصبر على الظلم والجور والبؤس والفقر والاستعمار والاستعباد والاستبداد والاضطهاد، فهذا ليس صبراً، وليس له عليه أي أجر أو ثواب... وإنما هو عجز وجبن، ولا يليق بالإنسان أن يكون جباناً وعاجزاً!!

من يهنْ يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلامُ..

وقال لي الشيخ خالد، وهو يشدني من يدي وأشده من يده، وقد وصلنا إلى غرفة أبي في الجامع الكبير: (قل لي بالله عليك، من هو الحمار بيننا، الحمار أم أنا؟) فقلت له ضاحكاً فرحاً به وبأفكاره: (لا أنت ولا الحمار.. وإنما أنا..)!!

.. سألت الشيخ خالد مرة، إن كان يعرفني، وأن يصفني إن كان قادراً على ذلك، كما وصف النرجس والبنفسج وشقائق النعمان... فقال: إنه يستطيع أن يتخيل ملامحي وصورتي من صوتي، وأنه لذلك يسمعني ويرسمني في مخيلته وذاكرته، ثم قال لي: لقد حلمت بأن تسألني هذا السؤال منذ زمن طويل. ثم أخذ يصفني، وأقسم أنه لو كان فناناً بصيراً ما استطاع أن يصف ملامحي بدقة، كما وصفها، وعجبت لذلك أشد العجب، وذكرت له أن الدكتور طه حسين عندما كان يدرس في جامعة السوربون، في باريس، كان يذهب في الأمسيات إلى أحد المسارح في العاصمة الفرنسية، ويجلس وبجانبه مرافقته ودليلته، زوجته، وقد وصف في سلسلة من المقالات التي نشرها في مجلة «الهلال» المصرية بعد ذلك، وصفاً دقيقاً رائعاً، كل

الأشخاص والحركات والسكنات التي كانت تجري على المسرح، أثناء عرض تلك المسرحيات العالمية التي كان كثير الحب لها، والشغف بها، وأنه في مقالاته تلك، كان يتقن إتقاناً بديعاً نقل صور الممثلين على المسرح، وهم يتنقلون فوق خشبته ويتحدثون ويمارسون أدوارهم، وكأنه كان يراهم رأي العين.. فقال لي الشيخ خالد.. (وها أنا ذا أصفك، كما كان يصف طه حسين الأشخاص الذين يسمعهم ولا يراهم... صدقني، أيها العزيز، أن العمى، عمى القلب.. والعمى عمى المبصرين الذين لا يرون الحقيقة، وهي واضحة أمام اعينهم كالشمس!!

... كان صوت الشيخ خالد أجش فيه بحة قوية في غاية القبح.. وكنت أقول له ساخراً: (إن صوتك، يا شيخ خالد، مذكور في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وإنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾.. فيثور عليّ وتنتفخ أوداجه ويترك يدي ويلعن الساعة التي تعرف فيها عليّ...، ثم لا يلبث حتى يرضى ويعود إليه ضحكه ومرحه، وكأنه نسي تعريضي بصوته، وأنه يشبه صوت الحمير!!.

.. وقال لي مرة، ونحن على مقاعدنا في المدرسة، إنه تعلم العزف على آلة العود وأنه أضاف بذلك، هذا العلم، إلى العلوم الشرعية التي نتلقاها في المدرسة، رغم الاختلاف الكبير بينها، وأنه ينوي الاستعانة بالعود، ليوفر بعض القروش يردها على أهله، حيث سيقوم بعد أن أتقن جيداً هذا الفن أو كاد بتعليم بعض النساء اللواتي لا يستطعن الظهور أمام المبصرين، فيخترن فناناً أعمى مثله، حتى لا يراهن، وأنه سيكون سعيداً بهذا العمل الجديد... فقلت له على الفور: (أرأيت الفرق كيف أصبح واضحاً بينك وبين طه حسين)... إنك تبحث عن تعليم النساء العزف على العود، وهو يبحث عن عمادة الجامعة ويرتقي الى سلم الوزارة... فقال الشيخ خالد وكأنه غلب على أمره: (كل ميسر لما خلق له..) فقلت له ضاحكاً: (صه يا عدو الله .. ولكن قل ما قاله الشاعر العربي المعاصر الشابي:

ومن يتهيب صعود الجبال

يعش أبد الدهر بين الحفر

.. وكنت أسأله بعد ذلك عن طالباته اللواتي يعلمهن العزف على العود فيقول لي: إنه يذهب إليهن في بيوتهن، وأن أزواجهن لا يخافون منه عليهن ما دام لا يراهن، ولا يعرف لهن وجهاً ولا صدراً ولا نحراً.. قلت: ما أقبح وأغلظ غيرة هؤلاء الرجال، وهل يحتاج الأمر، إذا رغبت واحدة منهن فيك، إلى عينيك؟؟..

وقال لي مرة، أنه يعرف المرأة من عطرها، ويعرفها من صوتها إن كانت صبية أو عجوزاً، أو نصفاً.. أو إن كانت بكراً أو ثيباً، وأضاف قائلاً: إنني لن أعدم يوماً امرأة تحبني وترضى بي زوجاً، ولو كانت عوراء بعين واحدة وقرعاء وعرجاء !!

.. وبعد مضي أربعين عاماً أو أكثر على قوله هذا، جاءني الشيخ خالد من حمص إلى مكتبي ومقر عملي في دمشق، بعد أن دعوته لأسأله عن حاله وأصلح من شأنه وأوصي به خيراً، فإذا به يدخل عليّ وقد أخذت بيده امرأة عوراء، وكانت تسير بجانبهما ابنته الهزيلة الضئيلة المسكينة العجفاء، وكانت ابنة سبع سنين، وكانت تلبس أسمالاً بالية، وكانت عيناها تدوران في محجريهما من الجوع والشقاء والحرمان والقلق، وأخذ الشيخ خالد يبكي، وليس أشق على النفس من رؤية الأعمى وهو يبكي.. خاصة الأعمى الذي أضحكني وأضحك الناس كثيراً عندما كنا في مدينتنا حمص... وسألته عما به، فقال: (إنه بعد أربعين عاماً من الشقاء والجوع والعذاب، ما يزال كحاله تلك، بل أسوأ منها، وأنه يكاد يموت جوعاً مع زوجته العوراء وابنته الهزيلة العجفاء، وقال وهو يبكي بحرقة: (آه يا صديقي القديم، هل يليق بالإنسان، ولو كان أعمى، أن يتسول؟) قلت له، وقد بدأ موكب الجوع والشقاء يغادر مكتبي، كأنه موكب جنائزي حزين: (لا بأس عليك.. إنك لا تتسول ولكنه بعض الذي لك عليّ أرده إليك... ألست إنساناً مثلك، عليّ واجب مساعدتك والأخذ بيدك، وأن أتقاسم

الرغيف معك؟؟.. وأخبرته أنني أوصيت به خيراً، وأن أجره على قراءة بعض سور وأجزاء القرآن الكريم في أحد مساجد حمص، سيزيد.. وتذكرت صوته الأجش القبيح، فقلت له ضاحكاً: (لو كنت مكان مدير الدائرة الذي سيرفع أجرك، لطلبت منك أن تدفع تعويضاً لقاء سماع الناس لصوتك المنكر...) وضحك الشيخ خالد، رغم دموعه التي كانت تجري من عينيه المطفأتين!!

.. ها هو الشيخ خالد، بعد أربعين عاماً أو تزيد ما يزال يجوع ويشقى ويتعذب أكثر مما كان قبلها!!

... ولمت نفسي عندما غادر مكتبي هو وزوجته البائسة وابنته الجائعة لأنني لم آخذ بيده وأسير به وأصحبه، كما كنت أفعل وأنا صغير!!!

.... كانت صناديق الموتى والنعوش، توضع وراء أبواب المساجد والجوامع، وكان أهل الموتى يأخذون منها ما يحتاجون إليه لتجهيز موتاهم وحملهم فيها الى مقرهم الأخير!!

... ولم أكن في هذه السن الصغيرة، أفكر بالموت، بل كنت أتساءل: لماذا يموت الناس.. وكيف؟ رغم أنني كنت أرى الموت يختطف الناس كل يوم، بسبب هذه الأمراض المستوطنة والوافدة، ولسوء التغذية، وبسبب هذا الجوع الذي ينزل بالناس ولا يريد أن يغادرهم أو يفارقهم ساعة من ليل أو نهار.. وكان زميلي الشيخ خالد وهو يرى ما أرى أو يسمع ما أرى يقول لي: إذا كانت الحياة تنتهي إلى الموت آخر الأمر، لا محالة، فلماذا لا نعيشها كما يجب أن تعاش، في ظل السعادة والحرية والعدالة، وما دمنا قد جئنا إلى الحياة دون إرادتنا، وسنخرج منها ونغادرها دون إرادتنا أيضاً، فلماذا لا نجعل لها قيمة ومعنى؟؟ ولماذا لا نجعل منها قضية ندافع عنها ونعمل لها ونسعى من أجلها، لتكون لائقة بنا، بل لتكون حياة كريمة يسودها الخير والحق والعدل، وينتشر في أرجائها الرخاء والحب والسلام..

وينتفي فيها إلى الأبد، الفقر والجهل والمرض؟؟

.. وكان أحد المعتوهين، لا يفارق الجامع الكبير، فإذا غادره الناس بعد صلاة العشاء وأغلق الجامع أبوابه، مضى إلى حيث تقبع صناديق الموتى، وفتح غطاء أحدها، ثم استلقى في داخله، وأغلق عليه الغطاء ونام.. فإذا طلع الفجر أو كاد، قام من مكانه وغادر صندوق الموتى، ومضى يسير في رحاب المسجد كأنه يبحث عن شيء أضاعه وربما كان في الحقيقة يبحث عن نفسه!!

.. والظاهر أنه استغرق ذات ليلة في نوم عميق داخل الصندوق، وكان أحد المصلين قد وصل إلى الجامع لتوه، ولم يكد يجتاز الباب، حتى رأى صندوق الموتى يتحرك، ويبرز من غطائه وجه إنسان، وظن الرجل أن في الصندوق ميتاً عادت إليه الحياة، فصرخ صرخة مدوية ترددت في أرجاء المسجد، وكاد يجن من شدة الخوف... مع أن من الطبيعي أن يفرح إذا رأى ميتاً عاد إلى الحياة، ولكنه الخوف من المجهول، يدفع الإنسان في بلاد مثل بلادنا إلى الخوف من الحياة!!!

.. إن الموتى لا يخيفون أحداً.. ولا يسيئون إلى أحد.. ولا يظلمون أحداً ولا يأكلون حق أحد، لأنهم موتى فقدوا الاحساس بالشر والخير معاً، بل فقدوا الاحساس بكل شيء، وإلا فقد كان ينبغي أن نخاف منهم أكثر مما نخاف من الأحياء!!

.. إن الذين يجب أن نخافهم ونحذرهم ونتقي شرهم، هم نحن الأحياء... ولعل المكان الوحيد في هذا العالم، والذي لا حقد فيه ولا كيد ولا ظلم هو المقبرة، فأهلها لا يستطيعون أن يقتلوا أو يحسدوا أو يكيدوا أو يظلموا أحداً، ولا أن يفسدوا في الأرض، ولا أن ينشروا الجوع والبؤس والجهل والمرض بين الناس، كما كانوا يفعلون عندما كانوا أحياء، ومن حسن حظنا أنهم ماتوا... ولكن ماذا نفعل بالذين ظلوا بعدهم مثلنا.. أحياء!!

.. لا يوجد سبب واحد معقول للخوف من الموتى، بينما يوجد ألف

آلف سبب للخوف من الأحياء.. وإذا كان لا بد للإنسان من أن يوضع في صندوق الموتى، أو أن يموت ولا يوضع في صندوق، ذات يوم لا يعرفه، فهل على هذا المعتوه البائس المسكين من بأس، إذا اتخذ من صندوق الموتى وراء باب الجامع مكاناً ينام فيه.. وهل هو حي، ياترى، إذا كان لا يجد مكاناً ينام ويسكن فيه، سوى صندوق الموتى؟؟

.. على أن الميت الذي شغلني موته أكثر مما شغلتني حياته، فهو جارنا.. «أمين الحنش».. فهذا الرجل الذي اشتهر في مدينتنا بالغش والتدليس وشهادة الزور في المحاكم وأمام القضاء، وهو يضع يده دون أن تهتز، على المصحف الشريف، ليأكل حقوق الناس، وليسرق جهدهم وعرقهم وأجورهم، من خلال عمله في تجارة بيع الخضار والفاكهة بالجملة، مات فجأة في صباح ذات يوم، وأسرع أهل الحي إلى أبي الشيخ الإمام يخبرونه الخبر، ويقولون له: (إن «أمين الحنش» أصيب بنوبة قلبية قضت عليه وهو نائم، وأراحت الناس من شروره وتصرفاته).. فقال الشيخ الإمام: (لا بد أن قلبه قد تعب لكثرة ما حمل من أوزار صاحبه، فتوقف بعد أن لم يعد يستطيع عليه صبراً، ألا ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله.. وإذا فسدت فسد الجسد كله.. ألا وهي القلب)....

.. لقد شغلني موت «أمين الحَنَشْ» كما قلت، أكثر مما شغلتني حياته، إذ لم يكد يوارى في مقبرة بيت الجندي، على طريق حماه.. حتى بدأ الناس في حينا، وفي باب السوق حيث كان محله التجاري، وفي دار الحكومة حيث تقوم المحاكم التي كان، رحمه الله، يقدم فيها، بين يوم وآخر، على شهادة الزور ليأكل حق هذا أو ذاك من الناس، يتحدثون عن حياته الحافلة برذائل الأعمال ويعيدون سبب موته الفجائي إلى ما ارتكب من ذنب عظيم وحوب كبير، بحق الناس الذين ضاعت حقوقهم على يده لكثرة ما وضعها على القرآن الكريم أمام المحاكم وأقسم كاذباً وشهد الزور عامداً متعمداً!!

.. والحقيقـة أن «أمين الحنش» هـذا الذي يكـاد يصبـح في نظـر الناس في حينا، وربما في المدينة كلها، إبليساً أكبر من ابليس وأخطر، ليس إلا واحداً من كثيرين من أمثاله يفسدون الحياة ويأكلون حقـوق الناس، بل والشعوب، ويشهدون الزور، ويدّعون الايمان.. وأن «أمـين الحنش» هذا، إذا مات، فإن الدنيا والحياة مليئة بهذه النمـاذج التي عرفناها ونعرفها في حياتنـا اليوميـة، والتي لا تختلف كثيراً عنـه، بل ربما كانت أخطر منه على الإنسان والحياة''

.. ولقد تعلمت من موت جارنا هـذا، أكثر ممـا تعلمت من حياتـه، وبقيت إلى اليوم، وقد مضى على قصته وموته أكثر من خمسين عـاماً، اجتنب قـول الزور والعمـل به، وأحـاول أن أكـون أمينـاً وصـادقـاً، وأتعامل مع الناس على أساس من الحق والحب والخير، فلم أدخل في حياتي محكمة، ولم أختلف مـع إنسان عـلى مال أو متـاع ولم أدخل سجناً أو دار توقيف، إلا إذا كان لسبب يتصل بالقضايـا السياسيـة والوطنية وحرية الرأي.. وربما أخذت العبرة من موت جارنا هذا عـلى أساس ديني أول الأمر، ثم على أساس انساني واجتماعي وأخـلاقي بعد ذلك.. ولا أرى كبير فرق بين هذا وذاك!!

.. في صباح أحد الأيام كان الشيخ الإمام يهم بالخروج من الدار إلى غرفته في الجامع الكبير، فقال لي وقد انتهى من وضوئه عند البئـر في طرف الدار: (يابني، لقد رأيت في المنام أن أخاك القاضي قد وصـل من دمشق مـع أولاده، وعيالـه لزيـارتنا، وعلينـا أن نستعـد لـذلـك ونشتري شيئاً من اللحم والسمن والأرز والسكـر والفاكهـة والحلوى والخضار، وإن كنت، يابني، لا أملك من ثمنها قرشاً، ورغم أن الدَّيْنَ ذل في النهار وهم في الليل، فسوف أشتريها من السوق وأبعث بها إلى أمك لتصنع لنا بها طعاماً، على أن أدفع ثمنها وأرده إلى أصحابـه في يوم قريب!!

.. ولم يكـد ينتهي الشيخ الإمـام من قولـه هذا، حتى دفـع أخي

القاضي الباب ودخل وراءه أولاده وأهله، فقبل يد أبيه وأسرع إلى أمه وقبل يدها وسلم عليها، وكانت فرحتنا به كبيرة!!

.. ولبث أخي وأهله أياماً عندنا، تراكمت خلالها الديون على أبي، ولا يعرف أحد كيف سددها، وكم من الوقت استغرق سدادها، وكنت ألاحظ أن أخي القاضي إذا جاء يقضي مع أولاده وأهله أياماً بيننا، خاصة في الأعياد والاجازات، انفرد بأبيه الشيخ الإمام عدة ساعات كل يوم، يتحدثان في السياسة الوطنية والنضال ضد الاستعمار الفرنسي، ويسرُّ أخي القاضي إلى أبيه بعض ما يتصل بالخطة أو الخطط التي تعدها «الكتلة الوطنية» في دمشق لمواجهة الفرنسيين!!

... على أن أخوتي الآخرين، وأنا منهم، عندما غادرنا حمص بعد ذلك بسنوات، كلٌّ إلى عمله ورزقه، لم نكن، في الأغلب، نزور الشيخ الإمام، إلاّ لماماً !!!

... إن الانسان ليطغى.. أن رآه استغنى!!

.. ويا ضيعة التعب والعذاب.. يا أبانا .، وصدق المثل العامي الذي يقول: (ربوا... واتعبوا..).

... ولا أدري لماذا يقودني الاستطراد والسياق إلى الحديث في هذا الأمر فما يزال أبي الشيخ الإمام يربينا وينفق علينا، ويلقى من أجلنا الشقاء والعذاب، وما يزال، أكثرنا، إن لم نكن كلنا، نعيش في كنفه، وفي ظله الظليل، ونسعد بأبوته وصحبته، لأننا ما نزال في تلك الأيام من عام ١٩٣٩، وبيننا وبين فراقه ولا أقول وفاته، لأنه مازال حياً بروحه وتعاليمه، أكثر من عشر سنين، مليئة بالأحداث الخطيرة التي لم نصل إليها ولم نكتوِ بنارها بعد !!

* * * * *

٨

.. رغم أن الشيخ الإمام، نهى أحد إخوتي، عن الانتماء إلى نادي دوحة الميماس للموسيقى والتمثيل في مدينتنا، إلا أنه لم ينته، فقد كان يحلم أن يكون ممثلاً كبيراً، كيوسف وهبي، وكان هذا النادي يقدم مسرحيات قومية ووطنية وعاطفية، على مسرح مقهى «الروضة» الذي يقع في الشارع الرئيسي، والذي سمي فيما بعد شارع شكري القوتلي..، وكان النادي يختار في تلك المرحلة من النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، وضد سلخ لواء الاسكندرونة العربي عن أمه سورية وإلحاقه ظلماً وعدواناً بتركيا، مسرحيات هادفة، تصور جرائم الاستعمار ضد الشعوب والحرية!!

.. وذات مساء، كان مسرح «الروضة» يغصّ بالمتفرجين، وأكثرهم من الشباب والطلاب وأعضاء النادي وأعضاء فوج الكشاف، وكان اسمه (فوج العاصي) وكان أخي هذا يمثل دور البطل.. في المسرحية، وكان فيها مشهد ينتزع أخي فيه سيفه ويضرب به العدو الخائن الذي كان يقف قبالته، وهو ممثل آخر زميل له، ويبدو أن السيف كان قديماً لم يغادر قرابه منذ سنوات، وعندما حاول أخي أن ينتزعه من قرابه ويشهره في وجه خصمه، لم يستطع، لصدأ تراكم فوقه، فما كان منه، والممثل الآخر يقف أمامه وينتظر أن يضربه بالسيف، إلاّ أن انتزع حذاءه وهو يقول للممثل الآخر: (أنت لا تستحق الموت بهذا السيف، أيها الخائن الجبان، وإنما ستموت ضرباً بهذا الحذاء..) ونزل به على رأسه.. فما كان من الممثل، وقد أذهلته المفاجأة وأزعجته، إلا أن أخذ يصرخ بلهجته الحمصية، وهو يقول: (مابيصير.. مابيصير.. الصرماي ما إجت بالرواي.. الصرماي ما إجت بالرواي...)..، وضج المتفرجون بالضحك، وأسدل الستار!!!

.. وانتشرت القصة في حمص، وأضيفت إلى القصص الكثيرة التي

نسبت إلى أهل هذه المدينة الطيبة القلب والتي اشتهرت بالكرم والصدق والوفاء!!

.. وكان أخي الذي يهوى التمثيل ويقلد يوسف وهبي، في صوته ومواقفه على المسرح، قد اشتهر أمره بعد القصة التي وقعت له مع زميله الممثل، وعندما عاد ذات مساء إلى الدار، كان يظن أنه أصبح أشهر من يوسف وهبي، وربما أشهر من نار على علم!!

.. وبينما كنا نجلس إلى أمنا نحدثها وتحدثنا، سمعناها تقول لنا، وأخي هذا يدخل علينا..: (لو كانت لكم أخت لساعدتني كثيراً في أعمال الطبخ والنفخ والغسيل والتنظيف).. وكانت أمي يومئذٍ قد جاوزت الستين من العمر.. فيقول لها أخي «المجدوب» والممثل الموهوب..: (ليتك، يا أماه، تلدين لنا أختا نفرح بها ونسعد بوجودها)... وضحك كل من في الدار، وقال الشيخ الإمام عندما سمع ما قاله أخي: (مافي خواص... الجدبة الحمصية تأبى إلّا أن تظهر علينا، مهما حاولنا أن نخفيها وراء ما ندعيه بأنها دليل الألمعية والذكاء)!!

.. ولقد قيل عن مدينتنا حمص، بحق، إن أهلها، «مجاديب» أي مجاذيب، يجذبون الناس والقلوب إليهم بلطفهم وذوقهم وطيب خلقهم وكرمهم، كما يصفهم لي دائماً صديق كريم، يحبهم ويجد فيهم الظرف واللطف والأنس!!

.. أما حكاية الكرم والوفاء عند أهل حمص، فهذه مسألة لا أستطيع أن أؤكدها، لاسيما في هذه الأيام، فقد غادرت حمص قبل أربعين عاماً، ولم أعد أمر بها إلّا لماماً، أو في زيارة عابرة، وأنا في طريقي إلى غيرها من المدن السورية، وأعترف أن في تصرفي هذا نحو البلد الذي ضمني بين جناحيه، بعض التقصير، ما دمت من هذه المدينة «أم الحجار السود» بالولادة والنشأة والوراثة !!

.. ويقال بأن الطيبة في أهل حمص والتي تكاد تبلغ حد

«الجدبة»، ظاهرة واضحة عليهم، ولا تخفى على أحد، وإن كنت أعرف جيداً، أنه ليس بينهم غبي، إلا إذا كنت الغبي الوحيد...، وأنهم يستطيعون بهذه الغفلة أو الجدبة المقصودة أو الموروثة، كابراً عن كابر... أن يصلوا إلى ما يريدون!!

... كان رئيس الجمهورية السورية في عهدين، من أهل حمص وكان من رجال السابقة في النضال ضد الاستعمار، وكان شيخاً جليلاً، وكان موظفو القصر الجمهوري يروون عنه طرائف تدل على «الجدبة» والذكاء في آنٍ معاً.. ومن ذلك أنه كان إذا عرض عليه أمين القصر أو أحد كبار موظفيه، أمراً لا يريده، تظاهر بأنه لا يسمع ما يقول، بسبب شيخوخته، فيصرف الموظف النظر عن الأمر الذي دخل عليه من أجله، أما إذا حدثه في أمر يروق له ويرضى عنه ويود انجازه، قال لمحدثه: (افعل ما أشرت إليه، فإني أسمعك جيداً الآن.. وأوافق على ما عرضت !!)

.. ولذلك، فإن أهل حمص يسمعون ما يروق لهم، ويعملون ما يطيب لهم عمله، فإذا ما تظاهروا بالجدبة، فاعلم أنهم يحضرون ويعدون لك مقلباً مرتباً!!.

.. إن خير ما يصدق وينطبق على «جدبة» أهل حمص، قول الشاعر العربي:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

... وبينما كنا نتحدث في هذه الأمور وغيرها، مما يجري في مدينتنا وبلادنا في تلك الأيام من شهر آذار (مارس) عام ١٩٣٩، إذ بطبول الحرب العالمية الثانية تصم الآذان وتوقر الأسماع، وتقلب الحياة في مدينتنا وبلادنا وفي العالم كله رأساً على عقب، فقد أعلنت المانيا النازية فجأة الحرب على شعوب ودول العالم، مبتدئة باحتلال تشيكوسلوفاكيا ثم بولونيا ثم هولندا وبلجيكا، ثم فرنسا في ١٤

حزيران (يونيو) ١٩٤٠، وكانت القطعان النازية وهي تحتل هذه الدول والبلدان في مثل لمح البصر، لا تجد مقاومة تذكر أمامها، حتى بدا وكأنها ستحتل العالم كله في أيام!!

.. وسمع الناس في مدينتنا وبلادنا بوقوع الحرب العالمية الثانية من الصحف ووكالات الأنباء ومن أجهزة الراديو القليلة في تلك الأيام، والتي كانت موزعة في بعض المقاهي والمطاعم والفنادق، وفي دور بعض الأغنياء.. وقد وجم الناس من هول الخبر، وتذكروا ما عانوا من المجاعة والموت والشقاء في الحرب العالمية الأولى، فقد كان آباؤنا يتحدثون إلينا عن تلك الحرب وأهوالها وما لحق البلاد والناس خلالها من مجاعة وأوبئة وآلام لا تطاق، ولم يكن يخلو بيت في بلادنا وبلاد كثيرة، في تلك الحرب، من قتيل أو مفقود أو ميت من الجوع، حتى هاجر كثير من الناس إلى آخر الدنيا، خاصة من سورية ولبنان، وكانتا ولاية عثمانية في تلك الأيام، هرباً من الموت جوعاً، وربما مات في الحرب العالمية الأولى من الجوع في بلادنا أكثر من الذين ماتوا في ساحات الوغى والقتال!!

.. وسرعان ما اختفت المواد الغذائية من الأسواق، وخاصة الطحين والأرز والسكر، ولما أسرع الناس لشراء حاجتهم منها لم يجدوا لها أثراً، لأن المحتكرين وتجار الحرب كانوا أسرع منهم، فأخفوها وحبسوها في المستودعات والأمكنة التي لا تصل إليها عين ولا تبلغها يد غير أيديهم السوداء، فالحرب في نظر هؤلاء تعني الثراء العريض على حساب جوع وبؤس وموت الملايين!!

.. ولاح مع اعلان الحرب العالمية الثانية، شبح الجوع والموت، وتذكر الناس أحباءهم وأولادهم الذين ذهبوا إلى «السفر برلك»، كما كانوا يسمون الحرب العالمية الأولى في بلادنا، وفي أنحاء السلطنة العثمانية!!

.. وكان أول ما تذكره الناس، وقد قامت الحرب العالمية الثانية

على حين غـرة، السلام الـذي فارقهم، وحـل محله الخـوف من دمار العالم وموت عشرات الملايين من الأطفال والشيوخ والنساء والرجال، بعد أن قام هتلر زعيم المانيا النازية بمغامرته المجنونة مـدفوعـاً بتلك النزوة الاستعمارية للسيطرة والاستيلاء على العالم، دون أن يضع في حسـابه مـا تفعله الحـروب بالأمم والشعـوب والحضارة والإنسـانية والحياة وما توقعه من دمار وشقاء في كل أنحاء المعمورة.وأخذ الناس في مدينتنا، والحرب العالميـة الثانيـة قد بـدأت، يبحثون عن الشعـير ليصنعوا منه خبزاً يتقون به غائلة الموت جـوعاً، ولكنهم لم يجـدوا له أثراً، فقد اختفى هـو الآخر من الأسـواق مع سـائر الحبـوب والمواد الغـذائية والبتـرول وسائـر الأشياء التي تستخـدم في شتى مجالات وميادين الحياة!!

.. لكن السلطة الفرنسيـة، مدفـوعة بـالحرص عـلى تأمـين المواد الغذائية وغـيرها من المـواد الضرورية لقـواتها وجنـودها في جبهـات القتـال مـع الحلفـاء، وحتى لا تتعـرض لمجـاعـة أو نقص في المـواد الضرورية، سارعت إلى إحـداث مؤسسة أطلقت عليهـا اسم «الميرة»، وإلى إحـداث مؤسسـة أخـرى سمتهـا «الإعـاشـة» وقـامت الأولى بـالاستيلاء عـلى مواسم الحبـوب والقمح ونظمت شراءهـا من قبلهـا ووضعتهـا تحت تصرفها ووزعتهـا للتموين والاستهـلاك بمعـرفتهـا، وقامت الثانية باتخاذ إجراءات حَدَّتْ كثيراً من خطر الاحتكار واخفاء المواد الغذائية من قبل تجار الحرب، وخصصت قسائم يأخـذ الناس بموجبها المواد الغذائيـة بسعر معقـول ومقبول، لكن الطحـين والخبز الذي كان يـوزع على النـاس، كان خليطـاً عجيباً من مختلف أنـواع الحبـوب، وهكذا أبت الحـرب، رغم كـل الاحتيـاطـات التي اتخـذت تمـوينياً ومعـاشياً لمـواجهتها، إلا أن تظهـر بوجههـا الكالـح، في كل نواحي الحياة، كذلك عرف الناس في بلادنا لأول مـرة السكر الأحمـر العكر والمواد الغذائية المخلوطة بأشياء غريبة لا عهـد للناس بهـا من قبل!!

.. وفوق جوع بلادنا وبؤسها وشقائها، وما تلاقيه من شظف العيش، جاءت هذه الحرب الثانية لتزيد من هذا العذاب والبؤس والخوف والشقاء، ولتضاعف من الجوع والبطالة والحرمان، وكأن الحياة بعد إعلان الحرب قد أصابها الشلل في كل مرافقها، رغم أن بلادنا كانت بعيدة عن ساحات القتال!!

.. وكان جهاز راديو كبير يتصدر قهوة «بَخَّاشْ» في حارتنا«جورة الشياح» وبعد أن كان يصدح كل يوم بالأغاني القديمة والأدوار والألحان، للسيد درويش ومنيرة المهدية وعبده الحمولي ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وغيرهم من أهل الفن والطرب، أخذ يذيع الأخبار والتعليقات عن سير الحرب، وكانت إذاعة «أنقرة» باللغة العربية، قد انحازت إلى المانيا النازية، كما كانت اذاعة «برلين» باللغة العربية أيضاً قد بدأت تبث أخبارها على نطاق واسع، ومن خلال خطة إعلامية مثيرة، وكان على رأسها أحد المرتزقة من الاعلاميين الذين تعودوا الاثارة والتهويش وهو (يونس البحري)، وكان له صوت يخرق طبلة الاذن، ويثير الأعصاب.. وكان يجأر بصوته المجلجل ويتحدث عن انتصارات هتلر السريعة والخاطفة والمذهلة، وكانت إذاعتا برلين وأنقرة، من المصادر الرئيسة للأخبار من وجهة نظر دول المحور، بينما كانت إذاعة لندن من المصادر الموثوقة للأخبار التي تنشر عن الحرب من وجهة نظر الحلفاء الذين أعلنوا الحرب على المانيا النازية ودول المحور التابعة لها!!

.. لكن الجدير بالذكر، هو أن اذاعة برلين باللغة العربية، كانت تسمع بوضوح في بلادنا في تلك الأيام من الحرب العالمية الثانية، مما يدل على اهتمام النازية بالاعلام واعتمادها عليه، كأداة فعالة من أدوات الحرب النفسية التي لها تأثيرها الكبير والخطير على سير دفة الحرب، بينما لا تسمع الآن، وبعد أربعين عاماً أو خمسة وأربعين عاماً، على الأصح، إذاعة عربية من المانيا وأوروبا إلّا في كثير من المشقة والضعف وفي بعض ساعات الليل، حيث تسمع لحظات ثم

تغيب عن الوجود، ما عدا اذاعة لندن باللغة العربية والتي قامت في عام ١٩٣٨ أي قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بقليل..

.. وعندما استسلمت فرنسا للقوات النازية دون مقاومة تذكر، ودخلت القوات الالمانية باريس، نظر الناس في بلادنا إلى بعضهم وهم يتساءلون: أهذه هي فرنسا التي تحتل بلادنا وتذيق شعبنا ذل العذاب والارهاب كل يوم.. والتي تحتل الجزائر العربية ومراكش وتونس ودولاً إفريقية وآسيوية كثيرة، والتي سلمت جزءاً عزيزاً غالياً من وطننا قبل فترة قصيرة وقدمته لتركيا، كأنها مالكة لأرضنا متصرفة بمقدراتنا؟؟..

.. وقد نظم شاعر كبير من شعراء سورية، وهو المرحوم (بدوي الجبل) محمد سليمان الأحمد، قصيدة شهيرة عندما احتل النازيون فرنسا بهذه السرعة المذهلة، وسقطت باريس بهذه السهولة، فقال من قصيدة طويلة:

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها ... هلَّا تذكرت يا باريس شكوانا..
إني لأشمت بالجبار يصرعه ... طاغ فيرهقه ظلماً وعدوانا..
لعله تبعث الأحزان رحمته ... فيصبح الوحش في برديه إنسانا...

.. ولم يكن الشاعر ولا الناس في بلادنا، يشمتون بالفرنسيين، لأن الألمان النازيين احتلوا بلادهم وداسوا كرامتهم وأذلوهم وأرغموا أنفهم في التراب، ولكنهم كانوا يشمتون بالمستعمرين الفرنسيين، الذين لم يكونوا أقل وحشية من النازيين الذين احتلوا فرنسا، وكانوا يشمتون بالاستعمار الفرنسي، لا بالشعب الفرنسي، ولا سيما أن الناس في بلادنا وفي غيرها من البلدان، كانوا يذوقون مرارة الاستعمار الفرنسي، كما تذوق فرنسا مرارة الاحتلال النازي، ويشرب الفرنسيون من نفس الكأس التي شرب منها شعبنا وغيره من الشعوب على يد فرنسا الاستعمارية، بل ان الناس في بلادنا، رغم ما فعله الاستعمار الفرنسي ويفعله بنا وببلدان عربية وإفريقية غيرها،

ورغم احتلاله لها ووحشيته في إرهاب وتعذيب وقتل شعوبها، كانوا ينظرون إلى هتلر والنازية نظرة صحيحة، وهي أن الاستعمار وكل أساليب العدوان على الشعوب واشعال الحروب ليس إلا نسخة واحدة طبق الأصل عن النزوة الوحشية التي تستبد بالأقوياء ضد الضعفاء!!

.. وكان الحس الانساني والوطني في شعبنا حساً مرهفاً وصادقاً وصافياً، إذ تنبه شعبنا غداة قيام الحرب العالمية الثانية، إلى نوايا المانيا النازية ومؤامراتها على الانسانية والشعوب وسلام العالم وعلى الحضارة والتقدم، ولهذا فلم تكن شماتة شعبنا بسقوط فرنسا على يد النازية، وإنما كانت شماتته بالمستعمرين الفرنسيين، الذين لم يكونوا سوى حلفاء غير مباشرين للألمان النازيين والفاشيين، فكل المستعمرين في نظر الشعوب سواء.. بل ان كل المستعمرين في نظر الحقيقة والمنطق والعقل، سواء بسواء!!.

.. ومع ذلك ففي بلدان كثيرة من العالم، نجد بعض الناس الجهلاء يتحمسون للقوي والفاتح والغازي، ولو كان سينتهي بهم الحال، كما ينتهي عادة، بكل الغزاة والمستعمرين والمعتدين والطغاة والمستبدين، إلى الهزيمة المرة الساحقة آخر الأمر!!

.. وكان بين هؤلاء بضعة أشخاص في حيّنا ومدينتنا وفي غيرهما من الأحياء والمدن والبلدان، خاصة المتخلفة منها، قد تحمسوا لألمانيا النازية وللحرب التي شنتها على العالم، وقد رأيت أحدهم وهو رجل عجوز وأمي وخَرِف، يأتي إلى قهوة «بَخّاش» في حينا ويضع أذنه على جهاز الراديو الذي يتصدر القهوة، ويستمع إلى إذاعة برلين باللغة العربية، فإذا سمع يونس البحري يصرخ ويهدد ويتوعد ويتحدث عن انتصارات هتلر، أخذ يدور «يفقش» ويرقص ويصرخ في جنون: (ياشباب الحارة، الحاضر يعلم الغايب، هذا «هترر» أي هتلر، من أعز أصحابي، هذا «أبو محمد» راعي الحصان... راح يفعل ويترك بأخت فرنسا وانكلترا، وبكرا بتشوفوا شو بدو يعمل ويترك «بالموسكوف»،

وسيريهم نجوم الظهر... ياعمي، هذا هترر، أبو محمد خيال الزرقا.. هذا صاحبي من زمان، وكنت وإياه جنباً إلى جنب في حرب السفربرلك)!!.

.. ويضج الناس في قهوة بَخَّاشْ، بالضحك وُيُقمقمون«لأبي توفيق، وهذا اسمه، ولصاحبه هتلر... فإذا رآهم يفعلون ذلك، وقف يقول لهم: (ياكذا.. يامذا يلعن أخت الكاذب بكرا «هترر» صاحبي سيفرجيكم العجايب.. وسأكون وكيله هنا في حمص)... ويسمع أصواتاً تصدر من بين شفاه الشباب، فتثور ثائرته ويجن ويركض نحو مسجد الحي، وهو يقول: (كمان وصلت معكم لهون، آه يا.... ، عما تطوطوا لي لتسخروا مني وتضحكوا عليّ، وُلَكْ أنا صاحب هترر.. ماحدا بيقدر يطوطلي.لا لي ولا لأخي هترر)!!!

.. وكنت أقف مع فتيان الحي، ونحن نضحك ونرثي لحال هذا العجوز، وهو يكاد يجن فعلاً لما يسمع من هذه الأصوات التي تصدر من شفاه شباب الحي الذين تحلقوا حوله، وهو يدور ويدور معه شرواله الأسود العريض، ثم لا يلبث حتى يغادر الحارة إلى داره وهو مطرق الرأس يمسح بيده على عينيه ووجهه ولحيته التي طالت، ويتنهد تنهيدة عميقة تدل على مدى حزنه على ما سمع من أصوات انطلقت من بين شفاه الشباب، وهي أصوات تعتبر شتيمة مقذعة بشعة ضده، وضد صاحبه هترر!!

.. وعندما سمع «أبو توفيق» العجوز الخرف بخبر تقدم قوات صاحبه هتلر في أراضِي الاتحاد السوفياتي أول الأمر، بعد آن أعلن الحرب عليها دون سابق إنذار، أخذ يصرخ عند قهوة «بَخَّاشْ»، وهو يقول (ياعمي.. أنا قلت لكم بأن هترر. صاحبي وتاج راسي، سيهاجم الموسكوف، ويقضي عليهم كما قضى على فرنسا)!!

. . وكان «عبد الخالق فَشْوَلْ» بائع الحليب في حارتنا والذي كان يخلطه بالماء دائماً ويبيعه للناس على أنه حليب (صاغ سليم)، مثل

صاحبه هذا، يحب هتلر وكل الأقوياء بغير حق والطغاة، وكان يدعي هذا أيضاً أن هتلر صاحبه، وأنه خدم معه في السفربرلك!!

.. وكان «عبد الخالق فَشْوَلْ»، هذا الغشاش، يقف مع صاحبه العجوز الخرف، أمام قهوة «بَخَّاشْ»، فإذا حوَّل صاحب القهوة مؤشر الراديو إلى إذاعة لندن، أخذ يلقي بأقراص اللفت، والبندورة الفاسدة من كيس كان يضعه بجانبه، ويضرب بها جهاز الراديو ويطلب إلى بخاش، صاحب القهوة أن يحوله في الحال، إلى إذاعة أنقرة أو برلين قبل أن يكسره ويحطمه على رأسه ورأس الذي خَلَّفَهُ!!

.. وأيقنت الشعوب المحبة للحرية والتقدم والسلام أن نهاية النازية قد بدأت، وأن شعوب الاتحاد السوفياتي قادرةَ على الحاق الهزيمة المرة بها والقضاء عليها وعلى أحلامها الخنفشارية في السيطرة على العالم، وأنها تحفر قبرها بيديها، ولم يكن غريباً أن يقوم شاعر تقدمي شاب من مدينتنا، هو «عبد السلام عيون السود»، صديق وزميل أخي الشاعر المطبوع «عبد اللطيف»، فينظم قصيدة يتنبأ فيها بانتصار الاتحاد السوفياتي على النازية قال فيها:

الأرض أم الكلِّ لا ظلم هناك ولا فروق
وغداً سينتصر الشيوع على التبجح بالعروق..

.. وقد رغب إليه بعض رفاقه، ومنهم أخي عبد اللطيف أن يستبدل كلمة الشيوع بكلمة الشمول، فكلتاهما تؤدي المعنى المطلوب، ولكنه رفض، وأصر على كلمة «الشيوع» مهما أثارت حفيظة الجهلاء والسخفاء والمتعصبين!!

.. وللشاعر التقدمي عبد السلام عيون السود، رحمه الله، قصائد كثيرة، ولعلي بعد نشر هذه المذكرات، أقوم بدراسة موسعة لحياته وشعره، أضعها في كتاب، وأذكر له من قصيدة طويلة قوله:

صوت الحياة بمسمعيَّ يهزني هزاً عنيفاً
أأجيبه، يا ليل، أم أمضي فألتمس الرغيفا؟؟

.. وعندما مات، رحمه الله، من السل والبؤس واليـأس، رثاه أخي الشاعر المطبوع، عبد اللطيف، وكان صديقـه ورفيقه بقصيـدة رائعة اخترت منها هذه الأبيات التي تدل مع ما نشرته هنا من أبيات قليلـة للشـاعر التقـدمي عبد السـلام، على حقيقـة ما كـانت عليه مـدينتنا حمص من بؤس شديد وضيق وعناء، حتى يتأكد قرّاء هذه المذكـرات أنني في كـل وصفي لحال مـدينتنا، لم أكن أبـالغ، بـل ربما كنت، في الحقيقة، أخفف كثيراً مما كانت فيه، مع أن بعض القراء، ربما خيّـل إليهم أنني أزيد من وصف البؤس في مدينتنا في تلك الأيـام السوداء من أيـام الاستعمار الفـرنسي.. وهذه أبيـات الشاعـر عبد اللطيف في رثاء صديقه ورفيقه عبد السلام عيون السود الشاعر التقـدمي الذي كان أول شاعر، ربما في العالم، تنبأ بانتصار الاتحاد السوفيـاتي على المانيا النازية والهتلرية، كما سمعنا وقرأنا قبل قليل:

إيه «عبد السلام» لو يُمْنَحُ العمر ... لقـدَّمْـتُ من شبـابـي شطـرا
لست أنسـاك يوم كنـا صغـاراً ... نلتقي في الطـريق ظهراً وعصرا
حيث نشكـو مرارة الفقـر سراً ... ثم نبـدو بمظهـر الجـاه جهـرا
لست أنساك يوم كنا على الدرب ... نجـر الخطى من اليـأس جـرا
حينمـا صحت بي تخفف عني ... وَيْكَ (عبداللطيف) بالله صبـرا
قد رضعنا الشقـاء ثديـاً فثديـاً ... وخبـرنـا العذاب مُـرّاً فَمُـرّا
نحن واللـه لا نـريـد بـديـلاً ... عن لبـانـاتنـا بتيجـان كسرى
حسبنـا أننا نصـوغ من الآلام ... شـعـراً يُصَـيِّرُ الليـل فجـرا
ومضينا كأنما العالم الأكبر في.. ... كفّنـا تضـاءل صفـرا...
بينمـا كنت في حيـاتـك بؤسـاً ... عبقـريـاً وكنت جـوعـاً وفقـرا
يـاأخي.. ما رأيت حـراً كريمـاً ... جمـع المـال في الحيـاة وأثـرى
مطلب الحر أن يموت كما مت فقيراً .... وأن يـوسَّـدَ حـرا...

.. أما في فرنسا التي هزمت شر هزيمة أمام القوات النـازية، فقـد قام رجل سمع الناس في خارج فرنسا وربما في العـالم، باسمـه لأول مـرة وهو الجنـرال ديغول، وأعلن رفضـه لاستسـلام حكـومـة فيشي

برئاسة المارشال بيتان الذي تخاذل وانهار أمام قوات الغزو الهتلري، وقد فرّ الجنرال ديغول إلى لندن وأخذ يذيع منها، بعد أن عانى كثيراً من مواقف الحكومة البريطانية منه، بيانات، ونداءات يحث فيها الشعب الفرنسي على مقاومة الاحتلال النازي وطرد الغزاة ومقاومتهم وتحرير الوطن منهم، ويعلن قيام «حكومة فرنسا الحرة» في المنفى برئاسته...

.. وقد انقسمت القوات الفرنسية التي تحتل سورية ولبنان، على الأثر بين مؤيدة لحكومة فيشي العميلة، وبين مؤيدة لحكومة فرنسا الحرة، وصرنا نسمع أن هذا القائد الفرنسي في لبنان أو سورية، أو ذاك، أعلن انضمامه إلى حركة الجنرال ديغول، أو أعلن ولاءه لحكومة فيشي!!

.. أما بالنسبة إلينا... فقد أصبح عدد من التجار عندنا أثرياء حرب.. واستطاعوا أن يتلاعبوا ويتعاملوا في السوق السوداء، بالبنزين والكاز واطارات السيارات وقطع التبديل وبالاسمنت والحديد وسائر المواد التي لم تكن مصلحة (الاعاشة) أو (الميرة) تهتم كثيراً بمراقبتها، لأن ما كان يهم السلطة الفرنسية في الدرجة الأولى، كما قلنا، هو تزويد قواتها المحاربة بالخبز والمواد الغذائية والضرورية قبل غيرها..

.. لكن الجدير بالذكر هنا، أن الحرب العالمية الثانية لم تصل إلينا بويلاتها وقنابلها ومعاركها ودمارها، ولم نعرف منها في بلادنا شيئاً مما نقرأ ونسمع عن المعارك الضارية في جبهات القتال، ولولا الغلاء وجو الحرب المقيت وما يتخلله من خوف وترقب وحذر، ولولا ازدياد عدد العاطلين عن العمل واضطرار بعض الشباب بسبب الجوع والبؤس، إلى التطوع في صفوف الحلفاء، لما كنا شعرنا بوطأة الحرب التي كانت الأمم والشعوب في كثير من أنحاء العالم، تصطلي بنارها وتعاني من جرائها ويلات الموت والدمار، خاصة على الجبهة السوفياتية التي هاجمها الألمان النازيون واستطاعوا أول الأمر،

الوصول إلى عمقها وتحقيق التفوق عليها، فقد اكتسحت القوات الألمانية النازية أراضي الاتحاد السوفياتي الشاسعة ودمرت المدن والقرى والمصانع والمزارع والبيوت ومحطات السكك الحديدية، وألحقت بها أضراراً بالغة وفادحة، وحبس ملايين الناس في العالم أنفاسهم، وهم يسمعون أخبار تقدم القوات النازية في أراضي الاتحاد السوفياتي!!

... وفي وقفة عزٍّ لا مثيل لها وبطولة خارقة للعادة، وشجاعة تعتبر معجزة لا نظير لها، وقفت شعوب الاتحاد السوفياتي تدافع عن وطنها وتنتزع النصر المؤزر العظيم من مخالب وأنياب الوحش النازي وتلحق الهزيمة به وترده على أعقابه خاسئاً خاسراً مثخناً بالجراح، ثم أجهزت عليه بضربة قاصمة. فلا الجنرالات، الثلج والوحل والبرد والمطر، كما ادعوا، كان لها أي أثر في تحويل الحرب والمعركة لمصلحة الاتحاد السوفياتي، وإلحاق الهزيمة الساحقة بالمانيا النازية، وإنما التأثير المباشر والكبير، كان لهذه الروح العالية التي أبداها الاتحاد السوفياتي في معاركه الضارية ضد القطعان النازية التي هاجمت بلاده مدفوعة بروح الشر والعدوان!!

... لقد دمّر النازيون الغزاة كل شيء استطاعوا تدميره في هجومهم على الاتحاد السوفياتي، ولكنهم لم يستطيعوا أن يدمروا إرادة الحياة عند هذه الشعوب.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر..

.. لم تكن المسافة بين برلين وموسكو، في الحقيقة، كبيرة إذا ألغينا الجغرافيا من حسابنا، وإنما كانت المسافة بينهما مسيرة خطوة واحدة رائعة، هي إرادة الحياة ورفض الموت والتي كانت تملأ ضمير الشعوب السوفياتية وروحها!!

.. لقد دفع الاتحاد السوفياتي وحده، خمسة وعشرين مليون شهيد دفاعاً عن أرض وكرامة وطنه الكبير، فلا نامت أعين الجبناء!!.

... كان «أبو توفيق» العجوز الأخرق، وعبد الخالق فَشْوَلْ، وهما يسمعان أخبار هزيمة صاحبهما هتلر من الراديو في قهوة «بَخّاشْ»، يلوحان بأصابعهما قائلين في صوت واحد، كأنه حشرجة محتضر: (مستحيل.. نحن نعرف أن هتلر سيحضر حفلة استسلام الموسكوف في «الكرمين».. أي الكرملين، فكيف يقال بأن الموسكوف انتصروا شو هاالحكي... روح يا «بَخّاشْ» كُبّ الراديو تبعك.. الظاهر خرف وضيَّع، وماعاد صالح لإذاعة الأخبار الصحيحة)!!!

.. وأخذ «أبو توفيق»، يرفع عقيرته بالصياح والصراخ، ثم لم يتمالك نفسه من شدة القهر، فحمل الراديو بين يديه وألقاه على الأرض، فتحطم وتناثر.. وأسرع بخاش وأمسك بتلابيبه وهو يقول له: (بدي آخذك على«الكركون» وبدك تدفع ثمن الراديو على آخر بارة.. يخرب بيتك الراديو ها الأيام بيسوى بلد، لأهميته ولقلة ما هو موجود منه في هذه البلاد)!!

.. ولم يدفع «أبو توفيق» في الكركون قرشاً واحداً لبخاش لأنه مفلس، وكما قال لشاويش المخفر: (ياسيدي المفلسون لا يحبسون.. ما عندي ما اشتري به رغيف الخبز فكيف ومن أين أدفع ثمن الراديو له.. الله يعوض عليه.. وعدم المؤاخذة يا شباب!!) وخرج من «الكركون» إلى داره ولم يغادرها بعد ذلك إلاّ إلى القبر، بعد أن استبد به الهم والمرض والألم والقهر بسبب هزيمة صاحبه هترر!!

.. أما «عبد الخالق فَشْوَلْ»، فقد قال بأنه سيرسل برقية تهنئة لهترر، بعد احتلاله لموسكو وحضوره حفلة الاستسلام في «الكرمين» الكرملين...، فلما سمعه أهل الحي، أجابوه، قائلين، وهم يصفرون له: (طويلة على رقبتك ورقبة صاحبك!!)، وأقبل بخاش، بعد أن عاد من الكركون، فلما رأى عبد الخالق فَشْوَلْ، اقترب منه وهو يقول له:

(هذا أنت يا أجقم، روح تلحس الفرن على أتار صفيحة)(*)!!

.. وكان صوت «يونس البحري»، من اذاعة برلين، قد خرس وصمت، بعد أن ملأ الدنيا بالأكاذيب والتلفيقات التي لا يتقنها سوى أمثاله من الكذابين والمرتزقة، وصار «بَخًّاشْ» وقد حطم «أبو توفيق» جهاز الراديو في قهوته، يقول، وأهل الحي يضحكون: (لا أريد الراديو، بعد الآن، وبعد أن أصبح هو وهتلر ويونس البحري وأبو توفيق وعبد الخالق فشول في خبر كان!!).

... وعندما كنت أسأل عن سبب تسمية بَخًّاشْ، بهذا الاسم، كان يقال لي بأن الرجل كان صغير العينين جداً، فهما مثل ثقب صغير، بل مثل ثقبين صغيرين يتصدران وجهه الصغير!!

* * * * *

(*) هذه الكلمات وأمثالها مما أوردناه هنا، تعبر في لغة أهل حمص، عن السخط والاستهجان والاستغراب وعدم الموافقة على ما يدّعيه هؤلاء الجهلاء...

... كـان رابع إخـوتي «عبد المعـين»، الشاعـر والكـاتب والأديب المعروف، قد التحق بالجامعة المصرية في القاهرة، في العـام الثالث من الحرب العالمية الثانية، وكان قد سافر إليها مع عدد من زمـلائه حيث انتسبوا هناك إلى كليـة الآداب، وعندمـا كانت قـوات القائـد الألماني النازي الشهير رومـل، تخوض في الصحـراء الغربيـة معارك ضـارية ضـد القوات البـريطانيـة والحليفة التي انتصرت عليهـا آخر الأمـر، حيث استدعي رومل إلى برلين على الأثر، وقتله هتلر وقـال للناس أنـه انتحـر، وعندمـا كانت قـوات رومل، تتقـدم في معاركهـا الأولى، نحو القاهرة، وصلتنا رسالة من أخي أرسلها إلى أبيه الشيخ الإمـام، فلما فتحهـا وجد أن مقص الـرقيب العسكري الفـرنسي يكاد يـأتي عليها لكثرة ما اقتطع من أجزائها وسطورها وأطرافها ووسطها، وكان أخي يتحـدث فيها كمـا فهمنا من بعض السطـور، عن مظاهـرات قامت في شوارع القاهرة يقودها بعض رجال السياسة والـدين من المتحمسين لهتلر، وبينهم طالب أزهري من مدينتنا كان يدرس هناك، وأنهم كانوا يهتفون خلالها قائلين. إلى الأمام يا رومل.. إلى الأمام يا رومـل، وذلك نكـاية، كمـا يقولـون، بالانكليـز الذين كـانوا يحتلـون مصر يومئـذٍ، ويسـومون أهلهـا سوء العـذاب، وأن هؤلاء من محتـرفي السيـاسـة والـدين، الذين ينقلـون ولاءهم من الانكليز إلى الألمـان إلى غيرهم، في مثل لمح البصر أو أقرب!!!

... وفي اليوم التالي جاء موظف من مديريـة الأمن العام الفـرنسي يسـأل عن أبي الشيخ الإمام، فلما رآه طلب إليه أن يحضر إلى مركـز المديرية الواقع على طريق طرابلس، قرب المحطة، فقـال له أبي: (أنـا أرفُض الحضور، وسأرسـل أحد أبنـائي ليرى مـاذا تريـدون، وذهب أحد اخوتي فاستقبله مدير الأمن العـام الفرنسي وقـال له بـأن يكتب

إلى أخيه في القاهرة بأن يختصر رسائله، ولا يتحدث فيها عن مثل تلك الأمور التي جاءت في رسالته الأخيرة إلى أبيه، حتى لا يصيبه مكروه لأن القوات الفرنسية في البلاد منقسمة على نفسها، فبعضها يوالي حكومة فيشي المتعاونة مع النازيين، وبعضها يوالي حكومة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول!!.

... عشنا سنوات الحرب العالمية الثانية، في ضيق أشد من الضيق الذي كنّا فيه قبلها، ولكن الحرب، كما قلت، لم تصل إلينا، ولم نحترق بنارها ولم تسقط قنبلة واحدة من قنابلها علينا، ولم نعان من ويلاتها، كما عانت أمم وشعوب كثيرة، خاصة شعوب الاتحاد السوفياتي...

... لكن الذي وقع لي في هذه الحرب، كان أصعب عليّ من الحرب نفسها ومن كل ويلاتها، فقد دفع أبي الشيخ الإمام إليّ بختمه النحاسي وقد نقشت عليه كلمة (إني بمحمد سعيد).. وكان هذا الختم ينوب عن أبي في قبض راتبه، إذ يصعب عليه الذهاب إلى محاسب دائرة الأوقاف رأس كل شهر، فكان يكلف أحد إخوتي ليقبض له الراتب الهزيل الضئيل نيابة عنه، فلما دفع إليّ به، كان معنى ذلك أنني كبرت قليلاً عن تلك السن الصغيرة التي كنت فيها، والتي كنت أتمنى وما زلت أن لا أفارقها وأغادرها وأتخلى عنها، وإن كانت في الحقيقة، هي التي فارقتني وتخلت عني... ولما عدت وسلمت أبي راتبه، سألته لماذا يكتب على ختمه النحاسي كلمة (اني بمحمد سعيد).. ولماذا لا يكتبها.. (إني بمحمد الشيخ سعيد).. فضحك الشيخ الإمام ومسح بيده الكريمة على رأسي ووجهي، وكنت وهو يفعل ذلك أقبل تلك اليد وأباركها وأقدر نظافتها ونقاءها... ثم ضمني إلى صدره، وقال لي: (رضي الله عنك، يا بني، وعن إخوتك وعن أمكم، فقد صبرتم عليّ كثيراً وتحملتم معي شظف العيش طويلاً، ولكن ماذا أصنع، يابني، إذا كنا خلقنا في هذه الدنيا تعساء وبؤساء.. وماذا أفعل إذا كان رجل الدين الحقيقي عندنا، يعيش في ضيق وشقاء،

ويتقاضى أجراً زهيداً، بينما أدعياء الدين والذين يتاجرون باسمه ويستغلونه أبشع استغلال ويخدعون العامة من الناس، يملكون مالا يملكه التاجر الجشع والمستغل والمحتكر!!

... ووجدت الفرصة سانحة لأقول لأبي: (ولهذا، ياسيدي، فأنا لا أرغب في أن أكون رجل دين، ولا أن أصبح خليفتك في الإمامة والخطابة وفي المسجد الجامع، حتى لا ألاقي الذي لاقيت، وأعاني الذي عانيت...)

... ورأيت أبي يغص بريقه، ولا يدري ماذا يقول، فقد كان يريد أن أكون خليفته في الإمامة والخطابة والمشيخة والعمة والجبة، وكانت أمي تلح عليه كثيراً من أجل ذلك، فكان يقول لها: (ولكن الصبي مايزال صغيراً، ويجب أن نصبر عليه حتى يكبر قليلاً، وحتى تنبت له شعرة أو لحية في وجهه، توحد الله).. فتتصدى له أمي وتقول له، في عصبية وانفعال: (الله لا يكبّرو، صار طول الحورا..) أي طول شجرة الحور، وتضيف قائلة: (ألم تتزوج يوم تزوجنا وأنت ابن ثمانية عشر عاماً، أي أكبر من ابنك هذا بعام أو أكثر قليلاً، وماذا لو تسلم المشيخة والإمامة والخطابة لصلاة الجمعة والفتوى وعندما يصبح في مثل سنك وأكون قد زوجته، كما زوجتك أمك رحمها الله، وأكملت له نصف دينه، كما أكملته لك أمك...، وضحك الشيخ الإمام من قولها، ورد عليها بكلمة أراد فيها المزاح، ولكنها غضبت منه ومنها: (ولكن يا أم أنس، أنت لم تكملي نصف ديني، وإنما أخذت ديني كله)!!

... وكان هذا الحديث، وكان ما جرى في ذلك اليوم، بداية محنة قلبت حياتي رأساً على عقب، وأورثتني كثيراً من الشقاء والعناء، وكثيراً من العذاب والبلاء...

... والحقيقة، أنني رغم دار العلوم الشرعية، وما تلقيت فيها من الفقه واللغة وأصول الدين، وما حفظت خلالها وأثناءها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلّا أنني لم أصبح في سن تؤهلني لأكون شيخاً ورجل دين، وكنت أخاف إذا أصبحت شيخاً ورجل دين

أن لا أجد قوتي، إذا لم استغل الدين لغاياتي ومصالحي الخاصة، وأن لا أحقق أحلامي، وهي أن أعمل في الصحافة والسياسة، وأن أكون إذا استطعت، صاحب ورئيس تحرير جريدة محبة للحرية والديمقراطية والعدالة ومدافعة عنها وعن حق الإنسان في الحياة الحرة الكريمة.ومع ذلك كله فإن هذه الأحلام العريضة التي بنيتها على الصحافة الحرة والديمقراطية، كانت صعبة التحقيق، لأن ما وقع من أحداث بعد ذلك بسنين في بلادنا، وفي هذه المنطقة، وربما في بلاد كثيرة من حولنا، قصرت من مدى هذه الأحلام، بل ربما أجهضتها ووقفت دونها، ودون تحقيقها على الوجه الصحيح والسليم والكريم!!.

... وبينما أنا في خلاف مع أمي، والتي كانت تتعجل هذا الأمر قبل أوانه، وقع ما خفت أن يقع، وكان ما خفت أن يكون.. وتذكرت قول الشاعر العربي:

قد كان ما خفت أن يكونا
إنّا إلى الله راجعونا!!.

... كان من عادة الشيخ الإمام، أن يستيقظ قبل الفجر، فيتوضأ ويلبس ثيابه ثم يمضي إلى المسجد الجامع، والليل ما زال يرخي سدوله، ليصلي بالناس صلاة الفجر، وفي تلك الليلة المشهودة استيقظ الشيخ الإمام متأخراً، وكادت تفوته الصلاة إماماً في الجامع الكبير، فأسرع وغادر الدار وانحدر في الطريق، وهو يهدر كالسيل في مشيته وفي قراءته للقرآن، ويبدو أن قدمه وقعت على قشرة بطيخ أو ما يشبه ذلك، فتزحلق وارتد جسده إلى الخلف وارتطمت قدمه الأخرى بقوة بالأرض وكسرت من وسطها، وأخذ يتأوه من شدة الألم، وخرج في تلك اللحظة جارنا الحاج (علي غربال) وكان في طريقه إلى المسجد للصلاة، فأخذ أبي بين يديه وحمله حتى بلغ به باب دارنا ونادى على إخوتي حتى إذا استيقظوا ورأوا الشيخ الإمام محمولاً وهو على هذه الحال، أسرعوا ونقلوه إلى فراشه، وهم في قلق لما أصابه، والتمسوا له عند الصباح، فلاحاً طبيباً من قرية «فيروزة» القريبة من حمص، اسمه

(مَيْدَع) اشتهر بجبر كسور العظام بطريقة شعبية، لا تمت إلى الطب الحديث بصلة، فلما حضر بعد ساعة وأدخلوه على أبي الشيخ الإمام الذي كان يتأوه في صمت من شدة الألم، أخذ (ميدع) يتحسس بيده مكان الكسر في رجله، ثم أخذ يعالج العظم المكسور الذي كان قد خرج من مكانه، ليعيده إلى حيث كان قبل الكسر، وكان أبي يتململ ويتأوه، وهو يردد دعاءه القديم: (اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير..اللهم استر الفقر بالعافية)!!

.. ثم طلب ميدع، هذا الطبيب الشعبي الواثق من نفسه، من أحد إخوتي أن يأتيه ببابور الكاز ويشعله له، وأن يحضر شيئاً من «الكشك» وهو معروف ويصنع من اللبن ويجفف ويطحن مع شيء من البرغل حتى يصبح كالدقيق، وأن يأتي له أيضاً بشيء من شعر الماعز وبخمس بيضات، وبأربع قطع مستطيلة من الورق المقوى (الكرتون) الذي يستعمل في صناعة الأحذية أو مجلدات الكتب الكبيرة، وبقطعة مستطيلة من قماش أبيض كان يسمى عندنا «الخاصة»..

... فلما جاء أخي بما طلبه منه، ذَوَّبَ الرجل «الكشك» في شيء من الماء، ووضعه في إناء على نار هادئة، ثم قصَّ شعر الماعز ومزجه بالكشك الموضوع على النار، ثم جاء ببياض البيض وخلطه بهذه العجينة العجيبة، بعد أن كادت تبرد ثم صبها حول الرجل المكسورة، وقد أغمي على الشيخ الإمام، عندما كان «ميدع» يقوم بعمله في شيء كثير من البراعة والدقة، ثم وضع قطع الكرتون المستطيلة حولها ولفها بحزام من القماش حتى تتماسك ولا تدع العظم المجبور يتحرك من مكانه.. وقال ميدع لأبي الشيخ الإمام، بعد هذه العملية الطبية الشعبية: (الآن يا شيخي ستعترف أمامنا بسنك التي بلغتها..) فقال أبي وهو يغالب ألمه: (لقد بلغت الستين..) فقال الرجل: (ولذلك ستبقى في فراشك لا تتحرك ستين يوماً كل يوم بسنة، وبعدها تعود رجلك سليمة كما كانت من قبل، لا تشكو فيها عوجاً ولا قصراً ولا نقصاً، وستسير عليها، كما كنت تسير عليها من قبل، وسأزورك بين

يـوم وآخر، لأتفقـد أحوالـك ولأطمئن عليـك).. وأشـار أبي إلى أحـد إخوتي ليعطي هذا الرجل الطيب أجره، وأن يحمله إلى قريته في عربة سوداء من عربات الخيل التي كـانت تستخدم لـركوب النـاس في تلك الأيام، وأن يشكره جزيل الشكر على صنيعه وجهده.. وأخـذ الرجـل أجره على استحياء، وكاد يرده تقديراً للشيخ الإمام وحباً له واحتراماً لعلمه وفضله !!.

.. ولشـدة ما عـانى الشيـخ الإمـام من الآلام في ذلـك الصبـاح، أخذته سنة من النوم.. ولكن أمي لم تلبث غير قليل حتى دخلت عليه، فاستيقظ، وما كاد يفعل، حتى بادرته متعجلة وقائلة: (الآن حان وقت تولي ولدنا عدنان، الإمامة والمشيخة مكانك.. وآن لك أن تستريح بعد طول هذا العـذاب، وإلاّ فلماذا جئنـا بكل هؤلاء الأبنـاء، إذا لم نجد بينهم من يتولى مناصبك الدينية التي توليتها عن أبيك وتولاها أبـوك عن جدك، إلى آخر هـذه السلسلة المتصلـة الحلقات، ومن أجـدر من ابنك الصغير هـذا بأن يكـون خليفتك ليحفظ هـذه الشجرة المبـاركة التي مضت عليها خمسمائة عام وهي تنتقـل من الآباء إلى الأبنـاء... وهاهو ذا قد تلقى من العلوم الشرعيـة ما يؤهلـه للقيام بهـذه المهمة خير قيام)، فيقول لها وهو يتلوى من الألم: (ولكنه مايزال أمرد، يا أم أنس، فإذا تولى الإمامة عني في هذه السن، فربما جاء من يقول أنـه لا تجوز إمامة الأمرد، لأنه ربما فتن المصلين... وهو كما ترين حسن الهيئة، صبوح الوجه)!!.

... ولكن امي، وهي تتحرق شوقاً لأكون خليفة أبي حتى لا تضيع هذه الشجرة المباركة، كما تقول، أصرت على أن أكون إمـاماً وخطيبـاً ورجل دين، وعمري لا يـزيد عـلى سبعة عشر ربيعـاً، وأن أضع عـلى رأسي عمـة بيضـاء، وألبس جبـة سـوداء، في الحـال، وأرسلت أحـد إخوتي ليشتري لي طربوشاً وشيئاً من «الشـاش» لتصنع منهمـا عمة بيضاء!!!

.. ولم يلبث أخي أن عـاد بما طلبت، وبعـد قليـل وضعت العمـة

البيضاء على رأسي وزغردت، وضحك إخوتي، وتململ الشيخ الإمام في فراشه، ولم أستطع الخلاص مما أرادته أمي لي، وصرت شيخاً وإماماً ورجل دين بالرغم عني، ولبست العمة البيضاء والجبة السوداء، وخرجت من الدار، واستقبلني أهل الحي بالترحيب الممزوج بالابتسامات والدهشة، وصليت صلاة الظهر إماماً بالناس في الجامع الكبير، ولما عدت إلى الدار احتلفت أمي واحتفل معها إخوتي، ونحن حول فراش الشيخ الإمام بتنصيبي إماماً وشيخاً ورجل دين، وأخرجت أمي من خزانتها عمامة أبي لأتبارك بها، ووضعتها على رأسي، فاختفى نصف وجهي فيها، ولبست جبة أبي للتبرك أيضاً، فإذا بي أغرق فيها ولا يكاد يظهر لي أثر... وأعادتهما أمي إلى الخزانة وأعادت عمتي وجبتي إليّ، وهي لا تعطي فرحتها لأحد!!.

.. ورآني الشيخ الإمام، في لباسي الجديد، ولاحظ أنني مازلت صغيراً، فضحك وقال: (شيئان أبرد من اليَخّ(*)، شيخ تصابى وصبي تمشيخ)!!.

.. ونظرت أمي إليه وهي غاضبة وقالت له: (سبحان الذي خلقك، يا أبا أنس، إنك تحرضه منذ أول يوم على الجبة والعمة.. بدل تشجيعه وحثه على تولي هذا المنصب الكبير الذي يمتد إلى قرون عديدة، من التقاليد الموروثة أباً عن جد)!!.

.. ولم يأبه الشيخ الإمام لما قالت، واستمر يتحدث إليّ ضاحكاً، وهو يراني في عمامتي وجبتي، مثل البرغوت باللبن... وقال لي: (ألم تسمع يابني، بذلك الشيخ الشاعر، وهو رجل دين ظريف حقاً، ماقاله في عمته البيضاء، وقد صور حاله، فقال:

عمتي البيضاء كانت	سبباً في ضيق خلقي
(رحمة) الله عليها	قطعت فسقي ورزقي!!.

(*) اليَخّ: بتشديد الخاء وفتح الياء، حشرة تسمى دودة الثلج ويضرب بها المثل لشدة برودتها..

... وبينما نحن كذلك، دخل علينا زميلي الشيخ خالد، وكان أول ما فعله وأضحكنا، أنه أخذ يتلمس طريقه بعصاه، ويمد يده إلى رأسي، ليتأكد من أن العمة البيضاء قد تربعت فوقه، فلما اطمأن إلى ذلك وتأكد من وجودها، بارك لي، وكأنه يضحك عليّ لصغر رأسي، وكبر العمة، ولم يلبث أن قال لي: (هيا بنا نمضي كما كنا نفعل من قبل، إلى أطراف المدينة وبساتينها وضواحيها، فنرتع ونلعب ونقطف البنفسج والنرجس وشقائق النعمان ونسبح في ساقية الري، ونعيش أياماً طيبة، فقد أتى الربيع، قلت: ياشيخ خالد لقد تبدلت الظروف، وذهبت أيام الصبا إلى غير رجعة، وحلت محلها هذه الأيام التي تقتضي مني، رغم صغر سني، الوقار والانقطاع إلى المشيخة والإمامة والخطابة، والجلوس في غرفة أبي، وأداء الصلوات الخمس كل يوم إماماً بالناس على مذهب أبي حنيفة النعمان.

قال الشيخ خالد، وكأنه يغمز من قناتي: (رحمك الله، يا شيخ عدنان، وأجزل ثوابك ورضي عنك وأرضاك، قم إلى الصلاة فقد حل موعدها، وسأكون معك في عملك الجديد، أقرب إليك من ظلك، إذ يصعب عليّ فراقك، وأنت رفيقي وصديقي وزميلي في الدراسة، ولا أنسى وفاءك واهتمامك بي، رغم أنني أعمى لا يهتم بي أحد)!!.

وقال الشيخ خالد: (أعرف أنك تحمل عبئاً ثقيلاً لا قدرة لك على حمله، بسبب سنك الصغيرة، وكان ينبغي أن تصبر عليك أمك بضع سنوات أخرى، حتى تستطيع أن تتقبل هذا العمل وترضى به، وأعتقد أن أمك تعجلت الشيء قبل أوانه، ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)!!.

وسمع الشيخ الإمام قول الشيخ خالد، فأقره على ما قال، ووعد بأن يعفيني من هذه المهمة، بعد أن يشفى من كسره ويقوم من فراشه معافى. ودخلت علينا أمي وسمعت ما كان يقوله الشيخ الإمام، ويبدو أنها عرفت أيضاً بعض ما قاله الشيخ خالد، فنظرت إلينا مغاضبة وقالت وهي تنفخ عليّ وتقرأ لي وتحصنني بالله وآياته: (لقد

أصبح عدنان خليفة أبيه وأجداده، وسأجد له عروساً تسعده بعد أن بلغ مبلغ الرجال وأصبح شيخاً وإماماً)!!

فقال لها الشيخ خالد، وهو خائف مذعور: (الله يبارك فيك، يا أم أنس، ويهنيك بهذه الشمعة ويخلِّيلك أولادك وصاحب بيتك)!!

...، وقمت متثاقلاً وكأنني أصبحت شيخاً حقاً، ومضيت مع الشيخ خالد إلى الجامع الكبير، بعد أن كادت تدركنا صلاة الظهر!!.

.. وأصبح اسمي (الشيخ عدنان)... وصار الناس يقبلون عليّ من كل حدب وصوب، ليطلبوا دعائي، وليتباركوا بي، وأنا أحوج ما أكون إلى الدعاء، وإلى من أتبارك به، لكن هذه العمة البيضاء والجبة السوداء كانت تخفي عيوبي عن الناس، وللناس الظاهر من كل أمر، وأرجو أن أكون عند حسن الظن بي!!

.. وكان رجل الدين الذي أعجبني وقدرته عظيم التقدير، هو المرحوم الشيخ عبد القادر الخجا، وتمنيت لو أن رجال الدين جميعاً على مثاله وغراره، وأن يقتدوا به ويفهموا مثله حقيقة الاسلام وجوهره، فقد كان هذا الرجل الفاضل، رحمه الله، صاحب دكان تقوم مقابل باب الجامع الكبير، وكان يبيع فيها الصابون والأرز والسكر وغير ذلك من المواد، وكان يعمل بيديه ويزن للناس حاجاتهم بميزان دقيق ويأخذ الثمن منهم بالعدل فلا يغش ولا يدلس ولا يخدع، ولا يرتزق من الدين أو يستغله لغاياته ولا ينتفع من لباسه الديني، وإنما يخدم الناس ويفتيهم في أمور دينهم دون مقابل، وكان قليل الكلام نظيف اللسان والقلب واليد، وكان إذا سأله رجل أمراً يتصل بقضايا الارث أو الطلاق أو شأن من شؤون العبادات والمعاملات، وغمّ عليه الجواب أشار عليه بأن يسأل الشيخ الإمام، وهو يشير بإصبعه إلى غرفة أبي، فربما وجد عنده حلاً لها!!.

... ولما علم الشيخ عبد القادر، أنني أصبحت خليفة أبي، ورآني أضع العمة البيضاء على رأسي، وألبس الجبة السوداء، فرح بي

كثيراً، وصار يحضر خصيصاً إلى الجامع الكبير ويؤدي الصلوات الخمس مؤتماً بي، ليشجعني ويأخذ بيدي، وليوجهني إلى طريق الصلاح والتقوى".

.. وحدث أن رجلاً جاهلاً كان يتزيا بزي رجال الدين ويضع على رأسه عمة بيضاء، كأنها الطبق.. وهو أمي غبي، جاء مغضباً إلى حيث كنت أجلس في المحراب بانتظار قيام الأذان وحلول وقت الصلاة، فلما رآني ثارت ثائرته، وظهر تعصبه وجهله وسوء خلقه، قال للناس من حولي، وهو يصرخ كالمجنون، وقد احمر وجهه وخرج الزبد من فمه: (لا تجوز إمامة الأمرد، لأنه يفتن المصلين!!) وأخذ يهرف بما لا يعرف، ويلوح بيديه، كأنما أصاب الإسلام خطر ساحق ماحق وكأنه لحق به ما يهدد أحكامه وشريعته الغراء.. ولم أرد عليه ولا تصديت له، وإنما رد عليه وتصدى له الشيخ عبد القادر الذي كان قد وصل لتوه وسمع ما قاله هذا الأمي الجاهل المتعصب الذي يفهم الإسلام على هذا النحو الغريب والعجيب، ويخاف على صلاة المسلمين ان تفسد إذا ادوها وراء شيخ امرد، لم تنبت لحيته بعد!!. ورد عليه في هدوء وامتعاض قائلاً له (وهل نصلي لله أم للشيخ عدنان. وهل نقف أمام حضرة الله، أم أمام هذا الشاب، وما لنا ولهذا الذي تقوله، مما لا ينزل في قبان أو ميزان . ألا تخاف، يا هذا، أن تسيء إلى شيخنا الجديد، فيعود إلى أبيه الشيخ الإمام المريض، ويرفض أن يعود إلى الجامع وإلى الإمامة والمشيخة؟؟ إننا يجب أن نحبب اليه هذا المنصب الجديد الذي احتله عن جدارة واستحقاق، فهو طالب علم، وابن شيخ عالم جليل، وإذا لم تشأ أن تأتم به في صلاتك، فاذهب وصل وراء إمام أخر.. لتُصح صلاتك وتصيب الأجر الذي تريد)!!.

.. وكان عليّ أن أتجمل بالصبر، وأن أحتمل من هذا الشيخ الجاهل الأمي ومن امثاله، كل ما يحاول بعض الجهلاء والأغبياء، تصويره وكأنه من الإسلام، وكان عليّ أن أبذل كل ما أستطيع

لتعريف الناس بحقيقة وجوهر الإسلام والدين، وإن من الممكن، بل من السهل أيضاً، إذا غلبنا العلم والعقل والفكر الحر وقطعنا الطريق على التعصب والطائفية، أن نوظِّف الدين في خدمة الحياة والإنسان والمجتمع، وفي خدمة العدالة والمساواة والحضارة والتقدم والسلام في العالم!!

... وحزَّ في نفسي أن أتعرض لهجوم هذا الشيخ الجاهل دون ذَنْب إلّا لأنني ما زلت أمرد، لم ينبت الشعر في وجهي، فلماذا لا تجوز إمامة الأمرد؟ وهل إنه يفتن المصلِّين والمؤتمِّين به؟ وهل في الصلاة والعبادة، ما ينبغي النظر إليه، غير وجه الله؟ وما ينبغي التفكير فيه غير الله؟؟.

.. وعزمت على أن أتخلّص من المشيخة والإمامة والعمة البيضاء والجبة، في أول فرصة تسنح لي، إذ هل يصح في الأذهان أن نتلهى بالوجه الأمرد وعدم الصلاة وراء صاحبه أو غير ذلك من الترهات، وهذا العالم من حولنا يضج بالاختراعات والمنجزات العلمية والحضارية التي تُحيِّر العقول والألباب؟.

وكانت أول حركة دينية يمينية متعصبة في سورية، وهي جماعة «الإخوان المسلمين» قد ظهرت أول ما ظهرت في مدينتنا حمص عام ١٩٤١، وبالتحديد في إحدى قاعات الجامع النوري الكبير، على يد طالب حمصي كان يدرس في الأزهر في مصر، وقد جاء في العطلة الصيفية في ذلك العام بهذه الدعوة المتشدِّدة، بعد أن أخذ الإذن والتوجيه من زعيم الجماعة الشيخ حسن البنّا، وجمع هذا الطالب الحمصي الأزهري حوله عدداً قليلاً ومحدوداً من الشباب في مدينتنا حمص !!

.. وحدث أن تطاول شاب غِرّ صغير من أفراد هذه الجماعة، واعتدى على شاب متدين متحرر وفقير وطيب كان يلبس لفّةً مطرزة، اسمه الشيخ إسماعيل....، وكانت له دكان يبيع فيها بعض أنواع النسيج، ليعيش من ربحها القليل عيشة الكفاف، ولكن ذلك الشاب

الغِـر، وهو من عـائلة الحـراكي، صار يمـر كل يـوم، بدكـان الشيخ إسماعيل ويسبه ويشتمه أمام أصحاب الدكاكين في السوق، ويتهدده ويتـوعده ويحـاول الاعتداء عليـه بالضرب، وكـان الشيخ إسمـاعيل يصبر عليه، ولكن الشاب تطاول كثيراً، فما كان من الشيخ إسمـاعيل إلّا أن أخـرج مسدسـه وأطلق على الشـاب النار وأرداه قتيـلاً، وهو يقول له: لقد زدتَها كثيراً... فخذها جزاءً وفاقاً !!

... وسار بضعة أفـراد من الجماعـة في أسواق حمص، يطـالبون بـالقبض عـلى الشيـخ إسمـاعيـل، وحـاول هؤلاء أن يحملـوا بعض أصحاب المحلات في بـاب السوق عـلى اغلاق محـلاتهم، فلم يستجب لهم أحد، ورأيتهم وأنا أخرج من الجامع الكبير بعد أن صليت الظهر إماماً بالناس، ورأيت بينهم واحداً يمد قبضته إلى فوق ويصرخ ويقول والزبد يخرج من شدقيه: (ياهُوُ يا من بجمـالك تـاهوا)... ويضحـك الناس منه ومن جماعته، إذ ما هي علاقـة الحادث، ومـا خرجـوا من أجله، بهذه «الشطحة» الصوفية، وأسـأل عنـه، وأعرف أنـه من أشد أفراد هذه الجماعة، تعصباً وغلواً وحمقاً، وأنه شديد الحماسة لهـا، وأنـه هو الـذي حرّض ذلـك الشاب الـذي قُتل، لـلاعتـداء بـالضرب والشتم والسب عـلى الشيخ إسمـاعيل.... وأنـه هـو الـذي كـان، في الحقيقـة، سبباً لمـا حدث، بـل هو أصـل الفتنـة، والفتنـة أكبـر من القتل !!

... ورفض الناس هذا الأسلوب الذي يقـوم على الارهـاب والقسر وفرض الرأي بالقوة، وأدانوا هذه الطريقة في العمل العام، خاصة مـا يتصل منه بالدين، وابتعدوا عن هذه الجماعة التي أصبحت مـوضع الشبهة، لا سيما وقد ظهرت في تلك الأيام من بدايات الحرب العالميـة الثانية، وفي وقت كـانت فيه بـريطانيـا هي المسيطرة في الشرق، ولهـا علاقات مشبوهة مع الحركات والدعوات الدينية ابتداء بالهند وانتهاء بمصر، كما أنه لم تكن لهذه الجماعة أية أهـداف ومبادىء وطنيـة أو قـومية، في وقت كـانت فيه سـورية تخـوض معـركـة ضـاريـة ضـد

الاستعمار الفرنسي، وكذلك الحال بالنسبة لمصر التي كانت تناضل ضد الاحتلال البريطاني... وبعد نحو سنة، وبينما كنت أصلي بالناس إماماً ذات يوم، وقعت يدي فجأة على شيء مخيط عند طرف الجبة من الداخل، وكم كانت دهشتي عندما رأيت قطعة من «الشَبَّة» وخرزة زرقاء وكفاً صغيراً من النحاس داخله صورة عين مكتوب تحتها «عين الحاسد تبلى بالعمى» ثم قطعة خزف على شكل «صرماية» ولد صغير مربوطة بها.... وكل هذه البضاعة، كانت ملفوفة بقطعة ورق فيها خطوط وكلمات غير مفهومة، وعرفت أن الورقة من قبيل «الحجاب»، الذي يكتب لرد العين «الصايبة» ولحماية وحراسة من يحملها من الشر، وأن «الشَّبَّة» والخرزة الزرقاء وكفّ النحاس «وصرماية» الولد الصغير... هي كل ما كان عند أمي الطيبة لتمنعني بها من ترك المشيخة والإمامة، ولتصونني بها من شر حاسد إذا حسد، ومن العين «الطرَّاقة»، بعد أن أصبحتُ، في رأيها أملأ العيون بجبتي وعمتي البيضاء، ومنزلتي الكبيرة جداً... بين الناس!! ولأنني أصبحت رجل دين قدّ الدنيا!!!

.. ولما عدت إلى الدار حدثت أبي بذلك فدعا أمي إليه وأخبرها أن هذا الذي فعلته لا يتصل بشيء من الإسلام، وأن «الشَّبَّة» البيضاء والخرزة الزرقاء وكل ما وضعته في بطانة جبتي، لا يرد قدراً ولا يعمي عيناً ولا بصراً، ولا يبعد الحاسدين عني، ولكن أمي لم تحفل بما قال الشيخ الإمام، ويبدو أنها لشدة حبها لي وفرحها بي، فعلت ذلك، وربما فعلت أكثر منه، إذ أن همّها هو أن يحفظ الله لها «الشيخ عدنان»، خليفة.. ليسيرعلى نهج الآباء والأجداد الذين سبقوه، وكانوا مشايخ هذه المدينة الطيبة من قديم الزمان!!

... وحدث في اليوم ذاته، أنني شكوت من صداع وشيء من ارتفاع في درجة الحرارة لمرض عارض، فاستدعت أمي في الحال، وقد طار صوابها، جارتنا «أم خالد» وهي سيدة طيبة فقيرة، كانت تلبس «شروالاً» عريضاً وصدرية، كما يلبس بعض الرجال في مدينتنا في ذلك

الزمن، وسألتها أن تقرأ لي، فطلبت إليها «أم خالد» أن تأتيها بقطعة من الخبز، وأخذت تنفخ عليّ وتقرأ وتمر بقطعة الخبز على وجهي ورأسي، ثم تنفخ عليّ وتقرأ، وأنا جالس أمامها لا أبدي حراكاً، وأحس بوجع وحمى في الرأس والأطراف، حتى إذا انتهت بعد نصف ساعة، طلبت إلى أمي أن تلقي بقطعة الخبز التي قرأت عليها فوق رأسي، إلى أول كلب يمر بباب الدار... وقالت لها: يعمي عيونهم.. ويحفظ هـا الولد من الحسد.. يا أم أنس، الشيخ عدنان «مفكور»(*)، يبعث لعيونهم العمى)!!.

... وتقف أمي وراء باب الدار وبيدها قطعة الخبز، وتنتظر وهي تتفقد الطريق من بعيد، حتى إذا رأت كلباً يقبل، وما أكثر الكلاب الشاردة في مدينتنا، ألقت إليه بقطعة الخبز وأغلقت وراءها الباب، وهي تلقي بسمعها لتتأكد من أنه أكل قطعة الخبز، فربما خطر لها أنه إذا لم يأكلها، بقيت مريضاً، وارتفعت درجة حرارتي أكثر!!

.. والحقيقة أن أمي كانت تحبني على طريقتها أكثر من اللازم، وكانت تخاف عليّ من نسمة الهواء، وكانت لشدة تعلقها بي تريد أن أكون خليفة أبي أعيش في ظلها وتسعد بي وتزوجني وترعاني، وهي أمور أقدرها كثيراً فيها، وأعتز بها، ولكن لم أكن أتصور أن التقاليد تفعل فعلها في نفسها، فتَقْدِمْ وقد نزعت الجبة والعمة وتركت الإمامة والمشيخة في ذلك اليوم، على ما فعلته بي، وهي في حالة من الغضب لا تكاد توصف، ولما كنت عنيداً، فقد خرجت من الدار لا ألوي على شيء، وسرت في الحي وباب السوق والمدينة، بلا عمة ولا جبة، ثم عدت أدراجي إلى حينا، حي جورة الشياح، ووقفت عند قهوة «بَخَّاش» وأخذت أستمع من الراديو الذي اشتراه بدلاً من ذلك الذي كسره وحطمه ذلك العجوز «الخرفان»، إلى آخر أخبار الحرب والمعارك الضارية التي تدور رحاها في جبهات القتال بين القوات النازية التي

(*) مفكور: أي مسحور، أو مصاب بالعين الحاسدة!!.

أخـذت تتقهقـر وبـين القـوات السـوفيـاتيـة والحليفـة التي تتقـدم باستمرار!!

... ورأيت «الشيخ محمود»، وهـو إمام وخـادم المسجد في حينـا، وكـان ضعيف البصر لا يكاد يـرى طريقـه إلّا بشق النفس، وكان في نحو الثمانين من عمره، فسألني بعد أن حـدّق بي طويـلاً، عن عمتي البيضاء وجبتي السوداء، فأخبرته خبرهمـا وخبر أمي ومـا جرى لي معها، فأخذ الرجل بيدي، أو أخذت بيده، ودخلنا مسجد الحي الذي كان الشيخ محمـود يسكن ويعيش ويعمل فيـه، وقال لي: (هـذا بيت الله وهو بيت الجميع، فأهلاً وسهلاً بك هنا، ريثما تجد لمسألتك حلاً) فدخلت معه وضمنت بذلك المأوى، على الأقـل، وإن كنت بدأت أحس بالجوع والتعب والارهاق!!.

... كان الشيخ محمود، نحيلاً هزيلاً، يكاد يتهاوى على الأرض من شدة جوعه وهزاله، وكان يجمع طعامـه من فضلات المنـازل والمطاعم الشعبية، ومن عند باعة «الحلـويات»، وكـان يأتي بـالبطيخ الفـاسد والمشمش «المحمض»، ويصنع منهما شراباً يضعه في إبـريق قديم من الفخّار، تنبعث منه رائحة كريهـة، وكان يلبس ثيـاباً بـاليةً، ولا يكـاد يعرف لونها لكثرة ما تراكم فوقها ولصق بها من أقذار!!.

... وكـان الشيخ محمـود، يتقاضى أجـره من القَيِّم على المسجـد، واسمه الحاج سعيد....، وكان لا يزيد على ليرتين سوريتين في الشهر، ومع أن هذا الأجر لا يكاد يذكر، فإن القَيِّم على المسجـد كان قـاسياً وشديداً على الشيخ محمود، دون سبب أو مبرر أو مسـوغ، ودون أن يـرحم شيخوختـه وضعفه وبؤسـه وفقره، وكـان لا يتـورع عن شتم الشيخ محمود وسبّه، بل إنه كان يلعن لحيته ويبصق عليها من بعيد، والشيخ محمود يـدعو عليـه دعوات مـرة، يسأل اللـه له فيهـا الفقر والجوع والشقاء، ولكن دعوات الشيخ محمود على الحـاج سعيد، لم تجده نفعاً، خاصة وأن الحاج سعيد، كما سنعرف، عثر على كنز ثمين من الليرات الذهبية العثمانية، موضـوعة في جـرار من الفخار، بينمـا

كان يَنقَضّ حائطاً في داره عند التل القريب من دارنا، حيث أصبح بعد ذلك ثرياً كبيراً، وتاجراً مشهوراً!!.

... واتخذت مكاناً أمام المحراب في مسجد الحي، أنام فيه ولم يطل بي الأمر، فقد سافرت أمي لزيارة ابنها القاضي في دمشق، بعد أن أوصت أبي الشيخ الإمام، بأن يسرع ويعود بي إلى الدار، فقد خافت عليّ أن يصيبني مكروه أو أصاب بنزلة برد. وجاء أبي إلى مسجد الحي وأخذ بيدي وعاد بي إلى الدار، وأذكر أنني لشدة تعلقي به وحبي له وشوقي إليه، تعلقت به وبأطراف جبته وكدت أصل إلى كتفيه، ولحق بنا الشيخ محمود إمام وخادم المسجد، وهو يكاد يبكي من الفرح، ويقول للشيخ الإمام: (يا سيدنا.. إن الله لا ينظر إلى صوركم،ولكن ينظر إلى أعمالكم، وماذا جرى إذا ترك عدنان المشيخة والإمامة والعمة والجبة؟؟، ألا ترى، يا سيدنا الشيخ، انه ما يزال صغيراً على هذا الحمل الثقيل.. ألم نكد ننوء بالمشيخة والإمامة والعمة والجبة، وقد قضينا فيها هذا العمر كله، فلم نشمّ الهوا يوماً ولم نخرج إلى بستان ولا نكاد نعرف العاصي... وجلساته!!).

.. ويضحك الشيخ الإمام من قوله ويشكره ويرده إلى المسجد، وأمضي مع أبي وقد زال ما كان بي أو كاد!!.

... وفي تلك الأيام أُقيم في مدينتنا حمص، آخر مهرجان شعبي ديني يقال انه يعود إلى أيام الغزو الصليبي لبلادنا، ويطلق على هذا المهرجان اسم «خميس المشايخ»، وكان يُقام في الربيع من كل عام، وكان مشايخ الطرق «الصوفية» يركبون الخيل والبغال، ويحملون الرماح والسيوف، تتقدمهم فرق الدفوف و«الصناجات» والطبول وحملة الألوية ذات الألوان المختلفة الحمراء والخضراء والسوداء، وكانوا يسمونها «السناجق»، وكان يتقدمها سنجق سيدنا خالد بن الوليد، كما كانوا يسمونه، وقد بقي هذا السنجق حتى الآن، وهو محفوظ في المتحف الشعبي المقام في الطرف الشرقي من جامع البطل والصحابي الجليل خالد بن الوليد في حمص.!!

. وكان مشايخ الطرق «الصوفية» وهم يسيرون في مواكب ضخمة في شارع «السراي» القديمة في حمص، يقومون وهم يركبون خيولهم وبغالهم، وسط زحام شديد، بعمل «الدوسة»، وهي أن يدوس شيخ الطريقة «الصوفية» ببغلته على رجل يتمدد على الأرض، وتمر فوقه البغلة وعليها الشيخ، فلا يصاب الرجل بأذى، ويصرخ الشيخ صرخات يعبر فيها عن القدرة على اجتراح هذه المعجزة ودوس الرجل أو عدة رجال بحوافر الخيل والبغال، ولا يصاب واحد منهم بأذى، وإنما يقوم وهو على خير حال.!!، وكان الناس في «خميس المشايخ» يخرجون بعد موكب مشايخ الطرق «الصوفية» إلى البساتين، والضواحي، ويحتفلون بالربيع، ويأكلون البيض المسلوق والبصل، على طريقة إخواننا المصريين عندما يحتفلون بشم النسيم!!!

* * * * *

.. بعد عودتي إلى الدار ببضعة أيام، ذهبت أتفقد الشيخ محمود إمام وخادم مسجد الحي، ولم أكد أدخل عليه وهو جالس في طرف من المسجد حتى رأيته يبكي بكاءً مراً، وهو العجوز ابن الثمانين، فلما سألته، في رفق، عمّا يبكيه، قال لي وهو يشير بيده المعروقة الواهنة الى حيث كان يقف الحاج سعيد، القَيِّم على المسجد: (إنه يسبني ولا يرحم شيخوختي وضعفي وبؤسي وفقري، ويريدني أن أقوم بتنظيف المسجد وكنسه، وأنا رجل عجوز لا أكاد أرى طريقي...

... ويسمعه الحاج سعيد.... ويقترب منه وهو غاضب ويقول له: ساخطاً: (آه.. يا شيخ الجن.. أود لو فعست رقبتك، وريحت الناس والحارة من شرّك..) فيقول له الشيخ محمود، وقد ضاق ذرعاً بشتائمه: (لقد أعطاك الله خوابي الذهب العثماني.. عندما كنت تنقض جداراً في دارك، وأصبحت غنياً كبيراً بعد أن كنت أطفر من «طنبورة»...، فلماذا لا تنفق منها على الفقراء والمساكين، ولماذا لا توزع منها على هؤلاء البائسين الهائمين على وجوههم في أزقة المدينة؟؟).

.. ويُجَنُّ «الحاج سعيد»، وهو يسمع «الشيخ محمود» يتحدث عن الكنز الذهبي الذي عثر عليه، فهو يريد أن لا يعلم أحد بأمره، ولا يريد أن يذكر الناس ذلك، مخافة السرقة أو السطو، ويرفع عصاه يريد أن ينهال بها على الشيخ محمود قائلاً: (ما دمت، يا شيخ الجن، تتحدث عن الكنز والليرات العثمانية والذهب فخذ نصيبك منها بهذه العصا.. إلى أن تتعلم كيف تسكت وتأكل هوا..، ثم مالك ولليرات الذهبية العثمانية.. هل أنت الذي يرزق الناس، أم أن الله هو الرزاق الكريم؟ وهل يحق لك أن تعترض على إرادة الله، إذا أعطاني ما يشاء، وهو الذي يرزق من يشاء بغير حساب؟..) فيقول له الشيخ

محمود وهو يرد عليه ويلوح له بيده الهزيلة التي يكاد الدم يجف في عروقها: (ولماذا لا يعطيني الله، كما أعطاك؟، ولماذا تكون من السعداء وأكون من الأشقياء.. تلك إذاً قسمة ضيزى)!!

... وتقوم قيامة الحاج سعيد، ويقول للشيخ محمود في غضب عارم. (ياكافر.. يا عدو الله.. أعوذ بالله منك. أنت تعترض على مشيئة الله، لأنه جعلني من السعداء، وجعلك من الأشقياء.. وجعلني من الأغنياء، وجعلك من الفقراء.. الله يلعن شيبتك. يا عدو الله..)!!

.. ويعود الشيخ محمود، وهو ثائر لا يعرف ما يفعل، وليرد على الحاج سعيد ويثيره أكثر مما أثاره، وليقول له لقد أعطاك الله الذهب.. وأعطاني هذا الشقاء والتعب... فتمتع أنت بالذهب الرنان، ولا تسأل عن إنسان طفران وقل إن ذلك من حكمة الدَّيَّان.!!).

.. وينْقَض الحاج سعيد، على الشيخ محمود ويجره من ذقنه ويخرج به من المسجد إلى الحي، ويسمع صراخهما الشيخ حيدر بائع حلاوة الجبن، ودكانه قريبة من باب المسجد، فيسرع ويفصل بينهما قائلاً. (اخزوا الشيطان، يا جماعة، وخافوا الله.)، فيقول الشيخ محمود للشيخ حيدر (يا سيدنا.. يرحم جدك.. وحلاوة الجبن الطيبة من عندك.. هذا الحاج سعيد قد عثر على كنز من الذهب، وهو يريد أن يستأثر به ولا يوزع منه على الفقراء من أمثالنا. فكيف يجوز ذلك؟؟، أليس من حقنا أن يكون لنا منه حصة.. أليس من حقنا أن يكون لنا منه نصيب.. أليس من حقنا عليه أن يقاسمنا إياه؟؟ ولما سمع الحاج سعيد مقالة الشيخ محمود، جن جنونه، وانهال عى ظهره الذي أحنته الشيخوخة والخطوب يضربه، وهو يقول له (متى أصبحت شيوعياً، يا عدو الله، أتريد أن تقاسمني أنت والفقراء من أمثالك ما أملك... وكيف يصح ذلك، يا عدو الله، والكنز والمال والذهب، أرسلها الله إليّ وخصني بها دون سواي)!!

... وصرخ الشيخ محمود، صرخة مدوية اجتمع بعدها الناس، وكان أول القادمين إلى حيث كانا يختصمان «بَخَّاش» صاحب القهوة،

«وعبد الخالق فَشْوَلْ» بائع الحليب الذي يغشه ويمزجه بالماء، «ورفاعي» الذي يعمل حلاقاً في النهار وحارساً في الليل.. وكذلك حضر الشيخ «وزّ»، وهو مشهور في حينا وفي المدينة بأنه من الدراويش، فما كان من هذا الأخير، وقد رأى الحاج سعيد ينهال على الشيخ محمود بالضرب، حتى أبعده عنه، وانقسم الذين اجتمعوا حولهما في تلك اللحظة إلى قسمين، أو إلى فريقين، الأول أخذ جانب الشيخ محمود، والثاني أيّد الحاج سعيد، لكن الشيخ «وزّ» كان أظرف الناس وأثار دهشة الجميع، عندما قال للحاج سعيد: (صحيح يا حجي، طلع عندك كنز من الذهب كان مخبأً تحت الأرض في خوابي من أيام بني عثمان؟؟.. وصحيح يا حجي، أنك أخذت الذهب واحتفظت به لوحدك دون أن تتذكر أمثالنا من الفقراء والطفرانين)؟؟، وينظر الحاج سعيد إلى الشيخ «وزّ» في غضب، وترقص لحيته وترتفع وتهبط في حركة سريعة، كأنما وضعت في ثناياها تلك الآلة التي يسمونها «الزنبرك»... ويقول له: (كمان أنت يا شيخ قرد، أصبحت شيوعياً مثل هذا اللعين.. مالك أنت وما دخلك في أمر يخص الله وحده سبحانه وتعالى)!!

... وهنا ينبري له الشيخ «وزّ» ويرفع يده فوق رأس الحاج سعيد، وهو يقول له: (بصلاة محمد اللي صلاته تفك الحديد... ما طلع كنز ذهب في دارك؟؟) فينظر إليه الحاج سعيد في ازدراء ويقول له: (ناقصنا مجانين كمان.. هذا أنت أيضاً يا شيخ «وزّ»، طِزّ عليك طِزّ...) ويغضب الشيخ «وزّ»، والناس عندنا تخاف من غضبه لأنه مجذوب، ومستجاب الدعاء... ويرد على الحاج سعيد قائلاً: (ياحجي بكرا بدك تموت وتشبع موت، وكل الذهب الذي في الدنيا، لا يردك إلى الحياة، ولو لحظة واحدة، وكل ذهب الدنيا ما راح ينفعك.. شوف أنا ملك هذا العالم كله، ومع هذا فإنني لا أملك نصف قرش). ثم يردف قائلاً: (روح تصدق بهذا المال، لأنه ليس مالك، وإنما هو مال الله، ومال الله يجب أن يُرد لعباد الله..) ويحاول الحاج سعيد أن

يولي الأدبار هـارباً ويتخلص من هـذه «العلقة»... ولكن الشيـخ «وِزّ» يأخذ بتلابيبه ويشده إليه ويقول له: (أن ما جرى بينك وبين الشيـخ محمود، وبينك وبيننا، هو ما يجري من صراع منذ الأزل بين الأغنياء والفقراء، وبين الشبعانين والجوعانـين. وبين الـزناكيـل والطفرانـين، وبين الذين يصـابون بـالتخمة كـل يوم، والـذين لا يجدون اللقمـة.. ولكني سمعت يـا حـاج سعيـد، أن هـذا الصراع يـوشـك أن ينتهي بانتصار الفقـراء على الأغنيـاء فهل سمعت يـا حاج سعيـد بهذا من قبل؟؟.. فيطرق الحـاج سعيد بـرأسه إلى الأرض وكـأنه قـد أصيب بـاغماءة لا خـلاص له منهـا... وسمعه الشيـخ «وِزّ» يقـول: (بـدكم الصحيح راح الذهب... وراحت علينا)!!.

... وسرت في حيّنا أخبار ما وقع بين الشيخ محمود والشيخ «وِزّ»، من جهة وبين الحاج سعيد القيِّم على المسجد وصاحب الكنز، وكـذلك ما جرى من كـلام بين هؤلاء المتخـاصمين، وحـدثت ثورة اشتـراكية صغـيرة ومحدودة في الحي، حـركت الأفكـار ولفتت الأنظـار وحـولت مؤشر الراديو في قهوة «بَخّاش» إلى أخبـار الانتصارات البـاهرة التي يسجلها الاتحاد السوفياتي على القوات النازية التي تتراجع في جميع الجبهات''

... وفي اليـوم التالي سمعت قـرعاً متصـلاً على بـاب الدار، فلمـا خـرجت وجدت الشيـخ محمود الـذي بادرني، بعـد السلام، قـائلاً أرأيت، يـا ابن الشيخ، كيف ضربني الحـاج سعيد أمس، ولم يـرحم شيخوختي وعجزي وبؤسي .. فأخذت بيده الواهنـة، وأدخلته الـدار، وأنا أطيّب خاطره وأخفف عنه ما أصابه، وكان أبي في الـدار يستعد لتنـاول طعام الغـداء فدعـاه، حتى إذا انتهينا أو كـدنا من طعـامنا، شكره أبي على اهتمامه بي في أيام إقامتي عنـده في مسجد الحـي. ثم قال الشيخ محمود، وهو يخبر أبي بما وقع له مع الحاج سعيد أمس، بأنه رأى الليلة فيما يرى النائم، بأن كنزاً قريباً من الكنز الذي عثـر عليه الحاج سعيد في داره، موجود في دارنا، نظراً لقربها الشديـد من

دار الحاج سعيد، وأن علينا أن نبحث عنه ونعثر عليه.. وأضاف الشيخ محمود قائلاً: (إن في المسجد فلاحاً متعطلاً بائساً لا يفارق المسجد إلّا ليبحث عن طعام يلتمسه من أبواب الناس، وهو يصلح لحفر أرض دارنا وليعثر على الكنز فيها، وما يدرينا لعله يكون أكبر من كنز الحاج سعيد... وأنه سيأخذ مع الفلاح الشاب، عشرة بالمئة من مجموع الذهب الذي سيخرج من دارنا!!!

... وينظر أبي إلى الشيخ محمود وهو يضحك، ويقول لي: (لا بد أن هاجس الكنز قد استبد بالشيخ محمود، فتمثل له في منامه، ولكنه وجده هذه المرة في دارنا.. ثم طيب خاطر الشيخ محمود وصرفه بالتي هي أحسن... ولكن الشيخ محمود عاد في اليوم التالي إلى سيرته الأولى، وجاء ومعه الفلاح الشاب المسكين وقال لأبي: إنه رأى فيما يرى النائم، مرة ثانية، أن كنزاً كبيراً يفوق الكنز الذي عثر عليه الحاج سعيد في داره، وأنه موجود في أرض دارنا، على بعد مترين من سطح الأرض... وأن الفلاح الشاب يستطيع أن يصل إليه ويستخرجه من مكانه في يوم أو يومين، ولكن أبي الشيخ الإمام صرفه وصرف الفلاح الشاب، بعد أن طيب خاطرهما ووعدهما بأن الله لا بد أن يزيل برحمته هذا البؤس والفقر والجوع عن الناس، ولكن الشيخ محمود يأبى إلّا أن يستخرج الكنز من أرض دارنا، ويلح على أبي ليسمح للشاب الفلاح بأن يحفر أرض الدار، وأنه إذا لم يصدق منامه ويتحقق حلمه ويخرج الكنز، فسوف يرد التراب إلى مكانه، فلا يعلم أحد في الحي بما حدث!! .

.. ويصر أبي على الرفض وعلى تسفيه حلم الشيخ محمود، في شيء من الرفق به ورعايته حتى لا يحزن... ويصر الشيخ محمود ويلح في الطلب ويقول لأبي الشيخ الإمام وهو يحاوره: (ألم يكفنا، يا سيدنا الشيخ، هذا الفقر المدقع الذي ينزل بنا وهذا البؤس الشديد الذي نلقاه؟؟ ألم يحن الوقت لنصبح أغنياء، كما أصبح الحاج سعيد غنياً بين عشية وضحاها؟؟..).

... ويضحك الشيخ الإمام، كما لم يضحك من قبل، ويقول للشيخ محمود: (وماذا لو طلع على وجهيكما الهارب(*)... بدلاً من الكنز؟؟). وبلع الشيخ محمود ريقه ولم يحر جواباً، وإنما نظر إلى الشيخ الإمام، وكأنه يعاتبه على هذه الكلمة التي لم ترق له، والتي صبر عليها على مضض واحتملها على كره منه !!

.. والتفت الشيخ الإمام إليّ وهو يقول لي: (يابني إني ذاهب إلى الجامع، وها قد ارتفع الضحى، وسأحضر لك معي شيئاً من الصفيحة(**) للغداء.. فتول أنت أمر الشيخ محمود وصاحبه واصرفهما بالحسنى!!

.. ولم يكد يذهب أبي إلى الجامع، حتى قام الفلاح الشاب يحفر أرض الدار، فتركته يحفر ويحفر، ليحقق حلمه وحلم الشيخ محمود، ولو في الخيال.. وكنت أرى هذا الشيخ الفاني الذي بلغ الثمانين، يقف عند رأس الفلاح الشاب وهو يحفر الأرض ويقرأ وينفخ ويتلو بعض الأدعية ويلتمس ظهور الكنز.. والفلاح المسكين يضرب الأرض بسرعة وقوة مخافة أن يعود الشيخ الإمام من الجامع، فيغضب عليه وعلى الشيخ محمود وعليّ، وقد عاد الشيخ ألإمام بعد صلاة الظهر، فلما رأى ما حلّ بأرض الدار، سكت على مضض، وصبر ولزم غرفته !!

.. وقضى أبو مرعي، وكان هذا اسم الفلاح الشاب، ثلاثة أيام وهو يحفر ويحفر فلا يعثر للكنز على أثر، ولا يكحل ناظريه برؤية الليرات الذهبية العثمانية التي رأى الحاج سعيد مثلها في داره عندما استخرج الكنز وأصبح غنياً ثرياً !!

... وطلب الشيخ الإمام الى الفلاح الشاب، بأن يحضر في صباح

(*) الهارب: بلغة أهل حمص، هو حفرة القاذورات والفضلات تحت المرحاض..

(**) الصفيحة: كما يسميها أهل حمص، ولحم بعجين، كما تسمى في دمشق وهي معروفة.

اليـوم التالي ليعيـد التراب المكـوم إلى مكانــه في أرض الدار، وليعيـد رصف الحجارة السوداء كما كانت، ثم يغسـل دماغ الشيـخ محمود من أوهام الكنز والذهب !!

... وفي اليوم التالي، وقــع ما لم يكن في حسبـان أحد، فقـد تـأخـر «أبو مرعي» عن الحضور إلى دارنا في الصبـاح الباكـر، كما اتفقنـا، ويبدو أن حاجته إلى تدارك لقمته من أبواب المنـازل والدور، كعـادته، قد أخرته عن الحضور باكراً، وإذا بالباب يقرع بشدة، فلمـا خرجت إذا بأمي قد وصلت من دمشق، وهي تحمل بيدها قطة شامية جميلة، وبعض أكيـاس صغيرة فيهـا بعض الهدايـا، وبينها بعض القبـاقيب الشـامية الشهـيرة، إذ لا تصنـع القبـاقيب في غـير دمشق، وكـذلـك الخوازيق... لا تنجزّ إلّا فيها!!

... ودخلت أمي وألقت بالقطة إلى الأرض وهي تقـول لها في فـرح غامر: (هذا هو بيتك الجديد، يا شامة)، ثم ألقت بأكياس الهـدايا في طرف الغرفة، واجتازت الباب إلى صحن الدار، فلما رأيتها تقبل عليّ، أوجست خيفة منها، لمـا فعلته بي قبـل سفرهـا، ولم تكد ترى أرض الدار وقد امتـلأت بالأتـربة والحجـارة، حتى ظنت أن أبي استجاب لرغبتها وحقق حلمها القديم، وأمر بتبديـل حجارة أرض الـدار، التي كانت تعذبها أثناء غسلها وكنسها، واحلال البلاط أو الرخام الأبيض الناعم محلها... فلمـا عرفت حقيقـة الأمر ورأت الحفـرة السحيقة في الأرض، قـامت قيامتهـا على الشيـخ الإمام الـذي لم يكـد يعـود من صلاته حتى بادرته قائلة في تهكم مر: (هذا الذي كان نـاقصنا... إن في حمص كفايتها من المدانين، وليس فيها زيادة لمستـزيد!! وتضيف قائلة: ما هذا الذي فعلته بأرض الدار، يا أبا أنس؟؟..

.. ويسمع أبي ما تقـول، فينصرف إلى غرفتـه ويغلق عليه بـابها، فتلحق بـه ولكنها لا تستطيـع فتح البـاب، فترتـد الى صحن الـدار، وتقف عنـد الحفرة العميقـة.. ولشدة ذكـائها فطنت إلى أن الأحـلام راودتنا للبحث عن كنز في الدار، أسوة بما وقع في دار جارنا الحاج سعيد !!

.. وأسرعت أبحث عن الفلاح المسكين، فوجدته نائماً في مسجد الحي من شدة التعب، فأيقظته ودعوته إلى أن ينقذ الشيخ الإمام من ورطته ووقعته... وأن يسرع فيعيد كل شيء في أرض الدار إلى مكانه الذي كان فيه، لأن أمي عادت من عند ابنها القاضي في دمشق، وأقامت علينا الدنيا واتهمتنا بالجنون، وأخشى أن يحل عليّ غضبها من جديد !!

... وقام «أبو مرعي»، هذا الفلاح الشاب الطيب، وسار معي إلى الدار، حيث أعاد كل شيء إلى ما كان عليه، وغسل ونظف أرض الدار وسوّى ترابها وحجارها، ولم يكد يفعل حتى التمس طريق النجاة وعاد إلى حيث يقيم في مسجد الحي، ولكن أمي، وقد هدأ روعها وعادت أرض الدار ربما أحسن مما كانت، ظلت تتهكم وتسخر من حكاية الكنز.. إلى أن مرت الأزمة بسلام !!

... ولم ينسَ الشيخ محمود إمام وخادم المسجد، قصة الكنز، ولا حكاية خوابي الليرات الذهبية العثمانية التي عثر عليها الحاج سعيد قَيِّم المسجد.. ولم ينسَ أيضاً أن أبي الشيخ الإمام استخف بمناماته وأحلامه، كما لم ينسَ أن الكنز في دارنا ما يزال قابعاً تحت الأرض!!

... وكنت كلما مررت بمسجد الحي، بعد عودتي من دار العلوم الشرعية، أعرج على الشيخ محمود لأتفقده وأسأله عن أحواله، وكنت أجده وقد تكوم في أرض المسجد وبجانبه الفلاح الشاب «أبو مرعي»، وهما يتحدثان همساً، فإذا أبصرا بي قاما ورحّبا بمقدمي وسلّما عليّ، وقطعا حديثهما المتصل، وأسمع الشيخ محمود، وهو يقول لي في شيء كثير من الطرافة: (إذا كان الكنز في داركم لم يظهر هذه المرة فسوف يظهر في المرة القادمة، لأن مناماتي، يا ابن الشيخ، لا تخيب، وقد رأيت بعيني رأسي هاتين، في المنام.. الليرات الذهبية العثمانية تتدفق من أفواه الخوابي ولها رنين يخلب الألباب، ومنظر يسيل له اللعاب.. ليتكم تسمحون لنا بأن نحفر أرض داركم من جديد، ولا بد أن الكنز سيخرج هذه المرة، بعد أن استعصى علينا في المرة الماضية). ويؤمن

الفلاح الشاب المسكين على قوله، ويشير بكلتا يديه وكأنه يأسف لما حدث، ويقول: (والله، يا ابن الشيخ، مالكم حق تحرمونا من الكنز.. ولو صبرتم علينا قليلاً، لكنا تخلصنا جميعاً، من هذا البؤس المتصل والفقر المستمر.. إننا، يا ابن الشيخ، لا نجد قوت يومنا، إلا إذا سألنا الناس وطرقنا أبوابهم، فمنهم من يخرج إلينا متجهماً، ثم لا يلبث حتى يغلق الباب في وجوهنا بشدة وعنف، ومنهم من يعطينا كسرة خبز يابس وهو يشيح بوجهه عنّا... ولو سمحتم لنا وأكملتم معروفكم معنا وخرج الكنز، لكنّا أصبحنا من الأغنياء وكنّا بنينا الدور والقصور، وكنا اشترينا مساحات كبيرة من الأراضي، نقيم فيها المزارع والحقول الخضراء، وكنت وجدت بنت الحلال، التي «تقتل» حالها وتتمنى الزواج بي، ما دمت أصبحت ثرياً، بينما لا أجد الآن امرأة في الدنيا كلها تنظر إليّ او تفكر بي، إلا إذا كانت نظرات ازدراء)..

قلت: (يا أبا مرعي.. رعاك الله.. ما هذه الأحلام «الخنفشارية» التي تراود مخيلتك.. وما يدريك، إذا فرضنا جدلاً وطلع الكنز على وجهك، وصرت غنياً وصاحب قصور ودور ومزارع، أن تطلع زوجة المستقبل التي تتخيلها، بنت حرام، على «المحك».. وتطلع روحك «سخنة» رغم الأراضي والقصور والدور والمزارع والذهب الرنان!!

... وقال الشيخ محمود: (ما رأيت في حياتي ناساً يرفضون الغنى والذهب والمال والقصور والدور، مثل الشيخ الإمام وأولاده، مع أن الكنز يكاد يصل إلى أيديهم، ومع ذلك يصرون على أن يبقى مدفوناً تحت أرض الدار):

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول...

ويضيف الشيخ محمود قائلاً: (ولكن ماذا نصنع، إذا كان ذنب السعادة أملس.. ليتكم تسمحون لنا باستخراج الكنز، حتى نترك هذا المسجد ونرتاح من الحاج سعيد، ومن هذا البؤس والجوع

والعذاب الذي رافقنا هذا العمر كله.. وربما صرنا من كبار الأثرياء والأغنياء وعندئذ لا يستطيع الحاج سعيد أن يجرب عضلاته بي، وأن ينهال بعصاه على ظهري، وأن يبصق على لحيتي النقية البيضاء من غير سوء!!)..

قلت: يا شيخ محمود، إنك تريد أن تترك المسجد والإمامة والأذان والصلاة.. إذا أصبحت ثرياً وصاحب ضياع ومزارع ودور وقصور، فهل هذا شأن التقي الورع والمؤمن الزاهد مثلك؟؟، ألا ترى كيف يريد شيطان المال والذهب أن يبعدك عن الله، ثم ماذا تريد أن تفعل بالذهب، وقد بلغت الثمانين؟؟

قال الشيخ محمود: (شو ها الفصاحة، يا ابن الشيخ، من قال لك إن الرجل إذا كان يملك «خوابي» و«تنكات» الذهب،يمكن أن يبلغ الثمانين.. إنه في نظر الناس، وخاصة النساء، ابن ثلاثين، لا يبرحها ما دام غنياً ثرياً!!.

أعطني الذهب الذي عثر عليه الحاج سعيد جاركم، أو اسمحوا لنا باخراج الكنز من أرض داركم، ثم اسأل الناس، كم عمر الشيخ محمود.. أو حاول أن تراني بعد أن أصبح ثرياً، وسوف ترى أنني تغيرت جداً، وربما تمر بي ولا تعرفني، أو على الأصح، أمر بك ولا أعرفك ، فالمال يغير صاحبه، ويغيره في أعين الناس، بل ويغير من سلوكه وتصرفاته، وربما تحول إلى ذئب مفترس، وكان قبل ذلك حملاً وديعاً).. قلت: (هذا صحيح، ولكن حدثني، يا شيخ محمود، عن أحلامك الذهبية كيف تبددت دفعة واحدة، ولقد كان أبي يخاف عليكم إذا حفرتم أكثر مما حفرتم في أرض الدار، أن يخرج على وجهكم «الهارب» بدلاً من الذهب، وعندئذ سوف تشقون أكثر مما شقيتم حتى الآن، ولا بد أن تشكروا الشيخ الإمام لأنه منعكم من الاستمرار في حفر أرض الدار، وحال بينكم وبين الموت غرقاً في «الهارب»!!

.. ونظر الشيخ محمود إلى الفلاح البائس، وقال له: (ابن الشيخ

عما يحكي صحيح.. ماذا لو حفرنا أكثر وطلع على وجهنا الهارب.. كم سيشمت بنا الحاج سعيد عندئذ، يكفي أننا ما نزال نعيش ونتنفس ونوحد الله..!!!

.. قال «أبو مرعي» الفلاح الشاب الذي لا يكاد يقوى على الكلام لشدة بؤسه وجوعه: (يا عمي، يا شيخ محمود... المنحوس منحوس ولو علقوا بظهره فانوس... ثم، ياعمي، الذهب والجوهر، يطلعان من سواعد وزنود وعقول الرجال، ومن جهدهم وعرقهم وعملهم، دعك من هذه الأحلام، ودعنا نبحث عن كنز آخر لا يوجد في أرض دار الشيخ الإمام، ولا في أرض دار الحاج سعيد...، عن كنز يكمن في الانسان، في إرادته ورجولته وبطولته واصراره على أن يفجّر الأرض تحته، انتاجاً وابداعاً، ويناصب كل مصاعب الحياة العداء ويتغلب عليها ويقف في وجهها، عزيزاً كريماً، ويصنع بيديه القويتين وعقله المبدع الخلاق، مستقبل الانسانية الزاهر!!)..

.. وتهتز لحية الشيخ محمود، وهو يسمع كلام أبي مرعي، هذا الفلاح الشاب ويصرخ في وجهه قائلاً: (الآن أصبحت زاهداً في الذهب.. والمال؟؟، وبدلاً من كل هذا الكلام المنمق والأنيق، يكفينا كمشة ذهب، لتحل مشكلتنا، إلى الأبد... وأضاف الشيخ محمود يقول لأبي مرعي: (لقد أراد الله.. أن نكون فقراء وأشقياء، وأن يكون الحاج سعيد من السعداء الأغنياء.. يلعب بليرات الذهب العثمانية، كما تلعب ببيضاتك!!)..

.. ويجيبه «أبو مرعي» في جد وحدة: (ولكن الله، يا شيخ محمود، يأمر بالعدل، ولا يريد الفقر والبؤس والجوع والشقاء لأحد، وإنما يريد للناس جميعاً السعادة والخير، فلماذا تحمل الله مسؤولية أخطاء الناس وظلمهم وشرهم، إن الله لا يظلم أحداً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون) !!

ويقوم «أبو مرعي» من مكانه، ويلحق بهالشيخ محمود، وهو يقول له: (من أين لك هذا؟ متى أصبحت فيلسوفاً؟) فيرد عليه الفلاح

الشاب: (المسألة واضحة، يا شيخ محمود، مثل عين الشمس.. إذ ما ذنب أمثالنا، ليموتوا جوعاً وبرداً ومرضاً وبؤساً وهماً وغماً؟؟ ولماذا لا يكون لهم حقهم الكامل والعادل في العمل والرزق والصحة والحياة؟ ولماذا لا توزع أرض الله الواسعة على الفلاحين من أمثالي بالعدل والقسطاس، ولماذا يملك عدد محدود جداً من الأشخاص والناس في بلدنا هذا، كل هذه الأراضي التي تمتد من حدود لبنان غرباً إلى حدود البادية شرقاً، وإلى حماه شمالاً وإلى حدود «قارة» جنوباً؟ ولماذا يستولي الاقطاعيون، وهم قلة قليلة، على أراضي الشعب والأمة، ويدّعون ملكيتها ويتصرفون بها وبأهلها ودوابها وحيواناتها تصرف المالك؟ ولماذا لا يكون الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط، كما يقول النبي العربي محمد صلّى الله عليه وسلم؟؟)...

.. ويضيف «أبو مرعي» قائلاً: (إن عدالة الله في السماء، لا بد أن تمتد إلى عدالته في الأرض، وقد أوكل الله للناس أمرها ودعاهم إليها وحثّهم عليها، وطلب إليهم أن ينشروها بينهم، وأن يعملوا لما فيه خيرهم وسعادتهم جميعاً، فيقول له الشيخ محمود، وقد سري عنه: (لا يا مضروب.. صرت تعرف تحكي مثل الناس.. من أين لك كل هذه الفصاحة..؟؟) فيقول «أبو مرعي»: (إنها طبيعة المنطق والعقل، وطبيعة الأشياء والحياة.. وإلا فكيف لا يحب الله الفقراء والكادحين والمساكين والمظلومين والمحرومين.. الذين لا يجدون القوت ولا المسكن ولا العلم ولا الدواء ولا الكساء.. بسبب الظلم الذي ينزل من بعض الناس بالناس!!

... قال الشيخ محمود لأبي مرعي، وهو يسمع منه هذا الكلام: (ويحك ألا تخاف أن «يكمشك» العسكر الفرنساوي بتهمة الشيوعية، ويحطوك في «بيت خالتك».. أي في السجن). فيقول «أبو مرعي»: (ياعمي، الظاهر إنك ما سمعت الأخبار، فالموسكوف انتصروا في الحرب على النازية وطبقوا «برلين» على رأسها.. ياعمي.. المستقبل للعدالة والسلام والحرية والتقدم في العالم.. ولك وين رايح... إفهم

شو عما قول!!﴾ فيقول الشيخ محمود: (والله فهمت، يا أبا مرعي، ولكن بالي مشغول بالذهب الذي ظهر في دار الحاج سعيد، ومشغول أكثر بكنز الشيخ الإمام الذي لم يشأ أن نحفر أرض داره، أكثر مما فعلنا، وإلا لكان طلع الكنز!!).

.. وتركتهما وخرجت من المسجد، وإذا بي أرى «عبد الخالق فَشْوَلْ» بائع الحليب المغشوش الذي يخلطه بالماء، يقف عند قهوة «بَخًّاشْ»، وهو يضرب رأسه بيده، لما أصاب صاحبه «هتلر» من هزيمة منكرة في جميع الجبهات، وخاصة على الجبهة الروسية وكيف تتقهقر قواته وتتكفىء إلى الوراء مخلفة مئات الآلاف من الجنود الذين استسلموا للقوات السوفياتية!!

... ورأيت «بَخًّاشْ» صاحب القهوة، وهو يقمقم لعبد الخالق فَشْوَلْ، ويقول له: (إذا كان صاحبك «أبو توفيق» قد جن وحطّم جهاز الراديو في القهوة، حتى لا يسمع كلمة الحق، وهزيمة الباطل وكذبه، فإنني قد اشتريت جهاز راديو آخر.. حتى لا تنقطع كلمة الحق عن الانتشار والذيوع، وحتى لا يتوقف التنديد بالباطل وتأكيد هزيمته، رغم أنني تكلفت كثيراً ثمن هذا الراديو الجديد.. الله لا يسامح «أبو توفيق» الذي كان السبب !!

... كان الطلاب المتقدمون علينا في دار العلوم الشرعية، قد لبسوا العمة البيضاء والجبة السوداء، تمهيداً لتخرجهم، وكانوا لا يزيدون على سبعة طلاب، لكن المهم في أمرهم، هو أنهم جميعاً، ما عدا واحداً منهم أرداه السل قتيلاً بعد تخرجه بعدة أسابيع، قد انقلبوا بعد أن أصبحوا شيوخاً ورجال الدين، وهم في شرخ الشباب، إلى دعاة للإسلام الحنيف المتجدد والمتفتح على الحضارات والحياة وإلى أنصار للعدالة والاشتراكية والمساواة، فأثاروا ضجة في المدينة، واتهموا بالشيوعية مع أنهم لم يكونوا في الحقيقة على علم أو معرفة بها، وإن كانوا على علم ومعرفة بأحوال بلادهم وشعبهم ومواطنيهم الذين تنتشر بينهم البطالة وينتشر البؤس والجوع والمرض والأمية

والجهل، انتشار النار في الهشيم، والذين كانوا يدركون عمق الادراك، سبب ما يعانيه شعبنا، ويعرفون أن الخلاص لا يكون إلا بمواصلة النضال بلا هوادة، ضد الاستعمار والاستغلال وضد الفقر والجهل والمرض والتخلف''

... وكان بين هؤلاء السبعة، كما أذكر، شاب يحمل عاهة ثقيلة على ظهره فقد كان أحدب وكان يسير بصعوبة ومعاناة شاقة، وكان يثير حزن الناس من حوله، وقد استطاع أن يتغلب، ليس على عاهته هذه الصعبة فحسب، وإنما على كل العاهات التي لصقت به وبغيره من أبناء مدينتنا وشعبنا، وهي أخطر وأصعب من كل عاهات الجسد، لأنها تدمّر الروح والنفس وتوجع القلب والفؤاد، فقد كان هذا الشاب، بالإضافة إلى عاهته الجسدية، فقيراً فقراً مدقعاً، لا يملك أهله ثمن الخبز الذي يحتاجون إليه كل ساعة وكل يوم، فكيف يضمن هذا الشاب طعامه وحاجاته، ومع ذلك فقد ملك إرادة قوية، واستطاع من خلالها أن يصبح في مدى سنوات محامياً بارزاً وبارعاً، اشتهر كثيراً في هذا الميدان الذي يتصل بإحقاق الحق وازهاق الباطل والدفاع عن المظلومين وإدانة الظالمين !!

... كان الشيخ «خالد كالو»، وهذا اسمه، مثلاً في العصامية والرجولة والإرادة التي تبلغ فعلاً حد المعجزة، وكان هذا المحامي اللامع ورجل الدين، إنساناً تقدمياً واشتراكياً، وكان غاية في الظُرف وإرسال النكتة الحارة والحادة، رغم عاهته الظاهرة وحدبته التي تثقل ظهره وكاهله، وكان يمضي في طريقه، غير مبالٍ بها، إلى أن تغلب عليها، وكأنه لولاها ما وصل إلى هذا الانتصار الساحق على الحياة وأقدارها !!

.. حقاً.. كل ذي عاهة جبار... ولقد كان هذا الرجل، جباراً فعلاً، ولكنه لم يستطع آخر الأمر أن يقهر الموت.. فهو وحده دون سائر الأقدار، قد تغلب عليه وأخذه إليه دون أن يستطيع رده أو صده، أو ابعاده عنه، لكن الموت، هذا الجبار الآخر، وقد أخذه إليه، لم يستطع

آن يأخذ منه إلّا جسده المقوس وظهره، أما روحه وأثـره وذكره، فهي باقية بين أبناء مدينة حمص حتى الآن، وفي كل مرافعة ومطالعة أمام منصة القضاء، يضرب به المثل في مدى سعة علمه في القانون ونجاحه الباهر في الدفاع عن المظلومين ''

* * * * *

... كنا ما نزال طلاباً في دار العلوم الشرعية عندما وصل بلاغ إلى إدارتها من دمشق، يقول: إن رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني، وهو رجل دين ويلبس العمة البيضاء على رأسه، وكان موالياً للفرنسيين، قد أمر بإنشاء كلية شرعية في دمشق لتخريج قضاة شرعيين، وأن على الطلاب الذين يودون الالتحاق بها الحضور إلى دمشق مع وثائقهم الثبوتية في موعد حددته الادارة الجديدة للكلية... فاتفقت مع زميلين لي، على الالتحاق بهذه الكلية والسفر في أقرب فرصة إلى دمشق، وأذكر أن أحد النجارين في حينا، صنع لي حقيبة من الخشب,,المعاكس،،الرقيق، وضعت فيها ثيابي وكتبي واستأذنت الشيخ الامام وقبلت يده الكريمة، وودعت أمي وقبلت يدها، وغادرت الدار إلى محطة القطار الذي حملنا إلى دمشق، وكانت رحلة جميلة وطويلة... وممتعة ورائعة لا أنساها قطع القطار فيها الطريق إلى دمشق في عشر ساعات... ونزلنا من القطار في محطة الحجاز القديمة في دمشق، وأسرعنا إلى حيث تقع الكلية في حي العمارة في زقاق يسمى «السبعة طوالع» وكان الطلاب الذين وفدوا إليها يتزاحمون بالمرافق والأعناق على بابها فدخلناها بسلام آمنين، مع غيرنا من الطلاب الوافدين من مختلف المحافظات والمدن، وقدمنا أوراقنا لإدارتها، وقبلنا بين الطلاب الداخليين، باعتبارنا من أبناء المحافظات.وبدأنا نحلم منذ أول يوم دخلنا فيه الكلية، بالتخرج منها يوماً، قضاة شرعيين، نملأ الدنيا رحمة وحقاً وعدلاً.... وقد اقتصر طعامنا في الأيام الأولى من دخولنا الكلية، على (شوربة) العدس، ورغيف من الخبز، كل يوم، وقد جاؤوا بها من تكية (السلطان سليم) حيث توزع هناك على الفقراء والمساكين كجراية من أوقافها منذ القديم، فجئنا نحن لنزاحم هؤلاء البؤساء الفقراء الجياع على خبزهم وحسائهم !!

..وقيل لنا يومئذ، أن ما جرى بالنسبة للطعام، ما هو إلا حالة مؤقتة، ريثما تنتظم أمور الادارة الجديدة من الناحية المالية !!

... كلما تذكرت تلك الأيام، وأنا في طريقي إلى الكلية الشرعية في دمشق، قادماً من حمص، أحس بنكهة خاصة، لتلك الصور التي انطبعت في عيني وذاكرتي عن هاتيك المرابع والمواقع والقرى والروابي التي مرّ بها القطار من حمص إلى دمشق وتوقف عندها. ولتلك الأسواق والشوارع والحارات التي مررت بها وأنا في طريقي من محلة الحجاز إلى الكلية في حي العمارة، ابتداء من سوق الحميدية والمسكية والعصرونية وباب البريد والمكتبة الظاهرية !!

... ولا أدري لماذا لم يعد لهذه المواقع والمرابع والأسواق والحارات، ذلك السحر الذي كان لها في نفسي وعيني، قبل أربعين عاماً أو أكثر... وهل أن سبب ذلك، يعود إلى كثرة ترددي عليها ومروري بها بعد ذلك وإلى الآن، حتى أصبحت شيئاً عادياً ومألوفاً لعيني؟؟ أم أن ما تراه العين، وأنت في ميعة الصبا والشباب، يرسخ في الذاكرة ويستقر في حنايا النفس، ويسكن في شغاف القلب، فلا يبرحها، رغم تقادم الزمان وكرّ السنين، فإذا مررت بها الآن أو رأيتها، وقد ولّت أيام الصبا والشباب، وحلت محلها الشيخوخة المخيفة التي تبعث في النفس الاكتئاب، لم تشعر بتلك النكهة الخاصة التي كانت لها في عينيك وذاكرتك وروحك عندما كنت في شرخ الشباب !!

... كان أعضاء هيئة التدريس في الكلية من أساتذة معهد الحقوق في الجامعة السورية، ومن بعض كبار العلماء والفقهاء في دمشق الشام، وقد سعدنا كثيراً بهم وأخذنا كثيراً عنهم، وعقدنا أواصر الصداقة والمودّة معهم، وكان مدير الكلية الشيخ حسن الشطي، رحمه الله، في غاية الدماثة والكياسة والعلم والذوق، وكان مفتي السادة الحنابلة في دمشق!!

وكان بين الأساتذة عالم فاضل، أحببته كثيراً، ولا أدري كيف قال

لي مرة، انه يـريد أن يـزوجني ابنته، عنـدما أكبـر وتكبر... وعنـدما أتخرج من الكلية وأصبح قاضياً شرعياً... وقد جاءني ذات يوم ومعه صورة ابنته، دفعها إليّ أثناء الـدرس، في كتاب كـان يقرأ فيـه علينا، فإذا هي طفلة صغيرة لم تبلغ التاسعة من عمرها، ولا أدري مـا فعل الله بها منذ تلك الأيام !!

... وأسأل نفسي يومئذ، ولله في خلقه شؤون، هل هي غفلة العلماء استبدت بهذا العالم الفاضل، فقدم لي ابنتـه الصغيرة عـلى طبق من ورق.. في كتاب!!

... وانتشر «الجـرب» أثناء الحـرب، بسبب سـوء التغـذيـة وقلـة النظافة، وقيـل بسبب السكر الأحمـر العكر الـذي كان يـوزع في تلك الأيام، وجاء طبيب المعـارف ليتفقدنـا ويكشف عن بطوننـا، حتى إذا رأى بثوراً حمراء، أشـار إلينا، لم يستثن واحـداً من سائـر الطلاب، بأن نذهب إلى أهلنـا، ونتداوى من هـذا المرض المـزعج القبيـح الذي أصابنا، وأعطانا وصفـات لتحضير هـذا الدواء المؤلف من الكبـريت والكلس وغـير ذلك من المـواد، وخلت الكلية من طـلابهـا، وذهبت إلى بيت أخي القاضي، فلما عرف أهله ما بي، هربـوا مني، ولم أحزن لمـا فعلـوا، فلو كنت مكـانهم لم أفعل غـير الذي فعلـوا، لأن هذا المـرض القبيح سريع العدوى، فغادرت دار أخي وسافرت إلى حمص وتداويت فيهـا إلى أن شفيت، وعدت إلى دمشق وإلى الكليـة، فـوجـدت نصف الطلاب الداخليين لم يعودوا بعد من بلادهم ومدنهم!!

... لكن الغريب، أنني لم أشف بعد من ذكرى هذا المرض اللعين، وكلمـا تذكـرت أنني أصبت به ذات يـوم من أيـام الحـرب العـالميـة الثانية، أحك جلدي.. وما حك جلدك مثل ظفرك !!

... وأقبل الربيع، وهو في دمشق، لا أحلى ولا أجمل، فمياه الفيجة كأنها العسل المصفّى تتدفق في حارات وأحياء وأزقـة دمشق، من تلك المناهل المنتشرة في كل حارة وزقاق، فتخرج الميـاه من أفواههـا باردة كالثلج، بينمـا الياسمين يتسلق على جـدران الدور وهـو يرنـو إليها،

والورد الجوري يعطّر الأنفاس والأجواء» وقضينا ذلك الربيع الرائع، بين غوطة دمشق وربوع فيحائها.. وذات يوم وقد حل الصيف، وصيف دمشق في تلك الأيام كالربيع، دعي عدد من الطلاب، وكنت بينهم، إلى القصر الجمهوري في المهاجرين لمقابلة رئيس الجمهورية، فلما دخلنا عليه في الموعد المضروب، رأيته رجلاً وسيماً وسميناً، يضع على رأسه عمة بيضاء ملفوفة فوق طربوش أنيق، وبعد أن سلمنا عليه، أخبرنا أنه سيوقّع مراسيم تنظيم الكلية الجديدة، وتخصيص الأموال اللازمة لها، ضمن موازنة مستقلة، وأنه سعيد جداً بهذا الانجاز وبإنشاء أول كلية شرعية لتخريج قضاة شرعيين في سورية، فشكرناه، وألقى أحد الطلاب كلمة بالمناسبة سرّ بها الرئيس كثيراً، وعدنا من حيث أتينا إلى الكلية، وكأننا أمِنّا صروف الدهر وأحداث الزمان !!

.. وبعد يومين على وجه التحديد، وقد كدنا ننتهي من الامتحانات، إذا بنا نسمع نعي رئيس الجمهورية الذي قضى، رحمه الله، فجأة بسبب نوبة قلبية، ويخبرنا مدير الكلية، بعد أن جمعنا في الباحة، أن الرئيس مات قبل أن يوقع مراسيم انشاء وتنظيم الكلية وتحديد موازنتها السنوية المستقلة وتخصيص الأموال اللازمة لها» ولشدة فجيعتي بآمالي وأحلامي، قلت لمدير الكلية قبل أن يتم كلامه، ودون إرادة مني: (ألم يجد الرئيس غير هذا اليوم ليموت فيه، ولماذا لم يستأذن الموت ريثما يوقع مراسيم إنشاء الكلية، ثم يموت بعد ذلك كما يشاء)... وضحك الطلاب وكاد يضحك مدير الكلية رغم الفجيعة والمصيبة!!

.. وبعد يومين أو ثلاثة، من موت الرئيس، تبلغنا قرار إغلاق الكلية وصرف أساتذتها وتسريح طلابها، وكان سراحاً جميلاً، أبدى خلاله مديرنا الشيخ حسن الشطي، رحمات الله عليه، كل شعور أبوي كريم وروح طيبة، وخرجنا من باب الكلية لنتشرد من جديد، ولنبحث لنا عن أمل أو عمل ينير لنا الطريق في هذه الحياة المليئة بالمآسي والآلام!!

... كـان موت رئيس الجمهـورية في تلـك الأيـام من عـام ١٩٤٣، والذي عينته فرنسا، كما عينت قبله مجلس المـديرين بـرئاسـة بهيج الخطيب أحـد عملائهـا، رحمة للبـلاد، فقد وجـدت فرنسـا أن هـذه الـورقة الـرابحة الـوحيدة التي كـانت في يدهـا قد سقطت وأنهـا لا تستطيع أن تجد ورقة جديدة مثلها تلعب بها من جديد، لأن الأمة قد تنبهت تماماً إلى ما تريد فرنسا أن تفعله من بقـاء السلطات كلهـا في يدها، محاولة كسب الوقت، ولكن الكتلة الـوطنية لعبت ورقـة رابحة، ووجـدت الفرصـة سانحـة لاعلان قيـام حكم وطني في البـلاد يمهـد لتسلم السلطـات كلها من فـرنسا أو انتـزاعها، عـلى الأصح، منهـا، والاستعداد لقيام عهد الاستقلال وتحقيق جلاء القوات الأجنبيـة عن أرض الوطن، مستفيدة، في ذكـاء وتخطيط ناجـح فعلاً، من الظـروف الدولية في تلك المرحلة التي ظهرت فيها للعيان هزيمة المانيا النـازية، في الحرب العالمية الثانية!!

... وقد حاولت فرنسا الـوقوف في وجـه قيام العهـد الوطني الأول بعـد موت رئيس الجمهـورية المعـين من قبلهـا، ولتنفيـذ سيـاستهـا الاستعمارية الحمقاء في بلادنا!!

... وعدت إلى حمص، كسير الجناح خائب الأمل، أبحث عن نفسي ومستقبـلي من جـديـد، بعـد أن ضـاعت أحـلامي بـين مـوت رئيس الجمهورية بالسكتة القلبية وبين اغلاق الكلية!!

.. وأسـأل نفسي، هل تموت الأحلام أيضـاً في قلوب الصغـار... أم أنها تكبر وتكبـر... ولماذا تمـوت أحلامي كمـا أرى؟؟ ولماذا لا تعيش من جديد وتزدهر، كما تعيش وتزدهـر الأرض في الربيـع، بعد شتـاء قاس شديد ومثلج وبارد، تظن معه وكأن الحياة ماتت إلى الأبد، فإذا بها تحيا، عندما يطل الربيع على الدنيا، ولذلك فليس عبثـاً أن تقدس بعض الأمم الربيع وتحتفل به احتفالاً كبيراً!!

... ولما كنت قد ظننت، وبعض الظن إثم، أنني ملكت زمـام الكلمة والأسلوب وأنني قادر على الكتابة في ميدان الأدب والفكر والسياسة،

وأنني أحطت ببعض قواعد النحو والصرف، وحفظت القرآن الكـريم، فإذا أردت أن أكتب، وخفت أن أخطيء في قواعد اللغة، استشهدت بآيات الكتاب العظيم، فأجد فيها ضالتي، وأصلح من أسلوبي ولغتي ومقالتي، فيستقيم بذلك حال مـا أكتب وأنشر، فقد قـررت أن أخوض ميدان الكلمة والصحافة والسياسة، لا سيمـا أن الصحافـة هي أم السياسة ومعلمتها، ولولا الصحـافة مـا تبوأت السيـاسة مكـانها في مجال العمل العام، ولا تبوأ السيـاسيون مقعـدهم من نعيم الحكم أو جحيم المعارضة !!

.. ولو كنت أعلم الغيب ما خضت هذا البحر اللجي، وهذا الميدان الصعب، ولا عملت في هذه الصناعة السوداء!!

.. لكن الصحـافة الـوطنية المعـادية لـلاستعمار الفـرنسي في تلـك الأيام، كانت أقدس وأشرف مهمة وقضية، لاسيما بالنسبة لمثـلي نشأ وترعرع وتربى في أسرة وفي بيئة وطنيـة في ظل الشيـخ الإمام، الـذي كان يقاتل الفرنسيين، بالكلمة والخطبة والصلاة!!

... وقد رأيت في الصحافة والسياسة، في هذه المـرحلة من نضـال سورية، سبيلي وغايتي للمشاركة في المعـركة مـع شعبي وأمتي وأهلي وإخـوتي، وأبي وأمي ومـدينتي البـاسلـة حمص، وهـذا الحي، حي «جـورة الشياح» الـذي أعيش فيه والـذي يعيش فيه خفيـة، خـلال المعارك والثورات ضد الفرنسيين، عدد غير قليل من الثـوار والأنصار والأحرار!!

... وجمعت أطـراف شجـاعتي، ومضيت ذات صبـاح إلى طـريق «بيت رسلان» كما يسدى، وكان قريباً من دارنا، ورأيت لـوحة معلقـة فوق مخزن من مخازن ودكاكين هذا الطريق، وقد كتب عليها: (جريدة التوفيق جريدة يومية سياسية مستقلة لمؤسسهـا وصاحبهـا، توفيق الشامي!!) ..

وكان هذا العنوان الطويل العريض، يـأخذ صـدر المخزن الكبـير، الذي اتخذ منه صاحب الجريدة مكتباً ومقراً لها!!

.. ولما دفعت الباب، وجدت صاحبها يجلس وراء طاولة وهو يدخن نرجيلته، ويقرأ صحيفته وجريدته وقد مدها بين يديه، وهو لا يكاد يعطي فرحته لأحد. وكيف لا يفرح وهو الرجل العصامي الذي جاء من دمشق إلى حمص ليعمل بائعاً للصحف والمجلات، قبل عدة سنوات وليصبح بعدها مؤسس وصاحب أول جريدة يومية سياسية تصدر في حمص، وينجح نجاحاً باهراً في إصدارها وتحقيق الازدهار والانتشار لها، ويثبت أقدامها حتى يكاد يسابق بها صحف العاصمة» فلما سلمت عليه نظر إليّ وتبسم ضاحكاً وسألني عن اسمي وماذا أريد، فلما أخبرته وذكرت له انني ابن الشيخ الإمام، وقف احتراماً وإجلالاً له، وصافحني بحرارة وصدق، ودعاني إلى الجلوس، ولما قلت له انني أرغب في العمل في جريدته صمت قليلاً، ثم رحب بي، ولكنه قال لي، أنني ما زلت صغيراً على العمل في هذه الصناعة السوداء، وإن كان لا بد من أن أجرب حظي، فإنه لن يدفع لي أجراً عن عملي ما دمت في مرحلة المران والتدريب، وأنه عندما يجدني قد تقدمت في هذا الميدان المملوء بالشوك والمتاعب، فسوف يدفع لي عندئذ أجراً قليلاً... ووافقت، وطلب إليّ أن أبدأ العمل في الحال !!

... كان صاحب جريدة «التوفيق» قد أوكل أمر الجريدة وتحريرها وإصدارها، إلى كاتب ولغوي ونحوي وشاعر معروف في مدينتنا، وقد تولى رئاسة تحريرها، وكان يعاونه محرر شاب يلتقط الأخبار من الراديو، ومن مراسل الجريدة في دمشق بواسطة الهاتف اليدوي في تلك الأيام، ويقوم بوضع العناوين لها في صفحات الجريدة التي كانت تصدر بأربع صفحات بسبب غلاء الورق وقلته في أيام الحرب، وكان المحرر يكتب زاوية يعلق فيها على خبر أو حدث، بينما كان رئيس التحرير يكتب المقالة الافتتاحية وبعض المقالات الأدبية، والحقيقة أن صاحب الجريدة، كان كثير الاهتمام بجريدته يتابع العمل فيها ويسهر عليها، ويلاحق رئيس التحرير والمحرر الآخر على «الدعسة» كما تقول العامة، حتى لا يتسرب الكسل إليهما وينعكس

على أخبار الجـريدة ونجـاحها، وكـانت عينه لا تنـام ولا تغفل عنهـا لحظة، مما جعلها تتقدم وتزدهر!!

... وعندما بدأت العمل في هذه الجريدة شعرت في الحقيقـة، بأنني لن أزيـد فيها أو أنقص، لأنهـا، كمـا قلت، كـانت قـد نجحت وشقت طريقها،ولكن جهدي، ولو كان جهد المقل، لا بد أن ينعكس عـليّ، على الأقل، ويحقق النجاح لي في هذا العمل الجديد، الذي اخترته بمحض إرادتي، لم يدفعني أو يحملني عليه أحـد، وهكذا كـان، ولكن المحرر الذي أردت أن أتدرب على يديه وأتعلم منه مـا لم أكن أعلم من فنون هذه الصناعة ودقائقها... تجهم لي، وظن المسكين أنني جئت منـافساً له، وأنني ربما أزحته من مكانه وحللت محله،فشعور الناس في بلاد لا ضمانات اجتماعية فيها ولا ما يحول بين الإنسان والتعرض للبطـالة، يجعل مثل هذا المحرر يخاف على رزقه وعمله، ويتطير من وجودي، مع أنني كنت أحبه ولا أفكر قط في الحلول محله، فـالعمل في الصحـافة، وفي جريدة كهذه الجريدة، يتسع لأكثر من واحد، بل لأكثر من عشرة وعشرين، إذا شئت الحقيقة، وكلما كثرت وتنوعت الأقلام في الجريدة أو المطبوعة، ازدهرت ونجحت وحققت مزيداً من الانتشار.

... وحتى لا يضيق بي هذا المحرر، أو يـوجس خيفة من وجـودي إلى جـانبه، عملت منـدوبـاً للجـريـدة، ألتمس الأخبـار من مظـانهـا ومـواطنها وأمـاكنها في دوائـر الحكومـة ومكـاتب الكتلـة الـوطنيـة، والمنظمـات الشعبية وجميـع الفئات المشـاركة في العمـل الـوطني في المدينة، لاسيما أن الذي يريد أن يكون صحفياً ناجحاً ومعـروفاً، وأن يكون له دوره وتأثيره، يجب أن يبدأ هذه البداية، وأن يعمـل في حقل الأخبار وجمعها ومتابعتها وتحقيقها والتعليق عليها، والكتابة حـولها، والتعـرف على أكبـر عـدد ممكن من النـاس، خـاصـة رجـال الفكـر والسياسة وأهل الرأي وأصحاب الكلمة النـافذة، فمعـرفة أكبـر عدد من النـاس، يؤدي بالصحفي إلى النجـاح والتقدم السريـع في عملـه، ولهذا فقد نجحت في عمـلي منذ أول يـوم دخلت فيه جـريدة التـوفيق

وسجلت أكثر من سبق صحفي، وكتبت أكثر من تعليق محلي، ومضيت أتحرك على كل الجبهات، كما يقال، وأبحث في كل الجهات، عن خبر جديد، خاصة وأن العهد الوطني، أخذ ينتزع في ذكاء وحماسة ووطنية، السلطات والصلاحيات من الفرنسيين، وأولها السياسة الداخلية، المتصلة مباشرة باتخاذ القرار المستقل المباشر، والذي يؤدي بالتالي إلى استكمال واستلام سائر السلطات والصلاحيات، وإلى الخلاص التام من الاستعمار الفرنسي، وكان أول ما فعله العهد الوطني في هذا المجال، تسلم قوات الشرطة والدرك والحاقها بالحكومة الوطنية، واجراء الاتصالات السرية والمثمرة بالعناصر الوطنية في القوات التي كانت تابعة للسلطة الفرنسية. أما على صعيد السياسة الخارجية، فكان أول عمل كبير وجيد قامت به حكومة العهد الوطني هو تبادل التمثيل السياسي والدبلوماسي مع الاتحاد السوفياتي وغيره من الدول ذات العلاقة بمنطقة الشرق الأوسط وذات الصلة بها من قديم. وكان الاتحاد السوفياتي في تلك الأيام من عام ١٩٤٥ قد أحرز في حربه الوطنية الكبرى ضد قوات المانيا النازية والفاشية، النصر النهائي والكبير، كما كان الحلفاء الغربيون قد أحرزوا أيضاً هذا النصر!!

... كانت هذه المرحلة المليئة بالأحداث السياسية مواتية جداً لعملي الصحفي الجديد، وإن كان على نطاق ضيق ومحلي، خاصة وأن جريدة التوفيق التي أعمل فيها تصدر في مدينتنا حمص لا في دمشق العاصمة التي كانت تضج بالأحداث الجسام، ورغم ذلك فقد كنت أتحرك من مكتب الجريدة صباح كل يوم، بعد أن أضع خطة لعملي ونشاطي، ثم أمضي فلا أدع سياسياً وطنياً ولا كاتباً بارزاً في مدينتنا حمص ولا خبراً يتعلق بمسيرة الحكم الوطني في طريق استكمال أسباب السيادة والاستقلال وانتزاع مزيد من الصلاحيات من السلطة الفرنسية، إلا نشرته وعلقت عليه في زاوية صغيرة من الجريدة، وطالبت بوجوب استلام المزيد من الصلاحيات، من قبل

السلطة الوطنية بعيداً عن تدخل السلطـة الفرنسيـة التي آن لها أن تسلم الأمور كلها لأهل البلاد ولتستعد القوات الأجنبيـة، إذا أرادت السلامة والنجاة، للجلاء والرحيل عن أرض الوطن !!

... وهدأ روع المحرر الذي كان قـد ضاق بي ذرعـاً، بعد أن رآني لا أكـاد أقيم في مكتب الجريـدة، إلا ساعـة أو بعض ساعـة أنصرف بعدها إلى عملي في التماس الأخبار والبحث عن كل حدث جديد، وكنت أقدم أخباري لـرئيس التحريـر فكان يصلـح من شأنهـا ويضع لهـا عناوينها، ويبعث بها إلى مطبعة الجريدة، وكانت قريبة منا، ينضـدها العمال بأيديهم من صناديق أمـامهم فيها حـروف مختلفة يجمعـونها ويحولونهـا إلى كلمات وسطـور، ثم إلى صفحات كبـيرة، هي صفحات عدد الجريدة التي تصدر كل صباح !!

... وكـانت فرحتي لا تـوصف وسعادتي لا تقـدر، عندمـا تصـدر الجريدة، وأقرأ فيها بعض أخباري مع تعليق محلي بسيط كنت أكتبه فيها بين يوم وآخر !!

... وأمضي في عمـلي الصحفـي، في كثـير مـن الحـب والصـدق والحماسة، فأنا ما أزال في أول عهد الصبا والشباب، لا أعرف للتعب معنى، ولا أهدأ أو أرتاح ولا أتوقف لحظة عن العطاء، ولا أذكر أنني شعرت بالارهاق يوماً، رغم أنني كنت ما أزال أعمل بدون أجر، فأنـا ما زلت، في رأي صاحب الجريدة، في مرحلة التدريب والمران!!

... واقترح عليّ صاحب الجريدة، ربما لأنني أعمـل بلا أجـر، أن أشارك في أعمال التحرير مساء، بعد أن أقوم بجمع والتماس الأخبار نهاراً، كما جرت العادة، ونفذت ما اقترحه في الحـال، وأخذت أضـع بعض العناوين والمقدمات للأخبار الداخلية والخارجية، وأكتب تعليقاً بسيطاً بين يوم وآخر، وكنت لا أعطي فرحتي لأحد، كما يقولون، وأنا أرى اسمي في نهـاية تعليق أو مقـال صغير في الصفحـات الداخليـة ولاحظ رئيس التحرير أنني أكتب بشكـل جيد وصحيـح وأن أسلوبي واضـح، وأنه من السهـل الممتنع، وهـو أسلوب يـرضى عنـه القـراء،

ويجدون فيه ضالتهم للوصول إلى المعنى المقصود دون عناء!!

... ولعل القرآن الكريم، وهو أعظم كتاب عند المسلمين، ولا يستطيع إنسان مهما كان أن يأتي بمثله أو بمثل آية واحدة منه،وهو المثل الأعلى في البيان والبلاغة والوضوح، تشرق آياته الكريمة كالشمس، وتدخل الأفئدة والقلوب كأنها السحر الحلال، مع غاية الكمال والجمال والأناقة في اللفظ والمعنى، كان سبيلي إلى معرفة كتابة الكلمة والمقالة''

. . وكانت تعقد بين أسبوع وآخر، لقاءات واجتماعات، يحضرها صاحب الجريدة كما يحضرها رئيس التحرير، والمحرر وأنا، وكانت تحدث خلال هذه اللقاءات والاجتماعات في مكتب الجريدة، طرائف كثيرة، كنت أضحك كثيراً لها، وأتعلم كثيراً منها، فقد كان صاحب الجريدة رجلاً طيباً، وكان يحلو له أن يثبت وجوده امام رئيس التحرير، وأن يظهر أمامه على أنه موسوعة في علم السياسة.. وقد سأله ذات مساء. (يا أبا أحمد شايفلك الحالة تُوتَرت كثيراً، (بضم التاء الأولى ومدها مع الواو.. وتخفيف التاء الثانيةَ وكسر الراء..)، ولا يكاد رئيس التحرير يسمع صاحب الجريدة وهو يقول ذلك، ولا يكاد يتبين خطأ ما يقول، حتى يضحك، ويحاول أن يخفي ضحكه، فلا يستطيع، ويتنبه صاحب الجريدة، ويحز ذلك في نفسه، لاسيما وهو صاحب الجريدة ومؤسسها وممولها، وله فضل علينا وعلى لحيتنا... ويقول لرئيس التحرير: (هل تضحك عليّ، يا أبا أحمد، صحيح أن معلوماتي على قدِّها، لكنني على كل حال، صرت صاحب أول جريدة يومية سياسية في حمص... وكلكم تعملون عندي، وأدفع لكم أجوركم من جيبي..) وكاد رئيس التحرير أن ينصرف غاضباً ويترك العمل في الحال، فقد ساءه هذا المنُّ والأذى، كأنما يتصدق صاحب الجريدة على العاملين عنده، وأولهم رئيس التحرير وكأنهم لا يعملون ليل نهار في سبيل ازدهار وتقدم وانتشار جريدته..، ولكن صاحب الجريدة تدارك الأمر قبل فواته، وطيب خاطر رئيس التحرير

وأخرج من جيبه«كدسة»من الأوراق المالية أعطاه بعضها ورد الباقي إلى جيبه، ورضي رئيس التحرير وانتهت هذه الأزمة العابرة''

... وكان أحد الجنرالات، قد برز اسمه في بعض المعارك التي خاضها الحلفاء ضد دول المحور الفاشية النازية، وكان يدعى «عمر برادلي» وكان اسمه يرد في الأخبار في تلك الفترة من الحرب، وخطر لأبي حسن، صاحب الجريدة أن يسأل رئيس التحرير (دخلك يا أبا أحمد، هذا الجنرال الذي اسمه «عمر برادعجي»... أليس من أصل عربي ومن دمشق الشام؟؟).

وفقعت مع رئيس التحرير، كما تقول العامة،ولم يعد يحتمل مزيداً من شطارة أبي حسن، فقام وأسرع يخرج من باب الجريدة، وهو يسابق الريح، ويقسم بالطلاق أن لا يعود إلى الجريدة ولو مات من الجوع... ويلحق به «أبو حسن» ويقبل رأسه ويرجوه أن يتحمله، لأن معلوماته على «قدّها»، ، ويعيده إلى المكتب، وهو يقبل عارضيه ''

... كان رئيس بلدية حمص،من عائلة أرستقراطية كبيرة، وكان ابن مفتي حمص، وكان الفرنسيون قد أسندوا إليه هذا المنصب الكبير، لأنه كان موالياً لهم، وكان يتكلم الفرنسية كأهلها، وكان مثقفاً ثقافة عالية، وقد طلب إليه صاحب الجريدة، أن يكتب كل أسبوع، على الأقل، مقالة افتتاحية يضعها له في صدر الصفحة الأولى ضمن إطار مزخرف، ووجد هذا الطلب هوى في نفس رئيس البلدية، لأنه كان يريد، بعد أن قام العهد الوطني، أن يصلح ما أفسده بسبب ولائه للفرنسيين، فوافق في الحال، واشترط بأن يصحح بيده مقالته لأنه يكره أن يقع فيها أي خطأ مطبعي، مهما كان، يغير من المعنى الذي أراده، وكانت الأخطاء المطبعية، كما هي يومئذ، وكما هي الآن وإلى آخر الزمان، كثيرة وفاحشة وتكاد لا تخلو منها جريدة ولا مجلة ولا مطبوعة ولا كتاب، لذلك فقد حرص رئيس البلدية هذا على تصحيح مقالته بيده، وكان يعود إليها ويصححها مرة ومرتين وثالثة ورابعة، ويحضر إلى الجريدة لهذه لغاية ويشرف بنفسه عليها، ولا يخرج إلّا

بعد أن يثق تماماً بأن العمال قد صححوا الأخطاء، ولم يتركوا خطيئة واحدة فيها، ولو كانت همزة فوق الألف أو تحتها أو في طرفها !!

... إلى أن كان ذلك اليوم الذي لا أنساه، لكثرة ما ضحكت فيه،إذ كتب رئيس البلدية مقالته الافتتاحية، وكانت على ما أذكر، تحت عنوان: (بحث في الحرية).. وقد أشرف على تصحيحها، خاصة هذه المرة، إشرافاً تاماً، وتابع التصحيح متابعة جادة، وانتظر حتى وضعت صفحات الجريدة على الآلة الطابعة، حيث راجع مقالته، ربما للمرة العاشرة، واطمأن إلى خلوها تماماً من كل خطيئة وشائبة، ثم مضى إلى شأنه، وهو يضع «البايپ» كعادته في طرف فمه، لتمام الأرستقراطية، ويسير كالأوزة، يكاد يخرق الأرض.. أو يبلغ الجبال طولاً !!

... وصدر العدد صباح ذلك اليوم المشهود، ووزع على القراء والمشتركين والباعة وانتشر في البلد، ثم تبين بعد فوات الأوان، أن رئيس البلدية نسي نقطة سوداء كبيرة وقحة تتربع بكل صفاقة فوق الحاء..!!!!

وضحك الناس كثيراً لهذه القصة، وعجبوا لهذا الخطأ المطبعي الفاحش، أما رئيس البلدية فقد جنّ جنونه، وأخذ «البايپ» يتراقص بين شفتيه من شدة الغضب !!

.... وفي مساء أحد الأيام، كنت أعمل كعادتي في مكتب الجريدة، وكنت أنقل نشرة الأخبار التي تذيعها القاهرة في الساعة العاشرة ليلاً، وبينما أنا كذلك، سمعت خبراً خطيراً جاء فيه أن رئيس الوزارة المصرية أحمد ماهر باشا قد أطلقت عليه النار بينما كان يهم بدخول مبنى البرلمان، وأنه نقل إلى المستشفى وحالته خطيرة، وانه قبض على الجاني في الحال، ولم تعد إذاعة القاهرة إلى ذكر الخبر !!

... وصرت أبحث عن إذاعة غير إذاعة القاهرة، وأدير مؤشر الراديو إلى عدة محطات، ولكن دون جدوى، واستبدت بي رغبة

جامحة لمعرفة تتمة الخبر ولنشره في الجريدة كاملاً، ومعرفة ما إذا كان أحمد ماهر باشا، قد مات في المستشفى، أو أنه ما يزال على قيد الحياة ''

.. وغادر صاحب الجريدة المكتب إلى داره، كما غادره رئيس التحرير إلى شأنه، وبقيت وحدي !!

.... كانت مصادر الأخبار في تلك الأيام، تعتمد على الإذاعات في أغلب الأوقات، ولم تكن لدينا في سورية وكالات أنباء، سوى وكالة الأنباء العربية، وهي بريطانية... ولم يكن لها فرع أو مراسل في حمص، وأخذ عمال المطبعة يتبرمون، ويطلبون إليّ أن أختم الجريدة وأنتهي منها، بعد أن بلغت الساعة الثانية صباحاً دون أن يذاع أي خبر عن حالة رئيس الوزارة المصرية، إلا أنني لاحظت أن إذاعة القاهرة قد ألغت سائر برامجها الاعتيادية، وأخذت تذيع تلاوة مباركة من آيات القرآن الكريم، وقد استنتجت من ذلك بأن رئيس الوزراء قد مات وشبع موتاً.. . ولولا ذلك لما كانت إذاعة القاهرة قد استبدلت برامجها المعتادة بهذه التلاوة المتصلة من أيات الذكر الحكيم، فجازفت بكل شيء. بعملي ومستقبلي في هذه الجريدة، وكتبت الخبر كما يلي: (القاهرة: توفي رئيس الوزراء المصري أحمد ماهر، متأثراً بجراحه التي أصيب بها عندما أطلق عليه شاب متحمس النار من مسدسه، وهو يهم بدخول مبنى البرلمان المصري، وسيشيع جثمانه في موكب رسمي مهيب قبل ظهر اليوم. وطلبت له الرحمة الواسعة... وأعطيت الخبر لعمال المطبعة فختموا به الجريدة التي أصبحت جاهزة تماماً للطبع والتوزيع''

.. وذهبت بعد أن انتهيت من عملي، إلى دارنا ونمت. وأنا خائف مما فعلت..

.. وفي صباح اليوم التالي، أيقظتني أمي وقالت لي: (ان صاحب الجريدة قد حضر لزيارتك وهو ينتظرك في الغرفة المجاورة... فسألتها وهل لاحظت شيئاً من الغضب في وجهه وتصرفاته؟؟ فقالت إنه في

غاية السرور، وقد سلم عليّ سلاماً طيباً، وأثنى عليك.!!

.. ودخلت عليه ورحبت به، وأنا أفرك عيني من آثار النوم، فأقبل عليّ معانقاً، وأخذ يشد على يدي ويشكرني وهو يقول لي: لقد انفردت جريدتنا عن الصحف كلها، حتى صحف بيروت ودمشق، بخبر وفاة رئيس الوزراء المصري، متأثراً بجراحه، فكيف استطعت أن تلتقط الخبر، رغم أن إذاعة القاهرة لم تذع خبر وفاته، وإنما قالت أنه نقل إلى المستشفى لإسعافه... فقلت له: هذا سر المهنة، يا أبا حسن... فقال: (دخيلك صرت تعرف سر المهنة.. والبيضة لم تكد تفقس عنك بعد..) فقلت له: (لقد عرفت أن الرجل قد مات وشبع موتاً، لسبب واحد، هو أن تلاوة القرآن الكريم من اذاعة القاهرة بدأت بعد إذاعة خبر اطلاق النار على الباشا، فقلت لا بد أن الرجل قد مات، لأن هذا بعض التقليد الذي درجت عليه الإذاعة المصرية، عندما يموت غيلة أو بصورة طبيعية، زعيم أو رئيس، وذلك قبل إعلان وفاته رسمياً !!

... ومد أبو حسن، رحمه الله، يده وأخرج من جيبه عشر ليرات سورية، مكافأة لي على نشاطي، وانصرف وهو يقول لي في شيء من الاعتزاز: (بَكِّر اليوم ولا تتأخر، الله يعطيك العافية !!)

.. وبعد انصرافه، سألت نفسي، وأنا ألومها: (بأي حق أنشر خبراً لا أثق بصحته؟ وهل هذه هي أمانة الصحفي الشريف، وماذا سيحدث لو أن رئيس الوزارة المصرية، رحمه الله، لم يمت من أثر الجرح التي أصيب بها، وبقي حياً يوماً أو يومين، أو شفي مثلاً من جراحه؟؟ وهل هذا السبق الصحفي الذي انفردت به يعتبر «خبطة» صحفية هائلة، على حد تعبير المغرمين بالخبطات من الصحفيين.. أم أنه «خبصة» صبيانية؟؟ ومن أين لي الحق في أن أجازف وأخاطر بسمعة جريدة ما أزال أعمل متمرناً فيها.. وهب أن الرجل لم يمت، فهل كان صاحب الجريدة أو رئيس التحرير، يرضيان عن هذا التصرف الذي قمت به، وهل كان صاحب الجريدة سيبقيني في عملي، رغم أنني لا أتقاضى أجراً عنه بعد.. وما يدريني لعله كان سيقذف

بي من باب الجريدة إلى الشارع، ويقذف ورائي سيلاً من اللعنات !!

... وندمت على ما فعلت، وما كل مرة بتسلم الجرة، كما تقول العامة، وإن كنت قد نجحت وسجلت سبقاً صحفياً فريداً من نوعه، نلت بسببه مكافأة قدرها عشر ليرات سورية، تساوي من ليرات هذه الأيام من ناحية القوة الشرائية أكثر من ألف ليرة !!

... وأذكر أن الجراد هاجم المدينة ذات صيف، وأتى على مواسم القمح والحبوب حتى أصبحت المساحات الكبيرة التي تغص بسنابل القمح، كالعصف المأكول، لم يترك الجراد فيها سنبلة ولا حبة على سوقها إلا وأكلها !!

.. ولم يجد الناس وسيلة لمكافحته، غير الخروج إلى ظاهر المدينة وإلى الحقول وهم يحملون صفائح فارغة من التنك يضربون عليها بأكفهم، ويخيفون الجراد بها... قائلين (إجاك السمرمر يا جراد.. إجاك السمرمر يا جراد...) ويظنون لجهلهم أنه سيسمعهم وسيهرب منهم ومن السمرمر.. وهو طائر معروف وعدو للجراد ينقض عليه ويلتهمه... ولكن الجراد، وهو حشرة ضارة لا تفهم ما يقوله الناس، وأنّى لها أن تفهم، وكيف تفزع من قرع صفائح التنك، وإذا فرضنا أن الناس يحاولون جمع بعض هذا الجراد في صفائح التنك هذه بعد أن يقرعوا بأيديهم عليها، ويصرخوا في وجه الجراد، فكيف يستطيعون جمعه واحتواءه فيها، وهو الذي يملأ الأفق ويحجب وجه الشمس عنا، ويقضي على الحقول المزروعة التي تغص بمختلف أنواع الحبوب، ويأتي عليها كلها في طرفة عين ؟؟

... وكتبت كلمة في الجريدة، حول غزو الجراد لبلادنا في ذلك الصيف، وفي غيره،وقلت بوجوب استخدام الوسائل العلمية لإبادة ومكافحة هذه الحشرة الضارة والقضاء عليها، ولكن أحداً لم يسمع يومئذٍ ما قلت، لأن الاستعمار كان ما يزال جاثماً فوق صدورنا، ولم يرحل عن بلادنا بعد.. والاستعمار ليس أقل خطراً، على الشعوب، من الجراد.. بل ربما كان أشد خطراً منه !!

... وكسفت الشمس، ذات نهار، وخرج الناس زرافات ووحداناً، وهم يحملون صفائح التنك الفارغة ويضربون عليها بالأكف والعصي، ظناً منهم أن الحوت الذي أكل الشمس، ويكاد يبتلعها عن بكرة أبيها، سوف يخاف من صوت القرع على الصفائح، فيقذف الشمس من فمه، ويولي الأدبار، ولكن لا يدري أحد إلى أين، ومن أين جاء الحوت.. وكيف طار من البحر إلى كبد السماء، ووصل إلى الشمس وأكلها وابتلعها وغصّ بها !!

... ولما انتهى الكسوف، كان الحوت قد هرب، وانتصرنا عليه وعادت إلينا الشمس صحيحة كاملة مدورة كالرغيف لا ينقص منها شيء !!

.. وأشرت إلى هذه الظاهرة الطبيعية المتصلة بعلم الفلك، في كلمة نشرتها في الجريدة، وجربت أن أكون ساخراً فيما كتبت حول ابتلاع الحوت للشمس ومن أين وصل إليها وكيف، وربما نجحت في عرض هذا الموضوع، في أسلوب ممتع ظريف خفيف الدم (ومادح نفسه يقرئكم السلام !!)

.. وأشرت إلى هذه الظاهرة الصوتية عندنا، نحن العرب، والتي تدل على التخلف والجهل، فرفع الصوت وإثارة الضجة والصخب والقرع على صفائح التنك والصراخ، ظاهرة بدائية أو بدوية، كما يجب أن تسمى، رافقتنا منذ عهد الجاهلية الأولى، عندما كنا نحرض على الغزو والأخذ بالثأر وإعلان الحرب، أو عندما نريد أن نؤكد باطلاً بواسطة الصراخ، نعلو فيه على الحق، أو عندما نريد أن ننتصر لرأي لا نؤمن به حقاً، ونحاول أن نرهب الناس بالضجيج والصراخ، ليؤمنوا به... بل اننا نستخدم الصراخ لإبعاد الجراد عن حقولنا، والحوت عن الشمس الساطعة في كبد السماء... كما نحاول أن نشوه الحقيقة ونهبط بها من مكانها، بواسطة الصراخ والضجة والانفعال، ويبدو أن هذه الظاهرة الصوتية ستظل ترافقنا لا نستطيع الفكاك أو الخلاص منها، ما لم نبلغ درجة من الحضارة، نستطيع معها أن

نطرح هذه الظاهرة الصوتية الخطرة جانباً، ونعتمد اعتماداً كلياً وتاماً على العلم والعقل والحرية والديمقراطية وعلى الحوار الهادئ في كل أمورنا!!

.. وبدأت أنعم بشيء من الشهرة، ولو على نطاق محلي محدود وضيق، ومع ذلك فقد كنت زاهداً تماماً في الشهرة، وكنت لا أحبها ولا أطيقها، وأحس من أعماقي أنها مرهقة ومتعبة وتسبب لصاحبها كثيراً من المشقة والعناء والضيق والحرج خاصة وأن هذه الشهرة التي أصبتها في عملي الصحفي المتواضع هذا، كانت مشوبة بحملة من النقد والتجريح من أولئك الذين عرفوني إماماً ورجل دين يلبس عمّة بيضاء وجبّة سوداء، ويصلي بالناس الصلوات الخمس في الجامع الكبير، ويخطب لصلاة الجمعة، ويفتي الناس في شؤون دينهم، فإذا بهم يجدونني وقد أصبحت «جرنالجياً»، على لغة إخوتنا أهل مصر، وصحفياً على لغتنا، وأنني صرت أكتب في شؤون السياسة، فلم يعجبهم هذا التحول من الدين إلى الدنيا مرة واحدة... وكنت أمر بهؤلاء الذين ساءهم انتقالي وتحولي من المشيخة والإمامة إلى الصحافة والسياسة، فلا أحفل بهم ولا ألقي إليهم بالاً.. وحسبي أنني عرفت نفسي، وعرفت طريقي، من خلال الكلمة الحرة الشجاعة، والإيمان العميق الذي لا يتزعزع، بالحرية والديمقراطية وشرف الكلمة، وبهذا الوطن وهذا الشعب وهذه الأمة التي تقاوم الاستعمار، وتصر على انتزاع النصر بالقوة من مخالب وأنياب الفرنسيين الباغين والحمقى والطغاة والظالمين!!

... وقد بارك أبي الشيخ الإمام ورجل الدين،عملي وشجعني على الاستمرار فيه، أما أمي، فقد كانت، والحق يقال، خائفة عليّ من الصحافة والسياسة، كأن قلب الأم يكشف أستار المستقبل والغيب، وكانت لشدة خوفها عليّ، وهي تراني أملأ المدينة حماسة ونشاطاً وسعياً وراء الحدث والخبر، ترفع كفيها إلى السماء وتدعو لي ضارعة، قائلة بالحرف الواحد: (روح يا ابني، يا عدنان، الله يبعد عنك الحكام والظُّلّام وأولاد الحرام !!)

... كنت إذا مررت بقهوة «بَخَّاشْ» في طريقي إلى الدار، بعد انتهاء عملي في الجريدة، أرى أهل الحي يتجمعون عند باب القهوة وهم يستمعون إلى نشرات الأخبار من الراديو عن آخر المعارك في هذه الحرب العالمية التي توشك على الانتهاء!!

... ويتقدم مني «بَخَّاشْ» صاحب القهوة، والحاج علي المظلوم صاحب دكان الحمص والفول، والشيخ حيدر بائع الحلاوة بالجبن، وأبو مرعي الفلاح الشاب البائس والجائع والمفلس وغيرهم، وينهالون عليّ بالأسئلة، ويقولون لي: (ترى هل ستتخلص الشعوب بعد الإنتصار على النازية والفاشية في هذه الحرب من الاستعمار، وهل ستقرر الشعوب مصيرها بأيديها، ويكون هذا الحق ملكاً لها، لا يساومها عليه أحد، وهل ستفي هذه الدول التي خاضت غمار هذه الحرب، ضد النازية والفاشية وانتصرت فيها، بعهودها التي تقطعها للشعوب بمنحها حريتها وسيادتها واستقلالها، وهل تكون شعاراتها التي تطلقها كل يوم من أجل أن تسود الحرية ويسود السلام في العالم بعد القضاء على النازية والفاشية، حقيقة واقعة، أم ستتحول إلى فقاعات صابون تتلاشى في الهواء... وهل ستنال بلادنا والبلدانَ المُسْتَعْمَرَة الأخرى استقلالها؟؟) ...

... وقلت لهم: (الحقيقة أنه من السابق لأوانه الآن الحديث في تفاصيل ذلك، أو الإجابة على كل هذه الأسئلة، ولكن من المؤكد أن الاتحاد السوفياتي سيحمل راضياً مختاراً بطبيعة الحال، مسؤولية كبرى تجاه الشعوب والحرية والسلام والتقدم في العالم، ولا بد أنكم تلاحظون الآن، أن فرنسا التي تحررت منذ قليل من الاحتلال النازي لبلادها، تصرّ على أن تستمر في احتلال واستعمار بلادنا وغيرها من البلدان الأخرى، وتحاول أن تمارس سلطاتها الاستعمارية ضدنا، ولم تشأ أن تأخذ درساً مما وقع لها على يد المانيا النازية الفاشية، لأن طبيعة الاستعمار أنه لا يستفيد من دروس وعبر التاريخ، وفي ظني أن الولايات المتحدة الأميركية، التي لم تخض غمار هذه الحرب

إلا من بعيد، ولم تصب بأذى، سوف تنتزع زعامة الاستعمار القديم، وتقيم على أنقاضه استعماراً عالمياً جديداً بقيادتها من أجل العدوان على السلام والشعوب وتسعير نار الحروب، والتهديد كل يوم بالتدخل في شؤون الدول التي ترفض السير في ركابها وفتح بلادها لها وتمكينها من النفوذ إلى داخلها !!)...

... ونظر هؤلاء الاخوة البسطاء، أبناء حارتنا «جورة الشياح» إليّ ملياً وفكروا كثيراً فيما قلت، رغم أنني لم أقل في الحقيقة، شيئاً يستحق الذكر !!

.. وغداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدأت أفكر في كثير من التصميم والجد، بالانتقال إلى دمشق والعمل في صحافتها الوطنية، خاصة وأن البلاد مقبلة على معركة حاسمة ضد الاستعمار الفرنسي !!

... وبينما كنت في مكتب الجريدة، أخطط في ذهني لهذا الحلم الكبير، إذ بصبية صغيرة أنيقة في مثل سني وتبدو عليها آثار النعمة والترف والثراء، تمر من أمام الجريدة، وتنظر إليّ في حياء وتبتسم، وسألت عنها وعرفت أنها ابنة أحد سكان حينا، عرف بالدماثة وحسن المعاملة والخلق الكريم، وكانت الصبية طالبة في إحدى المدارس الخاصة، وكانت مثقفة وصادقة مع نفسها ومتحررة وشجاعة لم تجد حرجاً، وقد أعجبت بي، في أن تحضر مع أمها الطيبة إلى دارنا لتخطبني من أمي، بدلاً من أن تذهب أمي، كما تقضي التقاليد عندنا، إلى أهلها لتخطبها لي !!

.. ومع ذلك،فقد ابتعدت عنها ولم أقترب منها دون أن أعرف سبباً معقولاً لتصرفي الغريب حيالها، مع أنني ملت كثيراً إليها، وأعجبت بها، ولعل التفسير المعقول لهذا كله، هو أنني لم أكن يومئذٍ في سن تؤهلني للزواج، ولا في ظروف تشجعني على الاقدام على مثل هذه الخطوة المصيرية، لاسيما وقد شغلتني هذه الصحافة والجنية الشقية، عن كل ماعداها، ولم أعد أهوى أو أحب سواها !!

.. وأذكر أن آخر ما نشرته وكتبتـه في جريـدة «التوفيق»، قبـل أن أتـرك العمل فيهـا وأنتقل إلى دمشق للعمـل في صحافتهـا، كـان عن «خميس الأموات» وحلاوة «المَحْيَا»، وتوزيع هذه الحـلاوة الحمصية، ذات الأشكال والألوان، على الفقراء والقراء على الأمـوات في المقابـر، إذ لم أجد، والناس يشترون هذه الحلاوة ويأكلونها أو يوزعونهـا على زوار القبـور وعلى قـراء القرآن فيهـا، ما يحقق لـلأمـوات شيئـاً من حلاوتها، فهم، يرحمهم الله، قد أصبحوا تـراباً ورفـاتاً، فـلا يحسون بشيء، ولا يذوقون من حلاوة هذه الحلاوة شيئاً» ولا يصيبهم منها ما يجعل «خميس الأموات» ذا معنى، ولكن أهـل حمص، حمَّصها اللـه، أرادوا أن يرشوا على الموت سُكَّراً.. كما يقول المثل!!!

... وماذا ينفع الأموات، كل حلاوة حمص، إذا كانوا قد تجـرعوا كأس المنية، وهي أشد مرارة من الصاب والعلقم؟؟؟

* * * * *

١٢

... حاول «بَخَّاشْ» صاحب القهوة في حي «جورة الشياح»، ذات يوم، وكان ذلك في أوائل شهر أيار (مايو) ١٩٤٥، أن يعثر على إذاعة برلين أو أنقرة وهو يدير مؤشر الراديو على كل الجهات، فلم يفلح، ثم عثر على إذاعة لندن باللغة العربية، وسمع أن إذاعتي برلين وأنقرة قد توقفتا عن البث، وأن المانيا النازية المنهزمة قد استسلمت للقوات السوفياتية، وكانت القوات الغربية الحليفة قد أسرعت من جهة الغرب، لتشارك في عملية استسلام المانيا النازية على يد القوات السوفياتية !!

... بعد ذلك بأيام، وبعد أن اختمرت فكرة انتقالي إلى دمشق والعمل في صحافتها، سافرت إليها وأنا لا أملك من زاد السفر شيئاً، ولم ألبث أن وجدت عملاً في صحافتها الوطنية، وأخذت ألتمس الأخبار وأبحث عنها، وهي كثيرة وخطيرة في تلك المرحلة المشهورة من تاريخ سورية، فقد كانت الحكومة الوطنية تنتزع السلطات من أيدي الفرنسيين انتزاعاً، وكانت الأحداث التي تمر بها دمشق في تلك الفترة تتلاحق وهي تلهث وأنا ألهث وراءها، وكانت الحكومة الوطنية تعمل خلالها لاستكمال أسباب السيادة والاستقلال، وكانت تقابل من قبل الفرنسيين بالتعنت والمراوغة والكذب ومحاولة التهرب من التسليم بحق سورية في تولي أمورها بنفسها تمهيداً لاستقلالها وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها... وزاد الفرنسيون من رعونتهم وحمقهم وجنونهم وكيدهم وحقدهم، خاصة بعد تحرير بلادهم والدول التي كانت تحتلها المانيا النازية الفاشية وبعد الانتصار على قوى الشر والعدوان وانتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد احتفل الفرنسيون بأعياد النصر الذي لم يكن لهم فيه يد ولا دور ولا نصيب كبير، على طريقتهم في عرض عضلاتهم أمام شعبنا، وأخذوا يتحرشون بنا.

ليقولوا لنا إنهم مازالوا أقوياء، وأنهم سيظلون على موقفهم وسياستهم الاستعمارية في بلادنا، وأننا يجب أن نفهم أن فرنسا ستظل في سورية، ولن تخرج منها، وهكذا نرى طبيعة الاستعمار والاستعباد والاستبداد، وطبيعة الدول الاستعمارية، فهي تخوض الحروب باسم الدفاع عن الحرية، وهي أول من يعتدي عليها ويستعمر الشعوب باسمها !!

..... ووقعت اعتداءات وحشية من قبل الفرنسيين ضد شعبنا، خلال الاحتفالات بالنصر، وجرت اصطدامات متفرقة بين الفرنسيين والمواطنين، وبدأت فرنسا تستعد للعدوان على سورية، وهي تظن أنها قادرة على ضرب الإرادة الوطنية في سورية والوقوف في وجه الشعب السوري الذي يتمسك بمطالبه الوطنية العادلة ويصر على تحقيق الاستقلال والجلاء والسيادة التامة، دون قيد أو شرط !!

... واشتدت الأزمة وتفاقمت بين الحكومة الوطنية والسلطة الفرنسية التي تميزت في هذه الفترة خاصة، أكثر من كل مرة، بالغرور والوقاحة والغطرسة، وحاولت أكثر من مرة اصطناع سبب للعدوان على الشعب السوري، وصارت تنتهز الفرصة لذلك، وظنت أنها ستعيد ما فقدته من هيبتها إبان احتلال النازيين الفاشيين لبلادها !!

... وكانت بريطانيا تحتل فلسطين، وخلال الحرب العالمية الثانية أقامت مقراً لها في دمشق لضرورات الحرب، حيث كانت قواتها تنتقل بين فلسطين والأردن والعراق وسورية ولبنان، وتقوم بمناورات وتحركات وتنقلات عسكرية، حسب ظروف الحرب وسير وتطور المعارك التي تخوضها، ولم تحرك القيادة البريطانية ساكناً، أمام تصرفات الفرنسيين الحمقى وتحرشاتهم المتكررة وإساءاتهم البالغة، ومحاولاتهم إثارتنا وإفهامنا أن فرنسا قوية، وأنها عادت أقوى مما كانت، لتبقى في سورية وفي غيرها من البلدان التي تحتلها، وأنها ستستمر في استعبادها لها !!

... ووقفت الحكومة الوطنية، والحق يقال، وقفة شجاعة، ولم تستسلم لكل هذه التحرشات والضغوط الفرنسية. بل أعدت عدتها للتغلب عليها والحاق الهزيمة بها، فقامت، بمساعيها الطيبة والحثيثة والناجحة، لدى الاتحاد السوفياتي، من أجل تأييد سورية في نضالها ضد الاستعمار الفرنسي ومن أجل الاستقلال والحرية وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، انطلاقاً من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ومن شرعة وميثاق الأمم المتحدة، وقد أصبحت سورية عضواً فيها، وهي الهيئة الدولية التي قامت في هذه الفترة، كثمرة من ثمرات الانتصار على النازية والفاشية، وكمحاولة لاعطاء الشعوب حريتها واستقلالها، ولردع الاستعمار وقصّ أجنحته وعدم السماح له بالتمادي في جرائمه، ومنعه من الاستمرار في خنق إرادة الشعوب واحتلال أراضيها بالقوة !!

... وكان هذا التحرك الدبلوماسي النشط، وقد شهدت بنفسي دقائقه وتفاصيله ووقائعه، والذي قامت به الحكومة الوطنية، قد استأثر فعلاً باهتمام وتأييد الاتحاد السوفياتي الدولة الكبرى التي ظهرت إلى العالم بعد انتصارها الكبير على النازية والفاشية وانتهاء الحرب العالمية الثانية وقيام هيئة الأمم المتحدة، التي ينبغي أن تثبت وجودها وتؤكد الأهداف والمبادىء الكريمة التي قامت من أجلها، حتى لا تلحق بسابقتها عصبة الأمم، ويصبح وجودها كعدمه !!

... كانت هذه المعركة التي تخوضها الحكومة الوطنية في سورية ضد الاستعمار الفرنسي وضد وجود القوات الأجنبية في أراضيها، أول معركة صحفية وطنية أخوضها بكل ما أملك من شباب وحماسة، مع شعبنا الطيب والباسل، وعاصرت هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ سورية والتي سبقت وقوع العدوان الفرنسي في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٥، وكذلك الأحداث التي أعقبت هذا العدوان الغادر والوحشي، وعشت تلك الأيام التاريخية، بروحي وقلبي وقلمي وأعصابي، وكنت خلالها، ولا أقول أكثر من ذلك، الكاتب والصحفي الوطني، فإذا

كتبت عنها، وعن غيرها بعدها، وعن كل الأحداث التي مرت بها سورية بعد ذلك وإلى سنوات طويلة، فإنما أكتبها بدم القلب ومداد الصدق وفيض الوجدان !!

... وركزت الحكومة الوطنية نشاطها السياسي والدبلوماسي في الدرجة الأولى على الاتحاد السوفياتي، ورغبت إلى الوزير المفوض السوفياتي «سولود» أن ينقل إلى حكومته في الحال، آمال الشعب السوري، في وفاء الاتحاد السوفياتي لمبادئه التي قاتل في سبيل الدفاع عنها وانتصر من أجلها، وأن تبادر حكومة الاتحاد السوفياتي إلى تأييد الشعب السوري في مطالبه العادلة لنيل الاستقلال الوطني وتحقيق جلاء القوات الأجنبية عن أراضيه، فما كان من الحكومة السوفياتية، إلا أن بادرت على الفور بإبلاغ الحكومة السورية تأييدها المطلق وغير المحدود ولا المقيد بأي قيد أو شرط، لنضال الشعب السوري ولمواقف الحكومة السورية، من أجل تحقيق الاستقلال والجلاء، وأنها ستبذل في الحال قصارى جهدها، وتتصل بحلفائها الذين قاتلوا معها في الحرب العالمية الثانية، وتبلغهم موقفها الثابت في الانتصار لسورية من أجل الاستقلال، وأنها لن تسمح قط بأن يجرب الاستعمار الفرنسي العودة إلى أساليبه وألاعيبه القديمة ضد الشعب السوري !!

... وكانت هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ سورية، فرصتي الذهبية للقيام بنشاطي وعملي الصحفي والوطني وبدوري في هذه المرحلة الخطيرة، ولأثبت كفاءتي وسرعة تحركي في متابعة الأخبار والأحداث، خاصة بعد أن ظهرت نوايا السلطة الفرنسية للعدوان على سورية، والاعداد والتخطيط لهذا العدوان !!

... كنت أنهض صباحاً من فراشي في غرفتي المتواضعة التي استأجرتها عند مدام فيكتوريا في عرنوس، ولا أتناول شيئاً من الطعام، كما تعود الناس أن يفعلوا كل صباح، وإنما ألبس ثيابي على عجل، وأسرع إلى العمل والتنقل بين مكتب الجريدة التي أعمل فيها

وبين وزارة الخارجية في أول «أبي رمانة» والتي كانت تشبه خليّة النحل لا تهدأ في تلك الفترة، وكانت الاتصالات مستمرة ليل نهار بينها وبين بعض العواصم والدول العربية والأجنبية، وخاصة مع الاتحاد السوفياتي الذي أسرع في الحال وبرَّ بكل وعوده، ووفى بكل عهوده، كما سأتحدث بالتفصيل عن ذلك بعدقليل، وبين قصر الرئاسة في المهاجرين ورئاسة مجلس الوزراء على ضفة بردى، ومجلس النواب في طريق الصالحية وفندق الشرق (الأوريان بالاس) والذي كان أهم مركز للنشاط السياسي، نظراً لإقامة عدد من الرؤساء والوزراء والنواب فيه، وأكثرهم من المحافظات والمناطق، وأخذت أتابع الأحداث المتلاحقة المتسارعة التي تشهدها البلاد، وأجري وراءها وكأنني في سباق معها، وكنت أشعر بكل صدق، بأنني أخوض كسائر أبناء الشعب، معركة فاصلة وحاسمة في تاريخ بلادي، وكنت أحس بالسعادة تغمر قلبي وروحي وكياني وأنا أرى شعبنا الباسل المناضل وحكومته الوطنية الوليدة والجديدة، يواجهان العدوان الفرنسي المبيت على سورية، وأرى الوزير المفوض السوفياتي السيد سولود، يتحرك بسرعة ويتصل بحكومته ويبذل أقصى جهده من أجل أن يأتي الدعم السوفياتي لحقنا متفقاً تماماً مع أهداف شعبنا !!

... كان الوزير السوفياتي المفوض السيد سولود، في نحو الخامسة والأربعين من عمره، كما أظن، وكان في نشاطه واتصالاته مع حكومته في موسكو، والحكومة الوطنية في دمشق، يقوم بعمل وجهد متصل لمصلحة سورية، ولخير شعبها، وكان بادي الحماسة والصدق، وكان يسرع كل يوم للاتصال بحكومته وابلاغها أفكار وآراء ورغبات الحكومة السورية، وقد أبلغ سولود وزارة الخارجية في دمشق، أن حكومته بادرت إلى الاتصال برئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل، باعتباره المسؤول عن القوات الحليفة، البريطانية والفرنسية، الموجودة في فلسطين ومصر والأردن والعراق وسورية ولبنان، وتحذيره من مغبة حماقات وتصرفات القوات الفرنسية،

ولمنعها من ارتكاب أي عدوان ضد سورية، وأن الحكومة السوفياتية سوف ترد على ذلك بصورة حاسمة وقوية، إذا لم تبادر الحكومة البريطانية إلى لجم القوات الفرنسية ومنعها من التمادي في غيّها، لكن الفرنسيين الحمقى، كعادة المستعمرين، فاجأوا العالم بعدوانهم المجرم على سورية ظهيرة يوم ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٥ وصبوا جام حقدهم وكيدهم ونارهم على دمشق، وكنت في تلك الساعة في دار الحكومة، وفيها مقر رئاسة مجلس الوزراء، وجاء رجال الدرك الذين يقومون بالحراسة، وأخبروا أمين عام رئاسة الوزراء بأن قنابل الفرنسيين، تسقط على حي«سوق ساروجة»القريب، وهو حي شعبي عريق، وأن القوات الفرنسية تتقدم بعد أن مهدت بسيل من القنابل والرصاص من جهة شارع جمال باشا، وربما وصلت إلى ساحة المرجة، أي ساحة الشهداء، وربما كان في نيتها الوصول إلى دار الحكومة واحتلالها، والقبض على رئيس الوزراء بالوكالة وزير الخارجية السيد جميل مردم بك، الذي أسرع وغادر مكتبه وقصد قصر الرئاسة في المهاجرين، ومن هناك قصد مكتبه في وزارة الخارجية، بعد أن تشاور مع رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي في الأمور العاجلة التي ينبغي اتخاذ القرارات اللازمة بشأنها، وفي طليعتها إبلاغ رئيس الوفد السوري في مجلس الأمن الدولي العلامة الأستاذ فارس الخوري، رئيس مجلس الوزراء والذي كان قد غادر دمشق قبل أيام لعرض قضية سورية على الأمم المتحدة والمطالبة بحق سورية في الاستقلال والسيادة وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، لضم الشكوى السورية من العدوان الفرنسي إلى ملف القضية السورية برمتها والمعروضة أمام مجلس الأمن.

.. وقد اتصل السيد جميل مردم بك بالوزير المفوض السوفياتي السيد سولود ودعاه إليه، حيث طلب منه إبلاغ الحكومة السوفياتية بتفاصيل العدوان الفرنسي ووجوب قيام الحكومة السوفياتية بوقف هذا العدوان الغاشم في الحال، وفي الليل عاد السيد سولود ليبلغ

السيد جميل مردم بك، وكان ما يزال في مكتبه في وزارة الخارجية، بأنه تلقى من حكومته السوفياتية رسمياً، أنها تدخلت في الحال لوقف العدوان الفرنسي على سورية وذلك في اتصال رسمي عاجل برئيس الحكومة البريطانية السيد ونستون تشرشل، طالبة إليه وجوب توجيه أمره في الحال، إلى القيادة البريطانية في الشرق للتدخل ووقف العدوان الفرنسي على سورية، وإلا فإن الاتحاد السوفياتي يرى نفسه ملزماً بالتدخل لوقف العدوان الفرنسي على سورية في الحال !!

.. واستجاب رئيس الحكومة البريطانية، لطلب المارشال ستالين، ووجه أمره إلى قيادة القوات البريطانية في الشرق، بالتدخل ووقف العدوان الفرنسي، والحجر على القوات الفرنسية المعتدية في ثكناتها وتجريدها من سلاحها وتطويقها من قبل القوات البريطانية وعدم السماح لها بالتحرك أو الخروج من جحورها !!

... وتحملت القوات الفرنسية المعتدية ذلك الأمر وأنفها راغم في التراب واختفت ولم يعد يظهر لها أثر، خاصة وأنها تلقت هذه الصفعة القوية والمدوية من حليفتها بريطانيا التي اضطرت هي الأخرى لاتخاذ هذا الموقف الصلب منها، نتيجة الانذار السوفياتي النهائي والحاسم ونتيجة المقاومة الوطنية الباسلة التي ظهرت من شعبنا وبرزت بشكل رائع في دمشق وفي أنحاء سورية الصابرة والمناضلة !!

... كان الفرنسيون في بداية عدوانهم على سورية، قد قرروا إحراق دمشق وقتل أكبر عدد ممكن من أهلها، بقنابلهم الحارقة والمدمرة التي أطلقوها من مدافعهم في ثكناتهم الواقعة إلى الغرب من تكية السلطان سليم ومستشفى الغرباء، كما كان يسمى، وعندما بدأوا عدوانهم ظهيرة يوم ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٥، قطعوا كل اتصال هاتفي وبرقي بسورية، وكان الهاتف يدوياً يومئذ، وكانوا يريدون قطع كل اتصال للحكومة الوطنية بالخارج، وحتى لا تتسرب أخبار عدوانهم إلى وكالات الأنباء العالمية، وفي ظنهم أنهم إذ يفعلون ذلك

يحولون بين التدخل المباشر لوقف العدوان، خاصة من قبل الاتحاد السوفياتي، وبين التنديد العالمي بجريمتهم حتى لا يثيروا ثائرة الشعوب والأمم عليهم، ولكنهم كانوا أغبياء جداً في تصورهم وظنهم، فقد كانت الحكومة الوطنية، قد علمت من مصادرها الخاصة بنوايا فرنسا للعدوان على سورية، وأنها تحضر لذلك بتخطيط من الكولونيل أوليفا روجيه الذي كان يقيم في دار المندوبية الفرنسية، مقابل مجلس النواب، وكان يدير من مقره هناك، هذه المؤامرة السوداء !!

. كان فندق الشرق «أوريان بالاس» قد طوقته القوات الفرنسية التي امتدت من ثكنات الحميدية غرباً إلى ساحة محطة الحجاز قرب الفندق واستولت على دوائر الهاتف والبريد، واتخذت من الشوارع والساحات المحيطة بها مراكز عسكرية لها، وكان السيد سعد الله الجابري، رئيساً لمجلس النواب ويقيم في فندق الشرق، وقد حاول أن يتصل بالهاتف ليتحدث مع الرئيس شكري القوتلي، ولكن موظف الهاتف «السنترال» أجابه بغلظة، أن رؤساءه منعوا وأوقفوا الاتصال الهاتفي، وأغلق الخط في وجهه، ونظر السيد سعد الله الجابري، في دهشة إلى سماعة الهاتف.. ثم ألقى بها في مكانها، وهو يضحك!!

.. ولم يستطع السيد سعد الله الجابري، الخروج من الفندق، فأرسل أمين رئاسة مجلس الوزراء، وكان عنده في الفندق إلى وزارة الخارجية في محاولة لتأمين سفره إلى القاهرة، لدعوة مجلس الجامعة العربية، التي قامت حديثاً، لعقد اجتماع طارىء لبحث قضية سورية ولدعم موقفها وتأييدها في مواجهة الاستعمار الفرنسي والخلاص منه، واستطاع أمين رئاسة مجلس الوزراء، وهو الدكتور أنور حاتم، أن يتسلل من الفندق ويصل إلى وزارة الخارجية حيث اجتمع إلى السيد جميل مردم بك رئيس الوزراء بالوكالة وزير الخارجية وعاد بعد ساعة إلى الفندق ليبلغ السيد سعد الله الجابري، أن الصديق السيد سولود الوزير السوفياتي المفوض، سيحضر مع غبطة بطريرك روسيا وانطاكية وسائر المشرق السيد اليكسي الذي كان في زيارة لدمشق، إلى

الفندق ليصطحباه معهما في سيارة السفارة السوفياتية إلى بيروت حيث يسافر منها إلى القاهرة، وأن الاتصال قد تم لاستقباله في مطار القاهرة ولعقد مجلس الجامعة العربية غداة وصوله !!

... وكنت أقف بجانب السيد سعد الله الجابري في صالون الفندق، وكان يقف حوله عدد من طلاب الجامعة الذين تطوعوا للدفاع عن دمشق ضدّ العدوان الفرنسي وكانوا يلبسون لباس الدرك، ولكن بدون سلاح... وكان الفندق في تلك الساعة قد أصيب بقنبلة اخترقت جداره الغربي وأصابت رجلاً أجنبياً كان بين نزلاء الفندق وكان ثملاً، يقهقه ويضحك ويصرخ ويضرب كفاً بكف، عندما أصابته القنبلة، وقتلته في الحال !!

.. وسمعت ضجة وقعقعة سلاح قريباً من الفندق، ونظرت فإذا ضابط فرنسي شاب يصرخ بجنوده السنغال، بأن لا يطلقوا النار على سيارة سوداء كانت قادمة بسرعة من شارع جمال باشا، وعلى ساريتها من الأمام علم أحمر كبير تعلوه في طرفه مطرقة ومنجل بلون الذهب، وهما في عناق، ويقول الضابط الفرنسي لجنوده، والسيارة تقف عند باب الفندق، ان هذا العلم هو علم الدولة الكبرى التي ظهرت إلى العالم خاصة بعد انتصارها العظيم في الحرب العالمية الثانية، على المانيا النازية والفاشية، وينزل غبطة بطريرك روسيا وانطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس رئيس الكنيسة الروسية، وينزل معه السيد سولود، من السيارة، ويدخلان الفندق، ويتلقاهما السيد سعد الله الجابري بالترحيب وقد وضع نظارات سوداء على عينيه، ووضع على رأسه قبعة أجنبية «كسكيت» بدلت ملامحه تماماً، فقلت له وأنا أضحك: (يا سيدي، إنك تشبه في هذا اللباس، اليهودي شيلوخ).. ولم يعجبه التشبيه،ولكنه ضحك على مضض، ومضى معهما حيث خرجوا من الفندق وركبوا السيارة التي انطلقت بهم نحو طريق بيروت في سلام !

.. وأذكر أنني مررت صباح يوم العدوان الفرنسي بدار البرلمان،

ورأيت صديقي ورفيقي وابن بلدي الضابط في الدرك محمد طيب شريك، يسير أمام مبنى البرلمان وفيه عدد من جنوده، وكان بادي الانفعال والهياج، ممتقع الوجه وقال لي، وكأنه يودعني إلى الأبد: (اذهب، يا عدنان، ولا تقف طويلاً. فالفرنسيون على وشك أن يهاجموا البرلمان ويفتكوا بنا، وهم يستعدون لذلك بين لحظة وأخرى، وكان طيب شريك يتولى حراسة البرلمان مع عدد من رجال الدرك والشرطة، ولم أكد أودعه وأشد على يده وأمضي في طريقي حتى كان الكولونيل اوليفا روجيه وهو جالس قرب نافذة غرفته في دار المندوبية قبالة البرلمان، قد أمر الجنود السنغال بمهاجمة دار البرلمان، بالبلطات والسواطير والمدى والسكاكين والفؤوس فأعملوا ذبحاً وتقتيلاً برجال الدرك والشرطة، وأحرقوا جانباً من دار البرلمان، ودمروا القاعات، وحملوا جثث شهدائنا في سيارات عسكرية شاحنة، بعد أن قطعوها إرباً إرباً ومثلوا بها كالوحوش، وكان بين الشهداء صديقي ورفيقي وابن بلدي الضابط الشاب محمد طيب شريك الذي لا أنساه !!

... وكانت دمشق، في ذلك اليوم الأسود، تنز بالجراح، ويتصاعد الدخان الأسود في سمائها، ويعيث الفرنسيون وجنودهم المرتزقة فساداً فيها، ولكني كنت أرى وجوه الفرنسيين وجنودهم، وعليها علامات الخوف والذعر، كأنما كانوا يخشون أن يطوقهم ويفتك بهم رجال المقاومة الوطنية، الذين كانوا قد انطلقوا في بعض أحياء دمشق بما تيسر لهم من أسلحة خفيفة، للبحث عن الفرنسيين وجنودهم وقتلهم والاجهاز عليهم، وقد رأيت كيف أن أحد الجنود المرتزقة كان يقف عند زاوية المستشفى الايطالي على الطريق بين«عرنوس»و«بستان الرئيس»،وهو يطلق النار على كل من يمر بهذا الطريق وكيف كان يصطاد المواطنين أثناء مرورهم وهم في طريقهم إلى شراء الخبز من فرن قريب، وكان أن كلف أحد رجال المقاومة الوطنية بتصفية هذا الخائن العميل، على أن يأتيه من خلفه على دراجة عادية، ليصل إليه، قبل أن يلتفت إلى الوراء، وإلاّ فإن المجرم لا بد سيقتله، ورأيت رجل

المقاومة الوطنية، وكان يضع، كما أذكر نظارات طبية بيضاء على عينيه، يحمل مسدسه بيده ويركب دراجته ويسرع فيصل إلى حيث كان يقف ذلك المجرم، ووضع فوهة المسدس في رأسه وأطلق النار عليه، فلما عاد رأيت آثار دماء الخائن على يد الرجل ومسدسه، فلما أراد أن يخرج باقي الرصاصات من المسدس انطلقت رصاصة خطأ، ومرت بجانبي، ولولا أن«عمر الشقي بقي»،كما تقول العامة، لكنت قد قتلت في تلك اللحظة، ولكان العالم خسر صحفياً شاباً مثلي، لا يكاد يعوّض!!!

... وكانت قد وصلت إلى الحكومة الوطنية، أخبار ملحمة بطولية رائعة، سجل خلالها شعبنا أنصع صفحة في تاريخ نضاله ضد الاستعمار الفرنسي، ففي أثناء العدوان الذي قامت به حثالة القوات الفرنسية ضد شعبنا في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٥، قامت قوة فرنسية محمولة من لبنان مارة بحمص دون أن يتنبه إليها أحد متجهة إلى مدينة حماه، بعد أن علم الفرنسيون بأن الثورة قامت ضدهم وضد حاميتهم في هذه المدينة، وأنها تتعرض لخطر التطويق من رجال المقاومة الوطنية فيها !!

... وكان أهل حماه قد استعدوا لملاقاة ومواجهة القوة الفرنسية القادمة والتي كانت كبيرة ومحمولة تساندها الدبابات والمدافع الثقيلة والطائرات.. ولم يبق شاب ولا طفل ولا امرأة في حماه وأحيائها وأطرافها إلاّ وحمل السلاح الخفيف والموجود كالبنادق والمسدسات والمدى والسكاكين، ولم تكد تبدو طلائع القوة الفرنسية المهاجمة، ولم تكد تقترب من ظاهر المدينة حتى فاجأها رجال المقاومة الوطنية بوابل كثيف من الرصاص، فدبّ الذعر في صفوف الفرنسيين وانتشرت الفوضى بينهم من هول المفاجأة، وقتل قائد الحملة الفرنسي وهو في دبابته وحوله جنوده وكان برتبة مقدم (قومندان) واشتعلت النار بالدبابات والسيارات الحافلة بالجند، ورغم محاولة القوات الفرنسية المعسكرة في المدينة أن تتحرك فقد كان الثوار قد طوقوها وأحاطوا

بها ومنعوها من الحركة، ولحقت هزيمة مرّة بالحملة الفرنسية التي أبيدت عن بكرة أبيها.وقامت الطائرات الفرنسية بالقاء قنابلها على المدينة وضربت المنازل الآهلة بالسكان، ولم تستطع الاقتراب من مكان المعركة، ومع ذلك فقد أسقط رجال المقاومة الوطنية برصاص بنادقهم بعض هذه الطائرات فهوت وهي تحترق، واستسلمت القوات الفرنسية في المدينة للثوار بدون قيد أو شرط، ولم يخرج من القوة الفرنسية إلاّ بعض الذين استسلموا وأسروا ونقلوا بعد ذلك إلى ثكنات رجال الدرك الذين أحسنوا معاملتهم كأسرى لم يعد لهم أي حول أو طول، كما تقضي بذلك التقاليد!!

.. لكن الطريف في هذا كله، أن أهل حماه، بعد هذا النصر الكبير الرائع على الفرنسيين، حملوا حملة شعواء على أهل حمص ـ بعد أن وجدوها فرصة مناسبة للثأر منهم، لما بين البلدين من خلاف، لا أساس له في الحقيقة، ولكنه يستخدم للنكتة والمزاح بين البلدين الجارين العريقين والقديمين والعزيزين جداً على قلوب الحمصيين والحمويين الطيبين ـ لأن أهل حمص سمحوا للقوة الفرنسية التي جاءت من لبنان، بأن تمر بمدينتهم وأن تصل إلى حماه، دون أن يكلفوا أنفسهم، على الأقل، مشقة إبلاغ جيرانهم في حماه بقدوم الحملة الفرنسية، ليستعدوا لها ولمواجهتها في الوقت المناسب، وان كان أهل حماه في الحقيقة، قد استعدوا لها ولمواجهتها في الوقت المناسب، وأنّ أهل حماه في الحقيقة، قد استعدوا لها ولمواجهتها بعد أن علموا بخروجها من حمص في طريقها إلى حماه، عن طريق بعض الوطنيين في حمص... وكان أخي الكبير قاضياً في حماة، في تلك الفترة، وكان طبعاً مع أهل المدينة في مواجهة القوة الفرنسية المغيرة فلما قضي على الحملة الفرنسية، وتم الانتصار البطولي عليها، جاء أهل حماه إلى أخي، وهم يتضاحكون، وسألوه، وهو الحمصي، المحبوب جداً لديهم، عن سبب هذا التقصير من أهل حمص، ولماذا لم يتصدوا للقوة الفرنسية عند مرورها بمدينتهم.. وألقى أحدهم

أمامه قصيدة طريفة لدغدغة أهل حمص قال فيها:

كلما نادت حماة للجهاد
قعدت حمص وقالت.. حاجي عاد...

ثم عَرَّضَ في أبيات أخرى بموقف أهل حمص وكيف أنهم تركوا القوة الفرنسية تمر من مدينتهم في طريقها إلى حماة، دون أن يقولوا لها:(ما أحلى الكحل في عينيك !!)..

.. (وحاجي عاد) هذه، كلمة حمصية عامية تعني عدم الاكتراث أو الاهتمام بما يقال وما يجري !!

... ولم يكد أخي القاضي يسمع هذه القصيدة وأقوال أهل حماه في أهل مدينته وبلده حمص، والقوم يجلسون حوله، حتى قال لهم ضاحكاً: أليس هذا التصرف من أهل بلدي، دلالة كافية وقاطعة على أننا «مجاذيب»؟؟ ترى ماذا يكون حالنا معكم، لو أن أهل حمص، رشوا على القوة الفرنسية التي مرت بهم، ماء الزهر والورد والياسمين؟؟ فقال له أحد الجالسين على الفور: (والله يا سيدنا القاضي لو فعلوها لاعتبرنا كل عقود الزواج التي عقدت في محكمتك باطلة.. ولاعتبرنا زوجاتنا طالقات!!!) وضج أصدقاء القاضي وصحبه بالضحك لطرافة النكتة، وحلاوة وقعها!!!

... كان أهل حمص، في عيدهم، يوم الأربعاء، عندما مرت القوة الفرنسية بهم ولم يلقوا إليها بالاً، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعلام أهل حماه بمرورها، على الأقل، وإلاّ فما هي الحجة والذريعة لتبرير هذا التصرف، إذا لم تكن «الجدبة» هي الحجة والذريعة؟؟

.. ولكن... لماذا لا نقول، على سبيل النكتة فقط، بأن أهل حمص فعلوا ذلك نكاية بأهل حماه لأن بين المدينتين منذ القديم، ما صنع الحداد بجسر الرستن ؟؟

.. على أن ما حدث بعد ذلك، كان أطرف من كل ما جرى، وذلك عندما جاء نفر من أهل حماه إلى أخي القاضي مساء آخر يوم من

رمضان، وهو في مكتبه في المحكمة، ينتظر قدوم من يشهد رؤية هــلال شوال، ليثبت حلول عيد الفطر السعيد، من الغد، فشهدوا أمامه أنهم رأوا هلال شوال، فاتصل بقاضي دمشق وقال له بأنه ثبت لديه بالوجه الشرعي رؤية الهلال، وأن غداً هو أول أيام عيد الفطر السعيد، وطلب إليه أن يثبت ذلك رسمياً، وإلا فإنه سيثبت ذلك من قبلـه، ويعلن أن غداً هو أول أيام عيد الفطـر في حماه... ولكن قـاضي دمشق ألح عـلى أخي القاضي أن يؤجل ذلك ريثما يتصـل بالمسؤولـين ويأخـذ رأيهم، فأمهله أخي بعض الوقت، واتصل قاضي دمشق به بعد قليل وقال له: (لعل الذين شهدوا بأنهم رأوا هلال شوال هم من«عوران»حماه لأنهـا اشتهـرت كثيراً بهم)... فضحـك أخي القاضي كثيـراً لما قـاله زميلـه قاضي دمشق، ولكنه لم يستجب لرغبته في تـأجيل إثبـات العيد للغـد وأعلن أن غداً هو أول أيام العيد، واحتفل أهل حمـاه بهذه المنـاسبة وأفطروا بينما استمر الناس في سائر المدن السوريـة، وبينها حمص، في صيامهم..!!

... وكـان من عادة أهـل حماه أن ينـزلـوا في الأعيـاد إلى حمص لقربها من مدينتهم، ولم يكد يرتفع الضحى حتى كـان شباب حمـاه، بقنابيزهم وألبستهم الوطنية المتميزة، يتدفقـون على حمص ويمـلأون سـاحاتهـا وأسواقهـا ومطاعمهـا الشعبيـة ومحـلات بيـع الفطـائـر والشعيبيات فيها، ويأكلون ويشربون ويمارسـون كل ألعـاب وأسباب اللهو في العيد، بينما أهل حمص صائمون.

... بل إن أهل حماه زيادة في النكاية بأهل حمص، لم يتورعوا عن الذهاب إلى المحل العمومي في ظـاهر المـدينة عـلى طريق الشـام، وهو سوق للبغاء كانت السلطة الفرنسية قد أقامتها هناك، وكانت ما تـزال قـائمة، ثم أغلقهـا العهد الـوطني بعد ذلـك، وكان أهـل حمـاة، وهم يفعلون ما يفعلون، وكأنهم يـذكرون أهـل حمص بما فعلـوه بهم قبل فترة قصيرة، عندما وقـع العدوان الفـرنسي ومرت الحملـة الفرنسيـة بحمص في طريقها إلى حماه، دون أن يتحرك أهل حمص لردها.

... وهكذا اعتبر أهل حماه، بعد أن قضوا أيام العيد، وخاصة اليوم الأول منه، في حمص، أنهم قد انتقموا من أهل حمص شر انتقام !!

.. والحقيقة أن بين البلدين الجارين حمص وحماه، من المودة والصهر والنسب والقربى، ما لا تستطيع كل هذه الطرائف والنكات والمقالب والتشنيعات، أن تؤثر فيه أو تنال منه، فكلاهما بلد مجاهد ومناضل، وما قيل بالنسبة للحملة الفرنسية التي مرت بحمص في طريقها إلى حماه، إبان العدوان الفرنسي على سورية في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٥، كان في الحقيقة، غير وارد، لأن أهل حمص اتصلوا بأهل حماه يومئذٍ، وقد قام بهذا الاتصال رجال الحرس الوطني في الكتلة الوطنية في حمص، ولكن شائعة انتشرت في حماه، تقول بأن الحملة الفرنسية مرت بحمص قادمة من لبنان، ولم يخبر أهلها جيرانهم في حماه بوصولها، حتى يستعدوا لملاقاتها، بينما الأمر غير ذلك تماماً، فالحملة الفرنسية لم تدخل حمص ولم تمر بها، وإنما وصلت من طرابلس في لبنان، ثم انحرفت عن الطريق العام إلى الكلية العسكرية، وبعد أن توقفت بعض الوقت استأنفت سيرها على الضفة الشرقية لنهر العاصي، إلى أن وصلت إلى طريق حماه عند مشارف قرية «تلبيسة»، ومنها انطلقت إلى حماه، حيث لاقت مصيرها المحتوم!!!..

* * * * *

... عندما عرضت قضية سورية على مجلس الأمن الدولي، كان العلامة الأستاذ فارس الخوري رئيساً للوفد السوري، وكان رئيساً للحكومة، وقد أثبت هذا الرجل الكبير والقانوني العالم، والوطني الشريف، قدرة خارقة على الحوار وانتزاع اعجاب الوفود المشتركة في نظر القضية السورية في مجلس الأمن الدولي، وعلى رأسها الوفد السوفياتي، ولقد استطاع الأستاذ فارس الخوري، وهو يقف على منبر هذه الهيئة الدولية العالمية، أن يثبت حق بلاده في الحرية والاستقلال والسيادة التامة، وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، وكانت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا، قد وقفت في مجلس الأمن الدولي ضد القضية السورية وضد الشعب السوري، وأخذت تُقَدِّم، على سبيل المناورة، مشاريع قرارات تنتقص من حق سورية، في الحرية والسيادة والاستقلال، وتمنح فرنسا امتيازات في سورية على حساب حقّها في السيادة التامة والاستقلال الكامل، وبادر رئيس الوفد السوفياتي السيد فيشنسكي إلى إفشال هذه المحاولات وأخذ يدافع بحرارة وصدق عن حق سورية في السيادة والاستقلال التام وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها جلاء تاماً ويؤكد تأييد بلاده المطلق لسورية، ويستخدم حق النقض (الفيتو) عدة مرات، ضد كل مشاريع القرارات التي وضعتها وفود أميركا وبريطانيا وفرنسا، والتي كانت تريد منها بقاء الاستعمار الفرنسي في سورية بصورة أو بأخرى !!

... ولقد قامت علاقة ود وصداقة مخلصة بين السيد (فيشنسكي) رئيس الوفد السوفياتي، وبين رئيس الوفد السوري العلامة الأستاذ فارس الخوري الذي قدر عظيم التقدير هذا الموقف الحازم والقوي من رئيس الوفد السوفياتي، وقامت علاقات صداقة وطيدة وطيبة

بينهما، مما أثار حفيظة وفود الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا في مجلس الأمن، إذ لم يسبق أن تجرأ وفد عربي على مخالفة أميركا والوقوف في وجهها وفي وجه الدول الغربية التابعة لها، كما لم يسبق أن تجرأ وفد عربي على إقامة علاقات صداقة أو معرفة، مع الاتحاد السوفياتي، ومن باب أولى، الوفد السوفياتي...

... وانتزعت سورية حقوقها كاملة، في مجلس الأمن الدولي، بفضل نضال شعبها الطويل وكفاحه الباسل، وبتأييد الاتحاد السوفياتي الذي كان أميناً تماماً على مبادئه التي حارب من أجلها ودافع عنها، وكان عرض قضية سورية أمام مجلس الأمن، محكّاً لمدى التزام الأمم المتحدة بميثاقها الذي لم يكن قد جفّ حبره بعد، كما كانت امتحاناً لمدى التزام الدول الكبرى، بحقوق الإنسان وبحق الشعوب في تقرير مصيرها، وبالأهداف التي حاربت من أجلها، حيث تبين واضحاً وجلياً، التزام الاتحاد السوفياتي بمبادئه. وصدقه، كما تبين تنكر الولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية التابعة لها، لكل المبادىء والأهداف التي ادعت أنها حاربت من أجلها وللدفاع عنها وعن الحرية !!

... ولما عاد العلّامة الأستاذ فارس الخوري من مجلس الأمن بعد أن كسب معركة الجلاء والاستقلال لبلاده وشعبه وأمته، وكلّل جبينها بأكاليل الغار والفخار والمجد، أقبل الناس على داره في رأس أبي رمانة من ناحية المهاجرين، وكانت داراً واسعة، يقدمون إليه التهنئة بسلامة العودة، وبالنجاح الرائع الذي أحرزه في مهمته القومية والوطنية، فكان هذا الرجل الكبير المكلّل رأسه بالشيب الأبيض الناصع كالثلج يطرق حياءً، وهو يروي كيف كسبت سورية المعركة ضد الاستعمار في مجلس الأمن، وكيف فازت بقرار تاريخي يؤكّد سيادتها واستقلالها وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، وكان يقول: (إنني لم أقم إلّا ببعض الواجب عليّ كمواطن، ولكن الذي قام بالمهمة الكبرى هو هذا الشعب الطيب والمناضل الباسل، فالشكر له،

ولصديقنا الاتحاد السوفياتي الذي وجدنا فيه أكرم وأعظم مؤيد ونصير لحقنا، وكان له فضل كبير في انتزاع هذا الحق من بين براثن وأنياب الاستعمار الذي حشد حشوده وجمع جموعه، ليقف في وجه مطالبنا وحقنا الواضح الصريح) !!

... ورآني الأستاذ فارس الخوري، طيب الله ثراه، فتبسم ضاحكاً، وقال لي: (يابني، إنك ما تزال صحفياً شاباً، وأنا أعرف كم يعاني الصحفي ويشقى في سبيل الوصول إلى حديث أو خبر جديد، ولذلك فأنا لا أجد ما أتحدث به إليك غير هذا الحديث الذي ألخصه في كلمات قليلة)... فلما سمعت منه ذلك نشرت أوراقي بين يدي وأخذ يملي عليّ قائلاً: (عندما كانت المناقشات في مجلس الأمن على أشدها بيننا وبين وفود الدول الغربية التي قدّمت عدة مشاريع لا تحقق آمالنا ولا تؤكد حقنا ولا تزيل الاستعمار عن كاهلنا وأرضنا وبلادنا وشعبنا وأمتنا، كان السيد فيشنسكي رئيس الوفد السوفياتي يسرع إليّ ويبلغني تعليمات حكومته بوجوب تأييد قضيتنا تأييداً مطلقاً ولو أدى ذلك إلى استخدام حق النقض (الفيتو) عدة مرات، بل عشرات المرات، إلى أن يقدم مشروع يتفق مع مطالب سورية وحقها الكامل في الاستقلال والسيادة وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، وكنت أنسِّق مع السيد فيشنسكي الموقف والأعمال وكل ما يتصل بنجاح مساعينا ومهمتنا على الوجه الأكمل، وكيف يجب أن نرد على مشاريع الدول الغربية التي كانت تتضمن المماطلة والتسويف والتلاعب بقضيتنا وتتقدم بمشاريع قرارات لم نكن نجد فيها ما يحقق أهدافنا ومطالبنا القومية والوطنية، لكنني فوجئت ذات يوم بالسيد فيشنسكي رئيس الوفد السوفياتي الذي كان يجلس إليّ ويأخذ بيدي ويهزها علامة الاتفاق التام والودّ الأكيد والصداقة الحميمة، ويقول لي في شيء من العتاب المشوب بالحب والحياء وهو يتبسم ضاحكاً (سيدي الرئيس.. هل لي أن أسألكم سؤالاً أرجو أن أعرف جوابه منكم بصراحة... ترى لماذا يهرب أكثر أعضاء الوفود العربية في الأمم

المتحدة، مني ومن أعضاء الوفد السوفياتي، ولا يسلمون علينا أو يقفون، ولو كانوا في طريقهم، لتحيتنا ولو بإيماءة أوابتسامة، وهل فعلنا ما يوجب الهرب منّا والبعد عنّا وعدم السلام علينا؟؟ فقلت للسيد (فيشنسكي، وأنا أطرق حياءٍ: (لا أعتقد أن المسؤول أعلم من السائل، فأنتم تعرفون سر ذلك، ولكنكم تريدون أن تقولوا بصراحة، لماذا يفعل هؤلاء الأشقاء العرب ذلك، ولماذا يتصرفون هذا التصرف المخالف لأبسط مبادىء وتعاليم الدبلوماسية، وأصول الكياسة والدماثة التي يتعامل بها الأعداء في المحافل الدولية، فكيف الحال مع الأصدقاء، وربما كان تصرفهم هذا لأنهم لم يتعرفوا عليكم جيداً!!
فقال لي السيد فيشنسكي، بدماثته وخلقه الكريم ومودته وظرفه ورجاجة عقله: (أعرف أن هذه دبلوماسية منكم أشكركم عليها، ولكنني أعرف أيضاً أن الوفود العربية تخاف إذا اقتربت منا، أن تحاسبها حكوماتها على ذلك، لأن هذه الحكومات مرتبطة بشكل أو بآخر بالدول الغربية، وعلى رأسها أميركا، ولا أدري سبباً وجيهاً لهذا الارتباط الذي تبدو التبعية التامة واضحة فيه، ولقد حاولت أن أستوقف، خلال هذه الاجتماعات والمناقشات للقضية السورية في هذا المجلس، رئيسا أو عضوا في هذه الوفود العربية لأسلم عليه وأتعرف إليه وأتبادل معه الرأي فيما يعرض علينا من مشاريع، وفيما يعرض لنا من أمور، ولكنني كنت أفاجأ بإعراض هؤلاء عنّا، بل وتجهمهم لنا وخوفهم وهربهم منا.. فهل الاشتراكية والتقدم والسلام والنضال مع الشعوب في سبيل الخير والعدالة والمساواة والسيادة والكرامة، والسعي للقضاء التام على الاستعمار والاستغلال، تخيف هذه الحكومات وهذه الوفود إلى هذه الدرجة، وهل تخاف هذه الوفود الحساب الشديد من حكوماتها، إذا ألقى رؤساؤها أو أعضاؤها التحية علينا أو ردوا على تحيتنا، وهل هذا من أصول السياسة والدبلوماسية في شيء، ومع ذلك ورغم ذلك كله، فإن بلادي لا تلقي بالاً لكل هذه الأمور التافهة، وستظل بلادي إلى جانب العرب ومعهم إلى الأبد، تدافع عن حقوقهم وسيادتهم وتنصرهم بكل قوة على كل

أعدائهم، أعداء الحرية والتقدم والسلام والانسانية، وستؤيدهم بلا حدود ولا قيود ولا شروط في جميع مواقفهم المعادية للاستعمار وستقدم دائماً وأبداً كل المساعدات لهم، وستكون حليفتهم المخلصة والصادقة والنزيهة، لأن هذه السياسة الثابتة نابعة من مبادئنا التي تقوم على التعاون مع كل الشعوب من أجل التحرر الوطني والكفاح ضد الاستعمار والاستغلال وفي سبيل حياة سعيدة حرّة وكريمة وتعاون نزيه مشترك)...

وختم العلامة الأستاذ فارس الخوري حديثه إليّ بقوله: (إذا كانت صداقة الاتحاد السوفياتي تعني عند أصحاب النظر القصير والأفق الضيق والتعصّب الأعمى، وعند الحكومات المرتبطة بأميركا والغرب، أنني شيوعي... فأنا شيوعي... ولقد تعاونت مع الوفد السوفياتي ورئيسه الصديق العزيز (فيشنسكي) لما فيه مصلحة بلادنا وقضيتنا العادلة، وستفرض قضايانا العربية والوطنية دوماً قيام هذه العلاقات واستمرارها بيننا وبين هذه الدولة الكبرى الصديقة، وإذا كنا سنقابل مثل هذا الموقف الكريم منها بمثل هذا التحجر والجهل في المستقبل، فإن ذلك معناه بصريح العبارة، أننا لن نستطيع، نحن العرب، أن نحقق آمالنا أو نؤكد حقنا، أو نبلغ غاياتنا القومية والوطنية، وأننا سنظل في حالة من التبعية العمياء للغرب، فلا نعرف أين نضع مصلحتنا فوق مصالح الآخرين، ولا كيف ننتزع حقنا كاملاً من بين أنياب ومخالب أعدائنا والمتآمرين علينا والمتربصين بنا، وهو ما أحذر منه أمتنا وشعبنا منذ الآن، إذ يجب أن نتعلم كيف يقوم التعامل بين الدول على أساس من الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل دولة، وعلى أساس متين من السيادة والاستقلال، وسنخسر كثيراً، نحن العرب، إذا كانت مثل هذه العقلية عند بعض الحكومات العربية هي التي تحكم تصرفاتنا وسلوكنا وسياستنا وعلاقتنا الدولية، خاصة مع الاتحاد السوفياتي الصديق...

... وعندما كتبت هـذه الكلمات وقـدمتها لصـاحب الجريـدة التي كنت أعمـل فيهـا وظننت أنني فـزت بحـديث خطـير، وأن صـاحب الجريدة سينشره في صدر الصفحة الأولى،نظر إليّ طويلاً، بعد أن أتم قراءة الحديث وقال لي: (هل يـريد فـارس بك أن يقطـع رزقنا.؟؟) ثم ألقى بما كتبت جانباً، ولما رأى أنني حزنت لما فعـل، التفت إليّ قائـلاً وبكل الوقاحة التي يمكن أن تجتمع في إنسان في هذا العالم: (أنت ما زلت صغيـراً.. وتفرح لأن الجـلاء والاستقلال قـد اقتـربـا، ولكن لا تفرح كثيراً، فإذا كان الاستعمـار الفرنسي سيخـرج من الباب، فـإن الاستعمار البريطـاني سيدخـل من النافـذة... فكيف تريـد أن أنشر كلاماً من هذا القبيل ومن أين سنعيش؟؟) !!

... ووافقه رئيس التحرير الذي كان يجلس على طاولة قريبة منـه، وقـال لي (سوف تـرى أن فرحتـك بـالاستقـلال والجـلاء لن تطـول كثيراً)!!

... ونظرت إليهما في غضب وغادرت الجريـدة ولم أعد إليهـا بعد ذلـك، وكنت كلما رأيت صـاحبها أو رئيس تحـريرهـا أشيح بـوجهي عنهما... وكنت أعرف أن ميولهما مع الانكليز.. مع الأسف الشديد!!

* * * * *

١٤

... احتفلت البلاد بعيد الجلاء والاستقلال، لأول مرة يوم السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٤٦، وكان يوماً مشهوداً في تاريخ سورية والعرب، تمنيت معه لو أن كل مواطن يعرف أهمية هذا الاستقلال الذي انتزعته أمتنا من براثن ومخالب وأنياب الاستعمار، وقدمت مئات ألوف الشهداء لتبلغه وتصل إليه وليتمتع شعبنا بالحرية التي كان يتوق إليها خلال سنوات طويلة من الاحتلال والاستعباد، كما تمنيت أن يقدر كل السياسيين، على اختلافهم، منذ هذا اليوم الذي نحتفل فيه بعيد الجلاء والاستقلال، هذا الانجاز العظيم ، حق قدره، وأن يحرصوا على هذه الأمانة والوديعة الغالية، ويغلبوا مصلحة الأمة والوطن والشعب، على كل مصالحهم الشخصية الزائلة، وأن لا يتفرقوا ويختلفوا على حساب استقرار وازدهار الوطن وكرامة وحرية المواطن.

... وهنا أتحدث عن هذا اليوم العظيم، كما ينبغي أن يتحدث عنه صحفي وكاتب شاب من الجيل الذي شهد ولادة الاستقلال واكتحلت عيناه بجلاء القوات الأجنبية عن أرض وطنه الحبيب، المستقل والسيد الحر !!

... في ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤٦، وهو يوم عيد الجلاء والاستقلال، كنت قد بلغت العشرين من عمري... وفي هذا اليوم العظيم، يحق لي أن احتفل بعيد ميلادي، مع عيد استقلال بلادي، إذ لا قيمة لعيد ميلادي، ولا لعمري كله، ولا لحياتي، في ظل الاستعمار والاحتلال، وعندما يصبح الناس أحراراً، يحق لهم أن يحتفلوا بأعياد ميلادهم!!!

... كان «قاسيون».. يقف على ذراع أمه دمشق، شامخاً رافع الرأس... وكان في أروع صور العنفوان القومي والوطني... وكان يرنو

إلى بعيد.. إلى كل ناحية من أرض الوطن، بعد أن تطهـرت من رجس الاستعمـار وجلت قواتـه عنها... وهـاهو يحـدق في المستقبـل، بعـين الأمل، ويرجـو أن يظل الـوطن الحر المستقـل، قرة عـين كل مـواطن وإنسان، ومصدر خير وبركـة وسعادة للشعب، وأن يحفظـه أهله من كل مكروه، ويجنبوه عبث العابثين واللاعبين بالنار.. وجهل الجـاهلين وعثـرات العاثـرين، وأن يمنحه اللـه القوة عـلى مـواجهـة الصعـاب والتغلب عليهـا، وعلى مخلفـات وآثـار الاستعمـار، والسـير في طـريق التقدم والعدالة والمساواة والخير والازدهار !!

.. وقد أقيم الاحتفال في أول شارع بيروت، الـذي سمي بعد ذلـك (شارع شكري القوتلي)، وكانت قوات صغيرة، قليلة العدد والعدة قد انضـوت تحت العلم السوري وانضمت إلى الحكم الـوطني، عنـدمـا أخذت القوات الفرنسية تجلو عن البلاد وتتبعها القوات البريطانية!!

... وكان النهار، كما أذكر، ربيعاً دافئاً ورائعاً وصافيـاً، وكأنـه في روعته وربيعه يشارك الوطن عيد حريته وسيادتـه واستقلالـه، وكنت أتخيـل أن كل شيء في بـلادي يهزج ويـردد أنشودة النصر والمجـد، وكنت أرى حجارة الطريق وكأنها تـرقص من الفرح، وكـانت غوطـة دمشق الفيحاء قد سكبت عطرها وشذاها وزهرها، وجاءت بكل زينتها في ذلك اليوم لتشارك أمتنا في هذا المهرجان العظيم!!

... وجـاءت الصبية التي تـركت قلبي عندهـا في حمص، وتـركت قلبها عندي هنـا، مع أمهـا وأخيها الصغـير، لتشاركني فـرحة عيـد الاستقـلال والجلاء، ولتقـول لي: (ها قـد قرت عينـك بعيد استقـلال الوطن، وآن لك أن تقر عينك بي، فنقيم عرسنا مع عرس الوطن!!).

... ورأيت في شعـرها الـذهبي المتموج والغـزير كـأنه شـلال من الذهب، سنابـل القمح في أرضنـا الطيبة، ورأيت في عينيهـا كل آمـال وأحلام جيل الاستقلال في حياة عـزيزة كـريمة، ولكن الصبيـة عادت مع أمها وأخيها إلى حمص، دون أن تأخـذ وعداً مني بـالموافقـة على اقتراحها.. وإنما كانت تصطدم دائماً بهذا الصمت المطبق الذي كان

يستبد بي كلما رأيتها والتقيتها، فلا تملك إلاّ أن تصبر وتعود، وهي تحلم بأنني سأعود وأرجع إليها!!

... وينقضي اليوم الأول من أيام الجلاء والاستقلال لتبدأ بعده مرحلة ربما كانت أصعب وأشق من مرحلة النضال والكفاح من أجل الاستقلال، ذلك لأن المحافظة على الحرية والسيادة، أهم من بلوغ غاية الحرية والاستقلال !!

... لقد انتقلنا بعد نيل الاستقلال، وتحقيق الحرية والسيادة، من الجهاد الأصغر، من الثورة ضد الاستعمار والاحتلال، إلى الجهاد الأكبر والثورة ضد التخلف والفقر والجهل والمرض والاستغلال وكل مخلفات وبقايا الاستعمار التي تركها بعد رحيله، وكانت تركة ثقيلة، لا بد للخلاص منها وتجاوزها والقضاء عليها، من جهد كبير وبذل وعمل كثير، وجرأة وشجاعة وصدق وايثار وتضحية وزهد، ووحدة كلمة وصف وهدف !!

... ولم يكن الاحتفال، ليشدني، وهو احتفال تاريخي عظيم، وإنما الذي شدني هذا الشعب البطل الذي ضحّى بالدم والروح في سبيل الاستقلال والجلاء، ويريد الآن أن يعرف معنى الاستقلال والجلاء، ويحوّله إلى حرية وديمقراطية وعدالة ومساواة وسعادة وكرامة، ولا أدري لماذا رأيت في عيون الناس في ذلك اليوم، رغم الفرح العظيم، مسحة من القلق كانت تمتزج بالألق في هاتيك العيون... وإن كانت لا تكاد تظهر أو تبين...، وقلت في نفسي: (هاهي دولة الاستقلال قامت في أفراحها وزيناتها وأعلامها ومهرجاناتها، فكيف سنقيم بناء هذه الدولة الجديدة؟؟، وكيف سنبني دولة الاستقلال؟؟ وكيف سنحول الاستقلال إلى واحة للعِلم والتربية والمعرفة والتقنية والحضارة والتقدم...، وعلى أي أساس يجب أن يقوم بناء هذه الدولة الجديدة العتيدة؟ وكيف سنبني دعائمها وعلى أي أساس سيقوم نظام الحكم فيها؟؟ وكيف سنحول الاستقلال من رمز وعلم ونشيد، إلى وطن حرّ وشعب سعيد يعيش في ظل حياة ديمقراطية صحيحة سليمة

وكريمة؟؟ وهل سنقضي في ظل دولة الاستقلال على الفقر والجهل والمرض، والاستغلال؟؟)

.. وهل سنرد الأرض إلى أصحابها الفلاحين ونوزعها عليهم ونزودهم بكل ما يحتاجون إليه، لتزدهر الأرض وتنتج وتزدهر معها حياة الوطن والإنسان؟؟ وهل سنحقق للعمال والكادحين، العمل والأجر الكريم والحياة السعيدة، وننقذهم من البطالة والفقر والحاجة، ومن التسريح التعسفي والظلم الاجتماعي؟؟

... صحيح أن تحقيق معاني الاستقلال، يحتاج إلى وقت، ولكن علينا أن نبدأ منذ فجر اليوم الأول للاستقلال، ونخطو الخطوة الأولى، لأن الألف خطوة، بل ملايين الخطوات، تبدأ بخطوة واحدة، كما يقول المثل الصيني !!

... وبعد العرض العسكري الرمزي بهذه المناسبة العظيمة، بحضور رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي وأركان الحكومة الوطنية، ورجال الأحزاب والقوى الوطنية وعدد من المجاهدين والثوار، جرى احتفال رسمي في بهو رئاسة مجلس الوزراء في دار الحكومة على ضفة بردى قرب ساحة المرجة، ووزعت عليهم نسخ من بيان رئيس الجمهورية الذي ألقاه بمناسبة عيد الجلاء في ذلك اليوم، كما وزعت عليهم المرطبات..

.. وبعد مضي فترة قصيرة لاحظت أن صراعاً يوشك أن يقوم بين العهد الوطني وبين مجموعة طيبة متحمسة من الشباب القومي الوطني الراغب في التغيير وعدم احتكار الحكم والسلطة من قبل فئة معينة أو حزب بالذات، مهما كان دورها أو دوره في معركة النضال ضد الاستعمار، وكان بين هؤلاء الشباب عدد من المثقفين والمعلمين والمحامين وغيرهم!!

... وكانت هناك طبقة إقطاعية مؤلفة من عدد قليل من الملاّكين الكبار، وكان بعضهم ينتمي إلى العهد الوطني، وبينهم زعماء العشائر والأغوات، في محافظات دير الزور والجزيرة وحول الفرات وفي أقضية

محافظة حلب وحماة وحمص وبعض جهات حوران وجبل العرب واللاذقية، وبعض جهات الغوطة والريف !!

..وهؤلاء كانوا من الموالين للحكم الوطني يسيرون حيث يريد الحكم الوطني أن يسيروا ويرفعون أصابعهم عند الثقة بالحكومة، بلا تردد ولا تأخير، ويجزون لقاء ذلك الولاء والتأييد باطلاق أيديهم في تلك الأراضي الواسعة التي يتصرفون بها، والتي تبلغ مساحة بعضها، مساحة الجار العزيز لبنان !!

... ولم يشأ العهد الوطني بعد الاستقلال، رغم وطنيته ونضال رجاله وعدائهم للاستعمار وأحلافه، أن يعترف بهذا الواقع الاجتماعي الظالم، وأن يعمل على وضع حدّ له، بل ظن بأن الحكم من حقه وحده، فلم يشأ أن يشاركه فيه مشارك أو يساهم فيه مساهم!!

..وكان من حق الجميع، المشاركة في الحكم والمساهمة في التغيير الذي كان ضرورياً جداً، من أجل خلق وطن جديد، ومجتمع جديد، وحكم ديمقراطي جديد فعلاً!!

... وها هي سورية، وقد حقق شعبها السيادة والاستقلال والجلاء، بعد أن دفع من أجل حريته مئات ألوف الشهداء، وجبالاً من الجماجم والهامات وأنهاراً من الدموع والدماء، تقف الآن على مفترق طرق، فإما أن تأخذ طريقها الصحيح إلى تحقيق كل معاني ومكاسب الاستقلال، وإلى التقدم والازدهار والعدالة والمساواة والحياة الحرة والديمقراطية الكريمة، وإما أن تسير في طريق مسدود ينتهي بها إلى التيه والتمزق والضياع، ويدفع البلاد إلى صراع يؤدي إلى ما لا يريده أحد لها، إلا الأعداء، وإذا كانت الحريات الديمقراطية سائغة سابغة في ظل العهد الوطني الجديد فعلاً، إلا أنها كانت فارغة من محتواها الاجتماعي، ولم تؤدِ إلى تغيير البنية الاجتماعية التي خلفها الاستعمار الفرنسي وراءه بعد رحيله، وكان ينبغي أن تترافق الديمقراطية السياسية في بلادنا مع الديمقراطية الاجتماعية جنباً إلى جنب.

* * * * *

... كانت الصحافة في مطلع عهد الاستقلال، فقيرة في كل شيء.فقد خرجت من سنوات الحرب خاوية على عروشها، بعد أن عانت من شح الموارد وقلة الورق وغلائه الفاحش، الشيء الكثير... وفي هذه الصحف الفقيرة كنت أعمل، وفي ظروفها البائسة كنت أعيش، ومن أصحابها من لم يكن يدفع أجور المحررين إلا بشق النفس، كنت أتدبر عيشي...، وكان أجري في الشهر لا يزيد على مائة ليرة سورية، والحقيقة أنه لم تكن بي حاجة ملحة إلى أجر كثير، لأنني كنت عازباً، وإنما كانت حاجتي ماسة إلى معرفة فنون الصحافة والطباعة والنشر، وإلى الاستزادة من معرفة أسلوب الكتابة والمقالة، خاصة السياسية والفكرية والأدبية منها، حتى أكون على معرفة جيدة بها!!!

... وكان المحررون من أصحاب العيال، من الأشقياء حقا، وكان يعمل أحد هؤلاء، في الجريدة التي كنت أعمل فيها، وكان إذا ضاقت به الحال؛ ولم يدفع له صاحب الجريدة إلّا بعض أجره، يتصل بأحد الوزراء، وكانت بينهما مودة ومعرفة، ويتحدث إليه على الهاتف، وكنت أسمعه وهو يقول له: (كيف صحكتم معالي البيك... إن شاء الله تكونوا بخير.. سيدي أختكم على وشك الوضع.. وأحتاج إلى دفعة أتدبر بها أمر هذا القادم الجديد المجهول...) فيرسل إليه معالي البيك الوزير، مبلغاً من المال، فإذا انقضى شهر أو أكثر أو أقل، أعاد الاتصال، بمعالي البيك، وقال له: (سيدي.. يعني أختكم على وشك الوضع، وأحتاج إلى مبلغ أتدبر به أمر هذا القادم الجديد... فيرسل إليه الوزير مبلغاً من المال، إلى أن أصبحت أختكم، تلد كل شهر أو شهرين فيقول الوزير له ضاحكاً: (دخلك، أستاذ، أنت عندك امرأة، أم قطة؟؟ وكم ولداً تلد المرأة في السنة؟؟)فيقول المحرر المسكين، وأنا أسمعه: (سيدي هذه أمور بيد الله، ولا حكم لنا عليها، فدع الأمور إلى الله !!)

... وكنت أذكر هذا الزميل بقصته مع معالي الوزير، إلى أن انتقل الزميل وانتقل بعده الوزير إلى رحمة الله !!

.. أما الصحفيون الذين كانوا يبحثون عن الأخبار من مظانّها وأماكنها ويلتقطونها من هنا وهناك ليحملوها إلى الصحف التي يعملون فيها، فقدكانوا في الحقيقة، أشد بؤساً من المحررين، لأنهم لم يكونوا يشكلون بالنسبة لأصحاب الصحف، شيئاً مهماً، مع أن ذلك كان خطأً فادحاً، وكان أصحاب الصحف لا يعطون هؤلاء المندوبين أجراً يكفيهم على الأقل، شرّ الفاقة والضيق، مع أنهم كانوا يقومون بعمل مرهق وكبير وله تأثير على الصحف ومدى انتشارها وازدهارها، وتفرّد هذه الجريدة عن غيرها بهذا الخبر أو ذاك !!!

... وأذكر أنني عندما ضقت ذرعا بالركض وراء الخبر والبحث عنه، دون أن أجد اهتماماً من أصحاب الصحف التي كنت أعمل فيها، انتقلت إلى العمل كمحرر، حتى أتخلص من الإرهاق والتعب والعذاب والضيق، حتى قال عني أحد أصحاب الصحف، وكان يقدر أهمية الخبر حق قدره ويعتبر الصحافة قبل كل شيء، خبراً وحدثاً تسبق به هذه الجريدة أو تلك، غيرها من الصحف الأخرى، وذلك عندما علم بأنني تركت العمل في حقل الأخبار، إلى العمل محرراً: (لقد خسرت الصحافة بانتقال هذا الشاب من مجال الأخبار إلى التحرير، صحفياً كان في غاية النشاط، ونحن أصحاب الصحف كنا السبب لأننا لم نقدر جهده ولم نعطه ما يستحق من أجر كريم !!)

... وكان لي زميل يكبرني بثلاثين عاماً، وكنا نسميه «المُقَنَّمْ»، وكان يعمل معي في مجال الخبر والبحث عنه والركض وراءه، وكان صاحب أسرة تتألف من عشرة أفراد، وكان يعاني من الضيق ما لا يطاق، حتى انتهى به الأمر بعد سنوات طويلة من العذاب إلى مغادرة البلاد والبحث عن عمل في بلد آخر تقدر فيه الصحافة الخبر حق قدره وتضعه في الدرجة الأولى من اهتمامها !!!

.. أما المحررون الذين عرفتهم في تلك الأيام، وكانوا يعملون في

عـدد من الصحف اليوميـة والأسبـوعيـة، فكـان أبـرزهم الصحفي الأستاذ سامي الشمعـة، رحمه اللـه، والأستاذ نشـأة التغلبي، وإن كان يصرّ على كتابة اسمه نشأت... والأستـاذ عباس الحـامض، كما كـان على رأس التحـرير في عـدة صحف، يوميـة وأسبوعيـة، الحاج رشيد الملّوحي، وعبد الغني العطري، وسعيد الجزائري، وغيرهم ممن لم أعد أتذكرهم جيداً...

.. وكـان الأستاذ الشمعـة، يعمل في جـريدة «القبس»، ثم أنشـأ جريدة أسبوعية سماها «آخر دقيقة» وصدرت منها عدة أعداد، ثم لم تلبث أن توقفت لضيق ذات يد صـاحبها، بسبب إسرافـه الشديـد في الانفاق وفي تناول الخمرة بمقاديـر كبيرة، وكـان يدخن في اليـوم عدة علب من السكـاير، واشتهـر عنه أنـه كان يشعـل اللفـافـة الأولى في الصباح، ثم يمضي اليوم كله وإلى آخر الليل وهو يشعل الواحـدة تلو الأخرى من أختها.حتى مات رحمه الله، من كثرة السكـر والتدخـين، في بلدة قطنا، ودفن فيها ولم يعلم بموته إلاّ قلة من زملائه، وربمـا لم يشارك منهم أحد في مأتمه البسيط في تلك البلدة الصغيرة القريبة من دمشق!!

.. وللأستاذ سامي الشمعة، قصة طريفـة جداً، أنقلهـا هنا لأنهـا تصـور وجهاً من وجـوه الصحافـة في بلادنـا أو على الأصـح، تمثـل مدرسة صحفية ظريفة لا عهد لنا بها قبل الاستقلال، إلا إذا كان من سبقنـا من الصحفيين القـدماء يعـرف عنها شيئـاً في أيام الانتـداب الفرنسي، أو ما قبله !!

.. أصدر الأستاذ سامي الشمعة جريدتـه الأسبوعيـة، كما قلت، ونشر في صفحتها الأولى في عددها الأول، صورة للملـك عبد اللـه ملك الأردن، رحمـه الله، بـالقلبق الشركسي الطويـل واللبـاس العسكـري والنياشين وبجانبها، نص حديث اخترعـه الأستاذ الشمعـة من بنات خياله، ولا علم للملك عبد الله به من قريب أو بعيد !!

.. ولما سئل الملك عبد الله بعد ذلـك عن هذا الحـديث قال كلمتـه

المعروفة: (صدقوني لو سألني هذا الصحفي الذي كتب هذا الحديث عن لساني، لما قلت له غير الذي كتبه ونشره ولم يزد فيه حرفاً ولم ينقص منه كلمة، لو حدث وأدليت إليه به !!).

.. واخترع سامي الشمعة، رحمه الله، في جريدته، قصة الانسان الغزال، وهو صبي معتوه أصم أبكم، كان يتشرد في بساتين وقرية «داريا» القريبة من دمشق، ويلتمس طعامه مما تجود به عليه أكفّ المحسنين، أو مما تفيض به البساتين في داريا من فاكهة، وخاصة العنب» ولكن الأستاذ الشمعة، كتب تحقيقاً صحفياً، قال فيه: ان «الانسان الغزال» يعيش في البادية والصحراء مع قطيع من الغزلان، ويرضع من غزالة ويركض كما تركض وينام معها في القفار كما تنام، ونشر صوراً أدخل عليها كثيراً من الرتوش، كما يقولون، وأوحى بأن هذا الصبي المعتوه المسكين، هو الانسان الغزال والأعجوبة التي لا مثيل لها في هذا العصر !!

.. وقد أرسلت الصحف الأجنبية بعثات كثيرة إلى دمشق لكتابة شيء عن الانسان الغزال ولرؤيته وتصويره، فلما علم الأستاذ الشمعة بوصولها هرب من دمشق ولجأ إلى قطنا يسكر ويدخن ويضحك على هذه الصحف الأجنبية التي تصدق كل شيء تسمعه أو تقرؤه، وترسل بعثات من قبلها تتكلف مبالغ طائلة، بينما هو يضحك عليها وعلى القراء !!

.. وكان بعض أصحاب الصحف من الأميين تقريباً، وكانوا يصدرون صحفهم اليومية والأسبوعية ليتكسبوا بها ويهددوا من لا يدفع لهم بالحسنى... وأذكر أن أحدهم أراد أن يأخذ اشتراكاً لمجلته من صاحب معمل صغير للبلاط في «عرنوس» فلما لم يدفع له، نشر خبراً عنه في مجلته، قال فيه إن البلاط الذي ينتجه ويصنعه فلان، هو خليط من الرمل والتراب، وليس فيه ذرة من الاسمنت !!

وكان صاحب جريدة يومية، تعود على إنفاق كل ما يأتيه من موارد لجريدته على موائد القمار في أحد النوادي كل ليلة، ولا يدفع قرشاً

للعاملين والمحررين عنده، وقد تسلط هذا الرجل، رحمه الله، على رئيس الوزراء في ذلك الحين المغفور له سعد الله الجابري وأخذ يكتب عنه مقالة على عمود كل يوم في جريدته تحت عنوان «عدو الصحافة رقم واحد» فلما التقى الرئيس الجابري بهذا الصحفي ذات يوم قال له: (لو طقّت عينك، لن أدفع لك قرشاً... فأنا لا أسرق ولا آكل مال الدولة والخزينة... اذهب إلى الذين يخافون إذا كتبت عنهم في جريدتك، ليدفعوا لك ما تهدره في النوادي على موائد القمار !!)..

ولم يحر الصحفي جواباً ولم يعد ينشر كلمة في جريدته عن رئيس الوزراء، والغريب جداً أن هذا الصحفي كان محسوباً على العهد الوطني، بل من الصحفيين المدلّلين جداً عند المسؤولين في ذلك الحين !!!

وقد حدث أن كان معي، على غير عادة، مبلغ ثمانين ليرة في ذلك الوقت، وكنت أعمل في جريدة هذا الصحفي، وكان في أمس الحاجة إلى مبلغ يذهب به إلى النادي ويضيعه على موائد القمار، وكان مفلساً في ذلك اليوم، وفي كل يوم، لأن المقامر مفلس دائماً... فسألني أن أعطيه ما معي، على أن يرده إليّ غداً... وفعلت... ومضت أسابيع، فلما ذكرته بما لي عليه من دين، أخذ يثور ويفور ويغلي، ويقول: (أنا، ياعدنان، أخذت منك ثمانين ليرة؟؟..) ويكرر قوله هذا عدة مرات... وعجبت كثيراً لوقاحته وقلت له: (لا.أبداً.. فربما كان ذلك في المنام)!!..

... أما الصحفي والكاتب الوطني الكبير الأستاذ «نجيب الريّس»، فقد كان على خلق كريم، وكان مترفعاً كبير النفس، وقد استأثر باهتمام واحترام أمتنا وشعبنا، كما استأثر باهتمامي واحترامي، منذ عرفته في عهد الاستقلال، وقبله. وكنت، كما أشرت إلى ذلك في فصل سابق، مع إخوتي وأهل مدينتي وشعبي، نقرأ مقالاته الافتتاحية في جريدته الوطنية «القبس»، ونرى حروفها وكلماتها وهي تتلظى وتتأجج كالنار، مجددة كل يوم دم وشباب الثورة ضد الاستعمار..

وإذا كـان سلطان الأطـرش وابراهيم هنـانو وصـالح العـلي ومحمـد الأشمـر وحسن الخرّاط وغـيرهم من أبناء شعبنـا قد قـادوا الثـورة السورية إلى النصر، فإن «نجيب الريّس» قـد شق بقلمه، طـريقها إلى المجد..!!

.. هناك قصّة طريفة سمعتها من صحفي وطني قديم، وكـان وهو يرويها، يسترجع بعض ذكرياته أيام النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، فقد قال لي وهو يضحك: (لعلك لا تعـرف أن الأستاذ خـالد بكداش زعيم الحزب الشيـوعي السوري، عمـل محـرراً في جـريـدة «الأيام» الدمشقية في الثلاثينات، وكان شـاباً في غـاية الحمـاس....، وأراد مـرة عقد اجتمـاع لحزبـه على سطـح البناء الـذي تقـوم فيـه الجريدة، فما كان من بعض شباب الكتلة الوطنية، إلا أن صعدوا إلى سطح الدار، وأرادوا أن يمنعـوا عقد الاجتمـاع، لأن الكتلة الـوطنية كـانت لا تحب أن ينـافسهـا أحـد في قيـادة النضـال الـوطني ضـد الاستعمار)... وضحكت لقوله من الأعماق..!!

.. ولقـد عرفت خـلال عملي المضني في هـذه الصناعـة السـوداء، عـدداً من أساتـذتنا الصحفيـين، الذين عشنـا وإياهم زمنـاً صعباً، وشقينا لشقائهم وسعدنا لسعادتهم، وإن كان الصحفي، في الحقيقـة لا يعرف السعادة ولا الأمن، خاصة إذا كـان من هذا العـالم الثالث والبـائس و(الفقير)... بثـرواته الضخمـة وذهبـه الأحمـر والأصفـر والأسود معاً!!

.. هذه صورة أو عـدة صور لبعض صحفيينـا وصحافتنـا، ولعلي أعطي صوراً أخرى عنها وعن ظروفها وأحوالهـا وما وقـع لها خـلال السنين الطويلة التي رافقتها فيها، والتي استنفدت أكثـر هذا العمـر الشقي..!!

* * * * *

... وكما تحدثت عن أحوال الصحافة وبعض الصحفيين في بلادنا غداة الاستقلال، فقد عرفت أيضاً خلال تلك الفترة عدداً من رجال السياسة والحكم، ومن المعارضة، ومن مختلف الأحزاب والفئات والهيئات، ممن كنت ألتقي بهم وأستمع إلى آرائهم بحكم عملي الصحفي، وكنت أرى تصرفاتهم، وأعرف صدقهم من عدمه، وعلمهم من جهلهم، ونظافتهم ونزاهتهم من عدمها دون أن أسميهم بأسمائهم، إلّا من كان يجب، حسب رأيي، ذكر اسمه للدلالة عليه والإشارة بوضوح إلى مواقفه وأعماله وسلوكه...، على أن مختلف المدارس السياسية في بلادنا، لم يتخرج منها منذ ذلك الحين، وربما إلى الآن، سوى عدد من السياسيين الذين لا يختلفون كثيراً عن هذه النماذج التي سأعرضها هنا، والتي تصور واقعنا السياسي على حقيقته، مع بعض الاختلاف في بعض الأحيان!!

... عندما كنت أزور أحد أبرز المعارضين للعهد الوطني في تلك الأيام من عام ١٩٤٧، كنت أجد عنده عدداً من السياسيين والنواب ورجال الأحزاب وغيرهم، وكان هؤلاء، وخاصة في الأزمات الوزارية والسياسية الحادة، يتحدثون إليه ويتداولون وإياه في الأمور العامة، ويتبادلون معه الرأي فيما يجب عمله، والحل الذي يراه لإخراج البلاد مما هي فيه من اختلاف، وكانوا إذا خرجوا تباعاً من عنده سأله أتباعه عن رأيه في هذا السياسي أو هذا النائب، أو ذاك، فكان يقول لهم في انفعال واضح، وراحة يده تلامس طرف رقبته وهو يضرب عليها في رفق: (بحق هالرقبة هذا عميل... أو هذا جاسوس... أو هذا خائن).!! وكان لا يستثني أحداً من ذمته الواسعة، فلما زادها كثيراً، وهو لا ينفك يضع يده على رقبته، ويتهم هذا أو ذاك، قال له أحد الحاضرين من أتباعه المقربين، أو من غير الراضين عن

طريقته الغريبة في المعارضة والنقد: (أخشى أن لا يبقى أحد في منجاة من الاتهام بالخيانة والعمالة والرجعية...)...، فينظر إليه في غضب، وهو يَعُبُّ بشراهة غريبة دخان سيكارته!!

... على أن هذا السياسي المعارض، والحق يقال، كان نظيفاً ونزيهاً ووطنياً مخلصاً شريفاً، لا تشوب وطنيته شائبة، وقد تزعم حركة اشتراكية في منطقته، وناصب الاقطاع العداء، وكان له دور بارز في الحد كثيراً من الظلم الذي كان يتعرض له الفلاحون، إلا أنه كان شديد الانفعال، سريع الغضب، يريد أن يصنع ثورة في ساعة، على أن يكون بعدها على رأس الحكم والسلطة، وإلاّ كانت ثورة رجعية مضادة....وكان يرغب رغبة مخلصة في التغيير، ولكنه لم يشأ أن يتم بطريقة ديمقراطية، فحرض على الانقلاب بالقوة للخلاص من العهد الوطني، ولا بد أن الحديث عن هذا الرجل سيرد عدّة مرات في هذه المذكرات بسبب الدور الخطير الذي لعبه في الأحداث التي مرت بها بلادنا، والتي عانت منها الويلات !!

... وعرفت أحد أقطاب العهد الوطني، وقد تولى رئاسة الوزارة ومعها عدة وزارات، عدة مرات، وكان هذا القطب السياسي لا يحب أن يترك رئاسة الوزارة، وكان يصرّ على أن تجري الانتخابات النيابية في ظل حكومته، ويرفض تكليف حكومة محايدة لاجرائها ويحول دون ذلك، وكان إذا جرت الانتخابات في عهد حكومته، كما حدث فعلاً عام ١٩٤٧، كانت أسوأ مثل للتزوير والتلاعب، إلى حد أنه أمر بتعبئة صناديق الاقتراع بالأوراق التي تحمل أسماء قائمته، وقائمة العهد في دمشق والمحافظات وقام بتبديل الصناديق التي يخشى أن تكون قد امتلأت بأسماء القائمة المنافسة لقائمته في دمشق ولقائمة العهد في البلاد !!

.. وعندما ظهرت النتائج، كما أراد وأحب، عقد مؤتمراً صحفياً، وكنت أحضر مؤتمراته على اختلافها، بحكم عملي، وكان يقول دون أن تطرف له عين أو جفن: (إن هذه الانتخابات التي جرت أخيراً في ظل

حكومتي الوطنية، كانت نزيهة وحيادية ونظيفة، لم تعرف أعرق الدول الديمقراطية، وعلى رأسها بريطانيا... مثلها في نزاهتها ونظافتها!!!

.. ولما ضحك الصحفيون من قولـه، وهم الذين يعـرفون أكثـر من غيرهم، كيف جرت الانتخابات، أشار إلى بعض رجاله، ليوزعوا عليهم ما فيه النصيب !!

... ولكن بعض الصحف المعارضة كانت تفضح هـذه الانتخابـات وتكشف زيفهـا وتقيم القيامـة على رئيس الـوزراء وتتهمه بـالتزويـر، وتقول عنه، بحق، أنه أكبر خبير عالمي في تـزوير الانتخـابات وتـزوير إرادة الناخبين المساكين !!

... قطب آخـر، من أقطاب العهـد الوطني، كـان على نقيض هـذا القطب الـذي أشرت إليه الآن، إذ لم أعـرف في حيـاتي كلهـا، رجـلاً نزيهاً نظيفاً وشريفاً، وزاهداً في السلطة والحكم، مثلـه، ومع أنـه تولى رئاسة الحكومة ورئاسة مجلس النواب مرتـين، إلا أنه كـان يشرفهما بنزاهته واستقامته، وكان عازفاً عنهما، وكثيراً ما أسرع ليتخلى عنهما ويتركهما لغيره من المتيمين والمغرمين بالحكم والسلطة... وهذا الرجل هو المغفور لـه سعد اللـه الجابـري، طيب الله ثـراه، وقد شهـدت له مواقف لا تنسى، وتمنيت لو أنهـا كانت بعض مـواقف كل سيـاسي أو مسؤول يحترم نفسه ويصـون كرامـة أمته وكـرامته، ويعتبـر الحكم خدمة عامة، يشرفها الحاكم ولا تشرفه!!!

... وأذكر له هنا، بعض مواقفه وزهده في السلطة والحكم ونزاهته وتجرده ونظافة يده، لأؤكد على أن الخـير ما يـزال في أمتنا وشعبنـا، رغم كـل شيء، وأن هذه البـلاد وهذا العـالم لا يخلوان من الـرجـال الصالحين، مهما استشرى الفساد وتفـاقم الشر، وهان بعض النـاس على أنفسهم وعلى الناس!!!

... حمل عليه مـرة في مجلس النواب، وكـان رئيساً للـوزراء، أحد أعضاء المجلس لأمر غير ذي خطر، وكـان يستمع إلى النـائب راضياً مطمئناً، وهو يبتسم له، فلما تجاوز النائب حدود المعقول والمقبـول من

القول، وأخذ يتهم هذا الرجل في وطنيته، وقف المغفور له سعد الله الجابري وانتفض كأنه الليث الجريح، وطلب من النائب أن يعتذر عمّا قاله بحقه، وإلا فإنه سينسحب، فلما أصرّ النائب على عدم الاعتذار، انسحب رئيس الوزراء من الجلسة وغادر المجلس وعاد إلى الفندق الذي ينزل فيه، وهو فندق الشرق، (أوريان بالاس)، وقد لحقت به بعد قليل، ووجدته يجلس في صالون الفندق، وهو يضحك، فلما سألته رأيه فيما حدث، قال: (يابني، لا ريب أن من حق النائب أن يقول ما يريد، ولكن الأمور زادت عن حدها ولم تعد تطاق، وأن الاتهامات أصبحت تلقى على عواهنها، بلا حجة، ولا دليل، وهذا لا يجوز ولا يبشر بخير، ثم أنني سأخصك بخبر تنشره في الجريدة التي تعمل فيها، وتنفرد به دون سائر الصحف، وهو أنني قررت الاستقالة، وسأرفع إلى فخامة الرئيس صباح غد استقالة حكومتي، فقد أورثني الحكم الضيق والعناء، وها أنا، والحمد لله، أخرج من الحكم، ولا أملك من الدنيا شيئاً، فلا مال عندي ولا زوجة ولا ولد!!!

(... حتى صحتي أكاد أخسرها، وأريد أن أرتاح بعد كل هذا العذاب، ولكني لا أدري، يابني، لماذا يتمسك رجال العهد الوطني بالسلطة ولماذا لا يتركون الحكم لمن يحب أن يجرب حظه، عساه ينجح حيث لم ننجح ويفلح حيث لم نفلح.. ولا أدري لماذا يظن رجال العهد الوطني، أن الحكم نعمة، وإن كان في رأيي نقمة!!) ..

... ونشرت حديث رئيس الوزراء المغفور له سعد الله الجابري، واستقالة حكومته في الصفحة الأولى من الجريدة التي أعمل فيها، واتصل أمين عام رئاسة الجمهورية بصاحب الجريدة ونفى الخبر وكذبه.. ولكن صاحب الجريدة، وهو يعرف صدق ودقة أخباري، قال لأمين القصر الجمهوري: (بعد قليل سيصل رئيس الوزراء ويقدم استقالة حكومته لفخامة الرئيس، ونصيحتي أن لا يحاول فخامته اقناعه بالعودة عنها، لأنه مصرّ عليها ولأنه يريد اعتزال الحكم والسياسة.) ..

... وعندما كان صاحب الجريدة يتحدث إلى أمين القصر، كان المغفور له سعد الله الجابري قد وصل وقدم استقالة حكومته للرئيس وعاد إلى الفندق، وكأنه قد ألقى عن كاهله عبء سنوات من العذاب، فلما قابلته في صالون الفندق، بادرني قائلاً: (أرجو أن تهنئني على أنني تركت الحكم والوزارة والسلطة، ولن أعود إليها، لأنها محرقة، وأنني سأدعو زملائي، من رئيس الجمهورية إلى آخر وزير، إلى التخلي وترك الحكم لغيرهم، لأن ما يجري في مجلس النواب، وفي مجالس ومراكز الأحزاب ومقاهي ونوادي الساسة، لم يعد يُطاق، وكل ذلك من أجل السلطة والحكم ومن حق غيرنا أن يحكم كما حكمنا، لأن الحكم لا يجوز أن يكون حكراً على أحد، مهما كان السبب.) وسألته: (وهل هذا القول الجميل للنشر، يا سيدي؟)فأجابني (إنك تستطيع أن تنشره كما هو) ثم قال لي: (دعهم، يابني، يتمسكون بالحكم فلا بد يوماً أن يغادروه، فما بقي حاكم في منصبه، ولكل زمان دولة ورجال.. ودوام الحال من المحال.. ولكن أحداً لا يريد أن يعترف بذلك...).

وأعطاني صاحب الجريدة التي أعمل فيها مكافأة مقدارها مائة ليرة سورية، لأن جريدته انفردت بخبر استقالة حكومة الجابري، دون سائر الصحف الأخرى...

... وأريد أن أقول هنا، وأنا أعرض لهذه الواقعة من حياة هذا الرجل، أنه وإن كان من أسرة كبيرة شهيرة في حلب الشهباء، إلا أنه كان شديد الزهد بالمال والجاه والحكم، وكان وطنياً شريفاً، ونزيهاً ونظيفاً، ولو فهم زملاؤه في العهد الوطني، خاصة ذلك الذي تحدثت عنه وعن توزيعه للمال على بعض أتباعه وتزويره للانتخابات، وحبه إلى درجة العبادة للسلطة والحكم، لما وقع العهد الوطني في شر أعماله، ولما كان تمسكه بأهداب الحكم، بعض أسباب ما وقع في بلادنا بعد ذلك، ولما كان الذريعة والمبرر للقضاء على الحياة الديمقراطية والدستور والشرعية بعدئذٍ مما سنتحدث عنه في حينه..

... وعرفت شاباً مفتوناً مغروراً، كانت كل قوته وفتوته وغروره في شعر رأسه مثل شمشون الجبار.. وقد نجح هذا الشاب نائباً في إحدى الدورات عن أحد أقضية دمشق، وأنشأ حزباً ضم بعض الشباب في حيّه لِالمهاجرين، وفي بعض الأحياء، وكان يتأنق كثيراً في ملبسه وتسريحة شعره، وكأنه ممثل سينمائي من هوليود، وكان يتنقل في موكب بالسيارات مع أنصاره وحرسه، ويتباهى بمظهره وشبابه وينشر جوّاً من الارهاب والرعب في دمشق، ويتهدد ويتوعد ويعتدي مع أنصاره على الناس، حتى ان رجاله قتلوا أحد طلاب الجامعة السورية في وضح النهار في شارع بغداد وهو المرحوم محمد علوش، لأنه ينتمي إلى حزب وجماعة الأستاذ أكرم الحوراني، وكان هذا الشاب المفتون، يدّعي أنه يدافع، بهذا الأسلوب عن العهد الوطني، وهو في الواقع، إنما كان يعجل بنهايته، وقد تحولت دمشق في مرحلة ظهور هذا النائب الشاب المفتون، ربما لأول مرة في تاريخها، إلى شيكاغو جديدة !!

... وعرفت بعض نواب العشائر، وكانوا لا يقرأون ولا يكتبون، وفي حالة من الأمية والتخلف يرثى لها، وكنت أراهم في مجلس النواب يبصمون بأصابعهم ويرفعون أيديهم، مؤيدين حكومات العهد الوطني دون استثناء ودون نقاش ولا سؤال ولا استفسار، ويقضون مصالحهم في وزارات الدولة ودوائرها، وكانت هذه الحكومات تحافظ على اقطاعاتهم الواسعة من الأراضي مقابل ولائهم لها ومنحها ثقتهم الغالية، ولذلك لم تفكر حكومات العهد الوطني، حتى ولا مجرد تفكير، بإصدار قانون تحديد الملكية الزراعية أو توزيع الأراضي على الفلاحين !!

... وكان همّ نواب العشائر هؤلاء وغيرهم من نواب بعض المحافظات والأقضية والنواحي وجميعهم من الموالين للعهد الوطني، والمؤيدين له بلا حدود، نقل هذا الدركي أو ذلك الموظف، أو هذا الضابط أو مدير الناحية أو ذاك، من هذه القرية أو الناحية أو

البلدة، إذا ما خالف أوامرهم ورغباتهم، أو حاول أن ينصف فلاحاً بائساً من ظلمهم وجورهم وتصرفاتهم المذلة والمهينة!!

... وكان هناك أيضاً نواب الكتلة الإسلامية، وهم أربعة، وكانوا من الموالين للعهد الوطني والمؤيدين له على غرار نواب العشائر!!

... وكان هناك نائب عن أحد أقضية دمشق، يعمل «فُزَّيعة» لحساب الحكومة، وكان يدافع عنها دفاع المستميت والمستفيد، وكان في أقصى اليمين المتعفن والمتطرف، وكان لا يتورع عن سب وشتم نواب المعارضة، من الزنار ونازل، كما تقول العامة، وكان يشلع ويبلع لهم خلال جلسات المجلس، وكان يلقى لقاء ذلك التشجيع من الحكومة، وكأنه كان وكيلها، بهذه الطريقة الزقاقية، وكان يعطى جزاء ذلك المكافآت والضمانات من الحكومة بأنه سيظل نائباً على طول..، وكان هذا النائب في منتهى السفاهة والتفاهة واللسان الوسخ الطويل!!

... كان لي أخ في الدرك، وكان قائداً للفصيل، كما كان يسمى، في بلدة قرب حلب، وقد زرته ذات يوم، ووجدت عنده نائب المنطقة، وهو من عائلة كبيرة شهيرة، وكان ضخم الجثة جداً، له كرش كأنه قربة ماء كبيرة، وكان من نواب الحزب الوطني أو العهد الوطني الحاكم، وأراد هذا النائب أن يكرمني، إكراماً لأخي، وله عند أخي مآرب أخرى، فدعانا إلى مأدبة عشاء عامرة، فلما جلسنا أخذ يتحدث عن مغامراته وطرائفه وحوادثه وما وقع له من شؤون هذه الدنيا، وكان يظن أنه يُدخل السرور والفرح إلى نفوسنا وأرواحنا، ويزيل الكلفة بيننا وبينه، لنشعر وكأننا في بيتنا وأعز... فقال لنا وهو يهتز على كرسيه: إنه كان مع ابن عم له، يقصدان مساء كل يوم سبت من كل أسبوع، بسيارته الكاديلاك السوداء الكبيرة، إلى كازينو للقمار في لبنان، وكانا يحملان معهما في كل مرة، مبلغاً كبيراً من المال، وأنهما كانا يسهران ويقامران طول الليل، ويعودان في الصباح إلى بلدهما عن طريق طرابلس، وقد خسرا كل ما حملا من المال، الذي يكفي

حتماً لبناء مستشفى أو مدرسة في بلدته...

وقال وكرشه الضخم يهتز فتهتز له المائدة، أنه سافر مرة مع ابن عمه كعادتهما إلى لبنان ومعهما مبلغ كبير وعندما وصلا إلى الكازينو اقترح عليه ابن عمه، وكان «عاقلاً» أكثر منه، كما قال، أن يتناولا طعام العشاء في قاعة الروليت، والبكاراه... قبل أن يبدءا اللعب، ولكنه لرغبته الجامحة ومزاجه المضطرب، من أجل الحصول على الربح الخيالي، أصر عليه أن يؤجلا العشاء إلى ما بعد الانتهاء من اللعب، ووافقه ابن عمه احتراماً له!!. ولأنه من أهل الذوق والامتثال..، كماقال... وظلا يقامران ويدخنان ويشربان الويسكي حول مائدة القمار، حتى أصبح الصباح، وأشرق الفجر بنوره ولاح...، وحتى كانا قد خسرا آخر ليرة كانت باقية معهما!!.

.... واستبد بهما الجوع والارهاق والتعب، فاقترح عليه ابن عمه أن يعودا بسيارتهما الكاديلاك وفيها الوقود الكافي إلى بلدهما في الحال، قبل أن يموتا من الجوع !!

... وغادرا الكازينو، فلما وصلا طرابلس اشتد عليهما الجوع والعطش، فبصرا عند ساحة التل بأحد الصبيان يرتدي أسمالاً بالية، وهو يقف على الرصيف حافياً لا تكاد تعرف لون قدميه لكثرة ما غطتهما الأقذار والأوساخ، وأمامه عدة صناديق فيها زجاجات مملوءة بالمرطبات المعروفة والكازوز... وبجانبها طبق مملوء بالكعك والمناقيش بالزعتر والسماق... وأشارا إليه، فأسرع الصبي نحوهما وقد استبشر خيراً بهما، وحلم برزق طيب في هذا الصباح، ليرده في المساء على أهله وأخوته وأمه وأبيه الذين يتضورون جوعاً وينتظرون عودة ابنهم الصغير بفارغ الصبر ومعه بضعة قروش يشترون بها خبزاً وطعاماً لهم !!

وأخذا منه بعض الكعك والمناقيش وعشر زجاجات من المرطب «الكازوز» ثم قالا له بأن يذهب ويشتري لهما علبة سكائر من النوع الأجنبي الفاخر، فأسرع الصبي واشترى لهما ما طلبا ودفع ثمن

السكائر من جيبه، وهو يحلم بأن يجني ربحاً جزيلاً !!

... وبينما كان الصبي يقف عند باب السيارة وينتظر أن يدفعا له ثمن الكعك والمناقيش والمرطبات والسكائر، انطلقا بسيارتهما يسابقان الريح، والصبي يبكي ويلطم خديه ويقول لهما: (من شان الله، رجّعوا لي زجاجات الكازوز الفارغة على الأقل... والله صاحب المعمل سيقطع رزقي إذا لم أردّ له الزجاجات الفارغة....، أي صباح هذا الصباح الذي طلع عليكم وعليّ.. ولَكْ من شان الله لا تخربوا بيتي!!).

... وضحك هذا النائب الوطني... فالنكتة التي رواها، كما سمعنا، تبعث على الضحك في رأيه، ولكنه في رأينا ضحك يشبه البكاء والرثاء، لهذه الأمة التي ابتليت بأمثال هذا النائب الوطني... وابن عمه الشهم الكريم !!

وسألته، وأنا أكاد انفجر من الغيظ: (وعندما عدتما إلى الكازينو كالعادة في الأسبوع التالي، هل مررتما بالصبي وسألتما عنه، فلعله في السجن أو في القبر، أو في أي مكان يضم أمثاله من الأطفال المشردين والبؤساء والمساكين، وهل دفعتما له ثمن زجاجات المرطبات والكعك والمناقيش والسكائر... فأجابني وهو يلوح بيده، ويضحك من سؤالي ومني ومن هذا العالم: (لقد نسيناه ولم نعد نذكر من الحادث، غير هذه النكتة التي أرويها لكم لتضحكوا).. فقلت له: معك حق، إنها نكتة تضحك الثكلى... وقمت واتجهت نحو المغسلة القريبة، وأفرغت كل ما في جوفي مما أكلته وتناولته من طعام حرام على مائدة هذا النائب الوطني أي من المحسوبين على العهد الوطني، فلما عدت إلى المائدة عرف أخي ما بي فأشار إليّ وقمنا ومضينا في حال سبيلنا!!.

... وعرفت رجلاً أصدر جريدة معارضة، كانت تصدر مسائية، أي بعد ظهر كل يوم، وكان يشتم فيها ويسب رئيس الجمهورية، وكان الناس وهم يخرجون من أعمالهم وخاصة الموظفين منهم، يتراكضون نحو باعة الصحف ليشتروا هذه الجريدة، وليروا كيف يشتم

صاحبها، رئيس الجمهورية، دون أن يخشى شيئاً... والناس، في بلادنا، وربما في بلاد غيرها أيضاً، يحبون أن يتشفوا ويشمتوا من الرؤساء والحاكمين!!!

.. وكتب صاحب الجريدة هذا، ذات يوم، مقالاً تحت عنوان (العظمة لله).. تحدث فيه عن استقبال رئيس الجمهورية أثناء عودته من زيارة رسمية لإحدى الدول الصديقة، فشتمه وشتم الذين استقبلوه، وكاد يشتم أهل البلاد لأنهم لم يخلعوا رئيس جمهوريتهم بسبب زيارته لذلك البلد الصديق !!

.. لكن، من سوء حظنا، أن صاحب الجريدة هذا، ربح النيابة لكثرة ما شتم رئيس الجمهورية، وأصبح وزيراً للداخلية ذات يوم، بعد ذهاب العهد الوطني ووقوع عدة انقلابات في بلادنا، وقد عاد مرة من زيارة إلى الخارج، وعندما وصل جرى له استقبال، كان قد أمر به قبل وصوله، واكبته فيه الدراجات النارية، والحراس والزمامير والسيارات الحكومية التي لا يحصى لها عدد... وتذكر الناس وهم يرونه في موكب الزمامير والطرطيرات، الضخم هذا، ما كان قد كتبه عن استقبال رئيس الجمهورية ذات يوم... ثم لم يلبث هذا المفتري أن سقط سقطة مريعة وحوكم مع عدد من أمثاله بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليهم بالإعدام، لولا أن صدر عفو عنهم، فما كان منه، وقد رأى الموت قاب قوسين أو أدنى، إلا أن لزم داره ونسيه الناس، ومات بعد ذلك دون أن يسمع بموته أحد، لعلّ الناس يعتبرون ويأخذون درساً من حياته ومن موته، ويعرفون، ولو متأخرين، أن الحياة موقف صدق وشرف، وأنه لا ينفع فيها كيد ولا حقد، ولا شتم وسب وافتراء، وأن طالب الولاية، على أنقاض سمعة وكرامات الناس، وسمعة الوطن، لا يولى، ولا يجوز أن يحكم، فالحكم السليم الصحيح، لا يكون ولا يصح أن يكون بهذه الوسيلة أو تلك من وسائل التجريح والسب والافتراء «والمعارضة» المسفة والظالمة !!

... وأعرف نائباً لم يحمل رأسه المتعب منصب الوزارة عندما

اختير لها، وقد حدث أن جاء وفد رسمي من بلد صديق في زيارة رسمية لسورية، فأقام هذا الوزير حفلة رسمية تكريماً للوفد الضيف، ويبدو أنه عب كثيراً من الخمر، فضاع نصف عقله الباقي، بعد أن ضاع نصفه الأول من زمن بعيد، فوقف في الحفل وألقى خطاباً حيًّا فيه الوفد الضيف، ثم طلب من الحاضرين أن يشربوا معه نخب رئيس الدولة الصديقة.... ولم يستطع المسكين لشدة سكره، أن ينطق الاسم، بشكل صحيح فأثار ضحك الحاضرين، وأصبح ما قاله بعد ذلك، نكتة تداولها الناس، وما زالوا يتحدثون عنها وعنه !!

.. وأذكر أن جمعية في دمشق، كانت تسمى «جمعية نقطة الحليب»، أقامت حفلاً خيرياً في نادي الضباط في دمشق في صيف عام ١٩٤٧، وذلك للتبرع لمنفعة الطفل والأم، فلما كان اليوم التالي قامت مظاهرة من بعض أدعياء الدين، من المتعصبين والمستغلين، والنافخين في نار الفتنة، وشاركت فيها بعض الجمعيات والمعاهد التي كان بعض أساتذتها وشيوخها يميلون إلى الفرنسيين الذين رحلوا عن بلادنا إلى غير رجعة، وقد حنّوا إليهم، وتذكروا فضلهم عليهم، فاصطنعوا هذه الفتنة، فقد ساروا إلى دار الحكومة يهتفون بسقوطها، لأنها، على حد زعمهم، سمحت بحفلة جمعية نقطة الحليب، وأنه جرى فيها، والعياذ بالله تعالى... ما يخالف الدين، وأن السيدات اللواتي حضرنها كنّ متبرجات سافرات كاشفات عن نحورهن، ووصلت المظاهرة إلى دار الحكومة وقد استبد بالمتظاهرين الهياج والانفعال والتعصب، واستبدت بهم الحماسة، وكادوا يصلون إلى دار الحكومة، وكانت تضم في ذلك الحين، رئاسة مجلس الوزراء ووزارتي الداخلية والمالية، وأسرع السيد سعد الله الجابري رئيس الوزراء، وهو في شرفة مكتبه يرى ويسمع ويشهد ما يجري، وأمر رجال الدرك الذين يتولون الحراسة، باطلاق النار في الهواء لردّ المتظاهرين وتفريقهم، ففعلوا ولاذ هؤلاء بالفرار ولم تعد تجد لهم أثراً، ويبدو أن رصاصة طائشة لا يعرف أحد من أين جاءت أصابت

واحـداً من هؤلاء المتظاهـرين فقتـل وسقط أرضـاً، ثم حمـل ونقـل، وانتهى الأمر عند هذا الحد، وتم وأد الفتنة في المهد !!

... على أنني سأعود وأعرض لنماذج أخرى، من رجال السياسـة والحكم والأحـزاب، وربما عـدت أيضاً إلى بعض هـذه النماذج التي عرضتها الآن، ولغـيرها أيضـاً والتي عرفتهـا ومررت بهـا ومرت بهـا بلادنا، منذ عهد الاستقلال والجلاء، لأنني أحرص كثيراً عـلى إعطاء صورة صحيحة، بقـدر ما أستطيـع، عن هذه النمـاذج والعينات من بضـاعتنا، والتي لا بـد وأنها تحـوي فيمـا تحـوي، الغث والثمـين، والجيـد والفاسـد، والصالـح والطالـح، والعالم والجـاهل، والـوطني والانتهـازي، وإن كان علينـا أن نـروض أنفسنـا، من الآن، في هـذه الأوراق والمذكرات، على الإشارة إلى مثل هذه النمـاذج التي عرضنـا لبعضـها الآن!!..

* * * * *

.. كنت أتمنى أن لا تجنح المعارضة، أو أحد أطرافها، على الأصح، إلى البحث عن الخلاص من العهد الوطني، المحتكر الوحيد للحكم، عن طريق الانقضاض والانقلاب على الشرعية والدستور والديمقراطية، لأن هذا الأسلوب سيجر على البلاد الويلات، وستكون نتائجه أخطر بكثير، وبما لا يقاس، من التمسك بالسلطة وعدم التخلي عنها، وكان على المعارضة أو أحد أطرافها، أن تتبع الأسلوب الديمقراطي لتحقيق إرادة الشعب في التغيير، حتى لا يقع ما كنّا نحاذره ونخشاه، وهو قيام الدكتاتورية وتسلطها على شعبنا، وقيام عهود سوداء من الإرهاب وعدم الاستقرار ومن النيل من كرامة المواطنين ومن قيمة الإنسان وحريته، وإذا كان من السابق لأوانه الحديث في هذا الأمر الآن، فإن كل الدلائل كانت تشير إلى قرب الكارثة، التي لا خلاص لبلادنا وشعبنا منها إلاّ بمعجزة، ونحن لسنا، في جميع الأحوال، في عصر المعجزات الغيبية. وإنما نحن نقترب، مع الأسف، من عصر الانقلابات والقضاء على الحريات الديمقراطية وعلى الاستقرار، بل وعلى الإنسان الذي يريد أن ينعم بحريته وكرامته وأمنه وسلامته، خاصة بعد أن ناضل طويلاً من أجل السيادة والاستقلال والحرية !!

... وكنت أتمنى أن لا تخرج المعارضة، أو أحد أطرافها، على الأصح، على الأصول البرلمانية، مهما كانت الأسباب، لأنني كنت أحسّ، خلافاً لرأي كثيرين من السياسيين، خاصة الذين كانوا في المعارضة، أن الدكتاتورية إذا أخذت الحكم والسلطة في انقلاب تقوم به عند الفجر أو قبله أو بعده بقليل، فإنها لن تتخلى عن الحكم والسلطة لغيرها، ولن تفسح المجال للديمقراطية والحرية والشرعية أن تعود ولو ساعة من زمان، وأن البلاد، إذا وقعت الواقعة، سوف تئن

تحت نير الدكتاتورية وسوف تعاني إلى زمان طويل منها، ولن تجد سبيلاً إلى القضاء عليها، ما لم تقض هي على نفسها بنفسها، بعد أن تستنفد كل أغراضها وتستهلك كل أساليبها، في الارهاب والعذاب والقهر وهدم كل المقومات والقيم، وكل الآمال والأماني والأحلام، وبعد أن تترك البلاد وقد تمزقت شر ممزق وتهدمت ولم يعد فيها ما يدل على الحرية والحياة !!

واستبد بي الخوف على بلادنا من هذا الجنوح نحو الدكتاتورية، ومن هذه التصريحات التي يطلقها بعض أطراف المعارضة، وفيها التهديد بالانتقاض والانقضاض والانقلاب على الشرعية والدستور والديمقراطية !!

... وفي تلك الأيام، من عام ١٩٤٧ فجعت بوفاة أبي الشيخ الإمام وشيّعته حمص، بما يستحق من تقدير وتكريم، وقرعت أجراس الكنائس وارتفع الآذان في المآذن حزناً عليه... وأصبحت يتيماً بعده، رحمه الله، بقدر ما أحسن إلى بلده ووطنه وأمته..

.. وحدث بعد عودتي من مأتم أبي الشيخ الإمام، أنني طلبت من صاحب الجريدة التي كنت أعمل فيها، بعض أجري، وكان لا يدفع أجور المحررين إلّا بشق النفس، وكان ينفق أموال الجريدة على موائد القمار والخمر، وقلت له: أن عليّ بعض الالتزامات نحو أهلي بعد وفاة أبي) فقال لي، بكل الصفاقة والغلظة والوقاحة التي يمكن أن تجتمع في واحد مثله بلا حياء: (إنك كمن يقطع يده ويشحد عليها). ولم أتمالك نفسي، فبصقت في وجهه ولعنته وشتمته وشتمت أباه معه، وغادرت جريدته إلى غير رجعة، ولما مات، لم أنشر كلمة أرثيه بها، ولم أترحم عليه إلا الآن، رحمه الله !!

... وتمضي الأيام، وأسمع من بعض الذين يزورون دمشق من أهل حارتنا في حمص، أن أمي تبحث لي عن زوجة صالحة تسعدني وتعنى بي وتفرش لي الحرير.. وتقر عيني بها، وتكمل نصف ديني!!

... وكما كانت أمي على خطأ كبير، يوم أرادت أن تفرض عليّ

المشيخة والإمامة بالقوة، كذلك كانت على خطأ كبير عندما أرادت أن تزوجني، فالصحافة رغم ضخامة سمعتها.. لم تكن في بلادنا تدر على الصحفي مالاً وفيراً ولا رزقاً كثيراً، فقد كان راتبي لا يزيد على مائة ليرة في الشهر، كما قلت، لا أصل إليها أو إلى بعضها إلا بعد عذاب وصبر وانتظار... وأذكر أنني عملت في إحدى الصحف وكان صاحبها يدّعي الورع والتقوى، ومع ذلك، فلم يكن يدفع لي ولا لعمال المطبعة أجورنا، وكان كثيراً ما يأكل حقوقنا، فكان العمال يهربون من مطبعته ويبحثون عن العمل في غيرها، أما أنا فكنت أُضرب عن العمل، فإذا غبت إلى أن يدفع لي بعض أجري، وقف على الطريق العام قرب الجريدة، فإذا رأى طالباً يحمل كتبه استوقفه وسأله إذا كان طالباً جامعياً، فإذا قال نعم، شده من يده وأدخله مكتب الجريدة، وكان يتألف من غرفة واحدة، وألقى عليه محاضرة في أهمية الصحافة وأثرها، وما تدره من خير على أهلها...، فإذا وافق الطالب على العمل عنده، قضى عدّة أيام أو أسابيع بلا أجر، فإذا أراد أن ينصرف إلى دروسه وجامعته ويترك هذه الصحافة التي أورثته العذاب والعناء، أمسك صاحب الجريدة بتلابيبه وأخذ يرجوه أن لا يغادر العمل، فإذا طلب إليه أن يدفع له بعض الأجر، فرك صاحب الجريدة كفّيه وقال له (أنت الذي يجب أن تدفع لي تعويضاً، لأنني أعلمك الصحافة... وهي صنعة صعبة ولو دفعت لي مليون ليرة كتعويض... لبقي لي في ذمتك ملايين !!)..

.. ويخاف الطالب الجامعي أن يرفض صاحب الجريدة إطلاق سراحه، إذا لم يدفع له التعويض الذي طلبه... فيهرب من باب الجريدة ويولي الأدبار، وهو ينظر إلى الخلف مخافة أن يلحق به صاحب الجريدة ويمنعه من مغادرتها ويعيده إليها عنوة واقتداراً.. فإذا نجا الطالب، عاد صاحب الجريدة إليّ في غرفتي المتواضعة عند مدام فيكتوريا، في «عرنوس» يرجوني أن أعود إلى العمل، فإذا طلبت أن يدفع لي بعض أجري وعدني خيراً، دون أن يفكر في أن يدفع لي، ولو مائة ليرة، مما لي في ذمته الواسعة !!.

... في مثل هذه الأحوال الصعبة التي تعيشها الصحافة ونعيشها معها في تلك الأيـام، أرادت أمي أن تزوجني، من ابنـة الحلال، التي كانت تبحث عنها فلا تجدها !!

.. ورجوت أمي أن تمهلني ريثما أفكر في هذا الأمـر الخطير، وأن تصبر عليّ ريثما أتدبر أمري وأجـد بعض المال، وداراً تصلـح لتكون عشاً صغيراً قريراً، لهذا الزواج المبكِّر!!

... وذهبت مسرعـاً إلى ابن عم لي أقصّ عليه القصـة وأخبره بمـا عـزمت عليـه أمي من تـزويجي، ولامني ابن عمي كثيـراً، لأنني لم أتزوج تلك الصبية الحمصية الغنيـة التي أحبتني وخطبتني هي من أمي، بدلاً من أن أخطبها أنا من أهلها، وهربت منها دون سبب، وأنا متعلق ومعجب بها، فلما انتظرت طويلاً وصبرت صبراً جميلاً ويئست من عودتي إليها، وجدت لها رجلاً مناسباً وبدأت تستعد للاقتران به، واقترح ابن عمي، رحمه الله، أن يكتب رسالة إلى أبيها يتحـدث إليه عن رغبتي في العـودة إلى ابنته والـزواج منهـا، بعـد هـذه القطيعـة والجفـوة غـير المقصـودة ولا المتعمـدة وأنني أكن لهـا كـل تقـديـر واحترام...، وكتب الرسالة وجاءه الرد من أبيها يقول فيه أنه يـأسف كثيراً لأننا تـأخرنـا ولأن زواجها سيتم قـريباً، وأنـه كان عـليّ أن لا أتردد يوم رغبت ابنته بالزواج مني وسعت إليّ وانتظرتني طويلاً !!

... وبعد أيام معدودة، وبينما كنت عند ابن عمي في داره، خطر لي أن أخرج وأتمشى قليلاً عند الأصيل، وكان اليوم يوم عطلة الجـريدة التي أعمل فيها، ولم أكـد أسير قليـلاً حتى رأيت سيارة تقف قـربي وينـزل منها رجـل يتأبط ذراع صبيـة تلبس ثياب العـرس، ولم تكـد عيني تقع عليها، حتى عرفت أنها الصبية الحمصية التي هربت منها وابتعدت عنها، دون مسوغ أو سبب، والتي كتب ابن عمي منذ أيـام رسـالة إلى أبيهـا يخطبها إليّ بعـد فوات الأوان.. وهـاهي تصل مـع عريسها في تلك اللحظة من حمص، لقضـاء شهر العسـل في ضيافـة أحد الأقرباء !!

... وعندما رأتني توقفت وتسمرت في مكانها، وحاولت أن تنتزع يدها من يد عريسها، ربما لتتقدم مني وتسلم عليّ وتنضم إليّ، كما خيل إلي...، ولكنه شدها إليه وكأنه يزجرها فتمضي معه ويصعدان سلم الدار، وأخذت الصبية تتلفت إلى الخلف وتنظر إليّ، وأنظر إليها، وأنا لا أصدق،وربما هي، أن مثل هذا اللقاء يمكن أن يتم إلاّ في القصص الخيالية، لأننا لو كنا على موعد، لما جاء بهذه الدقة المتناهية.. ثم نظرت إليّ نظرة ذات معنى وكأنها تقول لي: (آه، يا حمصي، ما أجملك.. وما أجدبك..)!!

... وأصرت أمي على أن تزوجني، وكان أخي الكبير قاضياً في حماة، فاختارت لي صبية حموية أعجبت بها كثيراً، وأعجبت بي أكثر، وأحبتني حباً ملك عليها مشاعرها وحواسها، وخدعتها هذه الصحافة التي أعمل فيها، والتي تخدع كل من لا يعرفها، ولا يعرف بؤس وشقاء أهلها..!!

... ولشدة تعلق هذه الصبية بي وحبها لي، لم تسألني شيئاً مما تسأل الخطيبة عادة خطيبها عنه، مثل عش الزواج السعيد الذي أعده لها في دمشق، والأثاث الذي اشتريته، وماذا فعلت ليكون الأثاث فاخراً وجيداً، بل إنها لم تسألني ماذا تحب وماذا تريد وترغب ليكون كل شيء على ما يرام، إذ لم يكن يخطر لها أنني سأخدعها إلى هذا الحد الذي خيب كل آمالها وأصابها في صميم أحلامها وكبريائها وأخرجها عن طورها، وأثار ثائرتها وأعصابها وحولها إلى كتلة ملتهبة من الغضب !!

.. ولكني لم أكن أخدعها، في الحقيقة، وإنما كنت أظن أنني، وقد أحبتني سأتعاون وإياها على هذه الحياة، مادمت صحفياً ناشئاً، وما دامت هي أيضاً ابنة صحفي يعمل ويقيم في بلده ويكافح مثلي في سبيل النجاح !!

.. وكنت قد استأجرت دارا بسيطة متواضعة في عرنوس، ولم استطع أن أشتري أثاثاً فاخراً لها، فأنا مازلت أشق طريقي وأثبّت

أقدامي في الصحافة، وأحتاج إلى بعض الوقت لأحقق النجاح الذي أحلم به...

.. لقد استطاعت أمي أن تهون عليّ الزواج، والزواج كالموت (بدّو هزّ أكتاف) كما تقول العامة، فلما وصلت العروس إلى دمشق، ومضيت بها إلى تلك الدار البسيطة المتواضعة، نظرت إليّ، في مرارة وحقد، وقد خابت كل أحلامها وآمالها.. ولعنت الساعة التي عرفتني فيها، وأسرت الأمر في نفسها وتظاهرت بالصبر على ما أصابها، وعلى هذه الحياة التي انتقلت إليها، وعلى هذه الدار الفارغة التي نزلتها، ومنذ أول يوم من زواجنا السعيد هذا... نقمت عليّ وعلى الناس والحياة، وعلى حظها العاثر الذي أوقعها هذه الوقعة السوداء !!

.. والحقيقة أنني جنيت على هذه الصبية، فقد كانت تستحق رجلاً ثرياً غنياً قادراً على تحقيق أقصى السعادة لها، لا أنيقاً وسيماً، خدعها بشكله ومظهره وصحافته ووجاهته «الكاذبة»، وأحال حياتها إلى جحيم لا يطاق!!

.. ولقد تحولت هذه الصبية إلى كتلة ملتهبة من الأعصاب الثائرة المتوترة وبكت حظها العاثر لاسيما وأن كثيرين في بلدها، كما قالت، كانوا قد طلبوها من أهلها وألحوا في الطلب وبذلوا المستحيل للزواج بها، ورفضتهم رغم مالهم الكثير، لأنها كانت تحلم بإنسان مثلي في هيئته ووسامته وطوله، وعرضه، وحلاوته... وصحافته.. فلما فجعت بما رأت وشهدت، قالت لنفسها، وهي في غضب لاهب: (يلعن أبو الحلاوة وساعتها!!!)

... لقد كاد يشغلني الحديث حول زواجي، عن الحديث في هموم بلادي، التي تواجه من الداخل خطر الانقسام وجنوح أحد أطراف المعارضة إلى التحريض على الشرعية والدستور والديمقراطية وعدم مبالاة العهد الوطني بهذا الخطر الذي يلوح في الأفق ويهدد البلاد بالفوضى والدكتاتورية والارهاب والعذاب كما كانت تواجه من الخارج، الأحلاف العسكرية والضغط عليها للدخول فيها، خاصة

حلف بغداد، كما كانت تلوح في الأفق خيوط المؤامرة الكبرى التي أعدت لإقامة كيان صهيوني عنصري توسعي وعدواني، في قلب المشرق العربي، في فلسطين العربية ليكون «فُزَّيعة» وقاعدة عسكرية لأميركا والصهيونية العالمية للتآمر على البلدان العربية، وعلى السلم والأمن في هذه المنطقة وفي العالم !!

.. وعندما وقعت نكبة فلسطين وقامت إسرائيل عام ١٩٤٨، نتيجة هذه المؤامرة الكبرى التي حاكتها أميركا والصهيونية العالمية، ونتيجة ضعف العرب وتخاذل قادتهم وحكامهم وجهلهم وكذبهم على شعبهم وأمتهم، ونتيجة تخلفهم واختلافهم أخذت أفواج اللاجئين الفلسطينيين العرب، تصل دمشق، وبدأ هؤلاء الأخوة ينزلون تحت الخيام في مختلف أنحاء البلاد، وفي أطراف دمشق وضواحيها. وسمعت يومها من مصادر موثوقة أن بعض المتعهدين والمرتزقة من الذين كلفتهم الحكومة بشراء الخيام والأغطية لهؤلاء الأخوة، قد تلاعبوا بأسعارها، واستفادوا من أرباحها، ولم أكن لأصدق ما سمعت، إلى أن رأيت بنفسي وبعيني هاتين، ما أكد لي صدق ذلك، وعجبت كيف يمكن أن يبلغ الطمع والجشع هذا الحد، في بعض النفوس، وهل يصدق أحد أن يستغل بعض الناس، نكبة خروج ونزوح شعب عربي من دياره وأرضه ووطنه، على هذا النحو، لجني الربح، من بيع الخيام والأغطية والمواد الغذائية التي قدمت للأخوة الفلسطينيين، وإن كان هذا التصرف المخزي قد وقع على نطاق ضيق ومحدود جداً، وكان الذين قاموا به من السماسرة والوسطاء العاديين غير المسؤولين، وإن كان ذلك قد حزّ في نفسي كثيراً، ولم أجد تفسيراً له غير سوء الخلق وقلة الورع عند بعض الناس !!

.. وبينما كنت في مكتب الجريدة التي أعمل فيها في تلك الأيام من النكبة، دخل عليّ نفر من الاخوة الفلسطينيين يحملون في أيديهم عريضة طويلة عريضة... وكانوا يجرون أقدامهم جراً، ويبدو الحزن الفاجع في عيونهم، فقمت أرحب بهم وأشد على أيديهم، وأخفف مما

هم فيه، وذلك من خلال كلمات كانت عاجزة فعلاً، وكنت عاجزاً معها، عن وصف ما حل بهم، لا على أيدي العصابات الصهيونية النازية والمتوحشة وحدها، وإنما على أيدي الحكومات العربية أيضاً !!!

... وقرأت عريضتهم، وقد التفوا حولي وأحاطوا بي احاطة السوار بالمعصم، وتمنيت لو أحاطوا بالعدو الصهيوني النازي المستعمر، وانتصروا عليه، وانقذوا وطنهم وديارهم وبلادهم منه، بدلاً من أن يحيطوا بي وينتظروا ردي عليهم وعلى عريضتهم التي أذهلتني فعلاً وعذبني كثيراً ما جاء فيها !!

... كانت العريضة تقول ما يلي بالحرف الواحد: (لما كان الحكام العرب قد وعدونا بالعودة إلى بلادنا وأرضنا في فلسطين، بعد أيام معدودة من نزوحنا وخروجنا من ديارنا بناءً على طلبهم، ولما لم يفوا بهذا الوعد الذي يبدو لنا صعب التحقيق، فإننا نرجو، نحن سكان مخيم «خان الشيح» الواقع في جنوب دمشق ،أن تقدم لنا الدائرة المختصة بشؤوننا، وهي وكالة غوث اللاجئين، قطعاً مستطيلة من الحجارة السوداء، نبني بها قبورنا، ونغطي بها جثث موتانا الذين نحفر لهم في الأرض لنواريهم، فتأتي الكلاب الشاردة الجائعة وتستخرج جثثهم وتنبش التراب عنها وتجرها بأنيابها بعيداً عن المخيم وتأكلها !!

... ونشرت ما جاء في هذه العريضة، كما سموها، في الصفحة الأولى من الجريدة ووضعت لها عنواناً كبيراً مثيراً، وأردت من ذلك أن تصل هذه الصيحة إلى ضمير كل إنسان في العالم، وإلى أذن كل مسؤول ساهم، عن جهل أو علم، وعن قصد أو غير قصد، في هذه النكبة التي صنعناها نحن العرب، بتخلفنا وجهلنا وغبائنا وانفعالنا، وصنعتها أميركا والصهيونية العالمية، بعدوانها وعنصريتها وتخطيطها وتآمرها، مستغلة ما نحن فيه من اختلاف، وتمزق وتخلّف وجاهلية !!

... وفي اليوم التالي، أو الذي يليه، زارني في مكتبي موظف أجنبي من وكالة غوث اللاجئين، يرافقه موظف فلسطيني، وتحدثا إليّ عمّا

نشرته الجريدة وأبديا استعدادهما لزيارة مخيم «خان الشيح» على أن أكون معهما، لنطّلع على أحوال اللاجئين أصحاب المذكرة أو العريضة، وندرس مطالبهم ونتعرف على أحوالهم، ونحقق ما يمكن تحقيقه من رغباتهم ونزودهم بالحجارة السوداء المستطيلة، كما طلبوا، ليغطوا بها جثث موتاهم حتى لا تأكلها الكلاب !!

... وذهبنا إلى مخيم «خان الشيح» الواقع إلى الجنوب من دمشق، فإذا بي أمام رجال لا أدري كيف خرجوا من بلادهم وأرضهم، وكيف جاءوا ليعيشوا مشردين تحت الخيام، وفي العراء، وفي حر الرمضاء وزمهرير الشتاء، ولم يموتوا ميتة الأبطال دفاعاً عن أرضهم وديارهم؟؟ وهل سمع العالم أن شعباً يغادر وطنه وأرضه هرباً من الغزاة والمحتلين، مهما كان هؤلاء الغزاة والمحتلون أقوياء وأشداء وغلاظ القلوب والأكباد، ومهما كانوا وحوشاً آدميين وقتلة مجرمين !!

... وأخذ الأخوة الفلسطينيون يتحدثون، وكلهم فصيح منطيق.. ولم أر بينهم صامتاً عي اللسان !!

... وكان الموظف في وكالة الاغاثة ينظر إليّ، وكأنه يقول لي: (إنهم يجيدون الكلام ويتقنون الشكوى.. والذي يريد الحياة لا يشكو، وإنما يموت دفاعاً عن أرضه ويلتصق بها التصاق اللحم بالعظم.!!).

.. وكانوا ما زالوا يتحدثون إليّ بصوت مرتفع، وفي صخب وفوضى، فهذا يطلب من جاره أن يسكت ليتكلم هو، فلا تدري، وقد اختلط الحابل بالنابل، من الذي يتكلم، ومن هو صامت !!

... وأرثي لحالهم وحال أمتنا، ولا أعرف ماذا أقول لهم، فأنا أرى في وجوههم مسحة من الكآبة والهم والحزن والخيبة واليأس، خاصة أولئك الذين نزحوا وهم في سن الكهولة والشيخوخة، أما الأطفال، فقد كانوا دون السن التي تؤهلهم لمعرفة أسباب النكبة، وكانوا بين الخامسة والسادسة من العمر، وكانوا كالغراس الصغيرة الطرية المزروعة في الأرض الطيبة، ثم أتت ريح عاتية اقتلعتها من مكانها وطوحت بها بعيداً !!

... ونظرت غير بعيد، فإذا طفل يحبو أمام خيمة أبيه اللاجىء الفلسطيني العربي المشرد، ونظرت إلى عينيه وحدقت فيهما ملياً، وهالني ما رأيت فيهما، رغم كل براءة الطفولة... رأيت شرارة من الغضب والثورة، تنطلق منهما، وكأنها تقول لي: (لا بد من أن تصبر علينا حتى نكبر ونستطيع حمل السلاح، وعندئذ سترى كيف سنصبح ثواراً وفدائيين وأبطالاً... وكيف سنكون نار المقاومة الفلسطينية وزندها وحديدها وأملها في التحرير والعودة، وكيف سننتزع حقنا المشروع المهدور من بين مخالب وأنياب الصهيونية العالمية وإسرائيل العنصرية العدوانية !!)...

... كان حلم اللاجئين الفلسطينيين في مخيم «خان الشيح» وغيره من المخيمات أن يغطوا جثث موتاهم حتى لا تأكلها الكلاب، ثم بعد عقد من الزمن بعد النكبة، يصبح حلم جيل الثورة الفلسطينية التي انطلقت من قلب اليأس والهزيمة المرة، العودة والتحرير وحق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية على أرض وطنهم !!

.. وتعلمت من عيون هذا الطفل الذي كان يحبو أمام خيمة أبيه اللاجىء الفلسطيني الذي كان يرتعد من الجوع والبرد، أن الشعوب لا تموت، وأن إرادتها هي المنتصرة، مهما طالت أيام الظالمين والمستعمرين والمحتلين والغزاة المتوحشين، وأن هذا الطفل العربي الذي يحبو تحت هذه الخيام التي تهزها الرياح وتكاد تقتلعها مع أهلها، لن تهزه أو تهز جيله الثائر، ولن ترده عن غايته وهدفه العظيم، في التحرير والعودة والنصر، آخر الأمر!!

... وهذا الذي رأيته في خان الشيح، في تلك الأيام السوداء الحالكة من عام ١٩٤٨ لم يكن شيئاً مصطنعاً وإنما كان رداً حاسماً على كل محاولات الاستسلام والتخاذل وكل مؤامرات الصلح الذليل، مع عدو توسعي عنصري عدواني، جعلت منه أميركا مخلب قط للانقضاض على حركة التحرر الوطني في المنطقة، وعلى الشعب

العـربي، وعلى سـورية العقبـة الكأداء في وجـه العدوان الصهيـوني والاستسلام !!

... ولقد صدق ذلك الطفل الفلسطيني الذي كان يحبو أمام خيمـة أبيه اللاجىء، وعده وعهده، وقام مع ملايين من جيله وشعبه بثـورته الفلسطينية الباسلة، ضد الاستعمار وإسرائيل!!..

* * * * *

١٨

.. في تلك الأيام العصيبة والصعبة التي أعقبت نكبة العرب في فلسطين، وسبقت وقوع الانقلاب العسكري الأول، الذي طبخته وأعدته الولايات المتحدة الأميركية، كما سنرى عند الحديث عنه، كنت أعاني أيضاً أياماً عصيبة وصعبة، وكدت أنوء بما أحمل !!

... فقد انتقلت من تلك الدار التي تزوجت فيها، كما قلت، إلى دار صغيرة اقتطعها أصحابها من دار كبيرة قديمة، في حي المهاجرين، واعتبرت زوجتي أن الانتقال إلى هذه الدار، نعمة كبرى، لأنها تخلصت على الأقل من تلك الدار البائسة...

... والحقيقة أن بعض زملائي الصحفيين كانوا في حالة أفضل من حالتي وكنت أسأل كيف يحصلون على المال، وأنا لا أحصل عليه، وهل أنا فاشل في عملي الصحفي، وأدّعي أنني ناجح، وهل النجاح يعني أن أعطي ولا آخذ، وأن أدفع الكثير من وقتي وجهدي وحياتي وشبابي دون مقابل، حتى عرفت أن بعض الصحفيين يتناولون بعض المال من جهات ومصادر مختلفة، فلماذا لا أكون مثلهم فأفرج عني وعن زوجتي وعن هذا القادم الجديد الذي ما يزال في أحشائها، لم يولد ولم يخرج الى العذاب والشقاء بعد، وإنما هو في طريقه إليهما...

... ولكني لم أفعل ما كان يفعل بعض زملائي، ولم أشأ أن أحصل على المال الذي يحصلون عليه، وفضلت أن أعيش عيش الكفاف، على أن أمد يدي إلى ما مدوا إليه أيديهم، ولم أكن وحدي الذي سلك هذا السلوك واقتنع ورضي به، واتخذه نهجاً وطريقاً في حياته، فهناك بعض الصحفيين مثلي، بل هم أكثر تعففاً وزهداً!!

.. وبينما كانت سورية تعيش على أعصابها، بين مطرقة المعارضة وسندان الحكم.. كانت أميركا تعد عدتها للاطاحة بالعهد الوطني

وبالنظام الديمقراطي لتحمل سورية قسراً وكرهاً على السير في ركابها، ولتحقق أهدافها فيها !!

... ولقد شهدت واقعة لا بد من الاشارة إليها هنا، وأنا أنقلها لكم، لأضع أمتنا وشعبنا وأجيالنا القادمة، أمام الحقيقة وجهاً لوجه، ففي ذات يوم كنت في قصر الرئاسة بالمهاجرين، أبحث كالعادة عن خبر جديد، وقيل لي إن السفير الأميركي سيقابل رئيس الجمهورية بناء على موعد سابق، وجلست عند أحد الموظفين في القصر، أنتظر نتائج المقابلة لأنشر بعض ما ستحمله مما يصلح ليكون خبراً صحفياً !!

.. وكانت الصحف قد أشارت قبل ذلك بفترة إلى أن أميركا طلبت، توقيع اتفاقين بين الحكومة السورية وبينها، يتعلقان بالسماح لشركاتها النفطية وعلى رأسها شركة أرامكو وشركة التابلاين، المتفرعة عنها، بإنشاء ومرور وبناء أنابيبها عبر سورية، ولإيجاد مركز لها، يكون بداية تعاون مع أميركا، ويجعل لها منفذاً مباشراً أو مدخلاً مباشراً إلى سورية !!

... ولما كان الرئيس شكري القوتلي، رحمات الله عليه، وطنياً وورعاً وتقياً، فقد رفض العرض الأميركي وقال للسفير الأميركي بصراحة: (إن الشعب السوري نال استقلاله بعد تضحيات جسيمة وعناء طويل وسيل من الدماء لم ينقطع، ولا يمكن أن أعيده من جديد إلى القيود التي تحرر منها والتي تحد من حريته واستقلاله أو تودي بهما، لأن حرية الشعب فوق كل شيء وفوق كل اعتبار !!) ...

... وكتبت في أوراقي ما قاله الرئيس القوتلي للسفير الأميركي، كما نقلها إليّ أحد كبار موظفي القصر الجمهوري، ولم أكد أفعل وأتصل بالجريدة التي أعمل فيها لأنقل إليها الخبر حتى سمعت حديثاً يدور في أروقة القصر، وأكده أكثر من مصدر موثوق يومئذٍ، يقول بأن السفير الأميركي خرج مستاءً من المقابلة، وأنه قال عند انصرافه في انفعال وغطرسة وحماقة: (إذا لم يوقع الرئيس على الاتفاقين

المذكورين فسوف يأتي غيره ويوقع عليها!!).

... وتساءلت الأوساط الرسمية والشعبية: (ترى من هو الذي سيأتي ويوقع الاتفاقين المذكورين مع أميركا؟؟).

... وعرف الجميع الجواب.. ولكن أحداً لم يكن يخطر له في بال أن يستطيع (حسني الزعيم) القيام بمغامرة من هذا القبيل في سورية، إذ المعروف أنه مكشوف، ولكن أحداً لم يكن يعرف أن عملاء أميركا كانوا يعدونه إعداداً جيداً مستغلين جو النقمة على العهد الوطني، والتي أثارتها هذه المعارضة التي تعقد حلقاتها في المقاهي، والتي لم تكن تفكر في غير إسقاط العهد الوطني، ولو بالقوة، وكانت قد باشرت فعلاً التحضير والتحريض على ذلك، وساهمت بطريقة غير مباشرة مع أميركا على تنفيذ مؤامرتها على سورية، بعد أن عجزت عن تحقيقها قبل ذلك، لكن المضحك المبكي، أن الذين كانوا يعدون للانقلاب كانوا يستغلون النقمة الشعبية بسبب نكبة فلسطين... وأميركا هي التي كانت وراء النكبة في فلسطين !!

.. وحتى يستطيع المغامر المجنون أن يتذرع بهذه الذريعة لتبرير قيامه بانقلاب خططت له سلفاً دوائر المخابرات المركزية الأميركية وأعدته إعداداً جيداً، لتحقق من ورائه هدفها الكبير، وأمة بخلق جو من عدم الاستقرار في سورية والمنطقة يساعد بالتأكيد على تحقيق أهداف الصهيونية وأميركا وإسرائيل في سورية وفي هذه المنطقة من العالم !!

... وفي تلك الفترة العصيبة المشحونة بالنقمة وبالشائعات عن قرب وقوع انقلاب عسكري في سورية، ورغم كل ما كان يصل إلى المسؤولين وعلى رأسهم المغفور له السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية، الذي يصلح في رأيي ليكون قديساً لا ليكون رئيساً، من تقارير تؤكد أن حسني الزعيم يستعد للقيام بانقلاب عسكري، يشفي غليله ويحقق أحلامه القديمة، وكان مرسوم تسريحه في مكتب ودرج رئيس الجمهورية الذي دعا إليه الزعيم وأخرج مرسوم

تسريحه وقال له في طيبة متناهية، ولا أقول غير ذلك، احتراماً لهذا الرئيس ولنضاله العظيم: (هذا مرسوم تسريحك يا حسني، وقد رفضت توقيعه، فاذهب إلى عملك، واطرح من رأسك الأفكار الشيطانية وإياك والتفكير بعد الآن فيما كنت تفكر فيه، فثقتي بك ما تزال في محلها)... و«طَبَّش» شكري القوتلي، القديس لا الرئيس، على ظهر حسني الزعيم، فانصرف هذا، وقد ازداد تصميماً على الانقلاب، لاسيما وهو مرتبط بهذه المؤامرة الأميركية الكبرى ارتباطاً وثيقاً !!

... وفي تلك الأيام السوداء الملبدة بالغيوم، اشتد الخوف على هذه البلاد، لما يُحاك لها في السر والعلانية، ولما تلاقيه على يد بعض أبنائها، وعلى يد أعدائها المتربصين بها، من دسّ وتآمر، ومن نشر للشائعات وإثارة للفوضى، رغم أنه لم يكن قد مضى على استقلال سورية سوى ثلاث سنوات تقريباً، لا تعد شيئاً مذكوراً في حياة الأمم والدول التي استقلت والتي تحتاج إلى عقود طويلة من السنين، لتصل إلى أهدافها في الاستقرار والازدهار والتقدم!!.

* * * * *

١٩

.. ووقع الانقلاب الأول، الأسود والمشؤوم، صباح الأربعاء ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩.... وضحكت من شدة الألم، كالطير يرقص مذبوحاً، فها هي الدكتاتورية قد حلت ببلادنا أخيراً، لتسلبها الأمن والاستقرار، ولتسرق النوم من عيون أطفالنا ونسائنا وشيوخنا ورجالنا...

... وها هو الخوف، الذي لم نعرفه في أشد أيام الاستعمار، ينشر ظله الثقيل بيننا ولا يكاد يفارقنا في ليل أو نهار، ولا في نوم أو يقظة، ويشل إرادتنا وتفكيرنا، ويقتل روح الإنسان فينا!!

.. وعندما استمعت إلى البلاغ رقم واحد من الاذاعة يعلن وقوع الانقلاب، وهو بلاغ لا يصدر إلّا عن مغامر ومقامر ببلاده، مستهتر بشعبه وأمته، متلاعب بها وبمقدراتها، أدركت هول الكارثة التي حلت بأمتنا وشعبنا... وخطر لي في الحال هذا السؤال: (ترى هل خطر لهذا المغامر أن ينقلب على فرنسا عندما كان يخدم في صفوفها... وهل انضم إلى شعبنا لمقاتلة ومحاربة الاستعمار الفرنسي، ليأتي الآن ويدافع عن شعبنا وبلادنا؟؟؟)!!

... وفي أقل من ساعة ظهر شبح الارهاب والدكتاتورية، وتم وضع الدستور والقانون وكل المبادىء والقيم الحرة والديمقراطية، على الرف بجانب مكتب الزعيم، وانتشرت أجهزة القمع وسقط كل شيء له صلة بالقيم والخلق، سقطة مريعة، وحلت السعاية والوشاية والدس والوقيعة والنيل من كرامات الناس وحرمات البيوت، محل الديمقراطية والقانون، وسارت مواكب النفاق على قدم وساق، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي هؤلاء الذين لم يهدأ لهم بال، حتى رأوا سورية، الحرة المستقلة، والآمنة المطمئنة، تقع فريسة سهلة في قبضة الدكتاتورية المأفونة والمجنونة !!

.. وكان أول ما فعله الزعيم، ليرتاح... ويتخلص من المـزعجات... أنه أمر بإلغاء الصحف، لأنه لا يحب كل هـذا «العلاك المصـدِّي».... كما قال !!

.. ومنذ اللحظة التي قام فيها هذا المغامر والمقامر المجنون، بفعلته هذه، أصبحت الطريق إلى دمشق، غير التي سارت عليها أمتنا وسـار عليها شعبنا طـوال الحقب والعصور، فقـد جعل الـزعيم الطريق إلى دمشق، سهلـة هيِّنة عـلى المغامـرين والمقامـرين بعده...، وكنت منـذ اللحظة الأولى للانقـلاب، على يقـين لا يتسرب إليه الشـك بأن طـريق التقـدم والازدهار والاستقـرار، يمر عبـر الـديمقـراطيـة الصحيحـة والسليمـة والكريمـة، ولا شيء غيرهـا، في الحقيقة، يحـل مشكلاتنـا، ويبلغ بنا غاياتنا في بناء الدولة المتحضرة والمتقـدمة، وتحقيق الحيـاة الحـرة الكـريمـة، وأن كـل المحـاولات التي تمـر عبـر الانقـلابـات والمغامرات، يـائسة وفـاشلة وقـاتلة لـروح الحياة والتقـدم في شعبنا وبلادنا، وستكون سبباً في تأخرنـا وتخلفنا وتعـرض شعبنا وانسـاننا للارهاب والعذاب، ومحاولة قتل روحـه وتدمـيرها وإذلالهـا، وستكون عبئاً علينا وعلى بلادنا وعلى قضية التقدم والاشتراكية والحرية، وعلى الانسان بالذات، حيث يفقد كل قيمته وكرامته ومبرر وجوده، وابداعه وصنعه للحياة وبنائه لهـا وتقدمـه من خلالهـا نحو أقصى أهـدافه في الحياة الحرة والعيش الكريم !!

... وعدت إلى داري، وأغلقت ورائي الباب، وأحكمت إغلاقه، فقـد شعرت بأن كل أبواب الدور في بلادي، سوف تكون مباحة لكـل طارق ولكل من يريد فتحها عنوة والدخول من خلالها دون أن يرعى حـرمة لها أو للناس الـذين فيها، وسـوف يحمل النـاس منها إلى المعتقـلات والسجـون ودور التوقيف بـالقوة وبـالضرب وبكل أسـاليب الإرهـاب والإذلال!!!.

... وبقيت مع أهلي خمسة عشر يومـاً منذ وقـوع الانقلاب، ونحن نأكل الزيتون الأسود المملح مـع الخبز اليـابس، ونضيف إليه بعض

الزعتر.. وفي تلك الأيام الصعبة التي لا عهد لي ولا لشعبي بمثلها من قبل، تعمقت إلى الأبد روح النضال من أجل الديمقراطية والتقدم في ضميري وروحي ووجداني !!

.. وكان الزعيم قد عين غداة الانقلاب مستشارين، أولهما أكرم الحوراني، الذي كان المحرض الأول على الانقلاب، والثاني علي بوظو من حزب الشعب اليميني، وكانا في حالة من الفرح يظنان معها أن الزعيم لا يلبث حتى يعود إلى مكانه الأول ويسلم السياسيين الحكم والسلطة... ولكن الأمر لم يطل بهما ولا بالذين كانوا وراءهما، فقد طردهما الزعيم من خدمته واستبد بالحكم والسلطة وحده، وهو أمر طبيعي بالنسبة إليه!!.

.. وعندما اعتقل الزعيم، رئيس البلاد الشرعي السيد شكري القوتلي، وألقى به في سجن «المزّة»، أخذت هذه الضاحية الجنوبية من دمشق، تكتسب شهرة عالمية، عربياً ودولياً... وصار الناس يتوجسون خيفة من أن ينقلوا إليها بين عشية وضحاها، دون ذنب أو سبب... وهانت الحياة كثيراً، واستقال الرئيس شكري القوتلي، وهو معتقل في سجن المزة، بعد أن هدده الزعيم بالقتل، ولكنه لم يقدم استقالته للزعيم وإنما قدمها للشعب السوري، باعتباره مصدر السلطات... وبلع الزعيم الاهانة على مضض !!

... ويروى بهذه المناسبة على لسان المرحوم الأستاذ فؤاد محاسن، وكان من كبار القضاة، أن الزعيم دعاه إليه وكلفه بأن يترأس محكمة تحاكم السيد شكري القوتلي فاعتذر وقال له: (وماذا فعل لنحاكمه، لقد وجدت اللجنة التي شكلت للتحقيق في ثروته أنه لا يملك سوى خمسين ليرة سورية وجدت في بيته، أم تريد أن نحاكمه لأنه كان مناضلاً ضد الاستعمار، أم لأنه كان يدافع عن حرية واستقلال وسيادة سورية). فضحك الزعيم، ثم قال لفؤاد محاسن: (وكيف يمكننا أن نضحك على هذا الشعب ونخدعه ونقول له أننا قضينا على الفساد ؟؟)فقال له فؤاد محاسن: (من الخير لك أن تطلق

سراحه وتطلب إليه مغادرة البلاد).. وفعل الزعيم ما أشار به هذا القاضي، وغادر الرئيس شكري القوتلي البلاد إلى مصر، حيث عاش في المنفى عدة سنوات، ثم عاد إلى البلاد حيث انتخب رئيساً للجمهورية من جديد، تكفيراً عما فعلته به وبالأمة والشعب، هذه الانقلابات التي توالت يومئذٍ على البلاد، حتى كان الناس يودعون بعضهم بعضاً عند المساء قائلين: تصبح على انقلاب، فيرد الآخر ضاحكاً: وأنت من أهله !!

....وما أزال أذكر أن حسني الزعيم، عقد مؤتمراً صحفياً في رئاسة مجلس الوزراء بدار الحكومة على ضفة بردى بعد انقلابه بثلاثة أيام، وكانت بيني وبينه معرفة، فلما تقدم أحد المصورين ليلتقط له صورة، قال لي وهو ينفخ أوداجه وبطنه: (كيف تراني؟ ألا أبعث الرهبة والخوف في النفوس؟؟ ألست بسمارك العرب؟؟ إصبر عليّ قليلاً وسترى كيف سأصبح أمبراطوراً).فقلت متهكماً، وهو لا يدري: (.. طبعاً وهل الامبراطور أحسن منك؟)... وعاد يقول لي في لهفة وكأنه أصيب بمسّ من الجنون المطبق، أكثر مما هو مجنون: (قل لصاحبك المصوّر هذا يلتقط لي عدة «بوزات»، يظهرني فيها كامبراطور، حتى يخاف الشعب مني ويرتجف ولا يقف في وجهي؟؟) وأتبع ذلك القول بشتيمة مقذعة لهذا الشعب الطيب البريء الذي كان الزعيم ينظر إليه نظرة استخفاف، ويقول عنه إنه شعب يجب أن تجره بالرسن من رقبته مثل الحمار!!

.. وكان من عادة الزعيم أن يقول ذلك، عن شعبنا، لا في مؤتمره الصحفي هذا، والذي كان يتحدث إليّ خلاله عن صوره وأمبراطوريته وبسماركه...، وإنما كان يقول مثله في كل مناسبة لأنه هكذا يفهم الشعب، ولأنه هكذا كان ينظر إلى الشعب، وإلا لما جرأ على أن يضرب ضربته المجنونة، ويفعل فعلته التي كلفت بلادنا وشعبنا غالياً من حريته وكرامته وعيشه وحياته !!

... أمر حسني الزعيم بأن يحملوا إليه من حلب واحداً، من حزب

الشعب، سمع أنه يسخر منه، فلما فعلوا وأدخلوه عليه، قال له الزعيم بسخفه المعروف: (روح تلحس.....)!!!، وطلب إلى الحراس أن يعودوا به من حيث أتى، فقد قال له ما كان يريد أن يقوله له...، وضحك الحراس وهم يغادرون مكتب الزعيم، وضحك معهم كل من سمع القصة..!!!

.. ويقول الأستاذ نذير فنصه، عديل الزعيم ومستشاره، في كتابه عن أيام حسني الزعيم، إن سامي الحناوي الذي قام بالانقلاب الثاني ضد الزعيم وقتله، كان قبل ليلة من انقلابه عليه، يسهر معه سهرة ممتعة، ويرقص أمامه وقد ربط منديلاً حول وسطه، وهو (يهز ويخلع)!!

... وقيل لحسني الزعيم، بأنه لا بد له من السماح بجريدة أو جريدتين، بعد أن ألغى الصحف كلها غداة الانقلاب، لتنشرا أخباره والبرقيات التي تؤيده وتدعو له بالنجاح... والتي انهالت عليه مثل «زخّ» المطر...، فسمح لجريدتين بالصدور !!

.. ولم يلبث الزعيم غير قليل حتى وقّع على اتفاقيتي التابلاين وآرامكو مع أميركا !!

... وكان صاحب الجريدة التي كنت أعمل فيها بعد أن سمح الزعيم بأن تستأنف صدورها لتسبح بحمده، قد عثر على كلمة اكتشفها خياله الخصب.. فتمسك بها، وأخذ يرددها كل يوم في مقالاته التي بدأ يكتبها بعد الانقلاب، ليقول أنه هو الذي بشر بالانقلاب ودعا إليه وعمل له !!

... أما تلك الكلمة «الخالدة»، فهي: (ضعوا الفؤوس في الرؤوس)... وكان أكثر ما يعجبه فيها، هذا السجع الذي يصور التخلف والجهالة والجاهلية وروح الدكتاتورية والاضطهاد والظلم، في اختصار شديد !!

.. وكان يقول لي أنه لكثرة ما ردد هذه الكلمة في مقالاته، وقع

الانقلاب لأن الرؤوس بحاجة إلى من يحطمها بالفؤوس... وكان يضيف قائلاً: (إذا ما خربت ما بتعمّر)..

... وكان يحملني بسيارته الصغيرة في بعض الأحيان إلى داري، لأسكت ولا أطالب بأجري، وكان يقول لي: (دخيلك.. لمن أجمع المال؟، أليس لكم أنتم؟؟، ألستم أنتم أصحاب الجريدة؟؟ ألا نعمل معاً، كما ترى، على أساس من الاشتراكية التي تؤمن بها وتدافع عنها؟؟) فأقول له ضاحكاً، وأنا أكاد أتمزق من الغيظ: (دخيلك، يا أبا العز، أنا رأسمالي أمبريالي رجعي استعماري غربي يميني.. بس اعطيني حقي وأجري حتى أستطيع أن أعيش وأعمل... إنك تريد قطاً من خشب يصطاد ولا يأكل !!)..

... كنت أعمل في الجريدة، محرراً ورئيساً للتحرير، ومصححاً للأخطاء المطبعية ومستمعاً إلى نشرات الأخبار، حتى وضعت نظارات طبية على عيني من الارهاق، وكانت هيئة التحرير تتألف من شخصين فقط، صاحبها الذي يجمع المال لنا، كما قال، وأنا!!!

... وكان رئيس العمال، وأذكر أن اسمه محمد الفقش، يرتب صفحات الجريدة ويُعدها للطبع، فإذا أرسلت إليه «بروفات» تصحيح الأخطاء المطبعية، ألقاها في برميل للمهملات كان يقبع بجانبه، فتصدر الجريدة إلى الأسواق وهي تغصّ بالأخطاء،ولكن الغريب، أن صاحب الجريدة، كان يشجع رئيس العمال على فعلته لأنه يريد أن تصدر الجريدة بسرعة لتلاقي الرواج الذي كان يحرص عليه ولو على حساب كل الأخطاء المطبعية في الدنيا، وقد تعلمت كثيراً من هذا العمل الذي كنت أقوم به وإن كنت أعرف أنني بعد أربعين عاماً ما أزال أجهل الكثير، بل وأجهل نفسي التي بين جنبي !!

... وكنت أقول لصاحب الجريدة، وهو يبدأ ويعيد ويجتر ويكرر كل يوم وفي كل عدد من الجريدة، كلمته المأثورة، ضعوا الفؤوس في الرؤوس...: (أتعرف يا صاحبي أن قيام هذا الكيان الصهيوني الأميركي العدواني في خاصرة سورية في فلسطين قبل عام أو يزيد

قليلاً، ليس هو وحده الهدف، وإنما الهدف أيضاً سورية، وأن غاية أميركا هي إضعافها والقضاء على جذوة النضال الوطني المتقدة فيها، ولا يحقق هذه الغاية، سوى وضع سورية على طريق الفوضى والاضطراب والدكتاتورية والارهاب وهذا الانقلاب!!)..

... وقلت له: (يا صاحبي.. إن أميركا تبحث في كل مكان من العالم، عن مغامرين ومجانين، يهدمون صرح الديمقراطية، ويزهقون روح الشعب ويقومون بانقلابات تهدم صرح الاستقرار وتقضي على كل أمل في التقدم والازدهار بأيديهم، بينما تتظاهر، بل تتبجح بأنها حامية الديمقراطية في العالم، وبينما يغط تمثال الحرية في نيويورك في نوم عميق) !!

.. وأمام هذه الحقيقة الصارخة التي أظهرت أميركا على حقيقتها وبوجهها المزور المقنّع بألف قناع، اضطر أحد أعضاء مجلس الكونغرس الأميركي إلى التصريح بأن المخابرات المركزية الأميركية، بالاتفاق مع الادارة الأميركية في البيت الأبيض، تقوم بإعداد الخطط لكل الانقلابات العسكرية في كل مكان من العالم، خاصة في دول أميركا اللاتينية ودول العالم الثالث الأفريقية والآسيوية، وتمول هذه الانقلابات وتنفق عليها وعلى أصحابها، وتشجّع كل مغامر حاقد على القيام بها، ولذلك فإن أميركا تمثل الوجه الحقيقي للدكتاتوريات ولأنظمة القمع في العالم !!

... ويقول عضو الكونغرس الأميركي: (لقد فقدنا في الحقيقة، كل القيم والمبادىء والأخلاق، ولم يعد يصدقنا أحد عندما نقول بأننا حماة الديمقراطية والحرية في العالم، ونحن أول من يغتالها ويقضي عليها ويدفع الأموال الطائلة للخلاص منها)!!

... وقررت أن أكتب في الجريدة خواطر تحت عنوان «حديث دجاجة»، واستخدمت فيها كل ما قدرت عليه من أسلوب الرمز والاشارة والتلميح دون التصريح، حتى لا أوقظ الوحش في الغابة من نومه وغفلته...، وتناولت فيها الانقلاب وزعيمه وأميركا التي لم توفق

في الحقيقة في اختيارها له، وإن كانت قد وفقت تماماً، في القضاء على الحرية والديمقراطية والنظام والدستور والقانون والاستقرار في البلاد، واعادتها إلى شريعة الارهاب والقوة والظفر والناب، وحرمتها الاستقرار وعرضتها لأفدح الأخطار، وحاولت أن أختفي وراء هذه الدجاجة الفصيحة، من عين وقلم الرقيب، الذي كانت تصله نسخة مسودة من الجريدة، وبعد أن يقرأها ويدقق في كل سطر وخبر واعلان وحرف فيها، يردها إلينا وهي مختومة وعليها توقيعه الكريم !!

... إلى أن كان ذات يوم... وتنبه الرقيب، أو أن أحداً من أولاد «الحلال» نبهه-وما أكثر أولاد الحلال في عهود الانقلابات والدكتاتوريات-فعادت نسخة الجريدة وقد امتلأ «حديث دجاجة» بالخطوط الحمراء، وبجانبه تحذير شديد، ما عليه من مزيد... إذا أنا عدت وكتبت على لسان هذه الدجاجة اللعينة ما كتبت، وإلاَّ «مَصَعْنا» رقبتك ورقبتها في الحال)... أما ماذا كتبت، فقد قلت ﻷ أن الأمة التي يحكمها الخوف والرعب، لا تستطيع أن تواجه الحياة !!

... وذعر صاحب الجريدة، وخاف على رزقه ورقبته، ونصحني بالبعد عن الكتابة بعض الوقت، لأن العين أصبحت حمراء علينا.!!

.. وتمكنت عندئذ من رقبة صاحب الجريدة، فقلت له، وأنا أضحك، ربما من شدة الخوف،: (اسمع يا صاحبي، إما أن تدفع لي أجري، أو أستمر في كتابة «حديث دجاجة»، ولو أدى الأمر إلى أن نذهب معاً، ورجلي ورجلك... إلى بيت خالتنا في المزّة.. حيث يحمل الناس إليها بالشاحنات. كل ساعة ولحظة، ارضاء لمزاج الزعيم، الذي تمنى، ذات يوم، أن يحكمه الله في رقاب الناس في هذا البلد ثلاثة أيام، فاستجاب له ربه الشيطان الأميركي وحكّمه في هذا البلد المنكود الحظ، ثلاثة أشهر بدلاً من ثلاثة أيام، شفّى فيها حقده ونفث سمّه وكيده وحقق حلمه، ثم قُتل شر قتلة، ومات أبشع ميتة) !!

... وأخذ الناس، يتندرون على حسني الزعيم، وينسجون حوله

الحكايات والنكات، وهذه علامة صحة وعافية، عندما تضحك الشعوب من الدكتاتور، خاصة إذا كان مثل حسني الزعيم، الذي أضحك حتى الثكالى بتصرفاته وحركاته وإشاراته و«تلحيساته» التي لا تنتهي !!

... سمعت الزعيم، بعد ثلاثة أيام، على ما أذكر، من قيامه بالانقلاب، يقول: (ما بدّي شوف، لا مثقف، ولا مفكر ولا فيلسوف على وجه الأرض، هؤلاء علاكين لا يصلحون لشيء)... ولذلك، فقد ترك ذات يوم، في ساحة الأركان القديمة، التي حل محلها الآن أحد الفنادق، عدداً من رجال الفكر والقانون وأهل العلم والرأي، ينتظرون دون أن يرضى بمقابلتهم في أمر جاؤوا من أجله، وأرسل رجاله يقولون لهم، على لسان الزعيم: (..أنه غير فاضي.. لأكل الهوا والعلاك المصدي !!).

... ولشدة ما قاسى الناس، من هذا الانقلاب، في حريتهم وكرامتهم وحياتهم بعد أن كانوا في واحة ظليلة من الحرية والديمقراطية، رغم كل شيء، وبعد أن وجدوا أنفسهم في هذا الجحيم المقيم من العذاب والارهاب والخوف، صاروا يتحدثون همساً، وفي جد يخالطه شيء من الهزل، وشيء كثير من المرارة: (ترى لماذا لم يخلق الله الانسان بجناحين يطير بهما ويتنقل ويهاجر وينزل حيث يحلو له النزول فوق أرض الله الواسعة، ويهرب حيث يستطيع الهرب، من الظلم والجور والارهاب؟؟ ولماذا لا يكون كالطير، يبحث حيث يشاء عن أمنه وسلامته ورزقه، ويتجنب في هجرته وتنقله الموت من الخوف والذل والهوان) !!

... وتذكر الناس أول محاولة لطيران الانسان بجناحين، عندما قام بها عباس بن فرناس، وحزنوا لأن المحاولة فشلت، ولو نجحت ولم يسقط، رحمه الله، دون غايته، لكان الناس قد صنعوا أجنحة يطيرون بها، ولكانوا هربوا من جحيم الانقلابات والمغامرات ولعب «الأولاد» وتخلصوا من الرعب والعذاب والارهاب، الذي قلب حياتهم رأساً على

عقب، ولم يعد أحد يأمن فيه على نفسه وأهله وجيرانه، آناء الليل وأطراف النهار، ولكن حكمة الله أرادت أن يخلق الانسان بدون جناحين وبدون ذيل أو ذنب أيضاً، وذلك لغايتين عظيمتين كريمتين:

أولاهما: ليظل الانسان ملتصقاً بأرضه ووطنه حتى يكون مع مجموعة من الناس، أمة، وبذلك تكون نشأة الأمم وتطورها عبر العصور، مهما توالت عليها الأحداث والحروب ومهما تكالبت وتألبت عليها صروف الزمان، حتى الذين يهاجرون في وسائل المواصلات المختلفة منذ عصور بعيدة وحتى الآن وإلى آخر الزمان، لا يلبثون إلاّ قليلاً، حتى يشدهم الحنين إلى أوطانهم من جديد مهما كانت أوطانهم تعاني من العسف والظلم والاضطهاد:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي..

وثانيهما: أي ثاني السببين، أن المخلوقات ذات الأذناب، لا تمت إلى الانسان، والحمد لله، بصلة قريبة أو بعيدة، والذين أرادوا عبر التاريخ الطويل أن يتخذوا من الناس أذناباً وتابعين لهم، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، رغم كل عصور العبودية والرق، لأن الإنسان ثار عليها وحطّم قيودها وأعلن أنه حرّ، كلما أرادوا أن يستمروا في استعباده واضطهاده، وإذا رأيت بعض الأذناب في مؤخرة بعض الناس، فاعلم أنها مركبة تركيباً ومصطنعة اصطناعاً !!

... عيّن زعيم الانقلاب أحد رؤساء الوزارات السابقين، محافظاً لحلب، ونائباً للحاكم العرفي فيها، وما هي إلاّ أيام، حتى غضب عليه واتصل به وقال له: (روح تلحس...)، فأجابه هذا بكلمة أشد وأبشع وأقذع... فقال له الزعيم: (اذهب إلى سجن المزة وحدك في الحال، ولا تدع أحداً يأخذك إليه وإلاّ علقت رقبتك بالمرجة)!!

... وقد سمع رئيس الوزارة السابق والمحافظ، قول الزعيم، وطلب إلى حراسه أن يذهب بمفرده وبسيارته الحكومية الرسمية الى سجن

المزّة، وأوصاهم أن لا يحملوه إلى مكتب الزعيم في دمشق عندما يصلون إليها، حتى لا يأكل، على حد قوله (كام لحسة من العيار الثقيل) !!

... وهكذا أصبحت البلاد.. وعلى هذا المستوى أصبح الحكم في ظل الدكتاتوريات والانقلابات، حتى أخذ الناس يرددون في مرارة ويأس قول الشاعر العربي:

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه..

.. وصار الزعيم رئيساً للجمهورية عن طريق استفتاء مباشر وحرٌّ جداً)،، نال فيه من الأصوات نسبة عالية جداً أيضاً، وأراد أن يبني قصراً، فبنى له قبراً... وقام صديقه وأعز أصحابه (سامي الحناوي) بانقلاب عليه، وكان الانقلاب هذه المرة على يد عملاء بريطانيا وحلف بغداد، الذين ظنوا أن بريطانيا على خلاف مع أميركا، أو أنها يمكن أن تخرج على طاعتها وأوامرها أو أنها ترفض زعامتها وسيطرتها !!

.. وأراد (سامي الحناوي) أن يجرب لعبة إعادة الحكم المدني، وأن يؤلف حكومة، وأن يعيد العمل بالدستور المقبور، أو يصنع دستوراً جديداً، ولكني وكل الناس الواعين، لم نكن نصدق ذلك، ولم نكن نحفل قط بمثل هذه المسرحيات والتمثيليات، ومع ذلك فلا بد لي هنا من الإشارة إلى أن حكومة تألفت يومئذ برئاسة الدكتور معروف الدواليبي، من حزب الشعب، وقام هذا الرجل رغم كل شيء، ببادرة طيبة تستحق التسجيل والاهتمام، وتعتبر مأثرة له،لا تنسى، ورغم أنني أعرف جيداً ويعرف شعبنا، أن هذه الحكومة أو غيرها من الحكومات التي تقوم تحت مظلة الانقلابات وفي ظل الدكتاتوريات: لا حول لها ولا طول، فقد أدلى الدكتور الدواليبي يومئذ بتصريح صحفي خطير، طالب فيه بكسر احتكار السلاح، وشرائه من الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي لمواجهة التآمر الاستعماري والصهيوني على أمتنا، فأحدث تصريحه ضجّة كبرى كانت سبباً

مباشراً بعد ذلك لاقالته وإبعاده عن الحكم، ورغم أنه بعيد بطبيعة الحال... وقام الانقلاب الثالث بزعامة الشيشكلي، ونقل الكرة من جديد، من ملعب بريطانيا إلى الملعب الأميركي، وأعادها، كما كانت في عهد الانقلاب الأول !!

... كما قامت في أيام انقلاب (سامي الحناوي) حكومة برئاسة السيد حسن الحكيم، وكان، رحمه الله، من غلاة اليمين العربي الموالي للغرب ولحلف بغداد، ورغم جو الانقلابات والدكتاتوريات الرهيب، والضغط الشديد على الحريات، قامت مظاهرة وطنية تعالى الهتاف فيها بسقوط حكومة حسن الحكيم، وسقوط حلف بغداد الاستعماري، ونشرت خبر هذه المظاهرة والتي لاحقتها السلطة بقسوة، في الجريدة التي أعمل فيها، ولم تكد تصدر إلى الأسواق، حتى استدعاني مدير الشرطة والأمن العام السيد محمود شوكة، وسألني عن المظاهرة التي قامت ضد حكومة حسن الحكيم وكيف نشرت خبرها في الجريدة، وأثنى على سياسة حسن الحكيم الموالية لبريطانيا والغرب وحلف بغداد، ثم طلب من ضابط لديه بعد أن استدعاه إليه تسجيل اسمي، لأنني نشرت فقط خبر المظاهرة، في سجل الشيوعيين، وتعميم ذلك على السجلات الأخرى لدى الدوائر المعنية، وقال لي بغلظة: (ما دمت ضد الأحلاف والغرب، فأنت حتماً شيوعي)!!

وبعد يومين أسقط شعبنا، رغم كل الارهاب، حكومة حسن الحكيم، وغادر رئاسة الوزارة إلى غير رجعة، ولم يكن قد أمضى فيها سوى أيام !!

... عندما قام الشيشكلي بانقلابه الثالث في سلسلة الانقلابات، نصب هو الآخر نفسه رئيساً للجمهورية.. في استفتاء حر أيضاً، وأنشأ حزباً سماه حزب التحرير وتنكر لقريبه وزعيمه السابق السيد أكرم الحوراني، الذي سماه الناس «عرّاب» الانقلابات فأضمر السيد الحوراني الأمر وأسره في نفسه، وظل يحرك ويهز الأرض تحته، حتى

حقق الانقلاب عليه، بعد ثلاث سنوات قضاهـا الشيشكلي في الحكم، وجـاء الانقلاب الـرابع عـلى الشيشكلي هـذه المرة من حلب... وحلب أخت دمشق، كما نعرف، وقام به أحد أنصار السيد الحوراني، وهـو السيد مصطفى حمدون !!

.. أذكر هنا، ونحن يـومئذ في جحيم الانقـلابات والـدكتاتـوريات، وشعبنا يلاقي منها الأمرين، وبلادنا تعاني منها كل صنوف الشقـاء والبلاء، واقعة ضحكت لها سورية طويـلاً، رغم أنها كـانت قد نسيت الضحكة والبسمة، وغاضت من شفاه أبنائها.... فقد كان الشيشكلي، كما هو معروف، من حماه، وكان أحد بـاعة المشمش يمـر قريبـاً من داره التي كانت تقوم على ما أذكـر عند السبـع بحراتْ؛ فـأخذ بـائع المشمش ينادي على بضاعته، وهو ينتهر حماره، قائلاً بأعـلى صوتـه: (آخـر أيامـك يا حمـوي.. آخر أيـامك يـا حموي).. وكـان المشمش الحموي، وما يزال، مثلاً في الجودة والحلاوة وطيب المذاق والنكهة،.. فلما سمعه الشيشكلي أرسل رجاله فاعتقلوا البـائع المسكـين، وأودع سجن المزة، ولم يخرج منه، إلا بعد أن خـرج الشيشكلي من البـلاد، بعد أن وقع عليه الانقلاب من حلب، كمـا قلت، على يـد أحد أنصـار ورجال السيد أكرم الحوراني، الذي كان يريد السلطة والحكم، وكان يحرك الانقلابيـين ويوغـر صدور المغـامرين، ليستـولوا عـلى الحكم، وليسلمـوه إياه، ليصبـح رئيسـاً للبـلاد، وهـو حلم، مـع الأسف، لم يتحقق له، لأنه سار إليه في طريق مسدود!!.

* * * * *

.. كان الشيشكلي، بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية، قد أصدر قانوناً جديداً للمطبوعات، فلما أطلعني مدير الدعاية والأنباء الأديب والقاص الكبير الصديق المرحوم الأستاذ فؤاد الشايب، على هذا القانون، قلت له: (ولماذا لا أطلب الترخيص لي باصدار جريدة؟؟).. فشجعني، رحمه الله، وطلب إليّ أن أتقدم في الحال بطلب للحصول على الترخيص، ففعلتُ ووافق على الطلب، وأصبحت صاحب ورئيس تحرير جريدة دمشقية مستقلة سميتها «الطليعة»، فلما علم الشيشكلي، رحمه الله، بالأمر، عتب على الأستاذ الشايب لأنه منحني الترخيص، وقال له: (إنني أصدرت القانون للحفظ في الأدراج لا للتنفيذ، ولغاية إعلامية دعائية لأثبت أنني أقمت نظاماً دستورياً ديمقراطياً !!)..

.. وقد رد عليه الأستاذ الشايب قائلاً: (لماذا لا ننفذ قانوناً أصدرتموه وأكدتم فيه أنكم تؤمنون بحرية الصحافة والكلمة، وبالديمقراطية؟؟؟).. فسكت الشيشكلي على مضض...

.. ولما عدت إلى داري وأخبرت زوجتي الثائرة عليّ وعلى الناس وعلى هذه الحياة، أنني أصبحت صاحب ورئيس تحرير جريدة، قد الدنيا... أقامت عليّ الدنيا وأقعدتها وأخذت تتهمني كعادتها بالجنون.. إذ كيف أصدر جريدة وأنا لا أملك ولا أجد ما أشتري به الطعام لأولادي !!

... ووضعت كفها على خدها، ونظرت إلي نظرة، قطعت بها، والله، نياط قلبي !!

.. وقالت لي، وقد عقدت حاجبيها، يا عاقد الحاجبين: (واأسفا على يوسف.. ويا ضيعة عقلك... وشبابك، يا عدنان، بالأمس كنت مجدوباً وتحملتك.. واليوم أصبحت مجنوناً، ولازم لك (مرستان)، ولقد صبرت

على فقرك طويلاً، أما على جنونك فــلا... طلقني، بحق الله، وردني إلى أهلي وبلدي... فقلت لها على الفور وأنا أضحك: (ألف غرض مثل هذا الغرض... غالي وطلب رخيص)... ولم أرها تضحك كمــا ضحكت تلك اللحظة.. أما أنا فبكيت من الفرح !!

... كنت قد ورثت ثلاثــة آلاف ليرة ســورية، وكــانت تحكي في تلك الأيام، كما تقول العامة، وكانت تساوي خمسين ألفــاً من ليرات هــذه الأيام، وذلك من حصــة دار أبي الشيخ الإمــام، رحمه اللــه، بعد أن بعناها لأخ لنا كان يسكنها منذ وفاته، وكنت أعرف أن هذا المبلــغ لا يكفي لاصدار جريــدة، إلا إذا أضيف إليه العــزم والإرادة والاصرار عــلى النجاح مهمــا كلف الأمر، وإلا إذا وقف إلى جــانبه عنــاد مثل عنــادي، وعشق للكلمـــة والحـــرف وتعلق بهـــا، مثـــل حبي وتعلقـــي واستشهادي في سبيلها !!

.. واستأجرت مكتباً في بناء جديد يقع في شارع البرازيل، وجهزته بمــا أمكن من أثاث، وتعــاقدت مــع عــدد من المحــررين والمــوظفــين الاداريين، وبحثت عن مطبعة ووجدتها بالقرب من مكتبي، في شــارع الفردوس !!

... وصدر العدد الأول من جريدتي (الطليعة) في ١٧ كانون الأول ١٩٥٣، وفي صـــدر صفحتــهـــا الأولى مقـــال بعنـــوان (قيصر وأهـــل الرأي).. وكان مما جاء فيه: (وقد يصطنــع القيصر دستوراً وبــرلمانــاً ليختفي وراءهما، وليمارس تسلطه وارهابه من خلالهما..)..

.. وقرأ الشيشكلي المقال، أو جاء أولاد «الحــلال» به إليــه ليقرأه، واتصل بالأستاذ فؤاد الشايب، وســأله عن معنى نشر هــذا المقال في أول عــدد من الجريــدة التي جرى التــرخيص لهــا بمــوجب قــانــون المطبــوعات الجــديد، فــأجــابــه: (أنتم، يــا سيــدي لستم القيصر ولا الامبــراطور ولا الــدكتــاتــور، والمقــال لا يعنيكم، لأنكم رئيس شرعي منتخب بطريقة ديمقراطية، ومن الشعب مباشرة) !!

.. وصدّقه الدكتاتــور، أو تظاهــر بتصديقــه، وسكت على مضض،

ومر المقال ومررت معه ومرت جريدتي الوليدة الجديدة بسلام...

.. وقال لي صاحب المقال يومئذٍ: (إن جميع الصحف رفضت أن تنشر مقاله خوفاً من بطش الشيشكلي، وأنني وحدي جازفت بكل شيء ونشرته)، وكان ذلك، في رأي صاحب المقال جرأة وشجاعة !!

.. ولا ريب أن حماسة الشباب، وإن رافقها بعض الانفعال، تصنع الأعاجيب، وتجعل المستحيل ممكناً، وقد كان إقدامي على إصدار جريدة، وأنا ابن سبعة وعشرين عاماً، وفي دمشق التي تمور وتغلي بالأحداث كالمرجل، وبكل ما هو خطير وكبير من الأمور، كان مسألة في غاية الصعوبة، خاصة وأنا لا أملك من المال ما يجعل مهمتي أخف وأسهل، ومع ذلك فقد كنت أجد هذه المهمة الصعبة في هذه الظروف الصعبة، في غاية السهولة والبساطة، رغم أن الآلاف الثلاثة من الليرات السورية التي ورثتها، والتي لم أكن أملك سواها، قد نفدت كلها، ولكنني لم أكن أفكر، حتى مجرد تفكير، بأن هذا المبلغ من المال قد نفد، لأنني كنت أملك روحاً مفعمة بالآمال والعناد والاصرار، ونفساً أحبت الكلمة والقلم والحبر والورق، وعاشت معها منذ الطفولة، وعشقتها وعشقت معها هذه الصناعة السوداء، كما تسمى الصحافة بحق، حتى أصبحت تجري في عروق هذه النفس وهذا الجسد، مجرى الدم وتسري فيهما مسرى المخدر والنيكوتين في دماء الحشاشين والمدخنين المدمنين !!

.. وقلت في أول عدد صدر من جريدتي «الطليعة» يومئذٍ: (إنني مستقل وإن جريدتي مستقلة، وإنني لا أعبر فيما أكتب عن رأي حزب معين وإنما أعبر عن رأي كل وطني تقدمي، لكن بعض أو أكثر من كانوا يقرأون جريدتي، ويعجبون بها أو لا يعجبون... كانوا يظنون أنها شيوعية وأنني شيوعي، لأنني كنت أبشر بالاشتراكية، وأدعو إليها.. وإذا كنت قد اخترت لنفسي وجريدتي طريق الاستقلال التام، فلأني أعرف نفسي، فأنا أريد أن أكون حراً كالهواء، ولهذا أردت أن أكون مستقلاً في جريدتي وفي رأيي وكلمتي، وأن أكون

صـديقاً وفيـاً لكل التقـدميين والـوطنيين، ولكـل المناضلـين والأبطال والشرفـاء في أمتي وشعبي وبـلادي، وفي كـل الشعـوب والبلـدان الاشتراكية والبلدان المناضلة في سبيل الحرية في العالم، وسأبقى مـا حييت ذلـك الانسان المؤمن بـالحريـة والديمقـراطيـة والاشتـراكيـة والسلام، فلا تثريب علي إذا كنت مستقلاً، لا أنتمي لحزب أو فئـة أو جماعة، وقد ارتضيت ذلك لنفسي بمحض إرادتي وبكـل الصدق مـع هذا الانسان الساكن في أعماقي وفي داخلي وفي ذاتي !!).

... ولا بـد أن من كان عـلى شـاكلتي، وكـانت لـه جـريـدة مثـل جـريدتي، سيـلاقي في حياتـه، وفي عمله كثيـراً من العناء، وأول مـا عـانيته بعـد صدور الجـريدة، هـو الشح في مـواردها، فـالاعلانـات ومخصصاتها من مختلف الشركات والمؤسسات والجهـات، وحتى من الـدوائر الـرسمية كـانت ممنـوعـة عنهـا لكي تتـوقف عن السـير في سياستها التقدمية والوطنية، لكن ما كان يحزنني، أن عدداً كبيراً من الأصدقاء والمشتركين التقدميين والوطنيين، كانوا يكتفون بكيل الثنـاء والمديح علي وعلى جريدتي، ولا يدفعون، على الأقل، اشتراك الجريـدة التي تصلهم، فـإذا جاء إليهم منـدوبها، قـالـوا لـه: (سلم لنـا عـلى الأستـاذ.. وقل لـه الله يعطيـه العافيـة ويقويـه على هـذه الجريـدة المحترمة !!).

.. وكان المندوب يعود إليّ غاضباً وثائراً علي، وعليهم وعلى الجريدة ويقولُ لي: (قطعت رزقنا، يا أستاذ، لأن أحداً لا يدفـع لنا الاشتـراك أو الاعـلان، لا الأعـداء ولا الأصـدقـاء، فمن أين نـدفـع نفقـاتهـا ومصاريفها)؟؟.

.. وكنت أضحك وأصبر، فأنا أعرف أن طريق النضال شاق، وأن الدعوة التي تـدعو إليهـا جريـدتي تلاقي كثيـراً من العداء من كـل أعداء الاشتراكية والتقدم والسلام والحرية، وأن القضية التي ندافع عنهـا، تحتاج إلى أعصـاب من فولاذ، وإلى نفس أبيـة لا تغريهـا كل

أمـوال الدنيـا أمام كلمـة حق تقولهـا في وجه أعـداءالحريـة والخير والاشتراكية والسلام !!

مشيناها خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشاهـا

.. وقـد اكتفيت بالمـوارد المحدودة، وكنت أدفـع تكاليف الطبـاعة والتحرير وثمن الورق، واحتفظ بمبلغ قليـل أنفقه عـلى أسرتي وبيتي، وكنت مع ذلك كله، أحس بالسعادة والراحـة، وأؤمن بأن البقـاء آخر الأمر للاصلح والأفضل، مهما بدا الأمـر غير ذلـك في بعض الظروف والأحوال!!

.. كنا نعمل في الجريدة، أسرة واحدة منسجمة، وكنت إذا انتهيت من عملي قبل الفجر، أذهب مع بعض المحررين والموظفين إلى المطبعة، لأحضر ولادة العدد الجديد كل فجـر جديـد، حتى إذا اطمأنت نفسي إلى سلامة العمل وانجازه، أمضي مع من كان معي، في شـارع بغداد، في ليالي الصيف الدمشقية الرائعة، فإذا رأينا بائـع (صبارة) جـالساً على كرسيه حول (فرش) كبير من الخشب تربعت فوقـه ألواح الثلـج وفوقها حبات (الصبارة) الحلـوة اللذيـذة، وتناثـرت حولهـا الكراسي والأزهـار، جلسنا وأخـذ يقطع لنـا بسكينه، حبـاتها الكبـيرة الحلوة المذاق والمثلجة، والتي يصر صـاحبها عـلى أنها (مـزّاوية) نسبـة إلى ضاحية المزة في دمشق، والتي كانت أرضها تزدحم بحواكير وبساتين هذه الثمرة الشوكية التي لا أعرف أهميتها الغـذائية، ولا أظن أنهـا ذات أهمية غذائية... ثم ننقده ثمن ما أكلنا من صبارته، بعد أن يعد قشورها ويحصيها ثم يلقيها جانباً، ونمضي بعد ذلك في طريقنا كل إلى داره، ونحن نتحدث عما في العدد الجديـد من الجريـدة، من تعليقات ومقالات وأخبار، وكانت سعادتي في هـذه المرحلـة من حياتي وحيـاة الجريدة لا توصف، فقد شعرت بأنني أؤدي واجبـاً علي نحـو شعبي وأمتي والانسانية، وكنت أحس، وأنا أعبر عن رأيي في جريدتي، كمـا أعتقد وأؤمن، أنني ملكت الدنيـا وما فيهـا، وإن كنت في الحقيقة، لا

أملك منها شيئاً... وكنت أحس، مع ذلك، أن هذه السعادة لن تدوم طويلاً، وأنه لا بد سيعقبها شقاء وعناء، ولا أعلم من أين سيكون مصدرهما، ولكنني كنت قد تعودت على تبدل الأيام والأحوال، وأنه لا شيء، خاصة في بلادنا وبلدان العالم الثالث التي ابتليت بالانقلابات والدكتاتوريات، يظل على حاله أو يتطور ويتقدم نحو الاستقرار، وأن أيامنا مثل أيام شهر شباط، دائمة التقلب والتبدل، كثيرة العواصف والأمطار... وقد علمتنا الأحداث المتلاحقة والانقلابات المتوالية، أن لا نأمن شرها، وما يأتي به غدها المجهول والمتقلب والمتلون، كالحرباء.!!

.. في هذه الفترة التي صدرت فيها جريدتي بين عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٨، ومضت تشق طريقها بين زحمة من الصحف التي كان يزيد عددها على ثلاثين جريدة ومجلة في دمشق وحدها، وأكثر من خمس عشرة جريدة ومجلة في المحافظات السورية الأخرى، وقعت أحداث خطيرة أعرض لها هنا لأنها ذات صلة مباشرة ببلادنا وقضايا أمتنا !!

... ولا شك أن الانقلابيين المغامرين، الذين تعودوا على لعبة الانقلابات، حتى صارت تسليتهم المفضلة، كانوا قد تعبوا لشدة ما أصابهم، ربما قبل غيرهم، من الاضطهاد والإبعاد والتسريح والاعتقال والقتل والاغتيال !!

.. وخلال هذه الاستراحة التي اختارها المغامرون، بعد الانقلاب الرابع على الشيشكلي وهربه، جرت انتخابات نيابية في عام ١٩٥٤، وقامت حكومة ائتلافية من الأحزاب السياسية في البلاد، وبموافقة الحزب الشيوعي ولكن دون اشتراكه فيها، وانتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للبلاد، كما نجح في هذه الانتخابات النيابية عدد من زعماء وقادة الأحزاب الوطنية والتقدمية، بينهم زعيم الحزب الشيوعي السوري الأستاذ خالد بكداش، وأعضاء من حزب البعث العربي الاشتراكي، وبعض النواب التقدميين والمستقلين !!

... وبالنسبة لانتخابات رئاسة الجمهورية، فقد كانت المعركة بين

السيد شكري القوتلي، والسيد خالد العظم، الذي كان رئيساً للحكومة في العهد الوطني، عندما قام الانقلاب الأسود الأول، ولكن الغريب، والسيد خالد العظم من كبار الاقطاعيين والملاكيين، ومن أكبر الأسر الأرستقراطية العريقة في دمشق، ومن السياسيين المحافظين، أن التقدميين، رشحوه للرئاسة الأولى ضد السيد شكري القوتلي، بحجة أنه أصبح، بين ليلة وضحاها، تقدمياً !!

.. وكان الرجل، رحمه الله، قد نال أكبر عدد من أصوات الناخبين في الانتخابات النيابية التي جرت في ذلك الحين، حيث صبّ التقدميون أصواتهم له ولعدد من المرشحين التقدميين الآخرين !!

... لكن السيد شكري القوتلي، كان مقبولاً أكثر، لأسباب كثيرة ولدوره البارز في حركة النضال الوطني ضد الاستعمار، وقد أراد الناس أيضاً، أن يعيدوا إلى هذا الرجل الوطني والمناضل، اعتباره ويعيدوا إليه رئاسته التي أجبر على التخلي عنها، بفعل الانقلاب الأول عليه وعلى البلاد، فأجمعوا على أنه خير من يصلح للرئاسة، وأذكر، وأنا نادم أشد الندم، أنني نشرت في جريدتي يومئذ على عرض وطول الصفحة الأولى، بخط كبير وبالحبر الأحمر عنواناً قلت فيه: (القوتلي مرشح التجار..)!!

.. وبينما أنا في مكتبي صباح اليوم التالي، رن جرس الهاتف، وجاءني صوت واثق هادىء مؤمن يقول لي: (أنا شكري القوتلي، يا ابني عدنان)... فقلت له في ارتباك (أهلاً فخامة الرئيس)... فقال: (يابني إنك من بيت وطني وأهلك من رجال الكتلة الوطنية في حمص، ولكن حماسة الشباب دفعتك إلى القول بأنني مرشح التجار.. سامحك الله، يابني، وأرجو أن تدرك الحقيقة في يوم من الأيام، ولو بعد فوات الأوان... ثم ودعني فخامته وأغلق الخط وتركني في دوامة من الخجل والاضطراب !!

... وأذكر أنه شغر في تلك الفترة مقعد نيابي في كل من دمشق وحمص، ورشحت الأحزاب التقدمية أحد المحامين البعثيين عن

دمشق، وهو الأستاذ الصديق رياض المالكي، كما رشحت أحد اليساريين، وهو الصديق السيد أحمد الحاج يونس في حمص، وكان للمرشح الأستاذ المالكي، منافس خطير هو زعيم جماعة الاخوان المسلمين الذي رشح نفسه عن دمشق، ومن الطبيعي أن أقف وتقف جريدتي «الطليعة» في صف الأستاذ رياض المالكي، ضد المرشح الآخر الذي فشل في الانتخابات فشلاً ذريعاً، فاخترت عنواناً كبيراً في صدر الصفحة الأولى من الجريدة اقتبستها من آية من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم.﴾حتى أنها ذهبت مثلاً في ذلك الحين لكثرة ما تداولها الناس بينهم...

.. وكان زعيم حزب «يصطفلوا»(*)، وهو المرحوم «أبو حسن رمضان» من أصدقاء الأستاذ أكرم الحوراني وجماعته، وحزبه الذي اخترعه وأعلنه حزب لا يتعاطى السياسة لا من قريب ولا من بعيد، وكان أبو حسن، رحمه الله، يلبس لباساً عربياً حموياً، ويدخن التبغ الحموي اللف، وكثيراً ما تجده في مقهى البرازيل، أو الكمال، وهو في حالة ذهول من عجائب الدنيا السبع... فإذا سألته عن السياسة، وهو أمي، ابتعد عنك ورفض أن يتحدث إليك وهدد بطردك من حزبه، إذا سألته عن السياسة مرة أخرى لأن شرط الانتساب إلى حزبه، هو عدم العمل في السياسة على الاطلاق !!

... وهكذا كان حزب «يصطفلوا»، غير خاضع لرقابة الرقباء ولا لملاحقة الأجهزة المختصة، وهو الحزب الوحيد الذي لم يتعرض للملاحقة في حياته!!..

* * * * *

(*) يصطفلوا كلمة عامية تعني دعهم لشأنهم وليفعلوا ما شاؤوا، ولا تتدخل في أمورهم حتى لا تتعب معهم...

٢١

... على أثر اغتيال ضابط وطني شاب هو المرحوم الشهيد العقيد الركن المجاز عدنان المالكي، اضطرب الجو العام في البلاد، وبدأت الأمور تسوء من جديد، وأخذ بعض الشباب من زملاء هذا الضابط، يرنون بأبصارهم نحو مصر، فقد استهوتهم شخصية جمال عبد الناصر، الآسرة والساحرة، خاصة وأن حركة الضباط الأحرار التي قامت في مصر بقيادته في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ قد أسقطت وألغت النظام الملكي، وأعلنت قيام النظام الجمهوري، واستطاع عبد الناصر ومعه الشعب المصري، طرد القوات البريطانية من بلاده بعد احتلال طويل، ومضى في توطيد سيادة مصر واستقلالها، فأمم قناة السويس وأعادها إلى أبنائها المصريين، فقامت قيامة الدول الاستعمارية، خاصة تلك التي تدّعي ملكية القناة وتستثمرها وتستغلها في غيبة عن أصحابها الشرعيين، وقامت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل بعدوانها الثلاثي الغاشم على مصر، وقد تصدت له الأمة العربية والشعب العربي، في مصر وسورية خاصة، وفي الوطن العربي عامة، وألحقت بدول العدوان هزيمة ساحقة مرة، وكان لسورية دورها البارز في هذه المعركة القومية والوطنية الكبرى، حيث فجّرت أنابيب النفط البريطانية التي تمر في أراضيها من العراق، كما أنذر الاتحاد السوفياتي دول العدوان الثلاثي وهدد بالتدخل وإرسال متطوعين سوفيات للقتال إلى جانب القوات المصرية ضد دول العدوان !!

... وبعد فشل العدوان الثلاثي على مصر، أخذ عبد الناصر، ينظر إلى موقف سورية أثناء العدوان وقطعها وتفجيرها لأنابيب النفط وتأييدها المطلق لمصر في المعركة وإرسالها للمتطوعين ومشاركتها الفعالة في ردّ وصدّ العدوان الثلاثي الاستعماري عن أرض الكنانة، نظرة دفعته إلى التفكير جدياً في موضوع الوحدة العربية، وإمكانية

تحقيقها ولو بين قطرين عربيين، مصر وسورية، في أول الأمـر، ثم بين عـدد أكبر من الـدول والأقطار العـربية، خـاصة وأن إسرائيـل، هذا الكيـان المصطنع الصهيـوني والأميركي والعنصري والعـدواني، قـد قـامت في الأرض العربيـة في فلسطين، لتكـون قـاعـدة استعمـاريـة استيطانية وتوسعية!!

... وكـان عبد النـاصر، قـد بـدأ تنفيـذ مشروع السـد العـالي في اسـوان، بمساعـدة نزيهـة وكريمـة من الاتحاد السـوفيـاتي، وبـدأ سياسة عربية ودولية معاديـة للاستعمـار وإسرائيل وكـان من الممكن والمؤمـل أيضاً، لـو استمـرت فكـرة الـوحـدة العـربيـة في التنـامي والصعـود، على أسـاس تقـدمي وديمقـراطي، أن يتحقق هـذا الحلم الكبير، الذي يرنو إليه الشعب العربي منذ أكثر من ألف عام.!!

.. غـير أن أخطـاء فـادحـة، نتيجـة الارتجـال والانفعـال وروح الدكتاتورية، والتي برزت خلال قيام الوحـدة السوريـة المصرية، أدت إلى كـارثة مـاتزال أمتنـا تعاني منهـا حتى الآن، وربما إلى سنـوات طويلة، فكنت، وأنا في زحمة عملي في جريدتي أسأل نفسي ويـدي على قلبي: (ترى هل يتحقق هذا الحلم العظيم، وهل تنعم الأمـة العربيـة بالوحدة الكبرى، أم أننا كعادتنا، سوف نجهض بأيدينـا هذا الأمـل، وستكون تصرفاتنـا سبباً في القضـاء على هـذا الحلم؟؟؟ وهل تجمـع الأمة العربية شتاتها وتوحـد أجزاءهـا المبعثرة، وتلغي هـذه الحدود المصطنعة بينها؟؟؟)!!

... وكـان من الممكن جـداً أن تستفيـد قضيـة وفكـرة الـوحـدة العربية، والتي خطرت لعبد الناصر، من الانجازات التي حققها، ومن السمعـة الدوليـة الطيبة التي كسبهـا من جراء صـداقته لـلاتحـاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية، خـاصة وهـو أحد المؤسسـين البـارزين لحركـة عدم الانحيـاز، إلى جانب نهـرو وسوكـارنـو وتيتـو وشوإن لاي في باندونغ باندونيسيا عام ١٩٥٥...

... ومع ذلك، يجب عليّ أن لا أستبق الأحداث فما يزال بيننا وبين

ما جرى بعد قيام الوحدة السورية ـ المصرية، فترة من الوقت، ولذلك فإنني أتابع الآن، مقدمات هذا الحدث الكبير، مرحلة مَرحلة، كما كنت أتابعها في جريدتي، لكي نصل منها بعد ذلك إلى عهد الوحدة !!

... وشعبنا في سورية يؤمن بالوحدة العربية، ويعتبرها متممة ومكملة للاستقلال الوطني وأنه بدونها يبقى ناقصاً وفاقداً أهم عناصره ومقوماته !!

... والشعب العربي في سورية، يؤمن بالوحدة العربية، لأنه يؤمن بالحرية والديمقراطية وبالنضال ضد الاستعمار وإسرائيل، ويعتبر تحقيق الوحدة العربية استمراراً لنضاله في هذا السبيل، ولبلوغ غاية الحرية والديمقراطية والتقدم والازدهار!!..

وعندما أطل عام ١٩٥٧، وبدأت فكرة الوحدة بين مصر وسورية تأخذ طريق التمهيد لها والبحث في مشروعها، وأخذ زعماء الأحزاب وأعضاء مجلس النواب وغيرهم، يسافرون إلى القاهرة لمقابلة عبد الناصر، والبحث معه في الموضوع، كانت الأدوات الدكتاتورية تتحرك من وراء ستار لتغتال الوحدة وهي ما تزال جنيناً، ولتضربها وهي ماتزال في المهد، ولتدّعي أنها صانعة الوحدة العربية وحاميتها والداعية إليها، وحدها دون سواها، من فئات الأمة، كأنها كانت حكراً لها، تريد أن تقتنص مكاسبها في السلطة والحكم، قبل غيرها، وكأن الهدف من الوحدة القفز إلى السلطة، وليس إلى الآفاق الواسعة التي تضم أكبر عدد ممكن من الأقطار العربية، إليها !!

.. ولاحظ جميع الذين التقوا بعبد الناصر يومئذٍ أن الرجل قد أخذ فكرة مشوهة وغير صحيحة عن الأحزاب السياسية والقوى الوطنية والتقدمية في سورية، وأن الأجهزة التي اعتمد عليها قد صورت له وزينت أمامه الأمور في سورية على غير حقيقتها، وأن الأدوات الدكتاتورية، التي برزت، لتلعب دورها الخطير، قد بدأت تدق أول مسمار في نعش الوحدة...، وكان أبرز هذه الأدوات عبد الحميد السراج الذي اعتمد عليه عبد الناصر في حكم سورية وظن أنه

المخلص الوحيد له وللوحدة، وكان ذلك بداية الخطأ الكبير الذي أدى إلى ما أدى إليه بعد ذلك !!

.. وكان السرّاج شاباً مغروراً مفتوناً يركض وراء السلطة والحكم، ويريد أن يرضي الرئيس عبد الناصر ويخدعه، على حساب هذا الحلم العظيم، ولم يكن يعرف من أمور السياسة أو الوحدة شيئاً !!

... وعندما عاد زعماء الأحزاب السياسية وأعضاء مجلس النواب وغيرهم من السياسيين إلى دمشق بعد زيارتهم للقاهرة ومقابلتهم للرئيس جمال عبد الناصر، زرت زعيم الحزب الشيوعي نائب دمشق الأستاذ خالد بكداش في منزله، وكان في جملة زعماء الأحزاب والنواب الذين التقى بهم عبد الناصر واجتمع إليهم، وسألته عن رأيه في موضوع الوحدة بين مصر وسورية، ونتائج حديثه مع الرئيس عبد الناصر، فقال، وأنا هنا أسجل تقريباً نص ما قال، إنصافاً للحقيقة والتاريخ: (لقد كان شرطنا لقيام الوحدة بين سورية ومصر، هو أن تقوم على أساس ديمقراطي وتقدمي، وأن تسير في طريق الاشتراكية والعداء للاستعمار والرجعية والصهيونية العالمية وإسرائيل العنصرية والتوسعية والعدوانية، ومن أجل توطيد العلاقات الودية والتعاون النزيه والمشترك مع الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية الصديقة، ومن أجل التحرر الوطني وفي سبيل السلام والتقدم في العالم، ونحن حزب لا يقبل أن يحل نفسه، كما طلب إلينا عبد الناصر، لأن هذه سابقة لا عهد للأحزاب الشيوعية بها من قبل، وإن حل الأحزاب السياسية، واستبدال الاتحاد القومي بها، كما أشار الرئيس عبد الناصر، سيفسح المجال حتماً للرجعية للتآمر على الوحدة، وعلى طليعتها وطليعة النضال الوطني في هذه المنطقة، وهي سورية، لأن هذا الاتحاد القومي الذي يريد الرئيس عبد الناصر أن يكون بديلاً عن الأحزاب السياسية، خاصة الأحزاب الوطنية والقومية التقدمية، سوف يكون في سورية، كما هو في مصر، بؤرة ووكراً للرجعية، وللتآمر على الوحدة وعلى سورية وعلى آمال الأمة

العربية ولذلك كله، لا يوافق حزبنا على حل نفسه، لأننا نعرف الغاية الحقيقية من وراء ذلك، وهي ضرب حركة التحرر الوطني في سورية، وتنفيذ رغبة الأوساط الرجعية ومهادنة الاستعمار وتصفية كل القوى الوطنية والتقدمية والوحدوية !!)..

.. وقال الأستاذ خالد بكداش: (نحن مع الوحدة العربية، أماً وأباً، ولكن بشرط أن تكون تقدمية وديمقراطية ومعادية للاستعمار والصهيونية وإسرائيل العنصرية، وأن تسير دائماً وأبداً في طريق الخلاص من الاقطاع والاستغلال والرجعية، ومن أجل رفع مستوى الشعب من كل النواحي وتأمين الحياة الحرة والديمقراطية والكريمة والسعيدة له...)!!

.. وقال الأستاذ خالد بكداش: (نريد وحدة عربية ديمقراطية تعمل للتقدم، وتساهم مع كل الشعوب من أجل ازدهار الحياة الحرية وبناء صرح السلام والاشتراكية، ومن أجل القضاء على الاستعمار...)!!

* * * * *

... بعد أيام من عودة النواب وممثلي الأحزاب إلى دمشق بعد سفرهم إلى القاهرة ومقابلتهم للرئيس جمال عبد الناصر، للبحث حول الوحدة المنتظرة، قمت مع زميلين لي بزيارة لمصر. للتعرف عن كثب على الأفكار التي يدور حولها موضوع الوحدة، فلما نزلنا في مطار القاهرة، قالوا لي: أن لك أخاً كان يدرس في الجامعة المصرية عام ١٩٤٢ وهو شيوعي، وأنت صاحب ورئيس تحرير جريدة «الطليعة»، ولذلك فأنت ممنوع من دخول مصر، وتوسط لي أحد أركان السفارة المصرية في دمشق، وكان قد حضر إلى القاهرة ليشارك في الاعداد لقيام الوحدة السورية المصرية، فشفع لي وسمحوا بدخولي، وقضينا في القاهرة عشرة أيام التقينا خلالها بعدد من الصحفيين والكتّاب والمفكرين، وكان بينهم، على ما أذكر، الأستاذ توفيق الحكيم رحمه الله، والسيد خالد محيي الدين رئيس تحرير جريدة «المساء» القاهرية والعضو البارز بين الضباط الأحرار، وهو يساري..

... ولم نجد بين الكتّاب والأدباء والمفكرين المصريين، من يعي جيداً قضية الوحدة العربية، أو يفهمها كما يفهمها، حتى المواطن السوري العادي، حتى الأستاذ توفيق الحكيم رغم أنه أديب ومفكر وكاتب كبير، كان يتحدث إلينا عن الوحدة العربية، على أساس أنها وحدة إسلامية، وكان يتحدث عن مصر على أنها إسلامية لا عربية، وإذا كان لا يوجد تناقض في رأينا، بين العروبة والإسلام، من ناحية التراث والتاريخ، والنواحي المشتركة الأخرى، فإن الوحدة العربية قطعاً تختلف عن الوحدة الإسلامية التي تضم الدول والبلدان غير العربية، وإن كان لا يمنع مانع من دخول وانضمام الدول العربية الاسلامية إليها !!

.. أما حديث الأستاذ خالد محيي الدين إلينا حول فكرة الوحدة،

فقد كان واضحاً ولم يخرج فيه عن الأفكار التي طرحها الأستاذ خالد بكداش في حديثه معي في دمشق عن شروط الوحدة... وحذّر الأستاذ خالد محيي الدين من فشل هذه التجربة الرائدة كما قال، إذا قامت على الارتجال والانفعال والارهاب، وإذا أصبحت بؤرة للرجعية والدكتاتورية، وخرجت عن الخط التحرري الوطني والتقدمي والاشتراكي الذي تسير عليه سورية، أو على الأصح، الذي كانت في الطريق إليه !!

.. وما أدري ما الذي جعلنا نقرر زيارة جدة في المملكة العربية السعودية، فوصلناها في السادس عشر من شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٧، وبدت لنا جدة يومئذ قرية صغيرة في صحراء مترامية الأطراف تقوم على شاطىء البحر الأحمر، وليس فيها من العمران والحياة، سوى طريق واحد قريب من شاطىء البحر، وسوق قديمة، وأبنية حكومية قليلة متناثرة هنا وهناك، وبعض دور مبنية من الطين، وإلى جانبيها بعض دور السفارات العربية والأجنبية، وتبدو جدة للناظر إليها أو النازل بها، كباقي الوشم في ظاهر اليد... ومن يعرف «جدة» يومئذٍ، ويعرفها الآن، لا يصدق أنها «جدة» البلدة الصغيرة البسيطة التي أصبحت الآن، وكأنها مدينة أميركية حديثة وكبرى، لا تكاد توصف لاتساعها وضخامتها وعظمتها!!!

... وفي اليوم التالي، السابع عشر من شهر نيسان (ابريل)، دعانا سفيرنا في جدة، وكان من أعزّ الأصدقاء، وهو الأخ موفق العلاف، إلى حضور الاحتفال الذي يقيمه في دار السفارة مساء ذلك اليوم بمناسبة ذكرى عيد الاستقلال والجلاء، وكانت حديقة السفارة تغصّ بالمدعوين الذين كنا نطوف بهم ونتعرف عليهم ونتحدث إليهم، باعتبارنا من أهل الدار، وكان صديقنا السفير يضفي على الحفل كثيراً من دماثته ولطفه وظرفه وذوقه الرفيع، وتعرفنا على عدد من السفراء العرب، وكان بينهم، كما أذكر السفير المصري اللواء «طُبَّالة».. وقد دعانا الرجل، وكان شهر رمضان المبارك في مستهله،

إلى زيارته في دار السفارة المصرية التي يتخذ من أحد أجنحتها سكناً له، وقال لنا: ان أفضل أوقات الزيارة في شهر رمضان في الليل حيث تمتد السهرة إلى وقت السحور، وبعد أن تتناولوا بعض الطعام ننقلكم إلى فندقكم الذي تنزلون فيه، إذ ليس في جدة، هذه القرية الصغيرة أو البلدة البسيطة، كلها،ما يستحق أن تقضوا فيه سهراتكم وأوقاتكم!!

.. وهكذا صرنا نقضي أمسياتنا وسهراتنا في السفارة المصرية، وفي مجلس السفير اللواء «طُبَّالة» الذي كان، من ألطف وأظرف من عرفت، حاضر البديهة، حار النكتة والطرفة، وكنا أثناء وجودنا عنده، نلتقي بعدد من الطيارين المصريين الذين كانوا يدخلون ويسلمون على السفير ويجلسون بعض الوقت، ثم ينصرفون إلى شأنهم، وكانوا من الطيارين الشباب الذين يقومون بتدريب عدد من الشباب السعوديين على قيادة الطائرات بناء على طلب السعودية !!

.. وبعد يومين، وكنا في الفندق الذي ننزل فيه ننتظر حلول موعد الإفطار، حضر مدير الأمن العام في جدة ومعه معاونه، وطلبا أن يجتمعا بنا، وجلسنا، كما أذكر، في فسحة باب الفندق،وأخذا ينظران إلينا دون أن ينبسا ببنت شفة، فسألتهما عن حاجتهما، فقال كبيرهما: أن الأوامر التي عنده تقضي بالطلب إلينا مغادرة جدة في أقرب وقت، وأن من غير المرغوب فيه وجودنا.. لأننا نقوم باتصالات في السفارة المصرية بجدة، ونلتقي مع الطيارين المصريين، وأننا ربما كنا نشترك، كما يظنون، بتحضير انقلاب ناصري في السعودية.!!

.. وضحكنا، كما لم نضحك من قبل ونظرنا إليهما، ونحن في شك من سلامة مداركهما.. ثم انصرفا قائلين، أنهما ينتظران سفرنا ومغادرتنا لبلادهم اليوم أو غداً !!

... وذهبنا إلى السفارة المصرية وتحدثنا إلى السفير اللواء «طبالة»، عمّا وقع لنا، فما كان منه، وقد استغرب واستهجن هذا التصرف، إلا أن أمر بسفرنا على طائرة شحن مصرية كانت ستغادر

جدة بعد ساعة إلى السودان، وحملنا بسيارته، وكان يقودها بنفسه، إلى مطار جدة، وكان مطاراً صغيراً وبدائياً، وودعنا وهو يضحك، وطارت بنا الطائرة ونحن نتحسس رقابنا جيداً.. ولم نصدق أننا تخلصنا من هذا الجنون المطبق، وهذا الهراء وهذه الخيالات المريضة، ومن هذا الهاجس من عبد الناصر، ومن اسم عبد الناصر، ومن كل ما يمت إلى عبد الناصر بصلة، ولو كانت سفارته أو كان سفيره في جدة!!

... وكنا، وطائرة الشحن المصرية تخترق بنا الأجواء في سماء البحر الأحمر وتتجه نحو السودان، نغني ونردد في صوت واحد: بلاد العرب أوطاني.. إلى آخر هذا النشيد القومي الحماسي، الذي لم نحقق منه شيئاً وبقي حبراً على ورق حتى الآن!! وأخذنا نتندر على ما حدث لنا في جدة، وما حدث لنا قبلها في القاهرة، وما حدث ويحدث لنا ولكل العرب، في كل أرض وبلاد عربية، وكأننا غرباء في أوطاننا، ففي القاهرة نمنع من الدخول، لولا ذلك الذي شفع لنا، وفي جدة نتهم بالعمل لحساب عبد الناصر ومصر، وبالاشتراك في انقلاب ناصري.. ولا ندري إذا وصلنا إلى السودان، بماذا سنتهم هناك..؟؟.

... وكانت مقاعد الطائرة من حديد، وكان مضيفنا شاباً من أسوان، فقلت له: (أليس غريباً أن لا يجد العربي في وطنه الكبير، ولا في وطنه الصغير، الحرية والأمان والاستقرار، وأن لا يعرف غير التهم والشكوك، إذا وصل حدود هذه الدولة العربية أو تلك، أو هذا البلد العربي أو ذاك، وأن تكون الأرض العربية محرمة على العربي، مباحة للأجنبي، ولكل من هبّ ودبّ !!

أحرام على بلابله الدوح
حلال للطير من كل جنس...

... ألم تر كيف أن العربي لا يستطيع أن يأمن شر العربي، إذا زاره في بلده وأرضه، في وقت نستعد فيه، كما ترى، لقيام نواة الوحدة العربية، بين سورية ومصر، وكيف أن العربي يخاف أن يزور

بلداً عربياً أو عاصمة عربية، مهما كانت قريبة، فكيف تكون بلاد العرب أوطاني.. من الشام لبغدان... ومن نجد إلى يمن... إلى مصر فتطوان..؟؟) .

... وسألت الأخ الأسواني، وأهل أسوان غاية في الكياسة واللطف والذوق، وأنا أشير باصبعي من نافذة الطائرة إلى هذه الأدغال الكثيفة الملتفة ساقاً على ساق، عن أنواع وأشكال الوحوش التي تسكنها، والتي لا نعرفها، وهل ستأكلنا إذا هبطت بنا الطائرة اضطراراً أو تعطلت فيها آلة وسقطت بنا في وسط هذه الأدغال؟؟ فقال: (صدقني، ان وحوش هذه الغابات المترامية الأطراف، أكثر رحمة وأرق قلباً منا نحن بني البشر، لأنها لا تأكل غيرها من الوحوش الأصغر حجماً والأقل قوة منها، إلا إذا جاعت، بينما يأكل البشر بعضهم بعضاً، لا من الجوع، كما هي حال الوحوش، وإنما من التخمة ويجدون لذة غريبة في أكل لحوم بعضهم بعضاً، وذبح بعضهم بعضاً ذبح النعاج !!).

... وقال مضيفنا الأسواني: (اننا نتفاخر بوطننا العربي الكبير، على الخريطة، وفي الكتب والمصورات وبطاقات البريد وكراسات الدعاية والسياحة.. نفاخر بشيء لا نعرفه، ونقول بأننا ننتمي إليه... أليست هذه هي الغربة في الوطن..؟؟ أليست هذه هي المشكلة التي لم تجد حلاً، ولا أظن أنها ستجد حلاً في يوم من الأيام، وإنما ستتفاقم وتزداد تعقيداً كل يوم !!)...

... ووصلنا العاصمة السودانية «الخرطوم» بسلام، فإذا نحن في منطقة افريقية حارة أهلها أصحاب قلوب بيضاء نقية ونفوس كريمة، وأهل ثقافة وحضارة وذوق، الديمقراطية فيهم طبيعة، وكأنهم لا يستطيعون العيش دونها، ورغم ذلك كان البؤس واضحاً في حياة هذا البلد الشقيق، ولقد قابلت عدداً من المسؤولين ورجال الفكر، والتقيت السيد اسماعيل الأزهري رئيس الحكومة السابق وزرته في بيته في «أم درمان» وهي تقع في طرف العاصمة الخرطوم، لا يفصل

بينهما سوى جسر على نهر النيل، وكانت تقوم فيها دار الاذاعة، وأسواقها وبيوتها من الطين، وقد جلست إلى الأستاذ اسماعيل الأزهري في صحن داره المتواضعة والواسعة في «أم درمان»، وتحدثنا طويلاً، ولاحظت أنه أبدى خلال الحديث مخاوفه من أن تهب رياح الانقلابات العاتية على السودان، وقدم لي شراباً سودانياً وطنياً مرطباً اسمه «حلو مر» وقال لي ضاحكاً: هذا شراب مرطب في هذا الحر الشديد الذي لا عهد لكم بمثله في بلادكم، وتختلط فيه الحلاوة بالمرارة، وأرجو أن تمتزج المرارة في أفواهنا نحن العرب، بشيء من الحلاوة كهذا الشراب، حتى لا نفقد آخر أمل لنا في الحرية والديمقراطية، فقلت: أرجو ذلك، ولكن الانقلابات التي تراها تلوح كالشبح في أفق السودان، وكل الانقلابات الأخرى، ليس فيها سوى المرارة ولا يمكن أن تجد فيها شيئاً من الحلاوة التي تجدها في هذا الشراب الوطني السوداني!!

... ومكثت ساعة مع هذا الرجل الكبير، رحمه الله، وخرجت من داره وأنا أتمنى لو أتيحت لي الفرصة لزيارته ورؤيته مرة ثانية، بل مرات، ولكن هيهات هيهات !!

... وزرت وزير الخارجية في مكتبه، وهو السيد أحمد محمد محجوب، ولم أكد أجلس، حتى بدأ، رغم أنه أديب وكاتب وشاعر كما يقولون، يتطاول على عبد الناصر ويثني على حكم نوري السعيد في العراق، ويؤيد الأنظمة العربية اليمينية دون تحفظ ويتهم مصر وسورية بالشيوعية، حتى ضقت به ذرعاً، ولم أجد ما أستطيع أن أحاوره به من شؤون أمتنا، ولاحظت كأنه وجد كنزاً، عندما قال لي: (ألستم في سورية تسمون الفول السوداني، فستق العبيد، وتعتبروننا عبيداً؟..) وهنا لم أعد احتمله أكثر مما احتملته، فتركته وشأنه وانصرفت عنه، واستغربت أن يكون رجل كهذا وزيراً للخارجية في بلاده...، كما أذكر أنني التقيت بالسيد عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني، رحمه الله، وذلك في مقهى في الخرطوم

يرتاده كل الشباب، وقد أنست به كثيراً وأعجبت بسعة أفقه ودماثته وهدوئه وايمانه وصدقه !!

... ولشدة الحر كنا ننام في حديقة الفندق، بعد أن ننزع ثيابنا ونضعها في الغرفة المخصصة لنا، فلما استيقظنا ذات صباح، تفقدت أشيائي وساعتي ومحفظتي، فوجدتها قد سرقت كلها !!

... وغادرت السودان في أواخر شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٧ بعد زيارة قصيرة، لم تكن كافية لمعرفة هذا البلد العربي الأفريقي الشقيق الذي بدأت تهب عليه رياح الانقلابات، لتعصف به كما عصفت بغيره، ولتضعه في دوامة لا تنتهي ولا تتوقف من الارهاب والفوضى والعذاب !!

... وعندما عدت إلى دمشق وإلى جريدتي، وجدت أن من واجبي كصحفي أولاً أن أكتب سلسلة من المقالات عن زيارتي لثلاثة أقطار عربية، جمهورية مصر، والمملكة العربية السعودية، وجمهورية السودان، وأن أتحدث إلى قراء جريدتي عن انطباعاتي وملاحظاتي وما وقع لي خلال هذه الزيارة التي استغرقت حوالى عشرين يوماً ووعدت القراء أن أنشر قصتنا في جدة، وحكاية الانقلاب الناصري المزعوم، وما وقع لنا، بسبب زيارتنا في ليالي رمضان لسفارة مصر وأحاديثنا وسهراتنا مع سفيرها اللواء «طبالة»، وكيف أن المسؤولين في جدة ظنوا أننا نشارك في انقلاب يحضره عبد الناصر ضد السعودية، وكيف أننا في الحقيقة، ضد كل الانقلابات، سواء وقعت هنا أو هناك، وكيف أننا اكتوينا بنارها قبل غيرنا من الدول العربية، ولا يمكن، بل يستحيل، أن نقبل أو نرضى بوقوعها في بلد أو دولة أخرى، مهما كان نظامها يختلف مع أفكارنا ومبادئنا ورأينا، وعرفت السفارة السعودية في دمشق يومئذٍ أنني سأتناول في جريدتي هذا الموضوع، وأنني سأنشره بعد ذلك في كتاب، فانتهزت فرصة مرور الملك سعود، رحمه الله، بدمشق، في طريقه إلى بلاده، بعد عودته من إحدى رحلاته إلى عدد من الدول الأوروبية، وبينها سويسرا، وفي

الحفلة التي أقامتها السفارة السعودية على شرف الملك وحضرها كبار المسؤولين وكنت مدعواً إليها مع الصحفيين، أخبر السفير السعودي الشيخ عبد العزيز بن زيد، رحمه الله، الملك بالأمر فطلب الملك من رئيس الحكومة السورية أثناء حفلة العشاء، أن يطلب إليّ صرف النظر عن الموضوع وعدم اثارته، فانتحى بي رئيس الحكومة جانباً، وكان المرحوم صبري العسلي، وأبلغني رجاء الملك أن لا أتناول الموضوع في جريدتي ولا أنشره في كتاب، وقال لي بالحرف الواحد: (.. لا سيما، ونحن الآن مقبلون على إقامة الوحدة بين سورية ومصر ولا نريد أن «يزعل» السعوديون منّا..) !!

... وبعد أيام أعلن الرئيس شكري القوتلي تنازله عن الرئاسة، ومبايعته للرئيس عبد الناصر، ومباركته الوحدة بين مصر وسورية، ولكنه، رحمه الله، كان في قرارة نفسه غير مقتنع بالأسلوب والطريقة التي تمت بها الوحدة، وإن كان عميق الايمان بفكرة الوحدة، وأحد المناضلين في سبيلها، وقد أطلق عليه إرضاء له، اسم «المواطن العربي الأول»، وكانت موافقة الرئيس شكري القوتلي على ما جرى وتم، مخافة أن يتهم بأنه وقف ضد الوحدة العربية، وهذا ما لا يرضاه لنفسه، ولو كان اتهاماً باطلاً، ولكنه يعرف بحكم ممارسته للحكم ردحاً طويلاً من الزمن، أننا نلقي بالتهم جزافاً، دون تمحيص أو تدقيق، وأننا لا نترك أحداً من شرنا، ولا نعتمد الانصاف، في أقوالنا وأفعالنا، بالنسبة لأصدقائنا وبني قومنا وأهلنا، وبالنسبة لأعدائنا أيضاً، على حد سواء !!

... وفي خلال أسبوع، أعلنت الأحزاب السياسية في سورية، بما فيها حزب البعث العربي الاشتراكي، حلّ نفسها، كما كان شرط عبد الناصر للقبول بفكرة الوحدة، حتى لا تتهم بأنها ضد قيام الوحدة بين سورية ومصر، بينما رفض الحزب الشيوعي السوري رفضاً قاطعاً حلّ نفسه، فحلّت عليه النقمة في الحال، وكانت الحملة عليه جاهزة للتنفيذ من قبل، ومعدة إعداداً تاماً، كما حلّ عليه غضب

عبد الناصر، الذي أخطأ كثيـراً فيما فعـل يومئـذ، كما كـان السراج الـذي اتخذه عبـد الناصر وكيـلاً وممثلاً لـه في سوريـة، قد أعـد كل أدوات وأساليب الارهاب الأسود، للبدء بشن حملـة على الشيـوعيين وسائر الوطنيين والتقدميين، لم تعرف حتى الدول العريقة في الهمجية وممـالأة الاستعمار والتـابعة والمتخلفـة والتي تعيش في ظـل أنظمـة دكتاتورية قمعية وارهابية سوداء، مثيلاً لهـا أو شبيهاً بهـا أو قريبـاً منهـا، وتحولت سـورية في طـرفة عـين إلى معتقل كبـير، وإلى مسلـخ ضخم، تزهق فيه الأرواح، وتسيل فيه الدماء ويقتل فيه الأبرياء، وما هي إلّا ساعات قليلـة على إعـلان قيام الـوحدة السـورية ـ المصريـة رسميـاً في ٢٣ شباط (فبـراير) ١٩٥٨، حتى شنت أجهـزة الارهـاب حملة اعتقال وابادة وقتل، شملت الشيوعيين وسائر التقدميين الـذين كانوا من غير الشيوعيين، وربما كـانوا من النـاس العاديـين الطيبين، كما شملت نتيجة الوشايات والتقارير والنكايـات، التي نتقنها جيـداً، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سـواه، عدداً كبيـراً من العمال والفلاحين وأصحـاب الحرف الصغـيرة، وحتى اللحامـين والبقالـين، طالتهم حملة الاعتقالات والتعذيب والارهاب، دون ذنب أو سبب!!.

* * * * *

.. لا أدري، وأنا في سبيلي إلى متابعة الأحداث الخطيرة التي وقعت منذ الساعات الأولى لقيام الوحدة السورية ـ المصرية، والجمهورية العربية المتحدة، سبباً أو مبرراً لهذه الحملة الرهيبة والظالمة والوحشية التي قامت على يد السراج وزبانيته، ضد الشيوعيين وكل التقدميين والوطنيين، وحتى الناس العاديين، بحجة أنهم ضد الوحدة، ولم يكونوا في الحقيقة، ضدها، وإنما ضد هذه التصرفات والأساليب والأعمال والجرائم التي وقعت خلالها !!

.. وكان على الذين تولوا من أول يوم مقاليد الأمور في عهد الوحدة، وعلى رأسهم السراج، أن يدركوا أن النضال ضد الاستعمار والصهيونية وإسرائيل وأدواتها، وأن مصلحة شعبنا والدفاع عن مكاسبه وحقوقه الوطنية، تقتضي كلها أن يكون الشيوعيون والبعثيون وسائر الوطنيين التقدميين جبهة واحدة، لأن العداء للتقدم والديمقراطية، يعني الجهل والتخلف، وهو السخف بعينه، أو هو التعصب والتزمت والتحجر الفكري !!

.. وعندما قام السراج بمذبحته ضد الشيوعيين وسائر الوطنيين والتقدميين، في عهد الوحدة المصرية ـ السورية، فإنما كان في الحقيقة ينفذ أوامر الاستعمار الأميركي والصهيونية وإسرائيل وأدواتها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة !!

... وأتذكر كيف استقبل شعبنا في سورية، وفي كل قطر عربي، قيام الوحدة بين مصر وسورية استقبالاً رائعاً، وعلق عليها آماله التي انتظرها منذ ألف عام أو تزيد، وكيف كان يحلم بأن تقضي هذه الوحدة على كل المغامرات والانقلابات والدكتاتوريات وتضع حداً نهائياً لها، وتسير بالبلاد في طريق الديمقراطية والتقدم والاشتراكية والازدهار والحياة السليمة والحرة والكريمة، وكيف أن شعبنا

سيسترد في عهد الوحدة، أنفاسه وكرامته وحريته وروعه وأعصابه وسلامه وأمنه، بعد أن طوح بها كلها، ذلك العهد الأسود الطويل الثقيل من الانقلابات والدكتاتوريات التي ابتلي بها نتيجة جهل الجاهلين وغرور المغرورين ومؤامرات المستعمرين...

... والحقيقة أن إسرائيل أوجست خيفة من قيام الوحدة والجمهورية العربية المتحدة ووجدت فيها خطراً عليها، وسعت منذ أول يوم قامت فيه، لاجهاضها بواسطة عملائها، وبكل الوسائل التي تملكها، ولم تجد هي وأميركا، سلاحاً رهيباً تقاومها به، غير تحريض أعداء الديمقراطية والتقدم والاشتراكية، على القوى الوطنية والتقدمية !!

... ولا شك أن كل شيء كان على ما يرام، خاصة عندما قيل لشعبنا وأحزابنا الوطنية والتقدمية ولجماهير أمتنا، بأن الوحدة، ستكون رائدة التحرر والتقدم والديمقراطية، وأنها لن تصيب القوى الوطنية والتقدمية والاشتراكية والمعادية للاستعمار بأذى، وأنها لن تلغي الصحف، ولن تحجز على حرية الكلمة والرأي، وإن كل الأمور تسير سيراً حسناً، في انتظار اعلان الوحدة وقيامها رسمياً. وأذكر أن عبد المحسن أبو النور، وكان ملحقاً عسكرياً في سفارة مصر في دمشق قبل الوحدة، التقاني في حفلة رسمية، وكان يقف بجانبه الفريق الصديق عفيف البزري، وأخذ يقسم بأن الوحدة ستكون تقدمية ووطنية واشتراكية وديمقراطية، بينما كان الفريق عفيف البزري ينظر إليه في ارتياب... وعندما وصل عبد الناصر إلى دمشق خرجت الأمة بأسرها لاستقباله، وافترش الرجال والنساء والأطفال، ساحة قصر الضيافة في أول شارع أبي رمانة، ليكحلوا عيونهم برؤيته، فماذا كان جزاء هذا الشعب الطيب الذي لم يسلم بيت من بيوته من مداهمات زبانية السراج، والذين اتقنوا صناعة التعذيب والترويع أكثر مما أتقنها (الغستابو) أيام هتلر. وأذكر أن السراج أدلى بتصريح صحفي، بعد أن ذوب زبانيته، المناضل الوطني والشيوعي البارز

المرحوم فرج الله الحلو، بالأسيد، وصفّوه تصفية تامة ولم يبق منه أثر، قائلاً: (إنه لم يدخل سورية رجل بهذا الاسم على الاطلاق) !! وعلمت من مصدر موثوق، نقل إليّ الخبر، أن الرئيس عبد الناصر، رحمه الله، عندما علم بقتل الأستاذ فرج الله الحلو، بهذه الطريقة الوحشية، استاء واضطرب كثيراً وربما رأى في هذه الجريمة المروعة بداية النهاية المأساوية والحزينة !!

... ثم أن كل التقدميين والوطنيين في سورية، وكل الصحف الوطنية والتقدمية، ومنها جريدتي «الطليعة»، كانت تؤيد عبد الناصر وسياسته المعادية للاستعمار، وكنت أنشر في جريدتي منذ صدورها عام ١٩٥٣، مقالات وأحاديث وتصريحات وتعليقات، وفيها التأييد للرئيس عبد الناصر، والثناء عليه والاشادة بعدائه للاستعمار وسيره في الطريق الاشتراكي، وعمله من أجل شعبه وأمته، ودفاعه عن بلاده»وكان من المفروض أن يعرف عبد الناصر من الذي يقف معه ومع أمته وقضاياها ووحدتها، ومن الذي يريد أن يستغله ويخدعه، ولكنه، ويا للأسف، كان يقع في التردد والحيرة وعدم اتخاذ القرار الصحيح والحاسم، وهكذا فإن الذين نأمل فيهم أن ينقذوا وطنهم وأمتهم ويسيروا بها في طريق المجد والنصر والتقدم، يتعثرون ويسقطون على الطريق، بسبب انعدام الديمقراطية في سلوكهم وسياستهم ونهجهم ولاعتمادهم على أسلوب القسر والقهر والارهاب والدكتاتورية، وفرض قراراتهم بالقوة، وعدم قبولهم بمبدأ الحوار، وكان أن وقع عبد الناصر في الخطأ، ولكن كل خطأ يمكن أن يحتمل إلّا هذا الخطأ الكبير الذي أدى آخر الأمر إلى فشل الوحدة ووقوع الانفصال، نتيجة ما لحق بالشعب السوري من الارهاب والعذاب، وما لاقاه من التسلط والقهر، وما عاناه من صنوف وأساليب الحقد والتشفي.... وبدأ عبد الناصر يفقد سحره وبريقه منذ وقعت تلك الأخطاء المميتة في عهد الوحدة، وكنا نتمنى أن لا نخسره ولا نخسر هذا الأمل الكبير معه، ولكنه قدر أمتنا وحظها العاثر وبؤسها وتخلفها واختلافها !!

.. ولا أريد أن أسمي المجرمين الذين هدموا صرح الوحدة بتصرفاتهم وممارساتهم الشائنة ضد شعبنا وأمتنا، فالمجرمون يعرفون بسيماهم، وقد عرفهم شعبنا وألقى بهم في مزبلة التاريخ... لأنهم كانوا سبب ضياع الوحدة، ربما إلى زمن طويل، مما يبعث فعلاً على الحزن والأسى والألم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله !!

... وذعر الناس في عهد الوحدة واستبد بهم الرعب، في أول الأمر، وصاروا بلا ألسنة ولا آذان ولا أعين، فكانوا لا يتكلمون ولا يسمعون ولا يرون مما يجري حولهم شيئاً، وتحولت سورية في الليل إلى أشباح تبحث عن ضحاياها، وفي النهار إلى عصابات تخطف الناس من بيوتهم ومساكنهم، ومن الشوارع والطرقات، فلا يعلم أهلهم من أمرهم شيئاً، وبدلاً من أن تقوم الأفراح والليالي الملاح ابتهاجاً بالوحدة، أقيمت الأتراح والمآتم والمناحات في كل بيت ودار وقرية وبلدة ومدينة في أنحاء سورية، وتساءل الناس في خوف: (أهذه هي الوحدة التي آمنا بها،وعملنا لها، وناضلنا في سبيلها وسعينا من أجلها؟؟؟)..

.. وصار الناس يخافون من ظلهم، ومن نجواهم ومن أنفاسهم إذا ترددت، ومن قرع أبوابهم، ومن رنين جرس هاتفهم، ومن وقع أقدام تقترب منهم، وصارت سورية سجناً كبيراً.!!

وقد سألني أحد زبانية السراج عندما اعتقلوني في المزّة: (ألست أنت الذي تكتب وتنشر في جريدتك، مقالات تثني فيها على الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية، وتحمل فيها على أميركا الأمبريالية؟؟)، فقلت: (بلى وهل أصبح الثناء والتقدير والشكر والعرفان بالجميل نحو الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية جريمة؟ وهل الحملة على الاستعمار وأميركا، تهمة أستحق عليها الاعتقال والحساب والعقاب والارهاب؟؟)!!

قال: (طبعاً.. وهل يحتاج ذلك إلى سؤال؟؟!)..

.. وكان هذا الوحش، قد شدني من رقبتي وركلني بقدمه، وألقى

بي في زنزانة ضيقة رطبة كانت المياه الآسنة السوداء تملأ أرضها الباردة، ولم أستطع النوم، خلال الأيام الثلاثة التي اعتقلت فيها، فقد كانت أصوات السياط والتعذيب وأصوات الاستغاثة والألم من المعذبين، وكذلك أصوات الجلادين وهم ينهالون بسياطهم على ظهور المعتقلين وأطرافهم وينزلون عليهم بالشتائم المقذعة، وعلى الاتحاد السوفياتي بالسباب والقذف الشديدين، قد حرمتني من النوم، وفتحت في روحي جراحاً عميقة لا تندمل، بل تنز بالأسى والألم إلى الأبد !!

.. وكانت الصحف ومنها جريدتي، قد ألغيت مع قيام الوحدة وبداية حملة الارهاب، وبقيت بضع صحف قليلة غير ذات اتجاه أو خطر، وليست في العير ولا في النفير، ورغم كل عمليات الشراء لها ولأصحابها، فقد كانت أول من طعن الوحدة في ظهرها، وشتم وسب وتهجم على عبد الناصر وعليها، عندما وقع الانفصال...، كما سنتحدث عن ذلك بعد قليل !!

... وشفع لي صديق شهم كريم، عند السراج، فأفرجوا عني، وخرجت من سجن المزة والديدبان على الباب يدفعني بيديه ويقول لي: (لقد نجوت بجلدك.. وإياك أن تنظر إلى الخلف وأنت تخرج من هنا، لأنك إذا فعلت ستعود إلى المزّة مرة أخرى).. وأضاف قائلاً: (إن من يغادر المزة، يكون قد ولد من جديد، هكذا جرى العرف والتقليد، وجرت العادة في بلادنا)!!

.. ورحت أركض وأهبط المنحدر باتجاه قرية (المزة) وأنا أحمل بيدي (حراماً) من الصوف كنت أحضرته معي عندما اعتقلوني... فلما صرت على طريق دمشق، استأجرت سيارة نقلتني إلى داري، وأنا لا أصدق أنني نجوت من الموت والعذاب، ومن تلك الأصوات التي تقطع نياط القلوب، والتي كانت تَصل إليّ من سراديب وأقبية وغرف وزنزانات التحقيق والتعذيب، ومنذ ذلك اليوم، وقد مضى على ذلك العهد الأسود قرابة ثلاثين عاماً، وأنا أشيح بوجهي عن المزة

وسجنها وعن كل السجون والمعتقلات التي أقامتها الدكتاتوريات في بلادنا، ظناً منها أنها تستطيع لجم إرادة شعبنا ومنعه من بلوغ غايته وتحقيق أهدافه في الحرية والديمقراطية والتقدم والاشتراكية !!

.. وخلا الجو تماماً للفئات المعادية للاشتراكية والتقدم والوحدة، مستغلة غياب القوى الوطنية والتقدمية في السجون، ووجدت الفرصة مواتية لإحكام خطتها للاطاحة بالوحدة والانقلاب عليها، لاسيما بعد أن حقق الرئيس عبد الناصر، عدة انجازات مهمة وجيدة، وتقدمية، وعلى رأسها القرارات الاشتراكية التاريخية، التي أثارت حفيظتها وحقدها الأسود، وجعلتها تسرع في الإعداد للانقلاب على الوحدة والاطاحة بها، ورأى عبد الناصر، بعد فوات الأوان، أن يُقيل السراج، من جميع مناصبه، وصدر مرسوم بذلك نشر في أسفل الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام»، دون أن يعلم به أحد، فما كان من السفاح الصغير، إلّا أن قامت قيامته وجن جنونه، وأسرع للالتقاء بكل المعادين للوحدة العربية والمتآمرين عليها، ليتفق معهم على الاطاحة بها والانقلاب عليها، وتبين لكل ذي عينين، أن هذا الذي فعل بسورية وشعبها وخيرة التقدميين من أبنائها ما فعل، لم يكن يريد الوحدة ولم يكن يؤمن بها، وإنما كان يريد من ورائها الحكم والسلطة، وخدمة مصالحه، وضرب القوى الوطنية والتقدمية والتشفي والانتقام من شعبنا وأمتنا وارهابهما وقتلهما، ليرضي الشر المتأصل في أعماقه والكامن في قلبه الأسود !!

.. وتم تشكيل وفد من أعداء الاشتراكية، ومن المستغلين الذين هددت القرارات الاشتراكية مصالحهم وامتيازاتهم ونفوذهم، وقام بزيارة نائب الرئيس الذي كان يقيم في دمشق، وهو عبد الحكيم عامر، حيث أعرب الوفدَ أمامه عن التأييد المطلق والشكر والتقدير للرئيس عبد الناصر، على القرارات الاشتراكية التي أصدرها قبل يومين، ونشرتها الصحف القاهرية !!

.. وروى لي شاهد عيان كان بين أعضاء الوفد، أنهم أخذوا بعد خروجهم من عند المشير... يتضاحكون ويتغامزون ويتهامسون فيما بينهم، ويقولون: «ياما مخبالك يا صايم»..، ثم عقد هؤلاء، وبينهم بعض السياسيين التقليديين والمحترفين، اجتماعاً سرياً لهم في منزل أحدهم في حي قديم، حيث وضعوا اللمسات الأخيرة للانقلاب على الوحدة مع الانقلابيين الذين أعدوا عدتهم لليوم الموعود !!

... وقبل وقوع الانقلاب على الوحدة، بأربعة أيام، كنت أجلس في مقهى البرازيل الذي كان يقوم في دكان عند مدخل حي البحصة القديم، وكان ملتقى السياسيين والوزراء السابقين والمثقفين والمفكرين والصحفيين والنواب وغيرهم، ممن كانوا في تلك الفترة من المغضوب عليهم، وكنت أتحدث إلى وزير سابق صديق، وهو الأستاذ رشاد برمدا، وإذا بصديق كان يعمل محامياً يدخل علينا ويجلس معنا، ثم يقول لنا في همس مذعور: (سمعت أن انقلاباً يجري إعداده ضد الوحدة، وأن اجتماعاً عقد بين الدكتور مأمون الكزبري، أحد أركان الاتحاد القومي الذي أقامه عبد الناصر محل الأحزاب السياسية المنحلة وجعله الحزب الوحيد... وبين (السراج)، وأنهما أعدا العدة للانقلاب، مقابل أن يسمح للسراج بمغادرة البلاد، وأن يخرج منها سالماً دون أن يمسه أذى، أو يتهم بالجرائم التي قام بها في عهد الوحدة!!)

.. وأضاف الصديق المحامي. (ان الانقلاب على الوحدة (مصبح ممسي) !!

.. وذهلنا مما قال، ولم نكد نصدق ما نسمع خاصة ما يتصل باجتماع السراج والكزبري وخفنا أن يكون الجدار الذي نستند إليه في مقهى (البرازيل) قد سمعنا، وأنه يوشك أن يشي بنا.. فقمنا من مجلسنا وغادرنا المقهى كلٌ إلى داره، ونحن نتحسس ونتلمس موضع رقابنا وأقدامنا، لنتأكد من أن رقابنا ماتزال في مكانها، وأن أقدامنا ما تزال ثابتة فوق الأرض !!

.. ووقــع الانقلاب عــلى الوحــدة، وتم الانفصال فعــلاً، بعد ثــلاثة أيام، وعلى يد قوات هزيلة قادها عدد من المغامــرين والمقامــرين، ولم يتحرك أحد من أدعياء الوحدة الذين كانوا يتبجحون بأنهم حماتها، ولم تطلق رصاصة واحدة في وجه الانقلابيين الانفصاليين، لأن الجو كان معداً، والســاحة خــالية، والقــوى الوطنيــة والتقدميــة مضطهدة ومشردة أو في غيــاهب السجون، ولأن الشعب كــان قــد ذاق الهــوان والشقاء والعناء، فلم يتحمس أحد للدفاع عن الوحــدة والقتال، ولــو بالحجارة، ضد الانقلابيين وقوتهم الهزيلة !!

... وسمح للسراج بالسفر ومغادرة البــلاد، فذهب إلى غــير رجعة، كما ذهب كل مجرم وظالم!!

... وتــذكر النــاس، قصة مضحكــة مبكية وقعت في عهــده وفي عز مجــده وسلطانــه، ولا بأس من روايتهــا هنــا، لأنهــا تعطينــا صــورة صحيحــة جداً عن أحــوالنا، وأخــلاق الناس في زمننــا، وهي أخــلاق اكتسبناها بفعــل الدكتــاتوريــة وعهود الانقــلابات، وأنظمــة الارهاب والقهر والمغامرات..

.. توفي أخ للسراج، في حماة، ويقال إن أخاه هذا، رحمه الله، كان صاحب فرن يخبز فيه مختلف أنواع الصفيحة والكبة وغيرهــا، وليس في عمله هذا ما يعيب، وإنما هو شرف له، ولكن ســورية كلهــا، زحفت لتشارك في مأتمه، خوفاً وإرضاء وتملقــاً لأخيه، وكــان كل واحــد من الــذين وصلوا إلى حمــاة، خــاصــة من دمشق وحلب، واشتــركــوا في المأتم، يطل برأسه أثنــاء التشييع وفي المقبــرة، ليراه السراج ويــرضى عنه ويذكره، فلا يجور عليه ولا يلحق به أذى...

... وقد غصت حماة بالذين شــاركوا في مــأتم أخيه المتــوفى، وكان كــل واحد من المشيعــين يقدم مــا يستطيع، ممــا يقدم عــادة في هذه المناسبات، فلما عاد المشيعون نزلوا في حمص، في طريقهم إلى دمشق، وجلسوا في مقهى الروضة المعروف، ليتنــاولوا بعض الشــاي والقهوة وليدخنوا النراجيل ولــيرتاحــوا بعض الوقت، وبينمــا هم كذلــك دخل

عليهم صحفي معروف بخفة دمه ونكاته اللاذعة، وكان قد شارك مثلهم في تشييع المرحوم، فلم يكد يجلس بينهم حتى بادروه قائلين له: (دخلك.. المرحوم شقيق سيادة نائب الرئيس ورئيس المجلس التنفيذي ووزير الداخلية و.. و.. إلى آخر المناصب والألقاب، هل كان من كبار المجاهدين أو العلماء أم ماذا، حتى تقام له هذه الجنازة وتقوم معها حماه ولا تقعد؟؟)وحبكت النكتة كما يقولون، مع الصحفي، فقال لهم، وهو يتلفت يميناً وشمالاً، حتى لا يسمعه أحد من الزبانية الذين كانوا ينتشرون في كل زاوية: (الله يرحمه ويغفر له، كان يأكل نصف العجنة ونصف لحمة الصفيحة ونصف صينية الكبة)!!

.. وضج الحاضرون بالضحك.. وخافوا أن يسألهم الزبانية عن سبب ضحكهم.. لأن الضحك، بلا سبب، من قلة الأدب، وقلة الولاء للوحدة ويحاسب عليه الناس، من قبل السفاح حتى لا يكون الضحك عليه، والضحك عليه جريمة..، لا سيما وقد عادوا منذ قليل من مأتم أخيه، وينبغي أن يبكوا عليه من شدة الحزن.. أو من شدة الخوف، على الأصح... ثم غادروا المقهى بسرعة إلى سياراتهم وانطلقوا بها إلى دمشق، وهم ينظرون إلى الخلف حتى لا يلحق بهم الزبانية لأنهم كانوا يضحكون، ولا بد أن يتعرضوا للاعتقال إذا عرفوا سر ضحكهم، ولا بد أن تذوب أجسادهم بالأسيد بعد تقطيعها بالسواطير، كما فعل مع ضحاياه !!

.. ان وقوع الانقلاب على الوحدة، جعلني أؤمن أكثر مما آمنت من قبل، بأن الانقلابات والدكتاتوريات، وهي تفعل بالبلاد ما تفعل، إنما تهدم صرح أمتنا وتبدد أحلامها الكبرى، وتقضي على كل آمالها، وما دامت الوحدة العربية، وهي شيء مقدس في وجدان أمتنا، لم تسلم من الانقلاب...، فكيف يمكن أن يسلم أي عهد أو نظام أو حكومة منه؟

.. وكنت أقول لنفسي: (حتى الوحدة العربية، الهدف الكبير، لم

تنج من الانقلاب عليها والإطاحة بها وتقويض دعائمها وأسسها، فأي بلاء هذا البلاء؟؟ أو ما لليل الانقلابات من آخر؟؟)!!

.. لا أقول متى كان يوم الانفصال والانقلاب على الوحدة، مخافة أن يبقى لطخة عار في تاريخنا الحديث..، وحتى لا يقول العالم عنا، إننا أمة لا تستحق الوحدة ولا تستحق الحياة، لأن من كان له عدو كعدونا، لا يقضي على الوحدة، وإنما يصحح مسيرتها ويبعد الأخطاء عنها، فالنصر على هذا العدو المشترك، وتحرير الأرض المحتلة لا يتحقق ولا يبلغ الغاية التي تنشدها أمتنا إلا بالوحدة العربية التقدمية والديمقراطية والمعادية للاستعمار وإسرائيل، وها نحن نضرب هذه الوحدة العربية الوليدة في الصميم، بأيدينا قبل أيدي الآخرين، فكيف ننتصر وكيف نحرر الأرض وكيف نقضي على العدو، وكلما ربطنا قطرين أو أكثر برباط الوحدة، انهارت، وكأن شبحاً خفياً ينهال عليها فيهدمها ويتركها أثراً بعد عين !!

.. لقد وقع ما خفت أن يقع، وقامت أفراح الانفصال والاستعمار والصهيونية وإسرائيل، وأقيمت معالم الزينات والأنوار الكهربائية في الشوارع والساحات، شوارع وساحات دمشق... وقام حكم هزيل وانفصالي ومهزوز !!

.. ولكن عجلة التاريخ وحتمية تطور وتقدم الشعوب لا يمكن أن تعود إلى الوراء!!.

* * * * *

.. أذكر أنني عندما خرجت من سجن المزة، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل، كنت قد فقدت كل شيء، الرزق والعمل والأمن، بعد أن ألغوا حريتي، وجريدتي التي أودعت فيها كل آمالي، وصنعت منها كل أحلامي ومستقبلي ومستقبل بلادي، وعدت محطماً إلى داري من شدة الارهاق، فأنا لم أنم منذ ثلاثة أيام، وأصوات آلات وأدوات التعذيب والقتل لا تفارق سمعي، وأذكر أنني نمت ساعة أو بعض ساعة وأنا في حالة محزنة من الهياج والاضطراب، فلما استيقظت وجدت أن عيني اليسرى قد نزفت دماً من جديد، بعد أن كانت قد نزفت دماً منذ سنوات طويلة، وأسرعت إلى الطبيب وعلمت منه أن شرياناً دقيقاً آخر قد انفجر داخل حجرة العين، وأنه من المستحيل الوصول إليه وإزالة هذا الدم الذي سيتحول بعد قليل إلى ألياف تحجب الرؤية عن عيني !!

.. وعرفت أنني سأرى الحياة والأشياء بعين واحدة، ولم أجد إلا أن أصبر، وكان لا بد من الصبر، وعشت في خوف دائم من العمى، وما أزال أعيش في هذا الخوف حتى الآن!!

وأخذت نقطة الدم التي نزفت في حجرة العين اليسرى تتحول إلى الياف وأخذت أرى الأشياء من خلالها ولكن بصورة مضطربة !!

.. وأذكر أنني قضيت سنوات الوحدة القصيرة، وأنا شبه مريض، رغم أنني كنت ما أزال شاباً، فأنا أرى بعين واحدة، وأعيش بأعصاب متعبة، وفي بؤس وبطالة وخوف، لا أعرف من أين أجد القوت لهذه الأسرة الشقية بي وبهذه الوحدة !!

... وكنت إذا خرجت من داري، وغبت ساعة أتسكع في الطرقات، وعدت خالي الوفاض، وجدت أولادي وأهلي في خوف عليّ من أن يكون زبانية «الوحدة» قد حملوني من جديد إلى المزة !!

... وكنت لا أعرف على من أحزن، على عيني التي نزفت دماً، أم على شعبي الذي تنزف جراحاته الصديد والدم، أم على أولادي وأهلي الذين أصبحوا لا يجدون ما يأكلون.. أم على هذا الوطن الذي يتعذب ويتململ تحت سياط الجلادين !!

... وضاقت بي الحال كثيراً، وعشت بعين واحدة، أنا الذي كنت أريد أن أعيش في ملايين العيون والقلوب التي كانت ستحمي الوحدة وتصونها وتحرسها وتخفق بالحب لها، لو كانت كما أتمنى وأريد، وكما يتمنى ويريد لها شعبنا، ولكن أدعياء الوحدة لم يريدوا لها الإستمرار ولا التقدم والازدهار، وإنما أرادوا أن يعجلوا بنهايتها ويسعوا جاهدين من أجل تمزيقها !!

.. ما بالنا، نحن العرب، ننال الاستقلال، ونبلغ أو نكاد هدفاً من أهداف الوحدة، فإذا بنا فجأة نهدم كل شيء بأيدينا، ونطفيء كل أمل يشرق في قلوبنا، ونضرب شعبنا وكأننا ننوب في ذلك ونحل محل الاستعمار، ولا نتعلم درساً واحداً من كل دروس التاريخ والحياة...؟؟

.. والآن، ما لنا ولهذا الذي وقع لنا ولأمتنا وشعبنا، ما دام قد وقع، وليس إلى رده من سبيل؟؟ ولنتحدث عن حكومة الانفصال الأولى، وما جرى لنا معها، فقد ذهبت مع زميلين لي من أصحاب الصحف التي ألغيت في أول عهد الوحدة، لنطالب الحكومة ونلح في الطلب، لإعادة صحفنا إلينا، والسماح لنا بإصدارها، والتقينا في مكتب رئيس الحكومة الدكتور مأمون الكزبري، بوزير داخليته الدكتور عدنان القوتلي، رحمه الله، فلما تحدثنا إليهما فيما جئنا من أجله، رد علينا القوتلي قائلاً بالحرف الواحد: (كيف تريدون أن نسمح بعودة صحفكم إلى الصدور، وبينها صحف يسارية، وماذا نقول للسفير الأميركي، إذا سألنا لماذا سمحتم بإعادة صدور صحف شيوعية؟؟ وهل نسيتم أن عبد الناصر نفسه، قد أوقف هذه الصحف، يوم أقام وحدته مع سورية؟؟) ...

.. ونظرت إلى زملائي، وكـأني أشهدهم عـلى ما سمعت وسمعـوا، وقلت لـرئيس حكومـة الانفصال الأولى ووزيـر داخليته: (ومـا شـأن السفـير الأميركي في أمـر داخلي كهـذا يخص سوريـة وحـدهـا دون سواها؟ وهل السفير الأمـيركي أصبح المنـدوب السامي في حكـومتكم بعد الانفصال؟؟.)

.. ورد وزير الداخلية بشدة وحـدة قائـلاً: (إننا لن نعيـد صحفكم إليكم، ولن نغضب أميركا، ونريد أن نكسب ودّها، حتى لا تقلبنا نحن أيضـاً كما قلبت أنظمـة كثيرة في هـذا العالم، فهي تصنـع كـل يـوم انقـلاباً عـلى من لا تـرضى عنـه، ويكفي بـلادنـا مـا وقـع فيهـا من انقلابات..؟؟.)

.. وخـرجنـا من المقـابلـة، ونحن نتبـادل نظـرات الـدهشـة والاستغراب !!

.. والحقيقة أن الفئات المعادية للوحدة والاشتـراكية والتقـدم، قد ازداد حقدها وتـآمرهـا على الـوحدة العـربية، وازداد السب والشتم والنيل منها ومن أمتنا وشعبنا ومن عبد الناصر، وعقد مؤتمر شتـورا الشهير، الذي بحثت فيه شكوى سورية لـدى الجامعـة العربيـة مما سمي يومئذٍ، زوراً وبهتاناً، بالتآمر الناصري عليها، وأخذنا على منـابر هذا المؤتمر ننـزل على رأس عبـد الناصر والـوحدة العـربية بـالويـل والثبور وبالاتهامات نكيلها جزافاً، ونفقد رشدنا أكثر مما فقـدناه من قبل، ولا نعرف كيف نضع حداً لهذا الجنون!!

.. وكـان خطأ حكـومة الانفصـال الثانيـة أنها وافقت، عـلى عقد مؤتمر شتورا، وكان رئيسها الدكتور الطبيب الصديق بشير العظمـة، غير موافق قط عـلى عقد المؤتمـر، ولكنه أكـره على ذلـك وكان لـموقفه الرافض هذا، أثـره بعد ذلـك، عندمـا أجبر عـلى الاستقالـة من قبل المغامرين الذين قاموا بالانقـلاب على الـوحدة، وجيء بـالسيد خـالد العظم الـذي ألف آخر حكـومات الانفصـال، باعتبـاره أشـد قسـوة وشدة، في الحملة على الوحدة العربية وعلى عبد الناصر !!

.. وفي عهد حكومة الدكتور الصديق بشير العظمة، أعيدت إلينا صحفنا التي أوقفت في عهد الوحدة، واستأنفت اصدار جريدتي «الطليعة» بعد أن رفض الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية السماح لها بالصدور، فاستخدم رئيس الحكومة الدكتور العظمة صلاحياته الدستورية ووقع على مرسوم السماح لي باصدارها !!

.. وكان علي، بعد أن استأنفت جريدتي صدورها، بعد مرور عام أو أكثر على نكبة الانفصال، أن أترفع عن روح التشفي، وكان عليّ أن أظل، كما كنت دائماً، وفياً للوحدة العربية، رغم كل ما أصابني في رزقي وحريتي، وفي عيني وصحتي التي تدهورت على الأثره ولكن المسألة هي أنني انسان، والإنسان مثلي، لا بد أن ينفعل وينتصر لذاته ويثأر لها عما لحق بها من ضروب وأساليب الارهاب والعذاب، إذ كيف أستطيع أن أنسى أو ارتفع فوق الجراح وأنا الذي أصبحت أرى بعين واحدة، بينما العين الثانية تنزف، ولا أجد الدواء لها، ولا الغذاء لأهلي، ولا أجد العمل والرزق، ويذهب كل ما بذلت من أجل ازدهار وتقدم جريدتي أدراج الرياح بعد توقيفها وبعد اعتقالي ونزيف عيني، وبعد أن كنت قبل ذلك في أحسن حال..؟؟

وهل أنا إلا إنسان له قدرة محدودة ومعينة على الاحتمال والصبر؟ وهل أنا إلا ذلك الرجل الذي لا بد أن يتأثر بما أصابه من شر وضير وظلم كبير من هؤلاء الذين هم أهلنا وأخوتنا والذين هم من أمتنا وشعبنا، والذين ضلوا ضلالاً بعيداً، وأصابوا الانسان العربي والشعب العربي في صميم كرامته وحريته ورزقه وحياته؟ وأين الإنسان الذي ينسى الإساءة ويتجاوزها، خاصة تلك التي يكون فيها الظلم صارخاً والجرح عميقاً، أصاب سويداء قلبه وروحه وحياته؟.

وما أنا إلا من غُزيَّة إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

... وحسبني الناس انفصالياً، وحسبوا أنني ضد الوحدة العربية، لأنني نلت في جريدتي، بعد أن صدرت من جديد، من

الـوحدة وعبـد الناصر، وأنـا في الحقيقة لم أنـل منهما، ولم أتعـرض لهمـا، وإنما تعـرضت لأخطـاء عبـد النـاصر وأخطـاء الـذين وسـد عبد الناصر إليهم أمر الحكم والسلطة في عهد الوحدة والتي أدت إلى الانقلاب، وإلى الانفصال!!

.. وقـد تنبهت للأمـر، عندمـا قامت حكـومة الانفصـال الأخـيرة برئاسة السيد خالد العظم بعد أن أُكره الدكتور بشـير العظمة رئيس الحكومة يومئذ على الاستقالـة، بعد أن اتهم بـالاتصال والحـوار مع عبد الناصر لإعـادة الوحـدة بين سـورية ومصر، وعـيّن نائبـاً لرئيس الوزراء خلافاً لرغبته كما لم يؤخذ رأيه لا في استقالة حكـومته ولا في تعيينه في وزارة العظم!!

وبدأت أعارض حكومة السيد خالـد العظم، الانفصاليـة الأخيرة، التي كانت في الحقيقة تحمل كفنها بيـدها منـذ ولادتها ومجيئهـا إلى الحكم، وكتبت ذات يوم في جريدتي، عندمـا أصر السيد خـالد العظم على أن يجمع مجلس النواب المنحل، خبراً وضعت له عنواناً في صدر الصفحـة الأولى قلت فيه: (المجلس المنحـل لن يجتمع ولا تحت ظـل شجرة..)!!

وقد أردت مما نشرت أن يعلم السيد خالد العظم، الذي كان أشد عـلى الوحـدة وعبد النـاصر من كل الـذين سبقـوه وتـولـوا رئـاسـة الحكومات الانفصالية قبله، بأنـه ليس حراً في اتخـاذ أي قرار، وليس قادراً على تنفيـذ أي قرار، وأنـه لا يملك من أمـره ولا من أمر الحكم والسلطة شيئاً!!

... وعندما أذاعت صوت العرب من القاهرة، مـا نشرته جـريدتي، دعـاني السيد خـالد العظم، رحمـه الله، إلى منـزله وقصره المنيف في ظاهر دمشق على طريق «دمـر» وجلسنا نتحـدث، وكان ممـا قالـه: (أنا أعرف أنك من ألـدّ أعداء الـدكتاتـورية، وأنـك تؤمن بالـديمقراطيـة والحرية، ولكن موقفك منا يشجع الدكتاتورية على التفكير جدياً للقيام بانقلاب جديد.). فقلت لـه: (وهل تظن يـا سيدي، أنـك تحكم في ظل

نظـام ديمقراطي؟؟ إن هـذا هو خطـأ كـل الـذين حكمـوا مثلـك من السيـاسيـين منـذ الانقـلاب الأسـود والأول عـام ١٩٤٩، مـع أنهم يعرفون، قبـل غيرهم، أنهم لا يحكمـون).. وقلت له، وأنـا أشفق عليه مما هو فيه من تخبط وحيرة:(إني أخاف عليك من انقلاب جديد وأولى لك أن تستقيل، وأن لا تبقى أكثـر مما بقيت حتى الآن، وأن لا تـزيد من حملتـك الشعواء عـلى الوحـدة وعبد النـاصر، فإن لهمـا في قلوب وضمائر الجماهير العربية، رغم كـل ما حـدث من أخطاء، ورغم هـذا الانفصال، منزلة ومكانة !!)

وقلت له: (ما يزال لعبد الناصر سحره، وهو رغم كل ما حدث، مـا يزال ملء السمع والبصر)!!

.. ونظر المرحوم خالد العظم إليّ طويـلاً، وعلت وجهه سحـابة من الكآبة والحزن، وبانت في عينيـه من خلف نظارتيـه، حيرة مـدمرة، ثم فارقته وكأن على شفتيه صفرة الموت !!

... وبعد أيام تسربت أنباء إلى رئيس الحكومة، خالـد العظم، بأن انقلاباً يُعد للإطاحة بعهد الانفصال وبه وبحكومته والفئات الضـالعة معها، فذهب مسرعاً إلى رئيس الجمهورية الذي نصبه قادة الانفصال وأرباب الانقلاب على الوحدة، وأخبره بمـا سمع، وتبـادلا الرأي مـع الانقلابيين الذين جاءوا بهمـا إلى الحكم، وكان بعضهم قـد أقصي أو أُعفي أو سُرّح، وبعضهم الآخـر يحاول أن يطيـل من عمر الحكـومـة ويشـد من أعصابهـا، وهي تكاد تنهـار تحت ضغط الجمـاهـير التي اكتشفت أن خـالد العظم يـريد أن يعيـد إلى الاقطـاع والاستغـلال مجدهما القديم، وأنه يـوشك أن يـرد البلاد إلى الـوراء، وأن يفرض عليها حكم الاقطاع والاستغلال من جديد !!

وفعلاً كان يريد ذلك ويعمل له بكل قوته!!.

* * * * *

.. أذكر أننا بعد صدور صحفنا، في عهد حكومة الدكتور بشير العظمة، دُعينا إلى زيارة العراق في أيام الزعيم «الأوحد» عبد الكريم قاسم والذي كان يعادي في جنون مطبق، الوحدة العربية وعبد الناصر، ويتعاون بدون وعي مع حكم الانفصال في سورية، ويلتقي برئيس نظام الانفصال ناظم القدسي، ويجتمع به على الحدود ويصنعان الخطط لابعاد خطر الوحدة وعبد الناصر عنهما !!

... وأذكر أننا التقينا خلال زيارتنا لبغداد، وكنّا أكثر من عشرة من أصحاب الصحف، بعبد الكريم قاسم في مقر إقامته في وزارة الدفاع، وفي عدة مناسبات، ولاحظنا دون أي عناء، أن الرجل مهزوز، لا يدري ما يفعل وماذا يقول وكيف يتصرف وأنه ضائع تماماً عن كل ما حوله ومن حوله، وأنه يعيش حالة دكتاتورية، إذا جاز التعبير تتسم بازدواج الشخصية وبالهذيان، وكان يسكر بالمديح والثناء، ويغيب عن الوجود، وهذه حالة عرفتها وعرفها بعض من عايش وزامن الدكتاتوريين وتابع سقوطهم خطوة خطوة ولحظة لحظة !!

.. واستمعت إلى الزعيم «الأوحد»، وهو يهرف بما لا يعرف، ويخلط «عباساً على دباس» ويتحدث فيما لا طائل تحته من أمور لا تهم أحداً، ويكرر ويعيد، حتى لتخرج من لقائك معه وأنت حزين النفس مريض الروح، من الدكتاتورية وما تفعله بصاحبها وبالذين تضطرهم حياتهم مثلنا، إلى اللقاء بهم، وإلى سماعهم والاصغاء إليهم !!

... ولقد كان عبد الكريم قاسم، كما رأيته وعرفته خلال عشرة أيام، طيباً ولكنه كان مريضاً في أعصابه المرهقة والمتعبة...، وفكرت في هذا الجيل من الدكتاتوريين في هذا العالم، وكيف أنهم يثيرون الشفقة والرثاء، أكثر مما يثيرون الاشمئزاز والغثيان، وكيف أنهم لا يختلفون كثيراً عن سلاطين وولاة بني عثمان، أو عن أُغوات

الانكشاريين في جهلهم المركب وغبائهم المزري، وفهمهم المقلوب للأمور، فلقد أدهشني وأذهلني عبد الكريم قاسم، الزعيم «الأوحد»، لما سمعت منه وما رأيت من شطحات وتصرفات غريبة عجيبة لا تصدر إلّا عن واحد فاقد الرشد تماماً، وكنت وجميع الزملاء، ونحن نجلس إليه في مكتبه بوزارة الدفاع، ننظر إليه وهو يتحدث إلينا وهو في حالة هيستيرية، ولا نصدق أن هذا الرجل هو حاكم وزعيم العراق !!

.. ودلنا على غرفة نومه في وزارة الدفاع، وهي تقع بجانب مكتبه، فالرجل، رحمه الله، لم يتزوج، وليست له دار يقيم فيها، ووزارة الدفاع هي داره ومحل سكناه، وكان يظن أنها تعصمه من الانقلاب عليه والاطاحة به وقتله، وكان يشير بيده، وهو يتحدث إلينا، إلى بذلة عسكرية له ملطخة بالدماء ومثقوبة برصاص كثير إنهمر عليه في إحدى المحاولات التي جرت لاغتياله، وكان يؤكد لنا أن الله هو الذي يحفظه من كل سوء لأمته وبلاده، وأنه مرسل إلى هذه الأمة لينقذها، وليخرجها من الظلمات إلى النور، وأنه مبعوث العناية الالهية لهذه الغاية !!

وأذكر أن مدير الشرطة العسكرية في وزارة الدفاع ببغداد يومئذٍ، قال لنا، ونحن نغادر الوزارة مع الزعيم «الأوحد» في جولة عند الفجر على أحياء بغداد(إن عبد الكريم قاسم مرسل من الله إلى هذه الأمة، وأن النور الالهي يشع من جبهته !!) ..

... وعندما عدنا إلى دمشق، عزمت على كتابة سلسلة من المقالات عن الزعيم الأوحد، وعن زيارتنا له، ولكن أحد الزملاء أوصاني بأن لا أفعل، مع أنني كنت في شوق الى الكتابة عن هذه الزيارة، وعن طرائف عبد الكريم قاسم وزعامته، وحكاياته، مما يضحك ويبكي معاً... رحمه الله..

... ووقع الانقلاب على الزعيم «الأوحد»، المرسل من الله لهذه الأمة الشقية به وبأمثاله... وذلك أثناء جولة له عند الفجر على أحياء

بغداد، كما تعود، وقامت الثورة عليه ودكوا وزارة الدفاع على أم رأسه، وقبضوا عليه في أزقة بغداد وساقوه مع أعوانه إلى دار الاذاعة، حيث قتل ومن معه شر قتلة !!

.. وهكذا يذهب انقلاب ويذهب انقلابيٌّ، ويأتي انقلاب ويأتي انقلابيٌّ، في هذا العالم، فلا تتوقف الانقلابات ولا تهدأ، وتظل الأمة في جميع هذه الأحوال، هي الضحية، وتبقى قضايا وآمال الشعب وحريته وأمنه واستقراره وحياته وعيشه، هي المستهدفة، وهي الضحية...

... وقيل بعدئذ، إننا قبضنا من عبد الكريم قاسم، مئات آلاف الدنانير، وإنه أصابني منها مئة ألف دينار أو تزيد قليلاً، وقد نشرت ذلك جريدة «بردى» بعد سقوط عهد الانفصال، وكنت غائباً عن البلاد، وقالت بعد أن ذكرت اسمي واسم جريدتي، : إنني قبضت هذا المبلغ الكبير من حكومة عبد الكريم قاسم أثناء زيارتنا لبغداد، وقبض زملائي مثلي، كما قالت !!

... ولو كنت في دمشق، في ذلك الحين، ولم أكن في المنفى، لقاضيت صاحب تلك الجريدة، لأنه كان يفتري عَليَّ كذباً، وقد تأكد كذبه للمسؤولين، عندما أوفدوا ممثلاً إلى بغداد بعد سقوط حكم عبد الكريم قاسم، وبعد سقوط حكم الانفصال في سورية، واطلع على الوثائق وعاد وأكد أنني لم أتقاض ديناراً واحداً، وأن ما نشره صاحب جريدة بردى كان محض اختلاق !!

... لقد شربت من نفس الكأس التي كان من الممكن أن أصب منها، في جريدتي، للآخرين، وأن يكونوا مثلي من المظلومين، ولكنني تعلمت دائماً، أن لا أنشر ولا أكتب غير الحقيقة، حتى لا أُظلم أحداً، كما ظُلمت، وحتى لا أتهم أحداً بالباطل، كما اتُّهمت، ولكي تظل الحقيقة هي الغاية وهي الهدف !!

... قبل سقوط عهد الانفصال ببضعة أيام، كنت في مكتبي في جريدتي أستعد لاصدار عدد اليوم التالي، وكان ذلك مساء السادس

والعشرين من شهر شباط (فبراير) ١٩٦٣، وبينما أنا كذلك، دخل عليّ رجل أعرفه جيداً وأعرف صدق أخباره، فرحبت به وطلبت له فنجان قهوة، وبعد حديث في مختلف الشؤون، قال: هل تسمع مني وتغادر البلاد غداً أو بعد غد، فأنا أشم رائحة أحداث خطيرة، ومن الخير لك أن تكون بعيداً فأنت محسوب بأنك في جملة الانفصاليين شئت أم أبيت !!

... ولاحظت أن الرجل كان صادقاً، ووعدته بأن أفعل ما اقترحه عليّ، وأن أسافر في أسرع وقت، وأن التمس بلداً صديقاً أزوره، وسألته: ما رأيك أن أزور معرض ليبزيغ الدولي الذي يقام بعد أيام في جمهورية ألمانيا الديمقراطية؟ فقال لي: المهم أن تسافر، ولو إلى المريخ أو القمر... وعجّلْ بالسفر، قبل فوات الأوان، وقبل أن«يضبوا» بك ضبة «أعمى بظلمة»، كما تقول العامة!!.

* * * * *

... عندما غادرت دمشق إلى برلين عاصمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية، كنت أحس في قرارة نفسي، أنني قد بدأت هذه المرة، رحلة العذاب الذي لا ينتهي، وأنني يجب أن أروض نفسي من الآن على حياة النفي والتشرد، سواء أكان هناك في أوروبا أم هنا في وطني !!

.. وعندما وصلت إلى برلين استقبلوني استقبالا حافلا يليق بي كصاحب ورئيس تحرير جريدة تقدمية وصديقة، وكان لي صديق وزميل هناك لم يكد يعرف بوصولي حتى أقبل عليّ ورحب بي كثيراً، ولقيت منه كل كرم وحب ووفاء !!

.. وصلت إلى برلين الديمقراطية ظهر يوم الثامن والعشرين من شهر شباط (فبراير) ١٩٦٣، حيث قضيت يومين فيها، ثم سافرت إلى مدينة ليبزيغ لحضور معرضها الدولي العريق والشهير، الذي يفتتح في الثالث من آذار (مارس) من كل عام، ووجدتها مزدحمة تغص بالناس من ضيوف وعارضين وسائحين وغيرهم، ومدينة «ليبزيغ» مدينة عريقة قديمة، وفيها أكبر عدد من الجامعات والمعاهد العليا المتخصصة، وهي درة مضيئة في جبين جمهورية ألمانيا الديمقراطية..

.. وبينما أنا ذات مساء في غرفتي في الفندق الكبير في ليبزيغ رن جرس الهاتف وسمعت صوت زميل لي يقول: إنه وصل للتو من دمشق، وأنه يريد رؤيتي في الحال، فرحبت به كثيراً واستقبلته بحفاوة، وقال: إنه لما علم بسفري عزم على اللحاق بي وأنه يرغب بأن نكون معاً في هذه الزيارة، فسعدت كثيراً به، ولم نعد نفترق، وقضينا أجمل الأيام في هذه المدينة الألمانية التاريخية العريقة، وحملونا بالسيارات ذات صباح، إلى مدينة «يينا» الشهيرة بصنع عدسات التصوير، والعدسات الطبية، فوصلناها بعد العصر، وزرنا مصنعها

الشهير للبصريات وأدوات التصوير، ثم قمنا بزيارة معالم هذه المدينة الجميلة، وعدنا إلى الفندق الكبير فيها لنغتسل ونرتاح بعض الوقت ونستعد بعد ذلك لتناول طعام العشاء وقضاء السهرة في مطعم ومقصف الفندق.. وخطر لي أن أجرب تحريك مؤشر الراديو الذي كان يقبع في طرف غرفتي، وأخذت أبحث عن إذاعة أعرف منها أخبار بلادنا، وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء، وبينما أنا كذلك، سمعت مذيع «صوت العرب» من القاهرة يقول في حماسة، إنه في صباح هذا اليوم قامت الثورة في سورية على حكم الانفصال ومن أجل عودة الوحدة بين مصر وسورية، لتمسح هذا العار عن جبين الأمة وأن الثورة قد دكّت عروش الرجعية والانفصال، ثم تلا المذيع بلاغات وقرارات، سمعت خلالها اسمي واسم جريدتي، واسم زميلي وجريدته، وكان مايزال يحلق ذقنه في غرفته، كما سمعت بلاغاً بعزلنا سياسياً ومدنياً نحن وعشرات السياسيين، وإلغاء سائر الصحف ومنها جريدتي وجريدة زميلي الذي ناديته ليأتي ويسمع مثل الذي سمعت، وإن كان هو على غير علم بما جرى، بينما كنت أتوقع أن يحدث ما حدث، بل وانتظر أن يقع ما وقع، لأنني كنت على علم تقريباً بما سيجري، فلما سمع زميلي ما سمعت، أصيب بحالة من الاغماء وسقط أرضاً، وأصبح في حالة يرثى لها، وخفت عليه أن يصيبه مكروه، فلما عاد إلى وعيه طلب إليّ أن نعود في الحال إلى برلين، لنكون على مقربة من مصادر الأخبار التي ترد من دمشق، ووافقته وعدنا !!

... وغادر زميلي برلين بعد يومين عائداً إلى بيروت ليعرف فيها ما جرى وليتدبر أمره !!

أما أنا فقد وجدوا لي فندقاً قديماً أو نصف فندق قضيت فيه ثلاثة أشهر، كانت أصعب علي من كل أيام حياتي الصعبة، فقد وجدت نفسي وحيداً شريداً طريداً ومتعطلاً وغريباً لا أعرف لغة القوم، ولا أعرف طريقاً أو مكاناً أذهب إليه وأقضي فيه بعض الوقت، وضاقت

بي الدنيا بما رحبت، وكدت أختنق، وأنا لا أرى أو التقي أحداً من الأصدقاء والصحب، وأخذت أردد ما قاله ذلك الشاعر العربي الغريب الشريد الطريد مثلي:

وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
ودَّع أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

.. وعالجت محنتي وأزمتي وغربتي وكل ما ألقاه، بهذا الدواء الساحر الشافي الذي أرجو أن لا ينفد من مخازن أدوية وصيدليات الحياة، وأن لا أفقده يوماً فلا أجده.. وهو الصبر، الذي رافقه الضحك المتصل والابتسامة المستمرة، ولذلك فقد كنت وأنا أضحك وأبتسم، أنسى وأتناسى، كل ما وقع لي من غرائب وعجائب هذه الحياة، وكنت أخشى وأنا أسير على غير هدى في ساحات برلين وشوارعها، أو أتوقف قليلاً عند واجهات مخازنها، أن يبصر بي أحد، وأنا أضحك، وأتناول من هذا الدواء الساحر، فيظن بي الظنون، ويحسب أنني أعاني شيئاً قليلاً أو كثيراً من داء الجنون !!!

.. وكنت كلما اشتد بي الضيق، واشتدت عليّ الغربة، وازدادت المحنة، أخرج من برلين، وأسافر في القطار إلى الريف الجميل الملتف حولها والمحيط بها، لأروح عن نفسي، واستجم ساعة من نهار وأعود إلى برلين، وقد ذهب ما في نفسي من ضيق !!

.. وفي أصيل أحد الأيام، اشتد ضيقي واستبد بي همّ كثير، وكدت أفقد آخر أمل لي في هذه الحياة، ولم يعد ينفع في شفاء حالي، ذلك الدواء الساحر الذي حدثتكم عنه قبل قليل، وأوصيكم به كلما ضاقت بكم الأحوال وما أكثر ما تضيق بكم ما دمتم عرباً مثلي!!

.. غادرت الفندق، ومشيت نحو ساحة (الكسندر) التي تعتبر مركز المدينة ووصلت إلى محطة القطار، ووقفت عند رصيفها وأنا أنوي أن أسافر إلى حيث يسكن ذلك الصديق والزميل القديم لأجد عنده بعض الراحة والسلوى، وإذا بي أرى صبية ألمانية شقراء،

خضراء العينـين ذهبية الشعـر، كأنـه سنابـل القمـح في عـزّ مـوسم الحصاد... طويلة رشيقة رقيقة دقيقة، وفي نحو الثانية والعشرين من عمرها الطويل إن شاء الله !!

.. وكنت يومها في الخامسة والثلاثين، ولا أدري مـا الذي شـدني إليها، ودفعني إلى أن القي التحية، بالألمانية، عليها... هل هو الجـوع في حالتيه... أم هي الحاجة الماسة إلى انسـان أتعرف عليـه وأتحدث إليه، بعد أن أصبحت في عزلة تامة في هذا العالم الذي يضج بالحركة والحياة،، وسألتها بعد أن ردت عـليّ التحية بـأحسن منها، عمـا إذا كنت أستطيع أن أراها والتقي بها، فاعتذرت قائلة إن أمها مريضـة وأنها مشغولة بها، وربما اتصلت بي بعد شفـائها، إلى الفنـدق الذي أنزل فيه.. فرفعت يدي بالدعاء إلى الله، أن يمن على أمهـا بالشفـاء العـاجل.. ويبـدو أنها فهمت مـا قلت.. واللبيب من الاشـارة يفهم... فضحكت كثيراً، وأعطيتها رقم غـرفتي في الفندق، وودعتني وأخـذت قلبي معها، ولم آخذ منها شيئاً، غير الأمل ولون شعرها الذهبي وورد خديها، والمروج الخضر في عينيها !!

.. وبعد سبعة أيام، حسبتها سبعة أعوام، سمعت عـاملة الفنـدق العجوز تناديني: (هِـرُّملوهي.. هِـرُّملوهي... عـلى الخط صبية تسـأل عنك) فأسرعت إلى حيث يقبع جهاز الهاتف في زاوية من الفنـدق وأنا أحاول أن أتذكر بضع كلمات بالألمانية حفظتها، لأعرف كيف أتحـدث إليها ولأفهم بعض ما ستقوله لي، فـإذا بالصبيـة التي حسبتها تلـك الصبية تقول لي بأنها موظفة في جمعية الصداقـة العربيـة الالمانيـة، وأنها تبلغني تحيات أمين سر الجمعية وتمنياته لي بالصحة والسعادة، وأنـه مهتم كثيراً بـايجاد سكن لي، وأنهم يبـذلـون جهـدهم في هـذا السبيل، وأن عليّ أن أصبر بعض الوقت ريثما تسوى أوضـاعي على ضوء الحالة التي صرت إليها!!

.. ومضت أيـام، والصبية التي التقيت بهـا في المحطة في سـاحـة الكسندر لا تتصل بي ولا تسأل عني ولا تفي بوعدها لي.. حتى كدت

أيأس، وأصرف النظر والقلب عنها !!

.. وبينما أنا ذات يوم في بهو الفندق، رأيت صبية تقبل نحوي وتسلم عليّ، فتذكرت في الحال، أنها الصبية التي التقيت بها في محطة القطار، وسمعتها تعتذر عن تأخرها وعدم اتصالها بي، كما وعدت، لأن أمها لم تشف مما ألم بها من مرض بعد، رغم كل دعائي لها بالشفاء، وأنه ربما تأخر شفاؤها، بسبب هذا الدعاء !!.

... وسألتها،، وأنا جاد كل الجد، عن أمها، وهل لم تشف حقاً من مرضها لأعرف إذا كان دعائي لا يستجاب رغم أنني كنت شيخاً وابن شيخ... فقالت لي: ان أمها تتقدم ببطء نحو الشفاء، وسألتني في دهشة: ولكن ما علاقة الدعاء أو عدم الدعاء بشفائها أو عدم شفائها؟؟ وهل أن الدعاء عندكم في الشرق يحل محل الدواء؟ فأجبت: في بعض الأحيان..،. وقلت لها أن التماس الدواء واجب، ولكننا من باب التفاؤل والأمل والتمني والحب، ندعو للمريض بالشفاء، وأننا نعتقد أنه ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواء !!

... وهنا سألتها،وهو بيت القصيد كما نقول نحن العرب، عن اسمها وما إذا كانت متزوجة وعندها ولد، أو عزباء، وعن أصلها وفصلها وحسبها ونسبها... وأنا أردد قول الشاعر العربي

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل..

الى أن وصلت إلى قوله

..... وهل ينبت النرجس إلاّ من بصل..

ففاحت من قولي هذا رائحة البصل وخفت على «المخلوقة»، أن تشيح بوجهها عني وتتركني إلى غير رجعة !!

.. وكان اسمها (إيڤا).. حواء.. وكانت عزباء، ووالدها، رحمة الله عليه، كان صيدلانياً، وهي تعمل معلمة في إحدى مدارس برلين، وكانت تسكن مع أهلها وهي صغيرة في ضاحية قريبة، ثم استقلت واتخذت لها سكناً وحدها !!

.. وفي ظني، أن الحب، إنما يكون بمقدار حاجة المحب إلى الحبيب، وبمقدار ما يجد بغيته وضالته وحلمه وأمله عنده، وبقدر ما ينسجم معه ويتفاهم، ولعلي أحببت هذه الصبية، لأنني وجدت فيها حاجتي إلى إنسانة تحقق لي سعادتي وراحتي وسلوتي في غربتي، ولأنني وجدت عندها الصدق والأمن والسلام، دون غاية، بعد أن تخلت الدنيا كلها عني، وأصبحت عاطلاً ومتعطلاً ومشرداً ومفلساً، وبعد أن كنت قبل أيام صاحب مؤسسة صحفية في بلادي، صغيرة في إمكانياتها، كبيرة في تأثيرها ودورها الوطني والتقدمي..!!

.. أليس الحب نتاج مجموعة من الرغبات والحاجات، ينظمها الانسجام ويحققها التفاهم والتعاون، ويصونها شيء من التسامح والاغضاء عن السيئات والأخطاء التي لا بد وأنها موجودة في كل إنسان على هذه الأرض؟؟

.. وكما ينزل المطر على الأرض الميتة فيحييها، نزلت عليّ (إيفا) من السماء كما نزلت مع آدم وبآدم من السماء في بدء الحياة على هذه الأرض، فأحالت صحرائي إلى واحة خضراء، وحياتي الشقية إلى رجاء، وبؤسي إلى سعادة، وفرشت دربي بورد الأمل، وأدخلت إلى نفسي الثقة، وازدادت ضحكتي بين شفتي طولاً وعرضاً، ولم تعد الدنيا تسعني من الفرح بعد أن كانت قبل معرفتي بها، أضيق من سم الخِيَاط !!

... وفي إحدى ضواحي برلين الديمقراطية، تقع بحيرة لا يمتد إليها الطرف، تسمى (بحيرة الشيطان) وتحيط بها الغابات من كل الجهات، وكان يحلو لإيفا أن تحملني إليها بالقطار لتسري عني وتخفف مما بي، فإذا بلغت بي شاطئها، استلقيت على أرض خضراء تطل عليها، ورحت في تفكير عميق، في هذا الجو الهادىء الساحر، فلا أسمع غير وشوشة المياه وهي تداعب الشاطىء، وغير تفريد الطيور التي تسبي العقول بشدوها وأهازيجها، ويبدو أن اسم البحيرة أضفى عليها في مخيلتي كثيراً من الأفكار التي يشوبها السحر

الموشى بحكايات الجن والشياطين، وهي حكايات ما تزال تجد لها مرتعاً خصباً في مخيلة الشرقيين مثلي، فأتخيل الشيطان الساكن في أعماقها، والساكن في أعماق الإنسان، وأنتظر أن يظهر لي عند شاطئها، أو على سطحها، وكنت أترقب خروجه بين لحظة وأخرى، وأن يقترب مني، وأن ندخل في حوار متصل حول الحياة والناس، وكل الأشياء ذات العلاقة بهذا العالم من حولنا..!!

... وبحيرة الشيطان، على خلاف صاحبها الشيطان، هادئة ساجية، لا تعرف مياهها الصخب ولا يرتفع موجها ليضرب شاطئها الملتف حولها في شبه دائرة واسعة حتى بدت لي وكأنها نائمة منذ الأزل، وأن الشيطان مثلها نائم، لا يبرح مكانه في أعماقها..!!

.. وأذكر أنه مر على برلين في أيام الصيف الأول الذي قضيته فيها، يوم قائظ حار لا عهد لها بمثله من قبل، ورأيت الناس يتصببون عرقاً وتتقطع أنفاسهم من شدة الحر، ويتثاءبون من الكسل، ورأيتهم وراء مكاتبهم وفي مراكز عملهم وقد أصابهم التعب وهم يستسلمون للنوم.. فقلت لهم: (يوم حار واحد يأتي عليكم ربما في العمر مرة، وتتعبون فيه وتصابون بالنعاس والكسل، وتستسلمون فيه للدعة والراحة، ويومكم الحار هذا، لو عرفتم، هو أخف أيام الحر عندنا في الشرق، ومع هذا تتهموننا بأننا كسالى، نحب الراحة ونستسلم في النهار للقيلولة ونتمطى ونتثاءب ونتعب، وها أنتم أصبحتم مثلنا نتيجة هذا الحر الطارىء الذي لا يلبث النهار بعده حتى يتحول إلى يوم ممطر بارد..!!).

.. وقد هربت في ذلك اليوم الحار إلى شاطىء بحيرة الشيطان، ولم أكد أتمدد وأستريح، حتى خطر لي أن أغني بعض أغانينا العربية والشرقية، وهنيئاً للصم البكم إذا غنيت.. ولم أكد أفعل حتى خرجت من طرف البحيرة جنية عارية لم تكد تقترب مني حتى بادرتني قائلة، أنها ابنة الشيطان الذي يسكن منذ الأزل في أعماق البحيرة، ولم يخرج منها حتى الآن... وأنه أرسلها إليّ لتؤنس

وحشتي وتبدد وحدتي، وتروح عني في هذا اليوم القائظ !!

.. وقالت إن أباها أرسلها أيضاً لتدعوني إلى زيارته في أعماق البحيرة، ليتحدث إليّ في أمور كثيرة لا علم لي بها من قبل.. قلت: ولكن كيف أستطيع أن أنزل إلى أعماق البحيرة وأنا إنسان؟ وكيف أستطيع أن أتنفس، وأخشى أن أغرق وأختنق؟ وطلبت إليها إذا شاءت، أن تنقل إلى أبيها رسالة مني، أشكره فيها لأنه أوفدها إليّ وتفقدني وسأل عني، عندما لم يعد يسأل عني أحد !!

.. ووافقت الجنية ابنة الجني، والشيطانة بنت الشيطان الرجيم...، وجلست بجانبي، فقلت لها بأنني لا أستطيع أن أكتب الرسالة إلى أبيها، ما لم تغط جسدها الناري العاري، وتلوذ بالصمت فلا تنبس ببنت شفة.. فما كتب كاتب كلمة، وبجانبه امرأة تثرثر، فمن شروط الكلمة على صاحبها، أن لا يشغل بغيرها، خاصة إذا كانت جنية مثلها، وثرثارة مثل بعض النساء... فضحكت الجنية من قولي، وفعلت ما أمرتها به في الحال، واختفت عن عيني !!

... وكتبت الرسالة على مهل، وما زلت أكتب فيها، حتى الآن، وسأظل أكتب فيها إلى أن أنتهي من هذه الأوراق والمذكرات!!

.. وأذكر أنني بدأت رسالتي يومئذ، والتي لم تنته بعد، بالقول: (إن الحياة هي موقف وعقيدة ومبدأ، وكلمة شرف تكتبها بدم القلب وفيض الوجدان دفاعاً عن قضايا الحرية والديمقراطية والإنسان)!!

.. على أن ما رأيت في هذه البلاد وهذه الجمهورية الألمانية الديمقراطية الفتية، يدعو فعلاً إلى الثقة بها والحب لها والتقدير لدورها البارز في حركة التقدم والسلام في العالم...

.. ولقد عرفت الظروف الموضوعية والسياسية والاجتماعية والمصاعب التي مرت بها هذه الجمهورية الألمانية الفتية والتي تسببها، ولا شك، هذه العلاقات المتشابكة والمتشابهة والقريبة بين أبناء هذا الشعب الواحد، وبين أفراد الأسرة الألمانية الواحدة،

والموزعة بين الدولتين الألمانيتين، وبين كثير من البلدان المجاورة لهما والقائمة على حدودهما، والتي تكاد تكون متداخلة ومشتركة أيضاً، لا يفصل بينها شيء مما يسمى بالحدود الطبيعية والجغرافية !!

.. وكنت أتحدث عن جمهورية المانيا الديمقراطية هذا الحديث في عام ١٩٦٤، أما الآن وبعد خمس وعشرين سنة، وبعد أن زرتها مرتين في عام ١٩٨٣ وعام ١٩٨٤، فإن الجمهورية الألمانية الديمقراطية الصديقة، قفزت قفزة رائعة كبيرة في ميدان البناء والتقدم والازدهار والتطور، وهي ما تزال في سباق مع الزمن والتقدم والحضارة !!

.. وأنا، في الحقيقة، أعتبر جمهورية المانيا الديمقراطية بلدي، رغم كل ما لقيت فيها من غربة وشقوة وعذاب، ففيها عشت خمس سنوات، وفيها عرفت كثيراً من الأصدقاء والأحبة، ولي فيها ذكريات لا أنساها، ومراتع ما أحلاها وما أغلاها !!

.. ولقد تقبلتُ الحضارة الأوروبية، قبولاً حسناً، لأن الصدق هو رأس هذه الحضارة التي عشت في ظلها هذه السنوات الخمس التي لا أنساها، وكان الصدق هو الذي سعدت به كثيراً وتعلمته هناك، حتى لم أعد أتخلى عنه، وعندما عدت إلى الشرق، كنت اعاني كثيراً من قلة الصدق وكثرة الكذب بين الناس، مما أرهقني كثيراً وعذبني أكثر !!

.. ثم إن لي في جمهورية المانيا الديمقراطية، تلك الانسانة الطيبة التي لا أنساها في حياتي كلها، لما بذلته من ذات نفسها في سبيلي ومن أجلي، في غربتي ومحنتي، فالأيام التي مرت بي أنستني حليب أمي، كما تقول العامة، وهاهي «إيفا» وحدها دون سائر الناس في هذا العالم، تواسيني وتأخذ بيدي وتخفف من شقوتي وبؤسي وغربتي، وكنت أقول لها: (لقد أكدت لي فعلاً دور المرأة وأثرها الكبير في سعادة الرجل وتقدمه وازدهاره، وبعكس ما تعارف عليه الناس، منذ القديم، من أن حواء هي التي أخرجت آدم من الجنة ودار الخلود، ونزلت به

إلى الأرض، حيث العذاب والشقاء والموت والفناء، فإنك أخرجتني من الجحيم المقيم الـــذي كنت فيــه، حتى كـدت أنسى الغــربــة والنفي والتشرد، واستطعت أن تجعــلي جميع النــاس أهلي وســائـر الأوطـان وطني، وأن تفتحي عيني عـلى هذا العــالم الجـديـد في بـلادكم حيث شعــرت بالثقــة لأنه عــالم يفيض بالخــير والصدق وحب الانســانيــة والســلام)... وفي الحقيقة كـانت «إيفا» تجســد كل ذلــك، وتعبــر عن أسمى مشاعر الانسان !!

... ولكن رغم كل السعادة التي وجدتها إلى جــانب هذه الإنســانة والصديقة الطيبة، كنت أحس عندمــا تشتد عــليّ الغربــة وتضيق بي أسبــاب الحياة، بــأن هذا العــالم الذي ولـدنا فيــه وجئنــا إليــه رغم إرادتنا، عالم غريب، كلما اقتــربنا منــه ازددنا اغتــراباً وازددنــا فيه شقاء وعذاباً !!.

* * * * *

... كنت وأنا أعيش في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، شديد الأهتمام بهذه الظاهرة الحضارية التي تضفي على الحياة معنى جميلاً ورائعاً، ونكهة طيبة تبعث في النفس أعمق مشاعر الاعتزاز بالإنسان، صانع الحياة، ومحقق التقدم، وأستاذ الحضارة بلا جدال، وهذه الظاهرة هي أن الناس جميعاً يقرأون كثيراً، ويتعلمون كثيراً، ويطالعون الكتب والمجلات والصحف في القطارات والحافلات والسيارات وكل وسائل النقل، وفي الحدائق العامة، وفي كل مكان يستطيعون القراءة والمطالعة فيه، فلا يحجبهم عن الكتاب حجاب، ولا يمنعهم عنه مانع، ولا يشغلهم عنه شاغل، فهم في كل وقت. في الليل والنهار، وعلى مائدة الطعام، أو وراء مكاتبهم أو في مصانعهم لا يتخلون عن الكتاب، حتى بدا لي أن الكتاب أهم من الخبز عندهم، وأنه يتقدم عليه !!

... إن الحضارة كالأرض إذا أصلحتها وسقيتها أنتجت خيراً كثيراً، وأخرجت من كل زوج بهيج، وإذا أهملتها سكنت سكون الموت، ثم تعود إلى الحياة، عندما تعود إليها مزوداً بالعلم والمعرفة والكتاب، وهكذا الحال، في جمهورية المانيا الديمقراطية، تنمو الحضارة وتعطي ثمارها وقطوفها الدانية، بفضل العلم والمعرفة والكتاب، خاصة وأن كل وسائل العلم، وكل الكتب، وكل المدارس والمعاهد والجامعات موفورة في هذه الدولة الاشتراكية الصديقة، حيث يجد الانسان، منذ طفولته وحتى شيخوخته، العلم والمعرفة والمدرسة والجامعة، مفتحة الأبواب مشرّعة النوافذ لشمس الحضارة ينهل منها ما يشاء، فلا يشكو من التخلف والجهل والأمية ولا من الفقر والمرض ولا من البطالة التي تذل الإنسان !!

.. إن الكتاب مثل الخبز، يوزع بثمن بخس، دراهم معدودة، وكنت

ألاحظ جيداً كيف أن صديقتي «إيفا» خلال سنوات وجودنا معاً، كانت لا تفارق الكتاب أو تمل المطالعة، وكانت تأسف كثيراً لأنني لا أعرف القراءة بلغتها ولا تعرف القراءة بلغتي، وكانت تصف لي روعة ما تقرأ وأهمية ما تطالع من الأدب الألماني، وكانت تتقن اللغة الروسية جيداً ، وكانت شديدة الاعجاب بالأدب الروسي الذي كان منذ القديم يحمل معاني إنسانية وتقدمية ويطمح إلى بناء المجتمع والانسان الكريم والعظيم، ولم تكن تهتم بطعامها وإنما بكتابها، وكانت تبحث لي عن الكتب التي ترغب في أن أقرأها وأطالعها لتزيد من معرفتي وتشغلني بالكتاب عن سواه... وكنت لا أخفي دهشتي وإعجابي أمامها وأمام كثيرين من أصدقائي العرب والألمان لهذا الاقبال الشديد في هذه البلاد الصديقة، على العلم والمعرفة والقراءة والمطالعة، وكنت لا أخفي أمام نفسي وبعض أصدقائي، حيائي واستغرابي، من عزوف الناس في بلادنا وبلدان العالم الثالث الأخرى، عن الكتاب وهجرهم له وبعدهم عنه وعدم اقترابهم منه، وعدم حبهم للقراءة والمطالعة، ولهذه الأمية أو نصف الأمية التي تزداد انتشاراً بينهم، وكيف أننا لا نكاد نرى قارئاً جيداً بيننا ولا نرى للكتاب أثراً أو سوقاً رائجة عندنا، وإذا وجدناه شكونا من غلائه، أو من تفاهته، وكان ما يسعدني أكثر، أن هؤلاء الأصدقاء في جمهورية المانيا الديمقراطية يزدادون تواضعاً كلما ازدادوا علماً وثقافة ومعرفة، فالطبيب مثلاً يتابع المكتشفات في علمه وفنه واختصاصه، فلا يكتفي في حياته وعمله بشهادته يعلقها في صدر عيادته أو مكان عمله، فهو يعرف، لأنه متواضع وغير مغرور ولا معتد بنفسه، أنه إذا لم يستمر في متابعة ومطالعة أحدث المكتشفات في الطب فسوف ينسى ما تعلمه في الكلية، لأن آفة العلم النسيان، فالعالم والمثقف والمفكر والكاتب، الذي لا يتابع ولا يطالع ولا يوسع مداركه ومعارفه، يتحول بعد فترة من نيله قسطاً من العلم والمعرفة، إلى جاهل أو نصف جاهل !!

.. عرفت صديقاً ألمانياً في برلين الديمقراطية، عنده مكتبة عظيمة، ولم يكن يسمح لنفسه بأن يضع في مكتبته كتاباً جديداً اشتراه أو اقتناه، إلّا بعد أن يقرأه ويعلق عليه ويتعرف على مواطن القوة والضعف فيه، وقد قال لي مرة، وأنا في زيارة له، بأنه إذا توقف عن القراءة والمتابعة والمطالعة فإنه يصبح جاهلاً بالتدريج، وأنه لا بد أن ينسى عندئذ أكثر الذي تعلمه، وعندئذ سيفقد، كما قال، مسوغ وجوده في هذه الحياة، لأنها تتحول بدون الكتاب والمعرفة إلى موت بطيء !!

.. وذات يوم حضرت في جامعة برلين لقاء له مع طلابه، وكان صديقي هذا أستاذاً فيها، وسأله طالب مسألة غاب عنه جوابها، أو لم يعرفه، فلم يتظاهر بالمعرفة ولم يبادر إلى الإجابة من غير علم، ولم يقل غير كلمة ما تزال ترن في أذني: «لا أدري.. فاسأل غيري لعل عنده الجواب أما أنا فلا أعرفه» !!

.. وعاد إلى حديثه الذي كان يتحدث به إلى طلابه دون أن يبدو عليه أنه شعر بغضاضة، وهذا هو الصدق مع النفس والحقيقة ومع العلم الذي لا يدرك أحد مداه ولا يبلغ منه إلا القليل القليل، مصداقاً لقول القرآن الكريم: ﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾ وقوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ أو كما جاء في الحديث الشريف: (إنما العلم بالتعلم) !!

.. ولولا أنني إذا قرأت وكتبت كثيراً، أخاف على عيني التي نزفت دماً ذات يوم، لما توقفت ساعة عن القراءة والكتابة والمطالعة والمتابعة، وإني لأحس إرهاقاً واجهاداً وتعباً في عيني النازفة، كلما ازددت من القراءة والمطالعة والكتابة، حتى كنت أخشى أن تنزف من جديد، وكنت إذا نمت بعد ساعات طويلة من الكتابة والقراءة، أخاف أن أستيقظ فأجد عيني قد نزفت دماً كما نزفت أول مرة !!

.. وكما أن آفة العلم النسيان، فإن أخطر آفاته الغرور والادعاء

والظن أن أحدنا قد بلغ من العلم شيئاً، وأنه لم يعد بحاجة إلى الاستمرار في طلب العلم، أكثر مما فعل !!

.. وبالإضافة إلى العلم والتواضع، والمعرفة والثقافة، والمطالعة والمتابعة، يأتي الصدق مع النفس والحياة والناس عند هؤلاء الأصدقاء الذين عشت معهم تلك السنوات من حياتي في الغربة وتأتي كذلك الدقة في الوعد والموعد، وحسن المعاملة وحسن الخلق، وحفظ اللسان فلا يأتي أحدهم على ذكر أحد بسوء لا في حضوره ولا في غيابه، كأن هذا السلوك في رأس القيم والأخلاق التي يتحلى بها الناس في هذا البلد الصديق، ولأضرب على ذلك هذا المثل الذي شهدته وعرفته وأدركت معناه، فقد جاءتني طالبة جامعية اسمها (هايدي) وكانت زميلة لطالب عربي من بلدي، وكانت قد عقدت معه صداقة وزمالة، وكانت ستتوج بالزواج بعد أن يتخرجا من الجامعة، وقد بادرتني قائلة، وهي هادئة، غير ثائرة ولا منفعلة: (أرجو منك أن تتوسط لي عند زميلي، وهو من بلدك ليتخلى عني ويبتعد عن طريقي، فأنا لا أريد بعد الآن الزواج منه، ولا أريد زمالته وصداقته..)، فلما سألتها عن سبب ذلك قالت: (لأنني لا أحب الكذب، وهو يكذب، ولا أحب النفاق، وهو منافق، فقد كنت عنده قبل أيام، وجاء زملاؤه من الطلاب العرب يزورونه، فقام يحتفل بهم ويقبلهم ويصافحهم بحرارة ويتحدث إليّ أمامهم عن حبه لهم، وعن أخوتهم وصداقتهم المخلصة له، حتى أخجلهم من كثرة الحمد والثناء، وظل يتحدث عن فضائلهم أكثر من ساعة. فإذا انصرفوا ومضوا في حال سبيلهم أخذ يشتمهم أمامي ويسبهم ويقول عنهم كل شيء رديء. وقال لي بأنهم من أرذل الناس، وأنه كان يسايرهم عندما كان يثني عليهم أمامي، وأنهم من ألد أعدائه وأنه يمدحهم ليتقي شرهم ويتخلص منهم، فلما قلت له: أهذا رأيك فيهم الآن وقد كنت قبل لحظات تضعهم في مصاف الملائكة؟؟ وما ضرك إذا كانوا كما تصف، أن تسكت وتصمت ولا تكذب، وإذا كنت تتعامل مع أصدقائك وزملائك وأهل بلدك على هذه

الشاكلة وتتصرف مع الناس على هذا الأسـاس، فكيف آمن على نفسي منك وكيف أضمن أن لا تكذب عليّ، إنني أريد أن أفـارقك إلى الأبـد، ولا أحب أن تراني بعد اليوم» وأخذ يتـوسل إليّ ويبكي كـالطفل بـين يدي، فانصرفت عنـه، وأرجو أن تبلغـه أني لم أعد أطيق رؤيتـه بعد الذي رأيت من كذبه ونفاقه، وأرجو أن يعلم بأنني لن أعود إليـه ولو لم يبق رجل واحد في هذا العالم كله !!)..

.. وقبل أن تنصرف قالت لي «هـايدي»:(.أن الكذب أسـوأ العيوب وأرذل الخصـال والعادات ويـدل على وضـاعة صـاحبه، فـالإنسـان الشريف لا يكذب، والإنسان المستقيم لا يعرف الكذب والنفاق)!!

... ثم أن كـل شيء عندهم في هـذه البلاد الصـديقـة، يجـري في حساب دقيق ونظام لا يعـرف الخلل، وكـل شيء عندهم بمقـدار، فلا يوجد شيء اسمه (ماعليش)!! واتركها (على التيسير).. والغائب عذره معه.!! وخيرها بغيرها.!!إلى آخر هذه الكلمات التي تـدل على الاهمـال وعدم احترام الإنسـان، وعلى الجهل والتخلف!!

.. لا شيء في هذا المجتمع الاشتراكي الألماني الديمقراطي السليم، يسير بلا خطة أو بلا حساب، وأما الوقت فهو عنـد هؤلاء الأصدقـاء الذين يبنون الحضارة والحياة والمستقبل ذو قيمة كبيرة، لا تهدر منه لحظة في الثرثرة أو العبث، فهنا شعب يكدح ويعمل، وقـد تعلمت من هذا البلد كثيراً، وأهم ما تعلمته منه الـدقة المتنـاهية في الـوعد، فلم يعد يمنعني من الوفاء به إلا الموت أو حادث طـارىء، وكذلـك تعلمت الصدق، فلا أحب أن أكـذب على أحـد ولا أحب أن يكذب عـليّ أحد، مهما كانت الأسباب والمبررات إذ لا مبـرر للكذب في جميـع الأحوال، والذي يكذب لا عهد له، ولا أمانة له، ولا شرف له !!

... إن الأخلاق السليمة والكـريمة، هي المعلم الأول الـذي تعلمت منه في هذه البلاد الصديقة كيف أكون صادقاً مـع نفسي ومع النـاس والحياة، فلا أنحرف ولا أضل ولا أتبدل !!

... ولعل هذا الصدق والصفاء في الرؤية، هو الذي أكسبني هـذه الثقة بالنفس وبالإنسان والحرية والديمقراطية والتقدم!!!...

... وفي يوم وبينما أنا نائم في بيتي في برلين الديمقراطية ذات ليلة رأيت حلماً، وأنا في العادة أنسى الأحلام قبل أن أصحو من النوم فلا يبقى منها أثر في ذاكرتي، إلّا هذا الحلم، فقد قمت بعده مذعوراً وأسرعت أكتب إلى أخي في الوطن هذه الرسالة:

«أيها العزيز.. أرجو أن تكون مع الأهل والإخوة والأحبة في خير، وأن تكون أمنا الحبيبة في صحة جيدة، فقد رأيتها الليلة في منامي، وهي محمولة في صندوق الموتى، والمشيعون من حولها يسيرون بها إلى القبر، ولكني كنت أراها جالسة في صندوق الموتى وهي تناديني وتشير إليّ بيدها وتقول لي: (تعال يابني تعال.. وعد إلى الوطن يابني، ولا تبق أكثر مما بقيت).. وأخذت أصرخ بالمشيعين أن لا يذهبوا بها إلى القبر، فهي، كما أراها، ما تزال على قيد الحياة فينظر إليّ الناس في دهشة مما أقول، وتنظر إليّ أمي وأنظر إليها، وأنا أشفق عليها من أن يذهبوا بها ويهيلوا التراب عليها!!

.. وسألته أن يخبرني في رسالة عاجلة عن أحوالها وصحتها وهل هي على ما يرام أم أنها لقيت وجه ربها ولحقت بالشيخ الإمام؟!!.

.. وقد حرصت على أن أؤرخ رسالتي في اليوم والليلة التي رأيت فيها هذا الحلم، لأعرف إن كان ما رأيت أضغاث أحلام أم ماذا؟؟

.. وبعد أسبوع وصلتني رسالة من أخي في الوطن يقول فيها:

أخي الغريب.. والبعيد القريب.. في الليلة التي حددتها في رسالتك، وفي الساعة التي رأيت فيها أمك في المنام على الصورة التي ذكرت، كانت أمك تحتضر وتسأل عنك وتلح في السؤال وتطلب أن تراك قبل أن تفارق الحياة، ولما أشفقنا عليها وهي تعاني سكرات الموت، جئنا بأحد الشباب من الأقرباء، وقلنا لأمنا بأنك قد وصلت الساعة لتراها وتلقي عليها النظرة الأخيرة، ولم تكد تشم رائحته

وتلمس بيديها الواهنتين وجهه، حتى قالت لنا وكأنها في تمام إدراكها ووعيها: (أتظنون أنكم تضحكون عليّ وأنا أحتضر وألاقي وجه ربي؟ أنا أعرف ابني من ريحه كما عرف يعقوب ريح يوسف، فقال لأولاده وقد جاءوا بأثر من أخيهم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون﴾.. فكيف لا أعرف ابني من سواه؟ إنكم تضحكون عليّ، وأولى بكم أن تضحكوا من أنفسكم، وإن الأم تعرف ريح ابنها، ولو كان على بعد آلاف الأميال منها.ولقد كنت أشم ريح ابني، عندما كانت تأتيني رسائله من برلين فقولوا له أن يعود إلى الوطن ولن يصيبه شر ولا مكروه وأن قلبي يرضى عنه ويدعو له، وستظل روحي ترعاه وتظله وتحميه.. قولوا له أن يعود ويزور قبري ويناديني لعلي اسمع صوته وأنا تحت التراب)!!

ثم لم تلبث أمك أن أسلمت الروح...

.. ودمعت عيناي، فبين الوطن وبرلين حيث كنت أقيم، ثلاثة آلاف ميل أو تزيد، ومع ذلك فقد اتصلت روح أمي بي ليلة رأيتها في المنام، فكيف لا تكون الجنة تحت أقدام الأمهات، وكيف لا تكون الأم صانعة الحياة، ومربية الرجال، وأم الأبطال وملهمة الكتّاب والشعراء، وكيف لا تكون نصف المجتمع بل نصفه الأفضل!!

.. وإذا كانت أمي شديدة عليّ يوم غضبتْ لأنني رفضت المشيخة والامامة والعمة والجبة فإن ما فعلته بي يومئذٍ كان نتيجة حبها الذي لم تكن تعرف كيف تعبر عنه، وكان نتيجة حرصها على مصلحتي وخوفها عليّ، بل كان في الحقيقة نتيجة ارتباطها الوثيق بالتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، في مجتمع محافظ مرتبط بالدين أوثق إرتباط!!.

* * * * *

... غادرت برلين الديمقراطية، بعد أن تركت قلبي فيها، وعند شعبها الصديق، ووصلت إلى بيروت في أواخر أيار (مايو) ١٩٦٧، وعندما نزلت في الفندق المتواضع الذي تعودت أن أنزل فيه، سمعت بائع الصحف المتجول ينادي على صحفه قائلاً: (الحرب بين العرب وإسرائيل على الأبواب، عبد الناصر يطلب سحب قوات الأمم المتحدة من سيناء في الحال، إسرائيل تُبَيِّتُ العدوان) إلى غير ذلك من النداءات !!

.. وكان في شارع الحمراء ببيروت، مقهى يسمى حدوة الحصان، «الهورس شو»، وكان ملتقى السياسيين والصحافيين والمثقفين السوريين والعرب، الذين اضطرتهم الظروف في بلادهم للإقامة في لبنان، وكانوا خليطاً من اليمين واليسار، وكان النقاش بينهم يدور، في تلك الأيام التي سبقت (٥ حزيران ١٩٦٧)، وكان بعضهم يخوض الحرب بالنظارات وراء كرسيه في هذا المقهى، وكنت أجلس، في بعض الأحيان، في هذا المقهى، وكان الأستاذ أكرم الحوراني، ولا أشك لحظة في وطنيته واخلاصه، وإن كنت أشك كثيراً في صحة حكمه على الناس والأشياء، يجلس في هذا المقهى وحوله بعض الأصدقاء والصحفيين، وجلست أستمع إليه وهو يتحدث ويدخن بشراهة غريبة، وسمعته يقول، كما أذكر، بالحرف الواحد تقريباً: (سوف نرى إذا كان عبد الناصر سيحارب إسرائيل ويتحدى أميركا، فإذا فعل فهو وطني وغير متواطيء ولا متعامل مع أميركا وإسرائيل!!)..

... وأنظر إليه، ولا أصدق أنني أسمع مثل هذا الكلام الساذج والسطحي والانفعالي من سياسي كان له دوره الخطير في الأحداث الخطيرة التي مرت بها بلادنا، منذ قيام العهد الوطني عام ١٩٤٦

وانتهاءً بالوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨، وعهد الانفصال الذي جاء بعدها !!

... وتنبه العدو وأخذ يستعد للعدوان علينا، فلما التقيت بالأستاذ الحوراني، في «الهورس شو» في اليوم التالي، قال لي، وكان معنا عدد من الصحفيين، وكان متهلل الوجه: (الآن بيّضها عبد الناصر فعلاً، وأثبت أنه جاد في المعركة ضد إسرائيل) !!

.. وأمر على ما حدث بعد ذلك، وأصرف النظر عن الخوض فيه، لأنني لست مؤرخاً ولا خبيراً في الحروب، وما أنا في الحقيقة سوى صحفي شقي... عاد من منفاه البعيد منذ أيام، ولا حول ولا قوة له ولا يملك ما يدفع عنه غائلة الجوع.. فكيف يدفع عن أمته غائلة الحروب؟؟؟

... وعندما انجلى غبار المعركة، كما يقول أجدادنا العرب، في ٥ حزيران ١٩٦٧، عن هزيمة مرة رغم الأسلحة الكثيرة والحديثة والمتطورة التي زودنا بها الاتحاد السوفياتي الصديق، استقال عبد الناصر وأعلن أنه هو المسؤول عن الهزيمة، ولم يكد يعلن ذلك وينَصِّب زكريا محيي الدين مكانه، حتى قامت المظاهرات والمسيرات في بعض العواصم العربية، ومنها بيروت التي قامت فيها مظاهرة شعبية وطلابية كبرى، سارت من قبالة جامعة بيروت العربية، وكنت أجلس في مطعم قريب منها عندما أعلن عبد الناصر من الاذاعة المصرية استقالته، ورأيت رأي العين، الطلاب العرب في هذه الجامعة، والذين كانوا يستمعون مثلي إلى خطاب عبد الناصر واعلان استقالته، يبكون وينتحبون كالثكالى، ويلطمون وجوههم، وهم في حالة من الحزن والتشنج لا توصف، ورأيتهم يخرجون بعد ذلك وينظمون تلك المظاهرة التي سارت في شوارع بيروت تطالب بعودة عبد الناصر عن استقالته، ليكمل مسيرته مع أمته، هذه المرة، إلى النصر لا إلى الهزيمة!!!.

... ووجدت نفسي أبكي معهم، ربما عن غير قصد، ودون تفكير ولا محاكمة للأمور !!

.. ومن خلال لوحة مأساوية حزينة، استجاب عبد الناصر لطلب أمته، كما قال، وعاد عن استقالته وبقي في منصبه، بعد أن تلقى طعنتين في سويداء قلبه، طعنة الانفصال وضياع الوحدة العربية، وطعنة الهزيمة المرة في ٥ حزيران ١٩٦٧ !!

.. وكلنا نعرف، والعالم يعرف، وليس هذا ذكاء منه أو منا، أن إسرائيل كيان اصطنع اصطناعاً وحشر حشراً في هذه المنطقة العربية بواسطة أميركا ودعم قوي وكبير منها، وأن إسرائيل فاشية وعنصرية وعدوانية وتوسعية، في كل تصرفاتها، ضد الشعوب والعالم، وضد الشعب العربي خاصة، ولكنها، ويجب أن نعرف ذلك، متحضرة وديمقراطية بالنسبة لأبناء جلدتها اليهود، بينما هي نازية ووحشية وعدوانية وعنصرية إلى أقصى الحدود، بالنسبة لأهل البلاد العرب الذين يتعرضون في فلسطين المحتلة لجرائم لم يتعرض لمثلها اليهود وغيرهم على يد النازية الهتلرية قبل وخلال الحرب العالمية الثانية !!

.. ولقد خدعت إسرائيل كثيراً من الناس، حتى من العرب، بهذه الديمقراطية الطافية على السطح، وذات الوجهين المختلفين مع أن هذه الديمقراطية أدت إلى السياسة العنصرية التي تتبعها، كجنوب إفريقيا تماماً، فالبيض هناك أهل حضارة وديمقراطية، كما يظنون، والسود أهل البلاد هم ضحايا هذه الحضارة والديمقراطية العنصرية البيضاء، وإسرائيل، اليهود فيها أهل حضارة وديمقراطية، كما يظنون، والعرب أهل البلاد هم ضحايا هذه الحضارة والديمقراطية العنصرية والصهيونية العدوانية !!

... ولقد استغلت ذلك كله في عدوانها علينا في ٥ حزيران ١٩٦٧ معتمدة قبل كل شيء على الدعم الأميركي الكبير والتأييد الأميركي المطلق لها !!

.. وحملت حقيبتي الفارغة إلا من أسمال بالية، وغادرت بيروت إلى دمشق، عن طريق طرابلس ـ حمص، فلما وصلت إلى مركز الحدود في الدبوسية، منعوني من الدخول، وبعد ان اتصلوا بدمشق، سمحوا لي بالمرور، فوصلت حمص التي شهدت مولدي وصباي وفتوتي، وزرت قبر أمي في ظاهر حمص، ووقفت عنده ساعة أبكي وانتحب، ولا أعرف على من يجب أن أبكي وأنتحب، على أمي أم على أمتي، وعلى نفسي أو على أهلي وأولادي الذين تركتهم منذ خمس سنوات، وهم يتضورون جوعاً !!

... وتركت قبر أمي تعصف به الرياح السافيات، كما تعصف بأمتي، ورحت أسأل في حمص، عن أهلي وإخوتي وأعمامي وأخوالي وعماتي وخالاتي، وعن جيراني وأبناء حارتي، وأتفقد أحوالهم، وأمر بديار الأحبة ومراتع الصبا، وأسائل حجارة حمص السوداء، وأسأل عن العاصي والوعر وبحيرة قطينة وبابا عمرو ونواحيها، وأسأل عن أقاحها وشقائق النعمان فيها، وعن نرجسها، وعن كل زهرة وغرسة وشجرة فيها، حتى إذا خفّ بعض ما بي من حزن على أمي وعلى أمتي، حملت حقيبتي ومضيت في الطريق إلى دمشق !!

.. ولما دخلت داري في دمشق ورأيت أولادي، أنكروني أول الأمر، فقد غبت عنهم خمس سنين، ووجدتهم في شوق إليّ، ولكن الشقاء يلوح على وجوههم، والحيرة ظاهرة في أعينهم البريئة، ولم أكن أملك شيئاً أقدمه إليهم، ولم ألبث غير يوم عندهم حتى عدت إلى بيروت لأجد عملاً في بعض دور النشر وفي تحقيق وتدقيق المخطوطات والكتب وتصحيحها، ولو على حساب عيني التي تنزف دماً، وقلبي الذي ينز ألماً، ولم أجد مكاناً آوي إليه لغلاء أجور السكن الفاحشة، غير غرفة تشرف على السقوط وتنوي البلدية هدمها لتوسع الطريق المار بها، وذلك في ضاحية الحدث، حتى إذا جاءت البلدية لتهدمها ولو فوق رأسي، انتقلت إلى غرفة بسيطة في مدرسة خاصة في تلك الضاحية وعشت فيها بين الطلاب !!

.. ووجدت عملاً في تدقيق الكتب وتحقيقها، وكان عملاً مرهقاً فعلاً، خفت منه على عيني أن تنزف من جديد، واضطررت لشدة ما أرهق عيني العمل، أن أراجع طبيباً متخصصاً بالعيون، أشار علي بوضع نظارة طبية جديدة، أستطيع أن أرى فيها الحرف أكثر وأكبر!!.

* * * * *

... ووجدت في بيروت وفي صحبة الكتب والجلوس إليها والاستئناس بها والسهر عليها، والعمل معها، ما يغنيني عن صحبة الناس، والجلوس إليهم، والسهر معهم والاستماع إلى ثرثرتهم المتصلة التي توقر الآذان وتورث السقم، وينسيني بعض ما تركته هزيمة ٥ حزيران في ضميري وقلبي من جراح لا تندمل، ولكن الصحافة، كانت تشدني إليها شداً عنيفاً، رغم كل ما لقيت منها، وما سببته لي في حياتي، من شقاء وعناء وتشريد وجوع ونفي وعذاب، لاقبل لأحد باحتماله أو الصبر عليه، وبدا لي واضحاً أن الصحافة، هذه الصناعة السوداء، وأن السياسة، هذا البلاء الذي ليس بعده ولا قبله بلاء، بالنسبة لبلادنا وبلدان العالم الثالث كلها، ونحن منها، قد تحكمت بي، كما يتحكم الأفيون والتبغ بالمدمن عليهما، والذي لا يستطيع منهما فكاكاً !!

... وأنصرف إلى عملي في تحقيق وتدقيق وتصحيح كتب التراث، وأتنقل بين دور النشر في بيروت أبحث فيها عن رزقي، فأجده أو لا أجده، وأسأل نفسي: ماذا فعلت لألاقي كل هذا العذاب؟ أم أنها الحياة العربية المتخلفة والضيقة الأفق، والقصيرة النظر، هي التي تفرض وجودها على الكلمة والحرف، وعلى كل ما له علاقة بالحرية والفكر والرأي...، وهي التي تسبب لي ولغيري، خاصة أولئك الذين يعملون في مجال وميدان الصحافة، كل هذا العناء والشقاء؟ أم أن الأمر في هذه الحالة، يقتصر على الذين يحترمون أنفسهم وكلمتهم ورأيهم، ولا يعرضونها في سوق النخاسة ولا يقدمونها سلعة رخيصة على باب السلطان !!

... أثناء عملي في بيروت زرت صاحب دار للنشر، كان من الأميين الذين أراحهم الله من الثقافة والمعرفة والقراءة والكتابة وكل وجع

الرأس... وكان إنصافاً للحقيقة، يعرف كتابة اسمه، وقراءة الفاتحة على قبور موتاه، وقدم الرجل إليّ كتاباً ضخماً من أربعة أجزاء، وأذكر أنه لأبي الحسن الأصفهاني، رحمه الله، وكان قد طبع طبعة رديئة مليئة بالأخطاء، وطلب إلي القيام بتدقيق وتحقيق وتصحيح هذا الكتاب من جديد، وإعداده ليكون جاهزاً للطبع خلال سنتين من بدء العمل فيه، واتفقنا على أجر معين، ومضيت بأجزاء الكتاب وبدأت العمل في تنقيحه وتصحيحه وتحقيقه في مكتبة احدى الجامعات الكبرى في بيروت، واستعنت بكتب ومصادر عديدة كثيرة وأذكر أن فصلاً في الكتاب، كان يتضمن كثيراً من العظات والعبر، كعادة المؤلفين القدامى الذين يعنون بصناعة الكلام، وجمع وتصنيف الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، بينها مثلاً: «الشح المطاع والهوى المتبع»، وكيف ينبغي أن يبتعد الانسان السوي عنهما، ويتخلص منهما، وقد جاءت كلمة «الشح» في الكتاب، بسبب كثرة الأخطاء، الشيخ... وقد أردت أن أظهر لصاحب دار النشر الأمي، أنني أدقق وأحقق كثيراً في الكتاب، حتى لا يتكرر الخطأ، فلما زرته أطلعته على هذه الكلمة التي وردت على غير وجهها الصحيح، ولكنه لجهله أصر على أنها شيخ لاشح، وكدت لاصراره وجهله أترك له أجزاء الكتاب، وأسامحه بأجري، إلا أنني طلبت إليه أن يسأل عالماً لغوياً وأديباً كبيراً في بلده وهو الشيخ عبد الله العلايلي، ويتصل به ليعرف الحقيقة منه، ففعل، وأخبره الشيخ والأديب والنحوي بالحقيقة، فأطرق برأسه، وهو لا يكاد يصدق ما سمع منه، وود لو أنه لم يسأل أحداً وبقي على اصراره وجهله، لأن عقله القاصر لم يستطع أن يفهم المعنى من الكلمة، فقد خيل إليه أن الشيخ المطاع، هو المقصود، وأنه يجب أن يطاع، بينما الشح المطاع.. غير مفهوم بالنسبة إليه !!

... وعندما انتهيت من تحقيق أجزاء الكتاب، بعد سنتين، كما قلت، حملتها وجئت إلى دار النشر لأقدمها لصاحبها وأقبض أجري الذي كنت أبني عليه آمالاً كبيرة، فإذا بي أجد الدار مغلقة وعلى

بابها ورقة سوداء تنعي الدار وصاحبها الذي توفي فجأة إلى رحمة الله.

.. ولم أكد أقرأ خبر موته وتشييعه إلى مقره الأخير، حتى شيعت أحلامي وأجري، ولم تنفع بعد ذلك كل محاولاتي مع ابنته التي حلت محله، فأعدت إليها أجزاء الكتاب عسى أن ينتفع به بعد طباعته من يريد أن ينتفع، وانصرفت دون أن تمن عليّ بكلمة شكر، بعد أن أنكرت كل أجري... والأجر أكبر عند الله !!

.. وأذكر أنه بعد فضيحة «ووترغيت» الشهيرة في أميركا، وتورط الرئيس الأميركي نيكسون في هذه الفضيحة المخزية التي تظهر حقيقة الحرية في بلاد العم سام... ألفت كتاباً سميته «فضيحة ووترغيت».. وعرضته على أحد أصحاب دور النشر، وقيل لي أنه كان يعمل لحاماً وجزاراً، وأنه انتقل من اللحمة، إلى الطباعة والنشر فدفع لي خمسمائة ليرة لبنانية، ولما كنت في أمس الحاجة إليها، فقد قبلت وأعطيته مخطوطة الكتاب، وكانت صفحاته لا تزيد على مائة، وطبعه صاحب الدار ووزعه ونشره، وبعد فترة قصيرة، أخبرتني شركة توزيع الكتب والمطبوعات في بيروت، بأنها باعت من كتابي، فضيحة ووترغيت، ما حصيلته أكثر من سبعين ألف ليرة، لم يصبني منها، وأنا مؤلف الكتاب، سوى خمسمائة ليرة فقط... لا غير !!

... ولم يكن هذا الجهد والعناء ليدر عليّ غير القليل القليل من الربح، ولذلك لم أكن في سعة من العيش بل كنت أعيش عيش الكفاف، بل وأقل قليلاً، ورغم ذلك فقد كنت أحس بالسعادة لأنني أعمل وكنت لا أعطي فرحتي لأحد وأنا أحصل على هذا الأجر القليل والشريف !!

... وتمضي الأيام بطيئة ثقيلة، وأنا في عملي في تدقيق وتحقيق وتصحيح الكتب في بيروت، ولكنني أحن إلى الوطن وأتمنى أن أعود إليه وأجد فيه العمل والرزق، وأعيش في ظله الظليل، مع أهلي وأولادي وصحبي ومواقع ومراتع شبابي، بعد أن كنت فيه مهوى

الأفئدة والأبصار، فإذا بي وكأنني قد أصبحت غريباً عنه.. غريباً حتى عن داري وأنا لا أعرف سبباً لهذا كله، وهل استحق هذا الجزاء، إذا كنت صاحب ورئيس تحرير جريدة تقدمية حرة، لم تفعل شيئاً، سوى أنها دعت إلى التقدم والاشتراكية والسلام، وناضلت بلا هوادة ضد الدكتاتورية، وما جرته على شعبنا وأمتنا من مصائب وآلام، وبينها تلك الدكتاتورية المجنونة المجرمة التي فرضت وجودها على سورية في عهد الوحدة السورية المصرية، ولم يسلم من شرها أحد ؟!!

... ودفعت الثمن غالياً من حياتي وصحتي وأعصابي وعيشي وحريتي ورزقي، وسأظل أدفع الثمن، إلى أن تبلغ أمتنا قدراً من الحضارة والديمقراطية، يكفي لتحكيم العقل والمنطق في الأمور كلها، فلا يبقى لغيرهما أي دور في هذا المجال، ولا في غيره من مجالات وميادين وشؤون الحياة، خاصة الفكرية والسياسية منها !!

... وفي تلك الأثناء، وأنا أجوع يوماً وأشبع يوماً، وأرسل إلى أهلي وأولادي نصف ما يأتيني من أجر كل شهر، ذرت الحرب اللبنانية قنرنها وأخذت تنذر بالشر، ووقعت حوادث صيدا التي اغتيل فيها النائب الشعبي المعروف المرحوم معروف سعد، وفي ١٣ نيسان ١٩٧٥، أي بعد ذلك بأيام وقع حادث «الأوتوبيس» في«عين الرمانة»، ببيروت، وكان الشرارة التي انطلقت منها الحرب المجنونة في لبنان !!

... وكنت في ذلك اليوم على موعد مع الصديق والأب الروحي الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري، وكان يقيم عند ابن أخيه في حي الأشرفية في دار متواضعة على سطح أحد الأبنية مع أولاده الأربعة وأمهم، وعمه الشاعر القروي، ولم أكد أدخل حتى رأيت الشاعر القروي في فراش المرض، فسلمت عليه وسألته عما به، فقال لي والدموع في عينيه (أتسألني، يابني، عما بي، وما بي غير هذا الذي وقع، مما لا عهد لي بمثله من قبل، ولقد عدت، يابني إلى لبنان ووطني العربي، بعد غيبة تزيد على نصف قرن، قضيتها في ديار

الاغتراب، بين البرازيل والأرجنتين، حيث غنيت فيها آمال وأحلام أمتي، ورويت لأبنائنا هناك تاريخ أمتنا، ونضالها منذ نكبتنا في الأندلس، ثم في لواء اسكندرونة، ثم في فلسطين وإلى الآن، وتلوت قرآنها وإنجيلها ودعوت إلى الوحدة الوطنية بين الاسلام والمسيحية، ودعوت في شعري كله، إلى الوحدة العربية وإحياء تراثها وتاريخها وقيمها ومبادئها !!

.. ولا أدري كيف السبيل إلى وقف هذه الحرب واطفاء نارها، حتى لا تحرق كل شيء في بلد يقولون عنه انه بلد النور والاشعاع...

... وقال لي الشاعر القروي، وهو ما يزال يبكي، وكأنني أراه الآن: (لم يكن يخطر لي في بال، وأنا أغني أمجاد وأحلام أمتي، في ديار الاغتراب، أن أعود وأشهد هذه الحرب الدامية، فأية خيبة أمل هذه التي أصبت بها، وأية عافية وصحة هذه التي ترجوها لي؟ وما جرى اليوم يورث المرض والسقم والموت، هماً وغماً وحزناً على ما أصاب أمة أردتها أن تكون أكرم وأعظم الأمم، فوجدتها تضحك من جهلها الأمم !!).

وقال لي الشاعر القروي، وقد سمع صوت الانفجارات تدوي في سماء بيروت: (كل السياسيين في لبنان، وكل رجال الحكم وأهل الرأي والفكر، لا أستثني واحداً منهم، لا يفهمون أصول الحكم ولا يصلحون قط لإدارة دفة وشؤون البلاد، ولا لمعالجة الأمور، خاصة بعد أن قامت هذه الحرب الأهلية، التي لا يعرف أحد كيف قامت ولماذا؟؟ وسوف ترى أن لبنان سيحترق على أيديهم، وسوف يملأون صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون وميكروفونات الإذاعات بالتصريحات والأقوال الفارغة والتمنيات بأن يعود الأمن والسلام والاستقرار إلى لبنان، وأن تنتهي هذه الحرب... وكلما تحدثوا وصرحوا وتفلسفوا وتفاصحوا، زادت نار الحرب اشتعالاً، وازداد عدد ضحاياها الأبرياء !!

... وبعد أيام علمت أن الشاعر القروي في المستشفى فذهبت

إليـه، ووجدتـه في حالـة سيئة، وسـألت الطبيب عنه، فـأجابني أنـه مصاب بحمى شديدة، حتى يكاد رأسه يحترق!!

... بعد أسبوع، قـرأت في جريـدة صباحيـة أن الشاعـر القروي غادر المستشفى إلى قريته «البربارة» في قضاء البترون !!

.. وسافرت إليه وتلقاني، كما يقولون، مثل لقمة الغلاء، وفـرح بي كثيـراً، وأصر على أن أعيش معـه في بيته العتيق الـذي شهد مـولده وطفـولته وصبـاه، وقضيت بصحبتـه التي لا تمـل، بضعـة أيـام لا أنساها، عرفته خلالها، كما لم أعرفه من قبل، ولعلي أتحدث يـوماً عن هذا الشاعر العظيم، في كتاب مستقل، لأن الحديث عنـه وعن حياتـه العظيمة يستحق، في الحقيقة، أكثر من كتاب !!

.. كم كان يصعب علي أن أتحدث عن لبنان في حربه ومحنته هذه، أمـام الشاعـر القروي رشيـد سليم الخـوري وكم كنت أتمنى أن لا تنشب هذه الحرب في لبنان والشاعر القروي مازال حياً، لأن ذلك كان فاجعة ومأساة كبرى بالنسبة إليه، فقد خاب ظنه بوطنـه وأمته، وقـد غنى امجادهما، اكثر من نصف قرن في ديار الغربة، وقاتـل بهما كـل الانعزاليين هنـاك ودافع عن عـروبته، وإسـلامه ومسيحيتـه، في تلك المحافل البعيدة، فألف بين قلوب العرب في مهاجرهم، وحارب الطائفية والتعصب والاستعمار!!..

.. ولبنان قبل أن يصيبه ما أصابه وقبل أن يصبح مـرتعاً خصبـاً للحرب والفوضى، كان قرة عين كل إنسـان مفكر ومثقف، ومن يعـرف لبنان جيداً، كما عرفتـه يعرف مـدى ما ألحقت بـه هذه الحـرب من خسائر فادحة لا تقدر، وكيف أن المؤامرة عليـه كانت خطـيرة وكبيرة، وكيف أن سورية هي المستهدفة أيضاً من المؤامرة على لبنان، لأنهمـا بلدان في بلد واحد، إذ لا تفصل بينهما حدود ولا تقف بينهما حواجز من أي نوع كان، وتربطهما علاقات أقـوى من علاقـة الجار بجـاره، والأخ بأخيه، وبينهما قربى وعلاقات نسب ومصاهرة وتعامل وتعاون، فلا يجد السوري أو اللبناني فرقاً بين الزبـداني وشتورة وزحلـة، ولا

بين طرابلس وحمص، أو بين دمشق وبيروت، والتنقل بين البلدين التوأمين مثل التنقل بين غرف البيت الواحد. فما الذي حدث حتى أصبح لبنان على هذه الحالة من الحرب والدمار والموت. إنها إسرائيل وأميركا والطائفية، وراء كل ما حدث ويحدث في لبنان حتى الآن !!

.. وكان لا بد أن أعود إلى دمشق بعد أن اشتدت الحرب اللبنانية المجنونة، وكان لا بدّ أن أتخلى عن عملي في تحقيق وتدقيق وتصحيح كتب التراث. ولقد نجوت من موت محقق عند حاجز كانت تحتله إحدى الميليشيات قرب مستشفى «سان تيرين» في ضاحية الحدث، ولم أكد اقترب منه في طريقي إلى مفرق (عرمون) حتى كانت فصيلة من الجيش اللبناني قد احتلت الحاجز وأبعدت أفراد (الميليشيات) عنه، فمررت بسلام، ولم أكد أفعل حتى عاد أفراد (الميليشيات) إلى احتلال الحاجز وإبعاد أفراد الجيش اللبناني منه. وسرت مسرعاً باتجاه مفرق (عرمون) ومرت سيارة حملتني إلى دمشق، مع من حملت من الركاب الهاربين مثلي من أتون هذه الحرب، ولم أكن أملك من المال عندما عدت إلى داري وأهلي وبلدي، سوى مائة ليرة لبنانية، هي كل ما بقي معي بعد هذه السنوات. ولم أكن راضياً عن عودتي ونجاتي من الموت في هذه الحرب وكنت أتمنى أن أبقى في لبنان أعمل وأجد شيئاً من الرزق لأوفر لأولادي بعض المال القليل أرسله اليهم في رأس كل شهر، كما كنت أفعل، وكنت أعرف أنني، إذا عدت، فسأجوع معهم وسنبدأ رحلة العذاب والشقاء والبطالة من جديد !!

... وحاولت أن أجد عملاً قريباً وشبيهاً بعملي الذي كنت أقوم به في بيروت، فاتخذت من إدارة احدى المطابع التي كنت أعرف صاحبها، مقراً لي أقضي فيه بعض الوقت، وأبحث عن وسيلة لبيع بعض الكتب لبعض الجامعات العربية، لعلي أجني منها بعض الربح، ولكن المال، حتى القليل منه، والذي كنت أحتاج إليه لشراء بعض الكتب، كان يعوزني، ولم أكن أجد منه إلا القليل، وكان لا بد لي من

أن أستعين بأحد الأصدقاء، ولم يكن في الحقيقة أحسن حالاً مني، ولكنه استطاع أن يساعدني في تأمين بعض ثمن هذه الكتب التي بدأت اشتريها على قلتها، وأبعث بها في شحنات صغيرة جداً، إلى بعض الجامعات وأتلقى ثمنها بعد فترة طويلة، وكنت خلالها أحس بالضيق الشديد، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً، غير أن أصبر وأصبر حتى لا يبقى في قوسِ الصبر منزع !!

... وقضيت عشر سنوات عجاف أخرى، كالتي قضيتها في لبنان، وكانت الحرب فيه ما تزال مستمرة، بل تزداد اشتعالاً، وتزيد لبنان خراباً وموتاً ودماراً، حتى كاد يذهب هذا العمر الشقي، كما يقول علماء اللغة، شذر مذر !!!

... واتصل بي، في أحد الأيام، صديق قال بأن الشاعر القروي، وصل دمشق وهو مشتاق إليك ويريد أن يلقاك وسعيت إليه برأسي قبل قدمي، ووجدته في قاعة الفندق الذي ينزل فيه، فإذا به لا يكاد يرى أو يسمع، ونال منه الوهن مناله، ولكن ظل متألقاً يحاول أن يتغلب على شيخوخته وعجزه وعلى التسعين التي ينوء بحملها، وكان أول ما بادرني وأنا مقبل عليه، قوله:

«يابني، لقد غنيت أمجاد العرب وانتصاراتهم، ودافعت عن حضارتهم وتراثهم وتاريخهم ووحدتهم وأرضهم وكرامتهم لعلمي أنهم أمة تستحق الخلود والحياة، ودعوت في شعري ونثري إلى الوحدة العربية والوحدة الوطنية بينهم على اختلاف أقطارهم وأمصارهم وأديانهم . . . . ومذاهبهم، وقلت لهم بأن الدين لله، وأن الوطن للجميع، ولكنهم لم يسمعوا ولم يعوا.. وقد خاب ظني بهم، لما أرى بينهم من اختلاف واقتتال وحروب، أشد فظاعة من حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس»!!

.. وقال لي: (صدقني، يابني، أن التسعين، وبلغتها، لن تقتلني، وإنما ستقتلني هذه الحرب في لبنان، وهذه الحروب الأخرى بين العرب، ولم أعد، يابني، أستطيع أن أقول الشعر، وأنا شيخ

الشعراء، وربما قال بعض الناس أن الحرب في لبنان، وهـذا الواقـع العربي المحزن، يبعث الشعر حياً مدوياً مجلجلاً، أما أنـا فقد أصبت بـالعي من جراء هـذا الهـول والمـوت والـدمـار، ومن هـذا التمـزق والضياع والجهل والجاهلية، وهل سمعت أن بلبلاً غرد على أنقـاض بيت يحترق أو أرض دمرتها عاصفـة هوجـاء أو أصابهـا زلزال.؟ إن البلابل تموت وتخرس في الكوارث والحروب.. وكذلك أموت أنا الآن !!

... قلت له، وأنا أخفف عنه ما به: (أطال اللـه عمرك، يـا سيدي، إنك إذ تنعي نفسك، إنما تنعي هذه الأمة التي جعلت منها في شعرك ونثرك أعظم وأرقى الأمم، ولو كانت أمتك، ياسيدي، كما قلت عنها في شعرك ونثرك، لما وصلت إلى هذا الـدرك الذي وصلت إليـه، ولو كـان لبنان يعرف قدرك وقدر شعرك لما أحرقته وما تزال تحرقه هذه الحرب الضروس، التي تكاد تدمره عن آخره !!)..

.. وقلت له: (لا تمت، يا سيدي، حتى لا تموت أحلام أمتك معـك، ودعك بيننا، نحن جيل الجلاء والاستقـلال والدكتـاتوريـات والهزائم والنكبات)!!

..(لا تحرمنا من شعرك ونثرك، عسانا نأخذ مما قلت وغنيت، زاداً لنا نقدمه للأجيال بعدنا لتقوى به ويشتد ساعدهـا وتتخلص من هذا التمزق الذي حل بأمتها !!)

... ولم يلبث الشـاعر القـروي بعد ذلـك، حتى لقي وجـه ربـه في قـريته الصغـيرة الفقيرة مثلـه (البربـارة)، وهـو يسمـع رغم ضعف سمعه، أصوات دوي الصـواريخ والقنـابل، وهي تتسـاقط على بلـده وأهله ووطنه وقـريته التي لم تسلم من هـذه الحرب، ولا من أبنـائها وأهلهـا الذين أحـرقوهـا وأحرقـوا لبنان كلـه معها... وهكـذا صمت الهزار الجريح... إلى الأبد !!

.. يا أمة لم يعد ينفع معها شعر شاعر ونثر ناثـر، ولا عقل عـاقل ولا حكمة حكيم، ولا علم عليم، ولا تدبير مدبر، ولا نذير منذر !!

... رحم الله الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري، الذي غنى العروبة ما لو غناه شاعر آخر لأمته لضمن لها النصر والمجد والعزة والخلود(*)!!

... وبكيت الشاعر القروي، وكأنني أبكي نفسي وأمتي.. أبكي هذا الدفين الذي كان، رحمه الله، يبحث عن مثوى له في قريته (البربارة) حتى لا تسمع روحه المحلقة فوقه، صوت الانفجارات والقنابل والصواريخ وراجمات اللهب، والرصاص المنهمر من كل صوب، لأنه، كما قال لي، يريد أن يرتاح في مثواه، بعد أن لم يجد الراحة في دنياه!!!.

* * * * *

(*) في مكتبتي نسخة من (ديوان الشاعر القروي) المطبوع لأول مرة في سان باولو في البرازيل حيث كان يقيم رحمه الله وذلك على مطابع (الصفدي) عام ١٩٥٢، وقد أرسلها إليّ من هناك، وأهداها إليّ في كلمات لا أستحقها وعليها توقيعه مرتين في صفحة واحدة، وهي تساوي عندي كل كنوز الدنيا، ولو قرأت أجيالنا هذا الديوان لبرئت مع أمتنا من كل عللها، وانتصرت على كل أعدائها، وعرفت طريقها إلى الوحدة والتقدم والحضارة والديمقراطية. ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود؟؟.

زرت الاتحاد السوفياتي لأول مرة قبل بضع سنوات.وقد قال لي الرجل الذي كان يجلس بجواري في الطائرة ونحن نقترب من موسكو: (لا بد أنك قد زرت الاتحاد السوفياتي مرات كثيرة، أما أنا فقد زرته مرتين، وهذه هي المرة الثالثة...)، فضحكت وقلت له: (أرجو أن تكون «الثالثة» ثابتة.. كما تقول العامة، أما أنا فلم أزره إلا هذه المرة وبعد أكثر من أربعين عاماً على صداقتي للاتحاد السوفياتي... فضحك ضحكة صفراء وقال: لكنك كنت في جريدتك دائم الكتابة عن الاتحاد السوفياتي حتى ظن الناس أن جريدتك شيوعية وأنك شيوعي... فقلت: هذا ظنك وظن الذين لا يريدون أن يذكر الاتحاد السوفياتي بخير، ولكنني صديق للاتحاد السوفياتي منذ شهدت بنفسي قبل أربعين عاماً وحتى الآن، وإلى آخر الزمان، كيف يؤيد هذا البلد الصديق الكبير، قضايانا العربية ويدعم مواقفنا ويأخذ بيدنا وينصرنا على أعدائنا وأعداء الحرية والشعوب، وكيف وقف إلى جانب سورية ويقف دائماً إلى جانبها وجانب العرب وكل الشعوب، وكيف انتصر لنا في مجلس الأمن الدولي عام ١٩٤٥ وضدّ العدوان الفرنسي في ٢٩ أيار ١٩٤٥، مما أشرت إليه في شيء من التفصيل في هذه المذكرات، وما يزال الاتحاد السوفياتي وسيظل يؤيدنا وينصرنا ويخلص لنا، وهو يمدنا بكل قوة، بالسلاح والمساعدات النزيهة، للوقوف في وجه العدوان على بلادنا، ولتحرير الأراضي العربية المحتلة، وقد أكد في جميع مواقفه الثابتة والمبدئية، صداقته الوطيدة والأخوية والمخلصة للأمة العربية، ولجميع الشعوب من أجل انتصار قضاياها وتأكيد استقلالها وسيادتها، والدفاع عنها ضد العدوان الأميركي والإسرائيلي عليها !!

.. كل ذلك وأكثر منه، أكد لي صداقة الاتحاد السوفياتي النزيهة

ومساعداته المخلصة والكريمة لنــا، ومع ذلـك فإنني لم أزر الاتحـاد السوفياتي في حياتي، وها أنا أزوره الآن، وبعد أربعين عامـاً، وهكذا تكون الصداقة النزيهة والشريفة والمخلصة والبعيدة عن كل غاية...

... وبدت الدهشة على وجـه الرجـل، وقال لي: (لقـد ذهب الناس، من مختلف المشارب والمذاهب والاتجـاهات إلى الاتحـاد السوفيـاتي، ولم تـذهب إلا الآن؟؟ إن هذا لأمـر عجـاب... ولقـد مضى عليـك في الصحـافة والسيـاسة أكثـر من أربعين عـامـاً، ولم تعـرف الاتحـاد السـوفياتي بعـد؟؟) قلت ضاحكـاً: (يكفيك هـذا الدس....، ومـع ذلك فالمثل العامي عندنا يقول: (الاسكافي حافي والحايك عريان) !!

... وعندما كانت الطائرة تحلق في سماء موسكو استعداداً للهبوط، حسبت أننا نحلق فوق حـديقة خضراء كبـيرة وارفة الظـلال، تتخللها البحيرات والأنهار، والطرق العريضة الموشحة بالأشجار الباسقة!!!..

... وحضرنا مع وفود من مائة بلد من العالم، مؤتمر الأديان الذي عُقد في قاعة المحاضرات الكبرى في فندق كونتيننتال، والتقينا برؤساء الادارات الـدينيـة الإسـلاميـة الـذين حضروا المؤتمـر قـادمـين من جمهوريات الشرق السوفياتي، ومن سائر أنحاء هذه البلاد الصديقة، وتحدثت إليهم وعرفت منهم ما لم أكن أعرف من أحـوال المسلمين في الاتحـاد السوفيـاتي، فقد حـدثني الصديق الكـريم الدكتـور شمس الـدين بابـا خـانـوف المفتي ورئيس الادارة الـدينيـة في جمهـوريـة أوزبكستـان السوفيـاتية، عن أحـوال المسلمين قبـل انتصار الثـورة الاشتراكية الكبرى، وكيف كانوا يعانون على يـد القياصرة وأتبـاعهم من رجـال الـدين، أشـد وأسـوأ أسـاليب الاضطهـاد، ثم أعيـدت للمسلمين حرياتهم الدينية والسياسية بعد الثـورة، ورفع الاضطهـاد عنهم وعن سائر المؤمنـين باللـه، وضمنت لهم الحكومـة السوفيـاتية حقوقهم كاملة، وأعادت إليهم اعتبـارهم ومنزلتهم، فـاستردوا روعهم وأنفاسـهم وحقوقهم وكرامتهم !!

... ولقد كانت روسيـا القيصرية وغـيرها من دول أوروبـا الواقعـة

تحت سيطرة وسلطة الكنيسة ورجال الدين وأمراء الاقطاع، تسير إلى الدمار والانهيار والفوضى والبؤس، وتبتعد كل يوم عن طريق الحضارة والتقدم، ويزداد فيها الاضطهاد والاستعباد والتخلف والجهل والفقر والمرض وتتفاقم فيها سلطة القياصرة ورجال الدين، وتقع الشعوب من جراء ذلك تحت تأثير الغيبيات والسحر والشعوذة والأباطيل، فتذل وتحني هاماتها للقياصرة وأمراء الاقطاع، ورجال الدين، وتعمل في خدمتهم كالبهائم، حتى أصبح للقياصرة ولرجال الدين وأمراء الاقطاع، سلطة كبيرة وخطيرة، بل سلطة إلهية مزعومة !!

... وقد اختل النظام الاجتماعي والسياسي اختلالاً كبيراً نتيجة ذلك، وما يزال مختلاً بسبب ذلك في كثير من البلدان في هذا العصر، وكان فصل الدين عن الدولة في الاتحاد السوفياتي نهاية العبث بعقول وأرواح الجماهير، وبحرياتها ولقمتها وكرامتها، وتخلصت الدولة السوفياتية من استغلال رجال الدين فيها، ومحاولة إخضاعها لسلطانهم وتأثيرهم الغيبي، كما أن طبيعة النظام الاشتراكي الكريم والعظيم، تجعل من الاستغلال على كل صعيد، مسألة مرفوضة ومحرمة ويعاقب عليها القانون، وربما كان استغلال رجال الدين للدولة والمجتمع والانسان أخطر من كل استغلال آخر !!

... وللناس أن يعبدوا الله كما يريدون، ولا تتدخل الدولة السوفياتية إطلاقاً، بين الانسان وقلبه، والانسان وربه، وهي تعامل رجال الدين جميعاً، بالإحسان إليهم وإكرامهم واحترام ذواتهم، كما منحتهم حرية التصرف في كل شؤونهم الدينية، وأبعدتهم عن التدخل المخالف للقانون في شؤون الدولة والمجتمع والناس، مع تقديرها لهم ولرسالتهم ودورهم الايجابي والبنّاء والمفيد للإنسان والمجتمع وللأهداف والمبادىء الاشتراكية الكريمة...

.. وأعطت الدولة السوفياتية لرجال الدين كل ما يرغبون من مال ومساعدات لبناء المساجد واصلاحها وترميمها وإقامة الشعائر

الدينية فيها على الوجه الأكمل، وقد لمست ذلك بنفسي ورأيته رأي العين في زياراتي لجمهوريات الشرق السوفياتية ذات الأكثرية المسلمة، مثل قازاخستان وأذربيجان، وأوزبكستان وداغستان وغيرها، حيث التقيت بالمسلمين السوفيات فيها وعشت معهم وفي ضيافتهم أياماً أحسست معها أنني قريب جداً من هؤلاء الناس الكرماء والبسطاء والذين يعيشون في وطنهم عيشة كريمة ويمارسون شعائرهم الدينية في حرية تامة، ويبنون المساجد والمعاهد الدينية ويطبعون المصاحف الشريفة، وصحيح البخاري وغير ذلك من الكتب الدينية القيمة، ويؤدون فريضة الحج وغيرها من الفرائض في الإسلام، ويقيمون صلواتهم كل يوم وكل جمعة، ويحتفلون بحلول شهر رمضان المبارك والأعياد الإسلامية ويتلقون مساعدات كبيرة من الدولة ليكونوا دعاة خير وصلاح وسلام، وليكونوا عند حسن الظن بهم، ليخدموا وطنهم وليدافعوا عنه وعن الحرية والتقدم والسلام، ومن أجل صيانة إنسانيتهم وكرامتهم من المتاجرة بالدين والتكسب والارتزاق باسم الدين، وكفلت الدولة لهم، كما كفلت لسائر المواطنين السوفيات العيش الكريم والرزق والعلم والصحة والسكن وكل ما يحتاج إليه الإنسان والمواطن، وإذا كانت الدولة السوفياتية، وهي حقيقة لا يمكن نكرانها لا تشجع الدين ولا تحضّ عليه ولا تدفع الناس دفعاً إليه لكنها، وهذه حقيقة ثابتة أيضاً، أطلقت حرية العبادة لكل المؤمنين وهي تنظر إليهم جميعاً نظرتها إلى كل المواطنين السوفيات، وفي مستوى واحد مع كل الشعوب السوفياتية!!

... وكنت أحس خلال زياراتي لهذه الجمهوريات السوفياتية ذات الأكثرية المسلمة، أنني بين أهلي وقومي، وفي بلدي، كما أن تقاليد المسلمين السوفيات وعاداتهم في هذه الجمهوريات السوفياتية، هي تقاليدنا وعاداتنا، حتى في طعامهم وأعيادهم وأفراحهم وأتراحهم ومواسمهم، فتحس وأنت بينهم، بالزمالة والمشاركة التامة!!..

ولم يكن اختلاف اللغة فيما بيننا ليحول قطعاً وفي جميع الأحوال، دون

التفاهم التام، لاسيما وأن كثيرين من المسلمين في هذه الجمهوريات السوفياتية يتكلمون اللغة العربية، لأنهم يقرأون بها القرآن الكريم، في صلواتهم الخمس كل يوم وفي خطب الجمعة وفي المناسبات والأعراس والموالد وغيرها. ومن الطريف أن أشير هنا إلى أنني حضرت في بلدة قريبة من عاصمة جمهورية داغستان ذكراً من الأذكار الدينية لم أحضر مثله منذ كنت شيخاً وإماماً في مدينتنا حمص، وقد أقيم هذا الذكر بعد صلاة الجمعة، ورأيت كثيراً من الذاكرين في تلك الحلقة في ذلك المسجد، وقد أخذهم «الحال»... كما كنا نسميه، لكثرة ما ذكروا الله آلاف المرات!!

... ولقد تعرفت على أحوال الناس في الاتحاد السوفياتي، وعلى حياتهم وطراز معيشتهم وشؤونهم، سواء في موسكو أو في غيرها من عواصم ومدن الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ومن ضمنها بالطبع جمهوريات الشرق السوفياتية ذات الأكثرية المسلمة، وقد لاحظت أول ما لاحظت تقدم الحياة من كل جوانبها، وعلى مستوى جيد وواحد ومتشابه ومتماثل بين جميع جمهوريات وبلدان الاتحاد السوفياتي، حتى موسكو العاصمة الكبرى لاتكاد العواصم الأخرى في الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية تختلف كثيراً عنها، من النواحي المتصلة بالعمل والعلم والصحة والسكن وكل نواحي الحياة الأخرى !!

.. أما الجامعات والمعاهد العليا، وفيها كل فروع العلوم والفنون وغيرها، فهي منتشرة في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي، وفي كل بلدة صغيرة فيه، حتى ليبدو الاتحاد السوفياتي الصديق، صرحاً شامخاً للعلم والمعرفة، لا مثيل له في العالم.. وكثيراً ما خيل إلي، وأنا في زياراتي لهذه الدولة الاشتراكية السوفياتية الكبرى، أنني في مدينة كبيرة للعلم، تمتد مساحتها على امتداد مساحة الاتحاد السوفياتي كله !!

.. وهناك في الاتحاد السوفياتي عشرات الآلاف من الطلاب العرب

والأجانب يتلقون العلم في المعاهد والجامعات السوفياتية مجاناً، ويتناولون منحاً ومكافآت عديدة، وقد رأيت عدداً كبيراً منهم في المعاهد والجامعات العليا السوفياتية يدرسون الطب والهندسة والعلوم الكونية المختلفة، بما فيها هندسة البترول والتنقيب عنه وغير ذلك من العلوم المتصلة به...

... إن العلم وكذلك العمل في المجتمع السوفياتي، حق مقدس لكل الناس، ولا يستطيع أحد أن يحرمك منه أو يحول بينك وبينه أو بينك وبين الأجر الكريم الذي تستحقه، حسب كفاءتك وحاجتك،فهو يأتيك عزيزاً كريماً، لأنه حصيلة جهدك وعرقك وعملك ومشاركتك مشاركة نافعة، في بناء الاشتراكية وصرح العلم والمعرفة ومجتمع الخير والتقدم والحرية والسلام !!

... إن ضمان العيش والحياة الكريمة اليوم وإلى آخر العمر، دون ذل أو سؤال أو هوان، هو الميزة العظيمة في المجتمع الاشتراكي، فلا يقلق المواطن على عيشه ورزقه وعمله ولا على صحته وحياته وحياة أهله وأولاده، وهذه في رأيي، هي أعلى وأروع معاني الحرية الانسانية والاجتماعية، بالنسبة للمواطن، الذي يشعر بالعدالة والمساواة التامة في الحقوق والواجبات، فلا عدوان على القوانين والأنظمة من كبير أو مسؤول، ولا فساد ولا تطاول أو تجاوز من قبل أحد على أحد في هذا المجتمع العادل الكريم !!

.. ثم إن أجر المواطن السوفياتي، ليس متدنياً ولا قليلاً، كما يظن بعض الناس، من أصحاب النية الحسنة أو السيئة، إذا ما قارناه برخص أسعار المواد والحاجات الغذائية والضرورية ، وأجور السكن، ومجانية المستشفى والدواء والتعليم وكل حاجات الانسان إلى الحياة السعيدة والكريمة !!

... إن الرخاء الحقيقي الذي يعيش المواطن السوفياتي في ظله قرير العين، هو الكرامة والأمن الغذائي والاجتماعي والاستقرار والتحرر من الحاجة والسؤال، والخلاص الأبدي من البطالة والفاقة

والاستغلال، وهذه هي الحرية الحقيقية، بل هذه هي الديمقراطية الاجتماعية الكريمة، وهذه هي الاشتراكية التي لا يعرف الانسان في ظلها القلق، ولا الظلم ولا الخوف ولا الذل والهوان والشقاء والحرمان !!

.. ويكفي أن نعرف أن أسعار المواد الغذائية والضرورية في الاتحاد السوفياتي لم ترتفع منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، بل أن أسعار عدد كبير من السلع والمواد الضرورية قد انخفضت خلال هذه السنوات الطويلة، ولم أكن لأصدق لو لم أر بعيني، وأنا أزور أحد المخازن في موسكو، كيف أن كيلو اللحم يباع بروبلين وكيلو السمك بروبلين إلا ربعاً، والخبز يباع بسعر رمزي، وكأنه يوزع مجاناً بلا ثمن، وربما كان أجر المواطن في البلدان الرأسمالية يبلغ عشرة أضعاف راتب وأجر المواطن السوفياتي، ولكنه في البلدان الرأسمالية لا يكاد يكفي حاجة الانسان إلى المسكن والمأكل والملبس والدواء، ما عدا وجود عشرات الملايين من العاطلين عن العمل في البلدان الرأسمالية، ووجود ملايين الناس الذين يسكنون الأكواخ والعشش والمقابر، بالإضافة إلى ملايين المتسولين والمرضى والمتشردين والبؤساء الذين يموتون كل يوم بالمئات من الجوع والبرد !!

... ثم «أليس الانسان هو أكبر وأعظم رأسمال في العالم، في نظر النظام الاشتراكي؟ فكيف لا يكون الطفل، وهو أعز إنسان، موضع العناية الفائقة والرعاية الدائمة، والحليب متوفر بالنسبة للطفل كالماء، بل هو متوفر لجميع الناس بسعر رخيص، كذلك الأم فهي موضع الرعاية والعناية في جميع مراحل حملها ووضعها ونفاسها وإرضاعها لطفلها وعنايتها به حتى يبلغ أشده، ويصبح قادراً على السير والحركة وينمو نمواً طبيعياً وصحياً ويعد بعد ذلك للذهاب إلى رياض الأطفال، حيث تستطيع الأم عندئذ الذهاب إلى عملها واستئناف نشاطها كالمعتاد» وقد شجع ذلك كله المواطن السوفياتي على الزواج المبكر، لأن الظروف مواتية لحياة أسرية سليمة وكريمة وسعيدة

وصحية وهادئة ومستقرة، لا يؤرقها الخوف من البطالة والجوع والمرض والتي تسبب لملايين الأسر في البلدان الرأسمالية الشقاء والتعاسة والضياع والتشرد، وتزيد من الجرائم والحوادث، زيادة كبيرة ويتعرض المجتمع الرأسمالي إلى التفسخ والفساد، وتنتشر عصابات السرقة والسطو والاحتيال والتهريب والقتل، ويختل نظام الحياة وتنتشر الفوضى ويزداد العمل بقوانين وشريعة «المافيا» وتكثر وتزداد الجرائم كل يوم، نظراً لحاجة الناس وبؤسهم وشقائهم !!

... لا أريد أن أتحدث طويلاً عن احتكار الطب والدواء في البلدان الرأسمالية، وكيف أن المتاجرة بأرواح وحياة الناس من الأمور العادية، وكيف أن المستشفيات، عبارة عن شركات احتكارية أصحابها من التجار الذين يشاركون عدداً من الأطباء أو يستخدمونهم مقابل أجور ضخمة، ليبتزوا المرضى، وليمتصوا دم المريض، وليسلبوه ماله، إن كان لديه مال، أو روحه إذا كان فقيراً ولا يستطيع دفع نفقات العلاج والمداواة الباهظة !!

.. وهذا الذي يحدث في البلدان الرأسمالية، لا تجدي معه كل المحاولات اليائسة مادام الانسان لا يجد الدواء ولا السرير في المستشفى ولا الغذاء، إلا إذا دفع كل ما يملك، أو باع كل ما يملك ليدفع ثمن الاقامة والمداواة في المستشفى لمدة لا تزيد على يومين، يضطر بعدها للعودة إلى بيته، مادامت أجرة الاقامة في المستشفى، لليلة واحدة، تبلغ ألفا وخمسمائة ليرة ما عدا المصاريف الأخرى التي تضاف إلى الفاتورة المخيفة التي تقض مضجع المريض وأهله فيسرعون باخراج مريضهم من المستشفى، قبل أن يحجر عليه ويمنع من مغادرته، إلا بعد أن يبيع أهله كل ما فوقهم وتحتهم ليدفعوا ثمن الدواء الذي لا يجدونه والمداواة التي حرموا منها !!

... أما المواطن السوفياتي،والأجنبي أيضاً، فإنه يدخل المستشفى ويقيم فيه، وكأنه في بيته وبين أهله، فلا يدفع قرشاً واحداً مقابل كل ما يقرر الأطباء عمله، من المداواة إلى العمليات إلى غير ذلك من

الشؤون المتصلة بصحة الانسان، من كل النواحي، ولو استطاع الأطباء أن يصنعوا من المريض إنساناً جديداً لفعلوا، ولكن قدراتهم، في مختلف فنون ومجالات الطب، تعيد إلى المريض صحته وثقته بنفسه ومجتمعه وبهذا النظام الاشتراكي العظيم الذي قضى على الفقر والجهل والبطالة والبؤس والمرض، قضاء تاماً، وأعطى الانسان حقه في العيش الكريم !!

.. وأنا، على كل حال، لا أدعي أن كل شيء في الاتحاد السوفياتي، على ما يرام، فلا بد أن هناك بعض النقص، خاصة في الكماليات وبعض الحاجات، وغيرها، ذلك لأن هذا الانجاز العلمي والتقني الحضاري الكبير، وهذه المهمة العظيمة التي يحققها الاتحاد السوفياتي ويقوم بها، من أجل حرية الشعوب والدفاع عنها وعن سلام العالم، ومن أجل مساعدتها على شق طريقها نحو التقدم والازدهار والتحرر، لابد أن يقابله بعض النقص في بعض الحاجات والكماليات، كما أنه توجد أخطاء في الممارسة والتطبيق، يمكن إصلاحها وتصحيحها !!

... ولا يوجد في العالم كله على كل حال، مسألة محلولة بصورة مثالية تماماً، ولذلك فلا بد من وجود بعض النقص لبعض الحاجات الكمالية، والتي أصبحت تعتبر في هذا العصر ضرورية، ولا بد أن الاتحاد السوفياتي يعمل على سد هذا النقص، ما وسعه العمل، خاصة وأن الايجابيات كثيرة والانجازات الرائعة كبيرة، والأعباء التي يحملها الاتحاد السوفياتي في سبيل نصرة الشعوب والحرية والسلام، أكبر وأكبر، ولعل الحركة الديمقراطية التي يقودها الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق ميخائيل غورباتشوف، ستحل كثيراً من الأمور، وستحرك وتيرة وعجلة التقدم أكثر وأكثر، وبصورة أسرع وأجدى وأنفع !!

.. عندما كنت في «محج قلعة» عاصمة جمهورية داغستان السوفياتية ذات الأكثرية المسلمة، زرت المفتي رئيس الادارة الدينية

الصديق العزيز الشيخ محمود حقي كيكيف، في بيته الهادىء الأنيق المفروش على الطريقة الشركسية، فلما جلسنا نتحدث أقبل علينا جاره العامل في أحد المصانع، وأصر على أن نزوره في بيته الملاصق لبيت المفتي قائلاً: نريد أن نتبارك بكم فأنتم من «شام شريف»... ففعلنا شاكرين... ولاحظت أن دار العامل لم تكن أقل أناقة وسعة وفرشاً من دار المفتي الشيخ محمود، وكان ما قدم إلينا في دار هذا العامل الطيب، لا يقل عما قدم إلينا في بيت المفتي، ولم أجد فارقاً كبيراً بينهما من جميع الوجوه !!..

.. وقلت للصديق العزيز الشيخ محمود، وهو يقدم أولاده إليّ للسلام علي، (ألا ترى يا شيخ محمود، أن أولادنا أكبادنا، تمشي على الأرض، وأن كل الآباء يتمنون لأولادهم مثل الذي وصل إليه أولادك وجميع أولاد الاتحاد السوفياتي)..، قال وهو يبتسم ابتسامته المعهودة الرقيقة والخفيفة والرائعة: (صحيح أفندم.. صحيح).. وكان الشيخ محمود يجد صعوبة في التكلم والتحدث باللغة العربية بطلاقة، وكان يصبر كثيراً، وأضطر للصبر معه، ريثما ينتقي ويتذكر بعض الكلمات العربية ليتحدث بها إلي !!

.. وأردت وأنا في «محج قلعة».. عاصمة جمهورية داغستان السوفياتية، أن أتعرف على الكاتب والشاعر السوفياتي المعروف «رسول حمزاتوف» الذي ترجم له أخي عبدالمعين أحد كتبه الشهيرة «داغستان بلدي»..، ولكني علمت أنه كان خارج المدينة، لكن ما أثار اهتمامي وأنا أسأل الشيخ محمود عنه، أن الدولة السوفياتية تكرم أدباءها وشعراءها وكتّابها وفنانيها وتقدرهم حتى قدرهم وتقدم إليهم كل ما يحقق لهم الحياة السعيدة، والرخاء والرفاهية، وأن الكاتب والشاعر الكبير رسول حمزاتوف، يجد من عناية الدولة السوفياتية الشيء الكثير، أسوة بغيره من الكتّاب والشعراء والأدباء والفنانين، وأنها خصصت له ثلاثة منازل مفروشة بأحسن الأثاث، وأن أحدها على الشاطيء في طرف محج قلعة، والآخر في قريته الجبلية، والثالث

في أحد المنتجعات، وأنه يتقاضى راتباً كبيراً، ويلقى كل احترام من الدولة ودوائرها ومؤسساتها الثقافية المختصة !!

.. وتمنيت أن يجد كتّابنا وشعراؤنا وأدباؤنا وفنانونا، في الوطن العربي، مثل هذا التكريم والتقدير والاهتمام والرعاية، وأن لا يجدوا الجحود والنكران والاهمال، وفي كثير من الأحيان التشرد والجوع والبطالة والاضطهاد وكل أنواع الارهاب والعذاب، دون ذنب جنوه على الاطلاق ولكنه مزاج هذا أو ذاك، من هؤلاء، الذين يضيقون ذرعاً بالكلمة الحرة، وبالكاتب الحر والشريف، وبالشاعر المجيد الذي لا يتكسب من شعره ولا يقدمه سلعة رخيصة عند الأعتاب !!

... وأعود من الاتحاد السوفياتي إلى بلدي، وقد غمرتني السعادة، وأشرق في عيني وروحي وقلبي الأمل الكبير، بانتصار الانسان وبانتصار الديمقراطية والسلام والتقدم والاشتراكية على كل أعداء الحياة!!.

* * * * *

٣١

... ويكبر الأولاد، وأكبر معهم وبهم، وتبلغ بي السعادة أوجها، رغم كل ما ألاقيه من ضيق وبؤس، عندما أرى «سامر» وقد بلغ الأربعين، وأرى بعده «مهيار» قد أشرف على الأربعين، وأرى أختهما الصبية الطيبة الفاضلة «ليالي» وقد تجاوزت العشرين، وأرى أمهم الحكيمة والذكية والكريمة، وكأنها صبية لم تتجاوز الثلاثين... فأحس أن هذا العالم كله، على سعته، لا يسعني من الفرح، وإن كان لا يتسع لهمومي وشقائي وعذابي، بل ضاق بها !!

.. لقد صنت نفسي عن كل ما يذلها ويدنسها ويسبب الهوان لها، ولم ألق بالاً في حياتي كلها للمال والنَشَب، ولم أمد يدي إلى مال الأمة، ولم أستغل ولم أسرق ولم أنهب، ولم أفعل كما فعل ويفعل أولئك الذين ظنوا أن الغنى هو في المال الكثير يجمعونه بهذه الوسيلة أو تلك من الوسائل غير المشروعة ولا الشريفة، فتراهم وقد جمعوا ما جمعوا، قد خسروا أنفسهم وخسروا شرفهم وخسروا النوم الذي يفر منهم، فهم لا ينامون ولا يشعرون ساعة بالراحة والطمأنينة، ولو ظنوا أنهم في منجاة من الحساب والعقاب، لأن حساب وعقاب الضمير، ولو كان ميتاً كضمائرهم، لا بد أن يسبب وخزاً في أعماقهم، ويؤكد لهم أنهم أعداء لأمتهم وشعبهم... وللوطن الذي يعاني بسبب تصرفاتهم، أزمات لا يعرف كيف يخرج منها وكيف يتخلص من شرها وخطرها!!

.. وكان أحد أولادي، بعد أن علم بأنني ألقيت بلقمة الزقوم في وجه ذلك الذي أراد أن يمن بها علي، وأن يستعبدني بها، قد كتب إلي رسالة يقول فيها:

الوالد العزيز...

... أنت أمير وراء قلمك ورأيك وكلمتك، موفورة كرامتك، محترمة إرادتك.. هكذا كنت طول حياتك مع الصحافة والكلمة، وهكذا

ستبقى، وقد عرفك الناس، ذلك الصحفي والكاتب الحر الذي لا يرهبه كل ما في هذا العالم من ظلم، وتعودت أن تأكل لقمتك، نظيفة كريمة عزيزة، وعلمتنا أن نرفض، مثلك، اللقمة الذليلة... ولقد بقينا أمناء مثلك على طبقتنا المستورة الشريفة، ولم نخنها، كما فعل ويفعل بعض أشباه الرجال، ممن عرفت وعرف الناس، وسنظل مثلك شرفاء نلقي باللقمة الذليلة في وجه من يريد أن يمن بها علينا.

. وقال لي في رسالته: «وإذا كان مثلك يخاف من الجوع، إذا رفض لقمة الذل والهوان، بعد كل هذا العمر الذي عشته عزيزاً كريماً، فعلى الدنيا السلام !!»..

.. لا بد أن ابني، وهو يكتب إلي هذه الكلمات ليواسيني، كان صادقاً ومحباً... ولكنه ربما كان مخدوعاً بأبيه، الذي لا يستحق، ربما كل ما قاله عنه، لأنني أعرف منه بأبيه!!!

... أنا أعرف نفسي، وأعرف أنني عنيد، منذ كنت وليداً، وأعرف أن الحاجة واللقمة وكل هذه الدنيا وما فيها، لا تملأ عيني، ولا تستطيع أن تستعبدني أو تحولني عن رأيي الذي لا أرجع عنه، مادمت أراه حقاً، فالذين حملتهم أسباب العيش وتكاليف الحياة على أن يلبسوا ثياباً غير ثيابهم، وأن يبدلوا ألسنتهم بألسنة غيرها، ووجوههم بوجوه كالتي تظهر في (الكرنفالات)، لا أحسدهم ولا أحب أن اقترب منهم، لأنني أجد نفسي أكبر وأغنى منهم، وأقوى وأعز نفراً!!..

... وإذا كان أمثال ذلك الذي ألقيت بلقمة الزقوم في وجهه، يستطيعون أن يحملوا معهم إلى القبر، آخر العمر، درهماً أو قرشاً، أو شيئاً قليلاً أو كثيراً مما جمعوه، وإذا كانوا يستطيعون أن يحتفظوا بشيء مما حصلوا عليه من المال والنَشَب، فليقولوا لي حتى أفعل وأتصرف مثلهم، وسوف أكون عندئذ أسرع منهم إلى اهتبال الفرص واقتناصها!!..

* * * * *

٣٢

... و بعد:

أما آن لهذا الفارس أن يترجل.. ولهذا الشقي المتعب المعذب، أن يستـريح؟؟ وهـل كتب عليه أن يحمـل صليبه وعـذابـه معـه إلى قبره... بعد أن حملهما كل عمره؟؟

... ولكن ماذا عليه أن يفعـل ليستريـح؟؟ وكيف يتصرف ليتخلص من هذا الشقاء الذي لازمه طول عمره، ولم يفارقه لحظـة ولا ساعـة من نهار، أو قلْ من ليل طويل لا ينتهي ولا ينجلي؟

ألا أيـهـا الليـل الطـويـل ألا انجـلي
بصبـح... ومـا الأصبـاح منـك بأمثل...

... ولكن من هذه الصبية التي تطل علي من بعيد بعيد.. ثم تقبـل عـلي، وهي تمشي عـلى استحيـاء، وأسمعهـا تقـول لي، في شيء يشبـه الهمس والنجوى: (حسبك من حياتك كلها، أنك عرفت نفسـك، وعرفت طـريقك، ولم تخن أمـانتـك ولا وطنـك، ولا العقيـدة التي آمنت بهـا ودافعت عنها، ولم تساوم عليها قط!!. ولقد كنت أخـاف عليك، وعـلى هذا الإنسان الذي يسكن قلبك ووجـدانك، من السقـوط في التجربـة والامتحان، لشدة مـا لاقيت وعانيت وتعـذبت وشقيت، ولكنك قـاومت وصبـرت وانتصرت، وانتصرت القضية التي وهبت لهـا حياتـك، وهـا أنت قد أنجزت ما كنت تحلم به، وكتبت مـذكراتـك بدم قلبـك، وهي، كما أعرف، غاية ومنتهى آمـالك وأحـلامك في حيـاتك، وأرى أنـه قد استقام أمرها بعد أن رويت فيها قصة الإنسان والحياة، وقصة أمتك وشعبك ووطنك الذي يمثل بالنسبة إليك، روحك وحريتك وحياتك، بـل أكثر وأكبر!!

.. ولقد قلت في مذكراتك كل ما استطعت قوله، في أناة وروية تارة،

وحماس وحدّة تارة أخرى، وأنت معذور في الحالين، وقلت فيها، عن الناس والعالم والشعوب ما استطعت، وغنيت أمجاد الاشتراكية والتقدم والسلام، وفتحت قلبك للشمس والهواء وللحب والأصدقاء) !!

... وقالت لي الصبية، وهي ما تزال تتحدث إلي في حب وحنان وصدق: (أيها العزيز، إن النصر آخر الأمر للأمة والشعب والوطن، وللاشتراكية والتقدم والحرية والسلام،، فلا تيأس، لأن اليأس أشد مرارة من الموت، وإن المجد للإنسان!!)..

... ثم رأيتها، رأي العين التي لم تنزف دماً بعد، كما فعلت أختها...، وهي تقترب مني وتمسح بيدها على رأسي...، ثم رأيتها وهي تحملني بين يديها وتردني إلى المهد صبياً، فأعود طفلاً وليداً، كما كنت قبل هذه الرحلة الشاقة التي يسمونها الحياة، والتي اجتزت فيها الطريق إلى دمشق مرتين مرة قبل خمسة وأربعين عاماً.. ومرة بعدها!!!

.. ثم رأيت الصبية، وهي تهزني وتهز مهدي هزاً رفيقاً، وتشير إلي لأقترب منها، ولأقوم من المهد وأسير بجانبها !!

.. وسمعتها تقول لي في شيء كثير من الفرح: (ها أنت تعود طفلاً، ثم شاباً، وها أنت تسير الآن، كما تسير دائماً،رافع الرأس ثابت القدمين، لا تشكو وهناً ولا ضعفاً، وها أنت في تمام صحتك وقوتك، وهذه، أيها العزيز، هي السعادة وهي الثروة... ثم إنك أغنى إنسان مرّ بهذه الدنيا منذ بدء الخليقة وإلى آخر الدهر، لأن الغنى الحقيقي، هو الاستغناء عن الناس والاقتناع بما لديك، وعدم النظر إلى ما عند غيرك، وأنا أعرف هذه الصفات فيك، وأعرفها عنك، وأعرف معها أنك سعيد، بل أسعد الناس، لأنك شقيت كثيراً، وما تزال تشقى وتتعذب، دفاعاً عن قضايا الحرية والتقدم والاشتراكية، وهاهي صحيفتك وأوراقك وكتبك، وهذه مذكراتك، خير شاهد على ذلك... ولكن إياك أن تغتر بما قدمت، لأن الانسان الاشتراكي الحقيقي، لا يعرف الغرور،

وربمـا كنت أقل الاشتـراكيين الحقيقيـين بذلاً وعطـاءً وجهداً... وإن كنت أرى فيك الخير.. بعـد كل هـذا العمر، وبعـد كل هـذا العذاب، الذي تفتقده وتسأل عنه إذا غاب !!)

.. وقالت الصبية: (إن الـديمقراطيـة لا ترجـع القهقرى، في هـذا العصر، كما نظن، وأن الاشتراكية والحرية، لا تتعثران عـلى الطريق، كما قد يخيل إلينا، ولكنها أزمة عابرة يمر بها العالم، ولا بد لها أن تمر، لأن الانسـان، حتى آخر إنسـان، سيظل يـدافع عن الـديمقـراطيـة والحـرية والاشتـراكية، لأنـه يـدافـع عن وجـوده وحقـه في الحيـاة السعيدة والكريمة...، والشمس قد يحجبهـا الغيم عن بعض الأعين، بعض الوقت، ولكنها لا تلبث حتى تشرق على الدنيـا من جديـد، وكما أنه لا غنى للإنسان عن الشمس، كذلك فإنـه لا غنى له عن الحـرية والديمقراطية والاشتراكية!!!

... وقـالت الصبية: (أرى أن روحـك قـد ارتـدت إليـك، وأشرقت الدنيا في عينيك، حتى العين التي نزفت دماً، لأنها عين إنسـان ينزف قلبه دماً على أمته، فكيف لا تنزف عينه، وبين القلب والعين طـريق... لا يعرفها إلا من أحب، إلى درجة العبادة، الانسـان والخير، وأشـاح بوجهه إلى الأبد عن الجريمة والشر !!..).

.. وقالت: (إني لأرجو بعد كل ما عانيت... وبعـد خمسة وعشرين عاماً، استنفدت أكثر سنوات عمرك، بل أجملها وأحلاها، واستنفدت معها كل الحبر والورق الذي عندك، أن لا تذكر بعد اليوم، شعـر ذلك الشهم الذي تحدى الزمان، كما تحديته أنت، فقال:

إن كان عندك يا زمان بقية

مما يضام به الكرام فهاتها...

.. لأنني أخاف عليك من الـزمان، أن يستجيب لـرغبتك أكثـر مما استجاب حتى الآن !!.

.. وقالت لي الصبية وهي تودعني: (ها أنت قد عرفت الطـريق إلى

دمشق..... ومن عرف الطريق إليها، كما عرفته، وأحب دمشق وتعلق بها، كما أحببتها وتعلقت بها، فلن تخذله، ولن تتخلى عنه !!)...

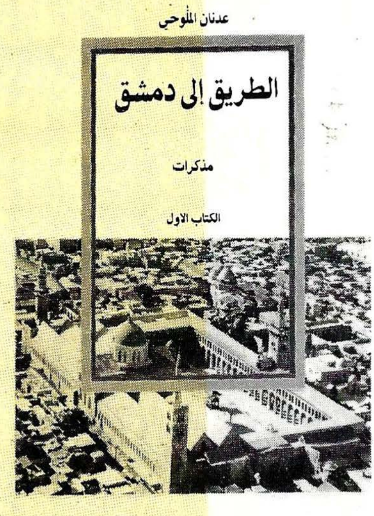
... ثم غابت الصبية عن ناظري، وهي تقول لي، في فرح عظيم:

«الآن قد ولدت من جديد... وولد الانسان الجديد معك!!!»..

* * * * *

بعض الكتب التي صدرت للمؤلف

صاحبة الجلالة الصحافة .... (١٩٥٦)
وتحطم خط بارليف .... (١٩٧٣)
فضيحة ووترغيت .... (١٩٧٤)
العراب (عرض وتقديم) . .. . (١٩٧٤)
الكتاب الأبيض في الرد على توفيق الحكيم .... (١٩٧٤)
توفيق الحكيم بين الوعي والغيبوبة .... (١٩٧٧)
مسيلمة السادات والمعاهدة .... (١٩٧٩)



الطريق إلى دمشق

.. مذكرات تحكي أحداث سورية منذ أكثر من أربعين عاماً ، في صدق خالص وأسلوب طريف ممتع يسعد به القارىء كثيراً ...

في هذا الجزء أو الكتاب الأول من مذكرات الكاتب والصحفي التقدمي عدنان الملوحي ، في طبعته الثانية المصححة والمنقحة ، أعدنا اسم الكتاب الى اسمه القديم وهو (الطريق الى دمشق) بعد أن استبدلناه في الطبعة الأولى باسم آخر لأسباب فنية ..

وعلى كل حال ، فالجزء الأول من هذه المذكرات التي بين أيديكم تحكي قصة كاتب وصحفي سوري في شيء كثير من الطرافة والصور الضاحكة التي تخفي بين ثناياها كثيراً من المرارة والأسى والحزن ، وهي مذكرات سياسية واجتماعية أيضاً ..

نرجو أن يرضى عنها القارىء وأن يجد فيها المتعة والفائدة معاً ..!!

«الناشر»